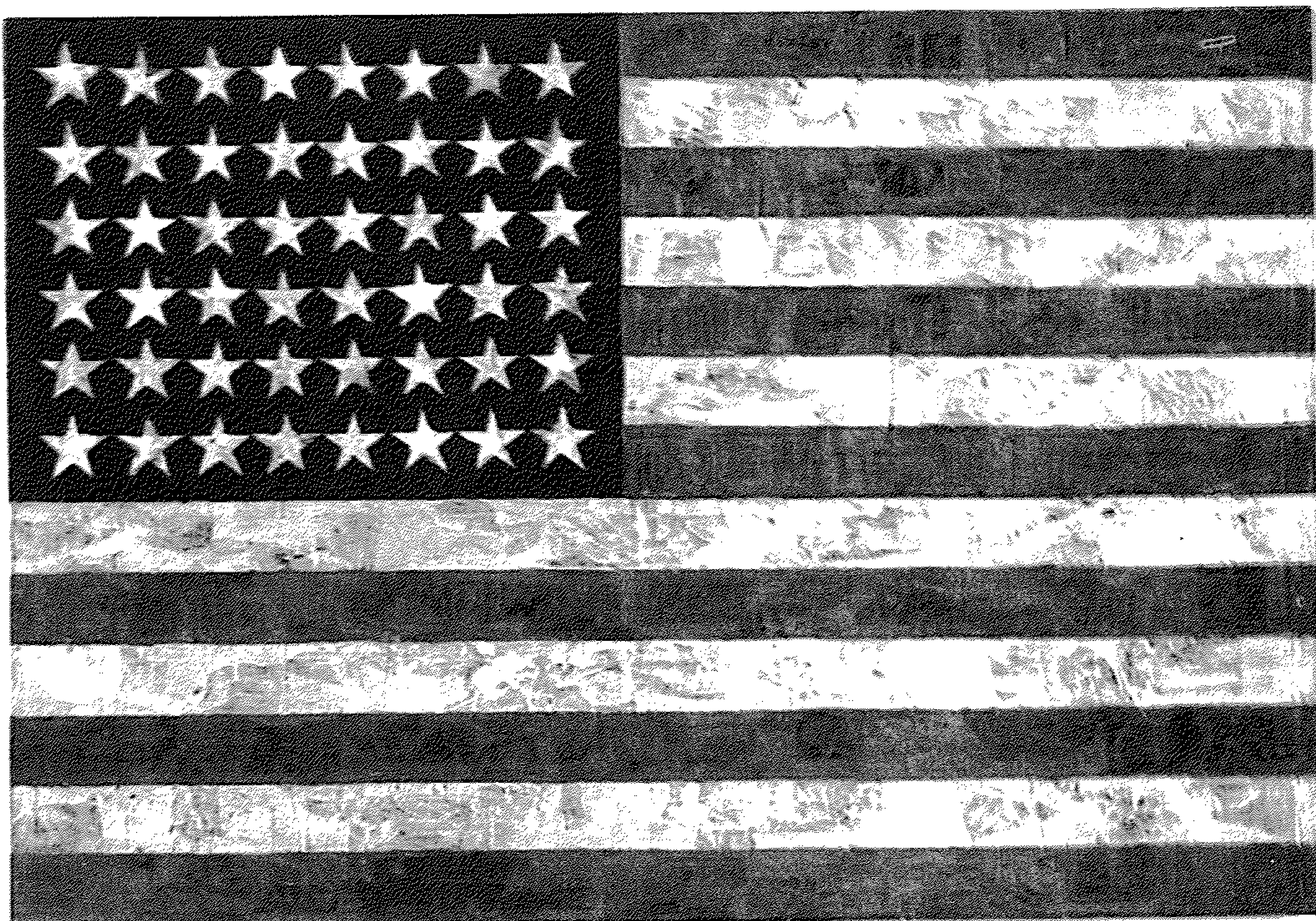
القيـم الأمريكيـة



المثل العليا التى شكلت أمريكا من

عصر البيوريتان حتى الحرب الباردة

تأليف

نيل بالدوين

ترجمة

الدكتور أحمد أمين الجمل

القيم الأمريكية

كتب أخرى من نيل بالدوين

كلاسيكيات جائزة الكتاب القومى:

مقالات تحتفى بتراثنا الأدبى

هنرى فورد واليهود:

الإنتاج الضخم للبغضاء

أساطير الثعبان المجنح:

تاريخ حياة إله مكسيكى

إديسون: اختراع القرن

مان راى: فنان أمريكى

بكل لطف:

وليم كارلوس وليمز، الطبيب الشاعر

كتيب كتابة الشعر

حياة الكتابة (محرر مشارك)

القيـم الأمريكيـة

المثل العليا التى شكلت أمريكا من
عصر البيوريتان حتى الحرب الباردة

تأليف

نيل بالدوين

ترجمة

الدكتور أحمد أمين الجمل



الناشــر

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

١٠٨١ شــارع كورنيش النيــل جاردن سيتى ـ القاهــرة

ISBN 0-312-32543-6

حقــوق النشــر

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية
١٠٨١ شارع كورنيش النيل ــ جاردن سيتى ــ القاهرة
ت ٢٧٩٤٥٠٧٩ فاكس ٢٧٩٤٠٢٩٥

إلى روبرتا

يقول الناس عنى أحيانا أننى مثالى. حسناً، إن هذه هى الطريقة التى أعرف بها أننى أمريكى. إن أمريكا، أيها المواطنون هى الشعب المثالى الوحيد فى العالم ــ وأنا لا أقول ذلك للحط من قدر أى شعب عظيم آخر.

– وودرو ويلسون، ٨ سبتمبر، ١٩١٩

هل يضيرنى أن أتحدث عن ديمقراطية لا تبلغ حد الكمال؟ بالقطع لا. قدموا لى ديمقراطيـــة أفضل. هل أفترض أنه توجد مجتمعات بدون خطيئة؟ لا، إننى لا أفترض ذلك. هل أظـــن أن مجموعة العلاقات البشرية لدينا هى أكثر مدعاة للأمل فى العالم؟ نعم، أظن ذلك.

– دانييل باتريك موينيهان، ١٩٧٥

إن أمريكا لا ترتبط معاً بالعواطف. إنها ترتبط بأشياء تفوق العواطف، بالمبادئ والقوانيـــن، بالمثل العليا للحرية والعدالة التى تحتاج للإفصاح عنها دائماً.

– افتتاحية، "أمريكا الصابرة"،

نيويورك تايمز، ١١ سبتمبر، ٢٠٠٢

المحــتويات

مقدمة

إن المثل العليا لا يمكن أن تتواجد بدون أشخاص مثاليين. وكتاب التجليات الأمريكية (القيم الأمريكية) يقدم التقدير والثناء للأشخاص الذين أقاموا عشرة مثل عليا أساسية في تاريخنا ويلقى الضوء على الأزمنة التى شهدت التعبير عنها لأول مرة. وفى هذا القرن الحادى والعشرين، وأثناء كتابتى لهذه الكلمات، كثيراً ما يبدو نبض الأمة وكأنه ينبعث من دقات قلبين منفصلين. ونحن فى حاجة للعودة إلى معتقدات تثير الانتباه مما يتيح بؤرة موحدة لأفكارنا وحياتنا فى حوار ذهنى مستنير مع الماضى. إن المثل العليا العشرة التى يناقشها كتاب *القيم الأمريكية* هى الميراث الحقيقى لكل الأمريكيين.

لقد كان أول ما ألهمنى أن أعد هذا الكتاب وصول النسخة الجديدة من مجلة *الإيكونومست* إلى باب منزلى فى يوم من أوائل سبتمبر عام ٢٠٠٢. وقد لفت نظرى مقال له طابع خاص بعنوان "عام مضى". فقد حاول "تقرير خاص" عن الصراعات الضخمة التى تواجه أمريكا بعد اثنى عشر شهراً من زلزال ١١ سبتمبر، أن يقتنص الفكرة الوطنية القوية "عن أمريكا كمكان منفرد ... من تحذير جورج واشنطن للجمهورية الوليدة من 'التورط فى تحالفات'، إلى دعوة رونالد ريجان لإخوته المواطنين لبناء 'مدينة ساطعة مثالية فوق الجبل'".

لقد كان الرئيس ريجان مُولعاً فعلاً بتلك الصورة الشائعة، التى استخدمها فى خطاب الوداع الذى وجهه للأمة فى ١١ يناير من عام ١٩٨٩. ولكنه لم يكن صاحب هذا المفهوم. لقد كان جون وينثروب (John Winthrop)، الزعيم البيوريتانى الإنجليزى وحاكم مستعمرة ماساشوسيتس باى، هو الذى استشهد بعبارة "مدينة فوق الجبل" فى ربيع عام ١٦٣٠ فى موعظة ألقاها على زملائه فى السفر على السفينة *أربيلا* وهى تستعد للإقلاع من يارموث فى فجر "الهجرة العظيمة" إلى العالم الجديد. وفى تخيله للأرض عبر البحار، أخذ الحاكم

وينثروب الإلهام من كلمات المسيح فى الموعظة فوق الجبل فى الكتاب الخامس من الإنجيل طبقاً لرواية القديس متى: "أنت نور العالم. إن مدينة مشيدة فوق الجبل لا يمكن إخفاؤها".

لقد كان الرئيس ريجان، شأنه شأن وينثروب من قبل، ينظر إلى أمريكا قبل كل شئ كمثال أخلاقى. "لقد تحدثت عن هذه المدينة الساطعة طوال حياتى السياسية"، كما قال من المكتب البيضاوى فى كلمة الوداع التى أذيعت فى التليفزيون بعد الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم. "لقد رأيتها فى خاطرى كمدينة شاهقة وفخورة بنيت على حجارة أقوى من المحيطات، تزفها الرياح، ويباركها الله، وتعج بالناس من جميع الأنواع الذين يعيشون فى تناغم وسلام؛ مدينة ذات موانئ حرة تضج بالتجارة والابتكار". وقد ألهبت كلمات ريجان النبيلة خيالى. ما الذى أثار رؤيا جون وينثروب عن مجتمع مثالى فى أرض ميعاد جديدة؟ وكيف تسنى له أن يضع مثل هذه الصورة الرومانسية لبلدنا كمثال للعالم، كنقطة انطلاق للتيقظ، ومنفتحة اختيارياً، وعُرضة للحكم عليها ــ ومحاكاتها ــ عن بعد؟

إن استعارة جون وينثروب المفعمة بالحيوية هى البداية الطبيعية للكتاب الذى تطالعه. لقد كان محامياً، وعالماً، ورجل دين مخلصاً لأسرته وكنيسته. لقد اختاره زملاؤه فى مجلس إدارة شركة ماساشوسيتس باى كزعيم لهم ليرعاهم عبر المحيط ويقيم وطناً جديداً فى البرية. وقد استخدم وينثروب معرفته بالكتاب المقدس ليثير الإلهام بدلاً من التهديد والخوف. وتحمل مسئوليته فى وضع نموذج لمجتمع رائد مبتدئ بعيداً عن إنجلترا. وكان وينثروب يتصور تلك الأرض المجهولة كمكان واعد يمكن فيه تحقيق الأهداف الدنيوية عن طريق العمل الصالح. لقد دخلت موعظته النموذجية "مثال للإحسان المسيحى" فى خطابنا الوطنى منذ ٣٧٥ عاماً.

وبعد قرن من الزمان، حضر رجل إنجليزى آخر، هو توماس بين (Thomas Paine) من نورفولك، إلى أمريكا بهدف محدد للبدء من جديد. وقد كان بين من بداية حياته العملية كمحصل ضرائب فى لويز (Lewes) مدافعاً صلباً عن حقوق العمال. وبمجرد أن وطئت قدماه هذه الأرض، أحس بالرغبة الكامنة فى تقرير مصيره فى شخصية المستعمرات الأمريكية كمثال "لقضية جميع البشر". وقد كتب بين ونشر *منطق العقل* فى يناير من عام ١٧٧٦ فى فيلادلفيا، بتشجيع من بنجامين فرانكلين، وكان هذا الكتيب أكبر النشرات نفوذاً ودعوة سياسية فى زمانه، وربما فى جميع الأزمنة. لقد كان أنشودة لأمريكا كجمهورية وجدت لتعيش للأجيال القادمة. وتعتبر بلاغة بين الملهبة للشعور علامة على التقاليد الأمريكية لحرية الصحافة.

وبالمثل، كان مصدر المثل الأعلى الوارد فى الفصل الثالث E Pluribus Unum ـــ والذى يشكل شعارنا القومى، "واحد مُكّون من أجزاء متعددة" ـــ أحد المهاجرين عن طريق جنيــف وجزر الهند الغربية. وكان اسمه بيير يوجين دى سيميتيير (Pierre Eugène Du Simitière)، وعاش فى فيلادلفيا أثناء الحرب الثورية. وكان من بين مواهبه تصميم الشعارات والنقــوش. وقد طُلب من دى سيميتيير خلال صيف ١٧٧٦ الحاسم أن يعمل كمستشار للجنة تصميم الختم العظيم للكونجرس القارى الثانى. وقد عمل عن كثب مع بنجامين فرانكليــن، وجــون آدمــز (John Adams)، وتوماس جيفرسون(Thomas Jefferson) لوضع شــــعار النبالــة والعبــارة الرمزية للولايات الثلاث عشرة الأمريكية. وبعد محاولة مختلف العبارات والرسومات، اختار دى سيميتيير ثلاث كلمات أصبحت تعبر عن شخصية الأمة متعددة الأوجه.

ثم تحولت بعد ذلك إلى رالف والدو إيمرسون (Ralph Waldo Emerson)، الذى نشأ فـــى بوسطن وتعلم فى هارفارد، وهو أكثر الممارسين بلاغة وتعبيراً عن الفردانية الأمريكية فـــى القرن التاسع عشر. ورغم أنه تدرب ليكون من رجال الدين إلا أنه فى شبابه تخلى عن تقاليد وقيود الكنيسة، مفضلاً أن يعيش كمحاضر متجول، يدعو إلى رسالة الإنجيل عن النفس التــى لا تنضب. كانت جرأة إيمرسون قد جعلته مختلفاً "إذ تعمق فى حياة الأشياء". وكان يعتقد أنــه من الضرورى العمل ضد الميل الفطرى لتحسين المجتمع ككل. وأيدت فلســـفة إيمرســون النظرة العميقة الصادقة كأساس للكمال فى العالم الواسع. وفى عام ١٨٤١، بينما كان يعيــش مع عائلته فى الملاذ الهادئ لغابات كونكورد، نشر مقاله "الاعتماد على الذات"، وهو أنشــودة للروح الأمريكية الفريدة.

وبعد أربع سنوات، دخلت كلمتان تعبران عن التقدم الراسخ للأمة فى المفردات الوطنية. لقد كان جون لويس أوسوليفان (John Louis O'Sullivan) البالغ من العمر اثنتين وثلاثين عاماً محامياً، وديمقراطياً يعتنق مبادئ الرئيس جاكسون، ومحرراً *فى نيويورك مورننـــج نيــوز ويونيتد ستاتس مجازين وديمكراتيك ريفيو*. وكانت مقالاته الافتتاحية اليومية الملتهبة تضيــف قوة دفع لحمى التوسع التى تجتاح أمريكا "لجعل البرية تزدهر كأنها وردة" فى توسعها غربـــاً من البحر إلى البحر المشرق. وكتب قائلاً "إن تحقيق قدرنا المكتوب هو أن ننتشر فـــى كـــل أرجاء القارة التى وهبها القدر للتجربة العظمى للحرية". وكان القدر المكتوب بالنسبة لجون أوسوليفان يرمى إلى هدف أسمى.

ويتعلق الفصل السادس بلاعب مساند أهمله التاريخ الأمريكي. يتعلق بـــهنرى جـــورج

(Henry George)، الذى كانت الأرض بالنسبة له ملكية مقدسة، ولكن بطريقة مختلفة كأساس لحركة "ضريبة وحيدة" على مستوى العالم، التى ألهمها نشر كتابه *التقدم والفقر*، فى ١٨٧٩. وقد هجر المدرسة فى فيلادلفيا فى سن الثالثة عشرة، وأمضى أغلب حياته فى العمل فى جمع الحروف والطباعة فى سان فرانسيسكو. وحتى بعد أن أصدر صحيفة خاصة به وبدأ فى الحياة العملية كاتباً تعلم ذاتياً، لم يغفل قط عن معاناة "العمال البروليتاريين" الذين تحملوا العبء الاقتصادى الثقيل لأمة آخذة فى التصنيع. وقد اقترح فى كتابه *التقدم والفقر* مراجعة لتحقيق المساواة فى الهيكل الضريبى غير العادل للأمة كطريق وحيد لعلاج الفجوة المؤسفة بين "الرفاهية المتوحشة والحاجة المذلّة".

وقبل أن تبدأ الحركة النسائية بوقت طويل، كانت "امرأة عصرية" رائعة تعيش فى حركة دائمة فى محاولة لتخطى القيود المفروضة على جنسها. فقد كانت جين آدمز (Jane Addams) من ريف سيدارفيل فى إلينوى، تعتقد أن "الأنوثة الحقيقية تستطيع أن تغير العالم". ولما كانت ملتزمة بواجب خدمة هؤلاء الأقل حظاً، فقد أنشأت آدمز "هال هاوس"، أول مستوطنة اجتماعية كبرى فى أمريكا. وقد اختارت لها مكاناً فى أفقر حى للأقليات من المهاجرين فى شيكاجو، وكانت هال هاوس تجمع بين كونها مدرسة ومركز رعاية نهارية ومجتمعية، ومبنى للألعاب الرياضية، ومطبخ للفقراء، ومكتبة. وكانت آدمز هى الشخصية الجذابة الرئيسية فى هذا المكان. وفى مقال كتبته فى عام ١٩٠٢، بعنوان "الإصلاح السياسى" التمست من كل صاحب فكر أمريكى أن يحسن العمل بفعل الخير: "إن مجال الأخلاق" كما قالت "هو مجال العمل".

لقد كان أبطال رواية *بوتقة الانصهار* ثلاثة أجيال من عائلة يهودية مهاجرة تعيش فى شقة مبنية بالحجر فى مجاورة متهالكة فى ستاتن أيلاند بالقرب من تمثال *الحرية الذى يضئ العالم*، وهى دراما كتبها إسرائيل زانجويل (Israel Zangwill) . وكان مؤلف المسرحية، وهو ابن تاجر ملابس قديمة افتقر كان يعيش فى شرق لندن، قد انبهر بأمريكا على أنها "بوتقة الله لجميع أجناس أوروبا ... حتى تتحد وتبنى جمهورية الإنسان ومملكة الله". وكان حفل الافتتاح فى ٥ أكتوبر ١٩٠٨، فى واشنطن العاصمة. وقد انفعل الرئيس تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) عند نزول الستار الأخير لدرجة أنه صاح بالمؤلف عبر المسرح المزدحم، "إن هذه مسرحية عظيمة يا سيد زانجويل!" لقد جعلت *بوتقة الانصهار* أمريكا مثلاً أعلى للفرص المتساوية.

كان كارتر جودوين وودسون (Carter Godwin Woodson)، هـو أول مـن درس فـى هارفارد من أبناء العبيد السابقين، وقد انتقل إلى الشمال عن طريق مناجم الفحم فـى ويست فيرجينيا. وبينما كان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه والتى حصل عليـها فـى عـام ١٩١٢، أخبره أستاذه إدوارد تشاننج أن "الزنوج ليس لهم تاريخ". وقد ألهمته هذه الملاحظـة التى تنطوى على تفرقة أن يصحح هذا المفهوم الخاطئ على مدى حياة قضاهـا فـى إلقـاء المحاضرات، والتدريس، والبحث المضنى فى الوثائق. وقد نشر عشرات الكتب ألفها بنفسـه وباحثون آخرون من الزنوج وجمع "ترسانة حقائق" عن الأعمال البطولية لجنسه. وقد استخدم مدخراته الشخصية لإنشاء اتحاد لدراسة حياة وتاريخ الزنوج. وخلال نهضة هارلم فى عـام ١٩٢٦، ابتكر احتفال فبراير بأسبوع تاريخ الزنوج، والذى أصبح الآن شهر تاريخ السـود. وكان تصميم كارتر وودسون العنيد على شرعية تراث السود قـد مـهد الطريـق لجميـع الأمريكيين المحرومين من حق التصويت.

ويدور الفصل العاشر والأخير من *القيم الأمريكية* حول المنظور العالمى الذى بدأ عندما سرنا على أثر جون وينثروب متجهين غرباً فى رحلة تجديد مأمول للشواطئ الأجنبية. ففـى عام ١٩٤٨ مدت خطة مارشال يد أمريكا بالمساعدة للقضية العاجلة لإنعـاش أوروبـا بعـد الحرب المدمرة، وفصول الشتاء القاسية، وندرة المحاصيل. لقد قام الجنرال السابق جـورج مارشال (George Marshall)، والذى كان يشغل منصب وزيـر خارجيـة الرئيـس هـارى ترومان، عن طريق الكونجرس بأكبر تحويل تطوعى للموارد الاقتصادية فـى التـاريخ ـ مليارات الدولارات كقروض تنمية ومنح مباشرة، إلى جانب مواد خـام، وغـذاء، ووقـود، وآلات. وفى ١٠ ديسمبر ١٩٥٣، أصبح مارشال، فى احتفالات أوسلو، أول رجل عسـكرى محترف يحصل على جائزة نوبل للسلام، ويقبلها "نيابة عن الشعب الأمريكى" وأخبر العـالم بيقينه أن أمريكا بلد عطوف، على وعى بثرواتها الهائلة، وتعتز "بعقيدة وصلـت إلينـا مـن أعماق التاريخ".

إن كتاب *القيم الأمريكية* يلقى الضوء على الطبيعة الإنسانية لبلدنا. وعندما نقرأ كلمـات هؤلاء الأبطال العشرة، قد نتساءل عما إذا كان التاريخ قد نال من مثاليتهم. ولكن اعتقادى أنه بغياب أحد المبادئ عن نظرنا فإن ذلك لا يعنى أنه لم يعد موجودا. إن "البطولة" ليست فكرة مجردة أحادية الأبعاد، كما أن تعريف الشخصية القومية لا يأتى فقط من أعلى إلـى أسـفل. ويقتضى الأمر غرس معناها المشروع فى كل مواطن على حدة ـ وكل قارئ على حدة.



جون وينثروب

١

مدينة فوق الجبل

إن المشكلة الأساسية للبيوريتانية كما أثرت فى جون وينثروب ونيو إنجلند تحظى باهتمام رجال المبادئ فى جميع العصور، ليس أقلها عصرنا الحالى.

لقد كانت تتعلق بسؤال عن مسئولية الرجل الفاضل تجاه المجتمع.

— إدموند س. مورجان (Edmund S. Morgan)، *معضلة البيوريتانية: قصة جون وينثروب* (تمهيد للطبعة الأولى، ١٩٥٨)

أشرق فجر يوم الله، الأحد، ٦ يونيه ١٦٣٠، على البحر برياح قاسية، وأمطار، وضباب وبرودة، على بعد ستة فراسخ غرب الطرف الجنوبى لكيب سابل، نوفا سكوشيا. وارتفع الضباب فى فترة مبكرة من بعد الظهيرة. ولمح الكابتن بيتر ميلبورن (Peter Milborne) الأرض — لأول مرة على مدى شهرين طويلين منذ أبحرت السفينة *أربيلا* التى تزن ٣٥٠ طناً من يارموث على جزيرة وايت، وصدت المد بريح طيبة، واجتازت النيدلز داخلة فى القنال الإنجليزى، ثم تجاوزت بليموث وكورنوال لتدخل المحيط الأطلنطى متلاطم الأمواج.

لقد كان الحاكم المبجل جون وينثروب، حاكم مستعمرة ماساشوسيتس باى المنتخب جالساً إلى مكتبه، كما اعتاد أن يفعل روتينياً على مدى عقدين من الزمان منذ بلوغه سن المراهقة، فى القمرة الصغيرة التى كان يتقاسمها مع ابنيه، ستيفن (Stephen) وآدم (Adam)، وأثبت، بخط "يصعب قراءته"، ملاحظاته — فيما كان يعتبره "تاريخاً" أو "حوليات" وليس صحائف. لقد كان الوقت مناسباً لإلقاء المراسى على عمق ثلاثين قامة ومحاولة صيد أسماك القد، حيث

أن البحر كان "هادئاً إلى حد ما" وكانت صناديق تموين الأسماك المجففة المملحة قد استنزفت من قبل عديد من المسافرين على ظهر السفينة. وخلال ساعتين، وباستخدام "عدد قليل من صنارات الصيد"، تحقق النصر وتم استخراج أكثر من ستين من أسماك القد "الضخمة" من الماء، "وكان بعضها طوله ياردة ونصف ومحيطه ياردة"[1].

وبعد يومين من استمرار الإبحار جنوباً وغرباً في أجواء دافئة، أبصر وينثروب جزيرة ماونت ديزرت. وكتب قائلاً "لدينا الآن طقس مشمس وسماء صافية ينعشنا، وجاءتنا رائحة من الشاطئ تشبه رائحة الحدائق". واستمرت *أربيلا*، والريح تدفعها من خلفها، عبر كامدن هيلز وبينوبسكوت باى. وهبطت حمامة برية على ظهر السفينة. وعندما لاح للناظرين ماونت أجامنتيكوس، بالقرب من يورك، في مين، تمكن وينثروب من رؤية أشجار على طول شاطئ الأراضي المنخفضة، وإذ ألهم هذا المنظر وينثروب، فقد أعد رسماً تخطيطياً للشاطئ[2].

وكانت أسماك الماكريل وفيرة بالقرب من كيب آن، مبشرة بسلامة الوصول. وفي الساعة الرابعة من صباح السبت، أطلقت *أربيلا* طلقتين من المدافع تحية، وعبرت بين جزيرة ليتل ميزرى وجزيرة بيكر، وألقت المراسى في ميناء سالم ويعنى "السلام" بالعبرية، ويسميه الهنود ناومكيج.

وصعد جون إندكوت (John Endecott)، القائد المؤقت لمستوطنة المقدمة في ماساشوسيتس باى، إلى ظهر السفينة للتحية. وكان ربع شعبه قد مات خلال الشتاء القارس الذى انقضى. وقد رحب إندكوت، الذى كان قد غادر بيته في ديفون قبل عامين، بانتقال السلطة الموعود إلى خليفته، الحاكم وينثروب. وتم تقديم عجينة لحم الغزال، وبيرة، وثمار فراولة طازجة. وهبط ركاب *أربيلا* المتعبون من نساء وأطفال وبعض الرضع الذين ولدوا أثناء الرحلة، إلى الشاطئ، وانضم إليهم على مدى الأيام التالية بعض مواطنيهم من السفن *جويل، وتالبوت، وأمبروز*، التى كانت قد شوهدت لآخر مرة وهى تبتعد بالقرب من جورج بانك، جنوب خليج مين.

وكان وينثروب يعلم أنه يتعين عليه قبل حلول الخريف، أن يعثر على — أو يقيم عملياً — مجتمعاً آخر إلى جانب سالم، لاستيعاب طائفته المتزايدة. وقد انتقلوا خلال الصيف إلى أعالى نهر ميستك لبناء كنيسة في قرية جديدة أطلق عليها فيما بعد اسم تشارلزتاون. وبحلول نهاية أول سنة من الهجرة العظمى إلى أمريكا، كانت سبع عشرة سفينة قد نقلت إلى تلك الشواطئ أكثر من ألف من البروتستانت الإنجليز الذين أطلق عليهم اسم البيوريتان (المتطهرون) لأنهم

كانوا مصممين على إصلاح و"تطهير" كنيسة إنجلترا مع استمرارهم جزءاً منها — على الأرض الخاصة بهم وطبقاً لإرادة أعضائهم. وقد نقلت شركة ماساشوسيتس للتجارة التي يرأسها وينثروب مقرها الرئيسي إلى مصب نهر تشارلز حيث أنشئت مدينة بوسطن. وفي نهاية العقد الأول من عمرها، كانت مستعمرة ماساشوسيتس تضم خمس عشرة ألف نسمة على مسيرة "يومين" أو "إبحار يوم واحد" من بعضهم البعض[3].

يعتبر الرائد البيوريتاني جون وينثروب "الرجل النموذجي غير العادي" في تاريخ عالم الأطلنطي، "وأول مواطن في نيو إنجلند في أول عهدها". وكان جده آدم، وهو "تاجر ملابس ثري" يقدم رأس المال لشراء الصوف من مربي الخراف في ستاور فالي. وفي عام ١٥٤٤ امتلك آدم وينثروب (الكبير)، الذي تم انتخابه رئيساً لصانعي الملابس، قصر جروتون الذي أقيم على أكثر من خمسمائة فدان من تلال ومروج سوفولك و"أفاقها الهادئة" على بعد ثمانين ميلاً من لندن في قلب إيست أنجليا. وقد ولد جون وينثروب، الابن الوحيد لآدم وينثروب (الابن) المحامي المزارع، وزوجته آن براون (Ann Browne) في إدواردستون في سوفولك في ٢٢ يناير، ١٥٨٨، قبل هزيمة الأرمادا الأسبانية أمام الأسطول البريطاني بسبعة أشهر[4].

وقد استمتع جون وشقيقاته — آن أكبر الأخوة، وجين ولوسي الأصغر من جون — في فترة الطفولة بمباهج الحياة في الريف. وتكونت لدى الغلام نزعة روحية محبة للقراءة. لقد أصابته "حمى" العقيدة الكالفينية بالإيمان بالله على أنها القوة المحركة لكل البشرية. ولما كان جون قد نشأ في بيئة مؤمنة، فإنه يتذكر بسخرية متواضعة أنه "منذ بلغت حوالي العاشرة من عمري كان لدي بعض الأفكار العامة عن الله... وكان تذكرها بعد سنوات عديدة يجعلني أظن أن الله كان يحبني، ولكنها لم تجعلني أفضل بأي مقياس"[5].

وعندما بلغ الرابعة عشرة التحق جون بكلية ترينيتي، أكبر كليات كمبردج، حيث كان يبدأ كل يوم بالصلوات الإجبارية في الخامسة صباحاً. وقد تركها فجأة في عام ١٦٠٥ ليتزوج من فتاة تكبره بأربع سنوات، واسمها ماري فورث (Mary Forth) من جريت ستامبردج في إسكس. وعند ولادة أول طفل لهما، جون الابن، في فبراير من العام التالي، بدأ وينثروب، الذي أصبح أباً قبل أن يبلغ العشرين من عمره، في كتابة "مذكرات روحية" خاصة بعنوان "الخبرة". وقد كتبها جزئياً برموز، وقد فقدت الآن، ولكن المخطوط الأصلي تعرض لاستهزاء

متقفى القرن التاسع عشر على أنه "غير سليم... عليه بقع وممزق فى أماكن كثـيرة، وغـير مفهوم فى أماكن أخرى... والواضح أنه كُتب كى يقرأه هو وحده"[6].

وكانت يوميات وينثروب قائمة متراكمة وقاسية من "خطاياه العديدة ... ومحاسبة" ضـده هو شخصياً. وكان الهدف من القسوة فى البحث عن الذات هو تقديم المؤلف كمثال روحـى لأبنائه وأحفاده. فالتطور الدينى التدريجى للبيوريتانى، تعتبر الرحلة الطويلة إلى الفهم عمـلاً يستمر طول الحياة وذاتياً بصورة مكثفة. وقد راقب وينثروب خطاياه الدنيويـة عـن كثـب. وكانت تتراوح ما بين الإسراف فى السهر والإفراط فى الأكل وتجاهل التمرينات الرياضيـة، ومن استخدام التبغ إلى إهمال زوجته بالتجول لساعات طويلة فى الحقول لصيد طيور التدرج. وكان يمكنه التغلب على هذه العيوب إذا ما استطاع الوصول إلى الحالة التى يصفها صديقـه جون كوتون (John Cotton) من ديربى ــ وهو واعظ بيوريتانى قابله وينـثروب فـى كليـة إيمانويل عندما كان كلاهما طالبين فى كمبردج ــ بأنها "الحكمة الأساسية"[7].

وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره، فى عام ١٦١٠، اشترى وينـثروب ممتلكـات عائلته فى جروتون من عمه. وقد تبع خطى والده فى مهنة القانون، وعقد جلسات محاكمة فى القصر كقاضى للسلام فى سوفولك، لتسوية المنازعات بين المزارعين. وقد استمر فى تعلـم وقراءة القانون فى نزل جراى، وهو واحد من أربعة نزل للمحاكم فى وسط لندن، حيث درس السوابق من الكتاب المقدس لأحكام القضاة. وبالإضافة إلى "عادة القيـادة" المركـزة، كـان وينثروب يعلم أنه من المعتاد للقاضى القويم أن يضيف إحساساً بالروحانية لمنصبه. فقد سـبق أن حذره صديقه الحكيم جون كوتون ذات مرة من أن "الحماس بدون معرفة لا يعدو أن يكون ناراً فى الهشيم"[8].

وكان جون وينثروب يعتقد أن الاشتغال بالسياسة رسالة لا تقل عن ارتقاء منبر الوعـظ فى المسيحية. وكانت تطلعاته كجندى فى المحكمة أن يحمى "الجمهور الضعيف"، وكجنـدى من جنود الله أن "ينشر الكتاب المقدس". لقد كانت جذور هذا الاعتقـاد فـى كلمـة القـانون و"الكلمة" المقدسة المنزلة ممتدة فى التقاليد البيوريتانية الإنجليزية. لقد كان البيوريتان، الذيـن أطلق عليهم هذا الاسم لأول مرة فى الستينيات من القرن السادس عشر، مـن البروتسـتانت الذين يعتقدون أن كنيسة إنجلترا المنشأة حديثاً يجب أن تتطهر من كـل القيـود الكهنوتيـة، والاحتفاليات، والطقوس الملوثة الباقية من "دخان أتون البابوية"، الكنيسـة الكاثوليكيـة فـى روما[9].

وكان البروتستانت الأوائل يعرفون أيضاً باسم المتزمتين (Precisians). وكان المتزمتون، كإرهاصة للحركة الأصولية التى ولدت فى أمريكا فى الأعوام التى أدت إلى الحرب العالمية الأولى، يعتقدون أنهم حماة نص الكتاب المقدس الذى يعتبر نبعاً لكل الحقائق، وأن معرفة رسالته الحرفية هى الحق الطبيعى لكل ذوى الإرادة الحرة. وأن الكتب المقدسة هى الطريق المباشر لاتصال الله بالبشر. ولذلك فإنها يجب ألا تخضع لوساطة وتفسير الكهنة الملغز، وكان البيوريتان الأوائل يكرهون ويدينون الأساقفة بسبب سلطتهم التعسفية التى لا مبرر لها[10].

وكان البيوريتانى فى زمان جون وينثروب يعيش سلسلة من المثل العليا الأخلاقية. فيجب عليه قبل كل شئ أن يقرأ فى الكتاب المقدس يوميا ويعتمد عليه كدليل وحيد يحتاج إليه فى طريقه نحو الخلاص. وكان عليه أن يستمع فى هدوء "لصوت الله الجليل المهيب". ويجب عليه أن يأمل هو وأسرته فى أن يتم اختيارهم كأعضاء فى مجتمع متماسك تجمعه "وحدة الروح التى ستقويهم وتبعث فيهم الراحة، وتنمو وتزيد يومياً فى الإيمان الحقيقى". وكانت هذه الاختيارات ستؤدى فى النهاية إلى تمحيص الذات، لرجال ونساء منضبطين ذوى شخصيات طيبة ــ عن طريق العمل الشاق والانتباه الدائم للحمل المقدس للارادة الحرة ــ إلى الاستضاءة بالضوء المخلص لنعمة الله. وبعد ذلك يستطيع أن يقابل خالقه وجهاً لوجه فى "جمال صهيون الكامل"[11].

وبحلول عام ١٦١٨ كان وينثروب قد فقد زوجته الأولى مارى، التى أنجبت له ثلاثة أبناء أحياء وابنة؛ وفقد أيضاً زوجته الثانية تومازين كلوبتون (Tomasine Clopton) من جروتون، التى ماتت أثناء الولادة بعد عام واحد من زواجهما. ثم تزوج مرجريت تيندال (Margaret Tyndal)، ابنة قاض فى مدينة جريت مايلستيد القريبة. وسوف تصبح مرجريت "زوجته الأثيرة" ورفيقة روحه المخلصة، والمحبة لزوجها "بقلب صادق" على مدى ثلاثين عاماً. وبحلول عام ١٦٢٧ كان لديهما أربعة أبناء. واستقر وينثروب مرة أخرى كسيد مقيم لقصر جروتون، ويعقد "تمارين" الصلاة اليومية الصباحية، والمسائية، وليوم السبت مع زوجته ومجموعة أطفاله، ويحدد مهام عمال المزرعة، ويساعد فى لجنة الأعمال الخاصة بالمجارى، ويستمع إلى التماسات ضحايا الجرائم الصغرى والمنازعات فى القرية[12].

وفى عام ١٦٢٧ فكرت الأسرة فى إنشاء منزل إضافى فى لندن عندما تم ترشيح

وينثروب للمنصب الرفيع كمحام فى محكمة الوصاية وسمح له بالممارسة فى جمعية محاماة رفيعة الشأن، فى إينر تمبل، ما بين فليت ستريت ونهر التيمس. وقد عمل هناك على مدى العامين التاليين واحتفظ بمذكرات مكونة من عبارات سمعها فى مواعظ جديرة بالاهتمام.

وفى ١٠ مارس، ١٦٢٩، حل الملك تشارلز الأول البرلمان. وقد ألغى هذا الإجراء الاستبدادى قدرة الشعب على اللجوء إلى إجراء تشريعى لدفع الظلم الذى يقع عليهم، وحرم وينثروب من العمل كمحام. وأصبح حليف تشارلز الملكى، وليم لاود (William Laud)، أسقف لندن ورئيس جامعة أكسفورد ومناهض البيوريتانية الذى لا يطيق رجال الكنيسة غير التقليديين المنشقين عن الكنيسة الإنجليزية، يتمتع بنفوذ أكبر كرئيس لأساقفة كانتربرى. وكانت رغبة لاود فى تقوية طقوس الكنيسة الراسخة، والحكومة، والقانون تحظى بتشجيع الملك.

وقد أسر جون لزوجته فى أسى وحزن فى واحد من خطاباته العديدة التى أرسلها إليها أثناء إقامته فى المدينة للقيام بمهام منصبه فى فترات جلسات المحاكم بينما بقيت هى فى جروتون قائلاً: "... لقد ضاعت وظيفتى ومكتبى [فى لندن]... لذلك فإننى أرجو أن أستمتع بصحبتك مرة أخرى. وأعتقد أن الله سيصيب هذا البلد بمحنة قاسية وأرجو أن يحدث ذلك بسرعة"[13].

وفى أوائل صيف عام ١٦٢٩، غادر وينثروب المحكمة كما غادر لندن وذهب إلى الريف الهادئ. وقد بدأ وينثروب، خلال يوليه وأغسطس، بقلب مفعم بالضيق، مع الالتزام البيوريتانى بكتابة ونشر كل أنواع المقالات والنشرات، فى جمع وتصنيف أفكاره الأولى و"أحزانه" عن "مسار مقترح" لمغادرة إنجلترا. وقد قدم المسودة إلى شركائه المساهمين فى شركة ماساشوسيتس باى لإبداء الملاحظات والتعليق عندما اجتمعوا فى بارى سانت إدموندز بالقرب من مقر وينثروب فى سوفولك، وكذلك فى تاترشال فى لنكولن شاير فى ضيعة زميله إيزاك جونسون (Isaac Johnson) مالك الأراضى الثرى وزوجته السيدة أربيلا فيينز (Arbella Fiennes). وكان هدف وينثروب من تشجيع المناقشات هو الخروج بصيغة متفق عليها "للخروج" من إنجلترا. وفى أحد الأوقات أطلق وينثروب على هذا الاقتراح "حجج واعتبارات عامة لمزرعة نيو إنجلند". وفى وقت آخر، وبصورة أكثر شخصية، اسماه "اعتبارات معينة فى قضية ج.و." "لماذا يجب على أى منا أن يذهب؟" ممتزجة بقوله "لماذا يجب علىّ أن أذهب؟" لقد أراد وينثروب أن يفهم الشركاء المتحكمون فى الشركة أن مرونة التفويض فى

وثيقة إنشاء "حقوق ومزايا" مشروع أعمالهم التجارية المساهم تجعل ولايتها القضائية سارية في أرض العالم الجديد كما هي في أي مكان في إنجلترا[14].

وفي بداية الاقتراح أبرز وينثروب موقفه من الطيف الأيديولوجي للخلاف الديني. إنه ليس أصولياً. ولكن البيوريتان الآخرين هم الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ــ وكان يطلق عليهم اسم المنشقين، وحالياً يطلق عليهم اسم حجاج *ماي فلاور* ــ والذين فروا أولاً إلى ليدن، بهولندا، ثم توجهوا من دلفتس ــ هافن عبر "بحر من المتاعب المتوقعة" نحو فيرجينيا في عام ١٦٢٠. وقد وصل أول ١٥٠ حاجاً بمصادفة في الإبحار إلى كيب كود، تحت قيادة وليم برويستر (William Brewster) كرئيس بحكم السن، ثم استقروا في مزرعة بليموث، حيث وجدوا "الراحة، والرخاء، والوفرة في الحياة".

وقد أوضح جون وينثروب منذ البداية في الالتماس التفصيلي الذي أعده للانسحاب من إنجلترا أنه لا يعتبر نفسه ولا أعضاء الشركة في نفس وضع أتباع برويستر، ولا مثل المشيخيين الاسكتلنديين، المتعصبين الخونة الذين لا تقبل "عقولهم الشريرة" فكرة البقاء داخل كنيسة وطنية. وقد تغالى المنشقون في دعواهم أن كنائس إنجلترا ليست أماكن مشروعة للعبادة، وهو ما ردّ عليه وينثروب بهدوء أن "فساد الشئ لا يلغيه"[15].

ولذلك فإن جون وينثروب كان على وعي، كبيوريتاني حساس، بالانحياز الاجتماعي ضد استمرار مراعاة هذا النوع من البروتستانتية. وكان مزيد من الوعاظ البيوريتان يتم إيقافهم من قبل رجال الدين الأنجليكان، عندما تخطت المحاكم الكنسية المركزية في وستمنستر سلطة الإبرشيات المحلية التي كانت دائما نماذج للممارسة البيوريتانية الصحيحة.

وقد رأى وينثروب في هذه الاتجاهات علامات على أنه لكي تبقى الكنيسة البروتستانتية التي يحبها قوية، فمن الضروري "إقامة حصن للدفاع" ضد تحرشات الملك تشارلز والأسقف لاود، واتخاذ مخاطرة درامية، تغير نمط الحياة، ــ وتحمل المجازفة بالبحث عن ملجأ وتجديد في مكان آخر من العالم. وتزايد حماس وينثروب بتخيل المكافآت الجديدة لإنشاء أبرشيات جديدة في كنيسة نائية "قد تستطيع في أطوارها الأولى... وبمساعدة في الوقت المناسب أن تنمو وتزدهر".

"لقد ضاقت هذه البلاد بأهلها"، هكذا كتب وينثروب في تناقض وانقباض عن بلاده المحبوبة الخضراء إنجلترا. وكان يشعر بالضيق، وهو السيد الذي عاش طول حياته في ريف ستاور فالي (Stour Valley) كما كان أجداده من سادة أهل الريف، من استنزاف الموارد

الطبيعية بسبب ازدحام السكان، وزيادة المبانى، والمضاربات المالية. إن هذه الظروف الاقتصادية هى الأصل فى "الإسراف" و "وتجاوزات المزارعين". ومن المؤسف أنه لم يعد من المجدى "محاولة العثور على أماكن للسكنى هنا" فى حين أن "الأرض كلها هى جنة الله وقد منحها لبنى الإنسان ليحرثوها ويصلحوا حالها." وكتب وينثروب أن "الامكانيات هنا قد تناقصت، ولن أستطيع أن أستمر فى هذا المكان وهذا العمل... فالعديد من مواطنينا يهلكون لافتقارهم لوسائل المعيشة"[16].

وقد كتب دين تيندال (Deane Tyndal)، زوج شقيقة وينثروب، إليه للتعبير عن "الأسف عندما أفكر فى رحلتك". وتساءل تيندال أليس "من الخطأ فى حق كنيستنا وبلدنا أن يتركها الناس الصالحون؟" ورد وينثروب أنه عندما نعتنق مفهوم عمومية الكنيسة الحقيقية، يتلاشى هذا الاعتراض. إن هناك حاجة إلى أن تكون الكنيسة الصحيحة فى كل مكان. وأى مثال جيد للكنيسة فى مكان ما سيدعم بطبيعته جميع الكنائس الأخرى.

ماذا عن احتمال أن تكون أسباب قلق وينثروب على مستقبل بلده الأصلى مبالغاً فيها؟ ورغم أنه على مدى سنوات طويلة كان "يخشى الدينونة"، فإنه بالطبع لم يكن يستطيع أن يعرف أن الحرب الأهلية سوف تعصف بإنجلترا بعد اثنى عشر عاماً. هل من العقل ــ أو مجرد العناد ــ مغادرة "أرضه المثمرة" وهو يعلم الاحتمالات الكثيرة بأن العديد من العائلات ربما "تهلك فى الطريق" أو تقابل أخطاراً غير متوقعة عندما تصل إلى الشواطئ القاتلة إن وصلت؟ وكان رد وينثروب على هذه التساؤلات هو أن المهاجرين المخلصين سوف "يثقوا برعاية الله" وأن تكون الدعوة للكتاب المقدس "لجميع الشعوب"[17].

وقد وافق باقى أعضاء المجلس الأحد عشر، ووقعوا تعهدا فى كمبردج بالانتقال مع عائلاتهم فى الربيع القادم إلى ماساشوسيتس، حيث يمكن نقل وإعادة إنشاء أصول شركتهم هناك. وكانت أغلبية أصحاب الأنصبة فى شركة ماساشوسيتس باى يعتقدون أن جون وينثروب البالغ من العمر واحد وأربعين عاماً يمتلك صفات القيادة وأنه "يتقى الله بما يكفى" لتولى القيادة. وفى ٢٠ أكتوبر، ١٦٢٩، انتخبه زملاؤه من ملاك الأراضى كحاكم وعهدوا إليه من ذلك اليوم بمهمة "الإشراف على المهام الشاقة لرحلة سفرهم"[18].

لقد كان مديراً يباشر الأعمال بنفسه خلال نصف العام التالى، ويعطى التصريح بشراء سفينة القيادة، *ايجل*، مقابل ٧٥٠ جنيهاً ويأمر بتوفير الإمدادات للرحلة، التى تتراوح ما بين

البذور لزراعتها وحيوانات المزرعة الأليفة، بما فيها الديوك الرومى والأرانب؛ إلى الأسلحة والآلات الموسيقية؛ والبيرة والنبيذ، والشموع والصابون؛ ولحم البقر والخنازير. كما أشرف وينثروب أيضاً على تجنيد رجال الدين أثناء الرحلة، وكتب عشرات الخطابات يحث فيها الأقارب والجيران للانضمام إلى المجموعة الرئيسية من أعضاء شركة ماساشوسيتس باى وعائلاتهم. وكان سكان مقاطعات إسكس وسوفولك يشكلون ثلث الموجة الأولى من المسافرين، والذين تزايدوا بالآلاف فى الموجات التالية للهجرة العظمى[19].

وكان على وينثروب أن يتفاوض بشأن اتفاقات مالية معقدة مع الشركاء الحذرين فى الشركة الذين قرروا، فى العام الأول على الأقل، عدم القيام بالرحلة. وكان عليه أن يتولى عملية بيع بيته وأراضيه، وهى عملية طويلة منعت مرجريت من مصاحبته فى الرحلة. وقد اتفق الزوجان، لتخفيف ألم الفراق لمدة عامين، أن يفكر كل منهما فى الآخر فيما بين الساعة الخامسة والسادسة من كل يوم اثنين وجمعة، وذلك خلال الأسابيع الكثيرة التى اضطر وينثروب فيها أن يبقى فى لندن، وخلال رحلته إلى ماساشوسيتس وبعد وصوله إليها، "لنتقابل أمام الله فى حوار روحى... لتنعش قلبى"، كما كتب وينثروب فى أحد خطاباته المنتشية، "كى أفكر أننى سوف أرى مرة أخرى... هذا الكيان الجميل الذى طالما استمتعت به"[20].

لقد تولى جون كوتون، صديق وينثروب، منصب القس فى كنيسة سانت بوتولف فى بوسطن، فى لنكولن شاير، وذلك منذ عام ١٦١٢، بعد استكمال تدريبه الكهنوتى فى كلية إيمانويل فى كمبردج. ولم يكن كوتون قد قام بأول رحلة إلى ماساشوسيتس. ولكنه استدعى، خلال عامين، ليمثل أمام المحكمة العليا فى لندن بسبب تصريحاته المتكررة بانتقاد الكنيسة الأنجليكانية. وقد فرّ كوتون إلى ماساشوسيتس واستقر فى مستعمرة باى، وأصبح شخصاً رائداً فى المجموعة و "معلماً" محبوباً فى الكنيسة الأولى فى بوسطن.

ففى منتصف مارس ١٦٣٠ اصطحب كوتون مجموعة من رجال الكنيسة إلى ساوثهامبتون، ميناء الرحيل. وفى يوم الأحد الحادى والعشرين قام بأداء الصلاة العامة فى كنيسة هولى رود. وكانت سفينة وينثروب ــ التى تغير اسمها من *ايجل* إلى *أربيلا* تكريماً لزوجة إيزاك جونسون ــ راسية فى الميناء تنتظر الرياح المواتية. وكانت هناك حاجة إلى نعمة إلهية فى ذلك اليوم قبل الانطلاق إلى القنال الإنجليزى لتهدئة مخاوف المهاجرين إلى أمريكا الشمالية، وكان الكثيرون منهم قد كتبوا وصاياهم استعداداً لمحنة مخيفة وعواصف تختبر إيمانهم كمسيحيين فى بحر من الخطايا. وقال كوتون "إن سلامة البحارة والركاب

لا تعتمد على حبال وأسلاك، ولكن على لسم الله ويده"، كما هو مكتوب فى المزمور ١٠٧: "النازلون إلى البحر فى السفن العاملون عملاً فى المياه الكثيرة هم رأوا أعمال الرب ومعجزاته فى العمق"[21].

وخلال هذه الموعظة، حث جون كوتون المجموعة على أن "تتقدم للأمام، وأن يتقدم كل رجل بروح عامة"، وكان كوتون يدعم العديد من المثل العليا التى اقترحها وينثروب فى مقاله "حجج واعتبارات". والتى كانت تسمى أصلاً "وعد الله لمزارعه"، وقد نشرت موعظة كوتون فى لندن بعد إلقائها بوقت قصير تحت عنوان أكثر إيضاحاً، *الحق المقدس لتعمير الأرض*. وقد اختار كوتون النص الأول لدرس ذلك اليوم من صموئيل الثانى ٧:١٠: "وعينت مكانا لشعبى إسرائيل، وغرسته فسكن فى مكانه، ولا يضطرب بعد؛ ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما فى الأول".

ولاشك أن اختيار كوتون كان مقصوداً ليضرب على وتر شخصى مع جون وينثروب، الذى تم تعيينه لمغادرة مزرعته الريفية وإرشاد تابعيه إلى نيو إنجلند، حتى كما فى صموئيل الثانى أن الرب أخذ داود "من المريض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبى إسرائيل.. وأقمت فيه قضاه على شعبى إسرائيل". وبدأ جون وينثروب حاكم المنطقة أيضاً فى بناء كنيسة جديدة، "بيت لاسم الله... مبارك للأبد" فى ماساشوسيتس. لقد وجد الله "مكاناً خالياً لأبناء آدم ونوح ليعيشوا فيه"، والآن كما قال كوتون، فإنه يحث أبناء ألبيون (إنجلترا) أن يفعلوا نفس الشئ: "لقد وضعك فى رحبوت، فى مكان آمن"[22].

وعند مساء نفس يوم السبت، رفعت سفينة القيادة *أربيلا* مراسيها، وتركت مصب مياه ساوثهامبتون، وعبرت سولنت إلى جزيرة وايت، ثم توقفت عند كاوز (Cowes). وفى نهاية شهر مارس، انطلقت سفينة وينثروب والسفن الثلاث المصاحبة لها مرة أخرى، بمحاولة الاتجاه غرباً إلى يارموث قبل أن تضطرها الرياح العاصفة أن تلقى المراسى مرة أخرى. وفى ٧ أبريل وقّع وينثروب وستة من زملائه خطاب الرحيل. وكانت لهجة الخطاب التى تتسم بالاحترام تمثل بياناً نهائياً ينأى بالبيوريتان عن العقائد المغالية للانشقاق، وترجو من الملك وكنيسته ألا يحتقروا المهاجرين، بل يدعوا للبيوريتان غير المنشقين المقدمين على "مشروعهم الجاد... نحن لا نستطيع أن نغادر بلدنا الأصلى بدون حزن يملأ القلب ودموع فى أعيننا"[23]، كما قال كاتب غير معروف، يظن أنه الكاهن جورج فيليب، وهو أحد الموقعين.

وكان جون وينثروب خلال العشرة أيام السابقة يكتب موعظة للتعبير علناً عن مشاعره الخاصة بالرحلة الخطرة والهامة التى تنتظرهم. وقد ألقى موعظة بعنوان "مثال للإحسان المسيحى" تتفق مع الممارسات الشائعة فى ذلك الوقت، على طاقم البحارة والركاب أثناء العشاء الربانى المقدس، قبل أن تغادر *أربيلا* ميناء يارموث. ولم يصل إلينا المخطوط الأصلى. ولكن نسخة بخط كاتب عمومى على عشرين ورقة من أوراق أمستردام ذات العلامة المائية محفوظة فى مجموعة المخطوطات فى جمعية نيويورك التاريخية[24].

وكان القسم الأول من الخطبة مكوناً من أربعة أسطر فقط، تعرض "النموذج" الوارد فى العنوان. وقد استخدم وينثروب كلمة "نموذج" بمعنى مثال أو خطة للعمل من المقصود تقليده. لقد كانت حياته هو "نموذجاً" أيضا للسعى نحو السلوك الصحيح. وكان وينثروب يعتنق نظرة للتسلسل الهرمى لتركيبة المجتمع تتفق مع المبدأ البيوريتانى المقبول، وهو الإيمان بأن الإنسان فى المجتمع لا يبدأ تلقائياً بالحقوق: "فالبعض يجب أن يكونوا أغنياء، والبعض فقراء، والبعض بارزون فى القوة والكرامة، والبعض وضيع وخاضع". وكانت جميع طبقات الناس ـــ نبلاء وخدم، والطبقة الوسطى، والزوجات والأطفال ـــ ممثلة فى قائمة الركاب على *أربيلا*[25].

وكانت الاختلافات فى الثروة والقوة تشجع على الاعتماد المتبادل بين طبقات المجتمع المثالى. وكان هذا الاعتماد المتبادل إيجابياً، ويمثل قوة تماسك ("الأسمنت") تربط طبقات البشرية معاً. وفى رأى وينثروب كان "مجرد الديمقراطية بين أغلب الشعوب المدنية" يعنى الفوضى. وكان يجادل أنه "لا يوجد ما يبرر ذلك فى الكتاب المقدس، كما لا توجد حكومة مثل ذلك فى مملكة إسرائيل". وكانت "ظروف البشر" غير المتساوية قضاء من الله انطلاقاً من حبه للخير. وكانت خطة الله فى التنوع تتطلب وجود الأخيار والأشرار، المخلصين والملعونين.

وكان وينثروب وهو يقف أمام الجمع المحتشد على ظهر السفينة *أربيلا*، والذين التزموا بالذهاب معه برغم الأخطار المتوقعة، يكشف عن وعى حقيقى بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه. كان يعرف أن السلطة لا تكسب صاحبها الرفعة تلقائياً. فالسياسة فى خدمة الدين. وكان شرط مسئولية الحاكم أمام الله تجعله أكثر تواضعاً نحو الشعب الذى يخدمه. وكانت أعماله تنبع من الرغبة المجردة فى الاعتقاد "بالحب (المثالى) الذى يتدفق من البعث فى المسيح". إن تشجيع الآخرين على الحياة بهذا النوع من المحبة والحرية الحقيقية توحّد الكيان السياسى بنفس الطريقة التى تشد بها الأربطة العظام والأوتار فى جسم الإنسان ـــ وبنفس

الطريقة التى "يشكل بها المسيح والكنيسة كياناً واحداً"[26].

وكان هذا التوافق الاجتماعي الممتد هو ما يعنيه الحاكم من "الإحسان المسيحى" وما كان يرجوه لماساشوسيتس. وكان يأمل أن تحقق المزارع هذا المثال وتصبح مجتمعا. إنها لن تصبح جنة ولكنها ستكون أرضا طبيعية تنشأ فيها حياة جديدة. وقال إن توقع قيام كومنولث جديد، يلهمه بأن يكتب "ويتيح له فرصة لكتابة... الخطاب الحالى"[27].

وكانت البقية الطويلة التى تتبع "النموذج" فى المقال بعنوان "الأسباب"، وبدأت كتأملات ممتدة غنية بالاقتباسات من الكتاب المقدس عن التداخل بين قانون الطبيعة وقانون العفو الإلهى. وكان من رأى وينثروب، أن القانون الأخلاقى الذى وضعه الإنسان يتعايش بالضرورة مع القانون الوارد فى الكتاب المقدس من أجل إقامة "نوع من الحكومة المدنية والدينية فى نفس الوقت". وقد ساق الحجج فى موعظته بأسلوب المحاماه بنفس الطريقة البليغة التى بنى عليها أسباب مغادرته إنجلترا بإثارة أسئلة ثم الإجابة عليها. كيف يستطيع رجل أن يهب حياته كلها للمجتمع مع الاستمرار فى إعالة أسرته فى نفس الوقت؟ كيف يستطيع رجل أن يعيش كلية فى مطالب الحاضر مع استمرار الحذر من الأوقات الشريرة المتوقعة؟ وكانت الإجابة على تلك المآزق تكمن فيما أسماه وينثروب "ممارسة الرحمة".

ومنذ سقوط آدم وما استتبعه من الانفصال عن خالقه، "انشقاقه" كما قال وينثروب، لم يتوقف الإنسان عن تعريف نفسه بمحاولة إعادة إنشاء ذلك الرباط المقدس الأصلى، "الأسباب بين الله وبيننا". وكان البيوريتان المقدمون على رحلتهم جزءاً من نفس التقليد. وقال وينثروب "أياً كان ما فعلناه أو ما كان يجب علينا عمله عندما كنا نعيش فى إنجلترا، يجب أن نفعل نفس الشىء وأكثر منه أيضاً حيث نحن ذاهبون". إن الأعمال المتبادلة والتراحم بين "الأخوة" بصرف النظر عن بعدهم عن بعضهم البعض فى بلدان وقرى مختلفة، ستقيم وتقوى "الميثاق" الاجتماعى، كما جاء فى غلاطية ٦-٢: "إحملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمموا ناموس المسيح"[28].

يستطيع سبعة أشخاص منتخبين أو أكثر، فى الممارسة الأبرشية أن يجتمعوا معا ويقيموا كنيسة خاصة بهم. وقد عرّف وينثروب الميثاق فى موعظته على أنه أكثر من "اتحاد مقدس" يحكم أعضاء كنيسة وأكثر من علاقة تنظم الحياة اليومية المشتركة بين سكان المجاورة

أو البلدة. ولذلك فإنه من المسلم به، كما قال، أن المجتمع "يجب أن يفرح لفرح بعضه البعض، وأن يحزن معاً، وأن يعمل ويعانى معاً". والتحدى الإضافى فى ميثاق الحياة معاً هو أن يراعى الله، عن طريق جميع الاتفاقات الضمنية التى يقيمها الفرد مع الله فى الصلاة أو أداء الشعائر. والإنسان فى النهاية خطّاء، وقد حدد الله تركيبة حياته الأخلاقية سعياً وراء الكمال"[29].

وبعد أن أنهى وينثروب البناء الدرامى لفقرته الأخيرة، تحول إلى الكتاب المقدس للختام. وكانت موعظة الجبل فى إنجيل متّى، وهو أول إنجيل يُقرأ وأكثر الأناجيل شيوعاً فى العهد الجديد، تقدم الأساس الكامل لسرد وينثروب لمكونات المجتمع المثالى. الرحمة، ونقاء القلب، واحترام الحزانى، والهدوء ــ وهذه الخصائص البشرية هى نفس مطالب المسيح من أولئك الذين يدخلون ملكوت السماء.

ويقدم متى ٥: ١٤-١٦ إلهاماً معروفاً لدى المستمعين لوينثروب: "أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل. ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضئ لجميع الذين فى البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات".

وقد سار وينثروب على هذا المنوال. "... سيتحدث الناس عن المزارع الناجحة: لقد جعلها الله مثل تلك التى فى نيو إنجلند. لأننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا مدينة فوق الجبل، وعيون جميع الناس تنظر إلينا". هذا هو "النموذج" والمنطق الرئيسى للموعظة كلها. كان الناس فى مستعمرة ماساشوسيتس باى استثنائيين. لقد تم اختيارهم لتنفيذ إرادة الله على الأرض فى مثال تاريخى إنسانى بحيث ــ إذا ثبت نجاحه ــ سيشعل النيران الخامدة للإصلاح من قداسة أرض آمنة ومنعزلة، "لمساعدة أوروبا فى الخلاص من المسيح الدجال... [وتصبح] نقطة انطلاق للبروتستانتية العالمية"[30].

ما الذى يحدث إذا فشلت قلعتهم الطائفية فى هذه "الفرصة المقدسة"؟ وماذا لو انطفأ "مصباح الضوء المخلّص"، منارة الإيمان الذى يحمله بيوريتان ماساشوسيتس بكل فخار ليراه العالم؟ ستكون النتائج كارثية، وقاسية، ودائمة: قال وينثروب محذراً، "إذا تعاملنا بالخداع مع الله فى هذا العمل الذى نقوم به، فسوف نصبح أحاديث لا قيمة لها فى العالم ... وسوف نتسبب فى تحويل صلوات خدم الله المخلصين إلى لعنات تصيبنا"[31].

لم يشأ وينثروب، وهو الخطيب الماهر، أن يترك مستمعيه عند تعليقه السلبى. ولذا انتقل بهدوء إلى العهد القديم لتقديم درس الختام، واقتبس من التثنية ٣٠–٣١، خطبة موسى الشهيرة "تيشوفاه"، قانونه أو "شروط التجديد والنعمة"، وهى آخر نصيحة قدمها لأتباعه قبل أن يعبروا نهر الأردن إلى كنعان. "ويأتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها؛ ويحسن إليك... ويكثرك أكثر من آبائك... فيزيدك الرب إلهك خيراً فى كل عمل يدك، من ثمرة بطنك، وثمرة بهائمك، وثمرة أرضك: لأن الرب يرجع ليفرح لك بالخير كما فرح لآبائك".

وقد عبر شعب الله المختار النهر ليدخل أرض الميعاد المليئة باللبن والعسل. أما الشعب المختار فى آخر الزمان فى ماساشوسيتس فقد كان على وشك عبور المحيط للعثور على إسرائيل الجديدة بين ميريماك وتشارلز. وقد قال وينثروب إن البيوريتان شأنهم شأن الإسرائيليين القدامى "عليهم اليوم أن يحبوا الله ربهم، وأن يحب بعضهم بعضاً، وأن يسيروا على طريقه ويحفظوا وصاياه وأوامره وقوانينه، ومواد الاتفاق بيننا وبينه".

لقد كان هناك فرق واحد كبير بين خروج موسى كما جاء فى الكتاب المقدس، وبين جون وينثروب فى *أربيلا*. ففى الإصحاح ٣١ من التثنية، كانت خطبة موسى خطبة وداع. فإن الله لم يسمح لكبير بنى إسرائيل بعبور نهر الأردن. وقد استدعى موسى يشوع ابن نان، ومنحه بركته وكلمات تشجيع، آمراً شيوخ بنى إسرائيل أن يحملوا تابوت عهد الرب. ثم ظهر الله فى عمود من السحاب وتنبأ لموسى أن شعب إسرائيل فى النهاية سوف "يقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين... ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه".

وقد وضع وينثروب نبوءة الله الغاضبة الرهيبة لشعب إسرائيل كنظرية فى عبارات الختام فى موعظته، وأكد على أنه: "إذا انصرفت قلوبنا بحيث لا نطيع... ولكن تتم غوايتنا فنعبد آلهة أخرى... فسوف نهلك لا محالة فى الأرض الطيبة التى نعبر هذا البحر الخضم لنمتلكها".

ثم استدعى للنهاية المحلقة الإصحاح ٣٠ من التثنية، الآيات ١٩ و ٢٠، وألقى نصيحة عاطفية تبعث الأمل فى الإنجليز المسافرين أمامه ـــ وللأمريكيين غير المعروفين من بعده:

لذلك دعونا نختار الحياة،

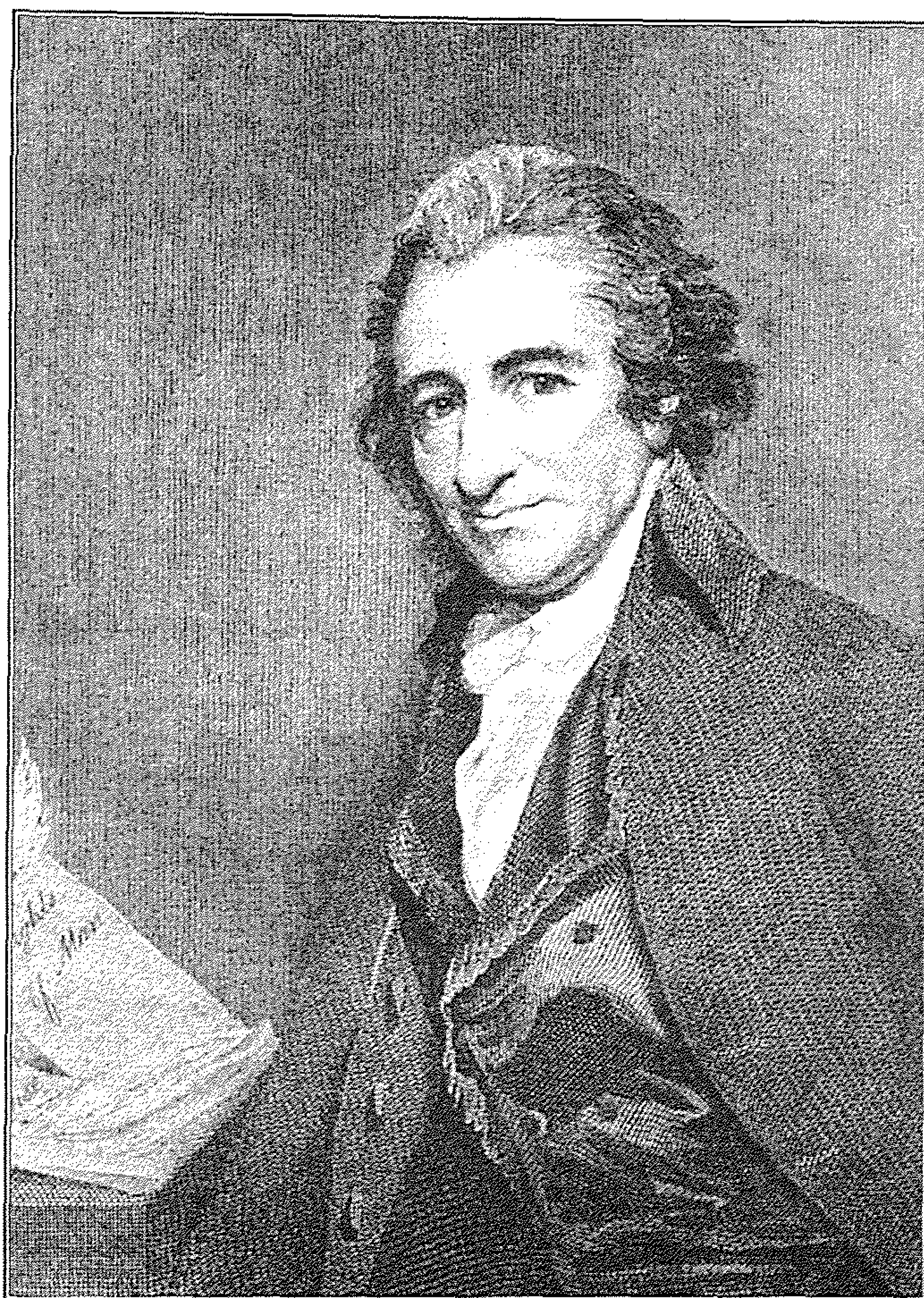
بحيث نحيا نحن وذريتنا، بإطاعة كلمته،

والإخلاص له، لأنه حياتنا

ورخاؤنا.

وفى الساعة السادسة من صباح الثلاثاء، ٨ أبريل، ١٦٣٠، هبت الريح شرقاً وشمالاً "مع عاصفة نشيطة"، وانقشعت السحب المتراكمة وانسابت *أربيلا* فى القنال الإنجليزى على مرأى من القمم الطباشيرية البيضاء للنيدلز. لقد بدأت رحلتها أخيراً".[32]

لقد تحدث جون وينثروب بروح مسرفة فى الأمل فى يوم ملئ بالدلالات الدينية. وقد استخدم الأمثلة والمراجع المعروفة التى كان يعرف أن المستمعين سيفهمونها بسهولة، فى تعطشهم للتشجيع وهم على وشك الانتقال من عالم معروف إلى عالم غير معروف. ونحن فى وضعنا فى أمريكا القرن الحادى والعشرين، يجب أن نتذكر وجهة نظر جون وينثروب عن القيم الصحيحة للمواطن المثالى. إن وينثروب يعلمنا أن درجة إحساسنا بالالتزام الطبيعى بأن "نعطى" للتخفيف عن مجتمعنا تعتمد على اعتقادنا بأننا حظينا بتحسن محسوس نتيجة لتمتعنا بميزة الحياة فى هذا المجتمع. ونحن لسنا بحاجة لأن نكون خبراء مفسرين للكتاب المقدس حتى نفهم ونقبل الأساس الأخلاقى لتلك الصفقة. لقد طلب وينثروب من السبعمائة الذين اتبعوه إلى نيو إنجلند أن يأخذوا من إيمانهم الراسخ ما يعينهم على الانطلاق للأمام. ولم يتورع عن تصوير العالم الجديد على أنه مكان يحصل فيه كل فرد على الجائزة فى حالة التحمل الجماعى لعبء المخاطرة فقط. وتعلمنا موعظة وينثروب أن المدينة على الجبل، التى تخيلها بلغة تفيض بالإلهام وترسُخ بأسمى قصد، لا تنطوى على ضمان ضمنى للبقاء. إن مثابرة ساكنيها هى التى تحدد ما إذا كانت المدينة ستبقى أم ستسقط، تركد أو تسود. وسوف يكون من مسئولية كل جيل بعد جيل أن يبعث الحياة فى المدينة على الجبل.



توماس بين

٢

منطق العقل

لقد حان الوقت لأن نتبين بأن ما يسمى للتأسيس ليس هو مصدر إنجازاتنا السياسية والدستورية. إننا ندين بنجاحنا لمنطق العقل لدى الشعب الأمريكى على مدى تاريخنا كله، وسوف يعتمد استمرار نجاحنا على منطق العقل هذا وليس على اللحظة الخلاقة للتأسيس.

ـــ جوردون س. وود، *نيويورك ريفيو أوف بوكس*، ١٣ فبراير، ٢٠٠٣

عندما يتم تقديم توماس بين لشخص ما، لا يسأله "كيف حالك؟" ولكنه يسأله بنبرة هادئة وبلكنة أهل نورفولك الريفية "ما هى الأخبار؟" وإذا لم يكن لديك أى أخبار، فإنه يقدم ما لديه بكل سرور، بعد أن يرفع قبعته وينحنى بلطف، ممسكاً يدك فى يده الرشيقة المتناسقة. وكان يلفت انتباهك بنظرة فاحصة: عينان لامعتان عميقتان زرقاوان، وحاجبان مرفوعان، وشبه ابتسامة مربكة. كان طوله خمسة أقدام وتسع بوصات؛ ووجهه ممتلئ، حليق الذقن ومستطيل؛ مع طلعة نبيلة؛ وبشرة متوردة؛ وأنف معقوف بارز؛ وفم صلب مكتنز، وشعر بنى داكن مشدود للوراء على هيئة ذيل الحصان.

وكان يمسك بزمام الحديث دائماً، مستبعداً الأسئلة غير المرتبطة بالموضوع. وكان توقيته فى الهزل لا يشوبه خطأ، كأنه ممثل يلقى عبارات تدرب عليها جيداً. وكانت لغته صريحة ومباشرة، خالية من التظاهر، سريعة الخاطر، وممتلئة بالحكايات ـــ مفرداته بسيطة، لا يستخدم كلمتين عندما تكفى كلمة واحدة. وكان يبدأ كل يوم بقراءة جميع الصحف المحلية والمجلات الإنجليزية المستوردة التى يستطيع الحصول عليها، ولا يصيبه أى ارتباك عند تناول موضوعه الأثير، وهو النميمة السياسية.

وكان يحب أن يخرج إلى الهواء الطلق. وكان السير لفترة طويلة عبر الطرقات

الصاخبة المحفوفة بالأشجار فى وسط مدينة فيلادلفيا، بعد أن يكون قد تناول إفطاراً دسماً متأخراً، يشحذ ذهنه ويعده للكتابة اليومية.

لم يكن يحمل قط سيفاً أو عصا، ويفضل أن يمشى ممسكاً بقبعته فى يد، ويضع الأخرى خلف ظهره، إلا عندما كان يريد أن يؤكد على نقطة هامة، فإنه كان يتوقف ويميل برأسه جانباً فى وضع انتباه تام، ويدفعك إلى الابتسام أو العبوس معه.[1]

لقد ولد توماس "بين"، كما كان يسمى حتى وصوله لأمريكا، فى ٢٩ يناير ١٧٣٧ لجوزيف وفرانسيس كوك بين ـــ فى بريدج ستريت فى قرية ثيتفورد التى ترجع للقرن الثامن على نهر أوز فى نورفولك بإنجلترا. وكان جوزيف صانع ملابس يتمتع بحقوق المواطن كاملة، ويدير مزرعة صغيرة كما كان من طائفة الكويكر (الأصدقاء) الملتزمين؛ أما فرانسيس فقد كانت ابنة محام محترم وعضوة فى الكنيسة الانجليكانية.[2]

لقد نشأ توم وسط عقيدتين متنافستين. لقد كان ينطلق مع والده إلى "مقر اجتماع الأصدقاء الصغير الكئيب فى حارة كيج كما كان يتلو أيضاً الصلوات اليومية الأنجليكانية فى مدرسة ثيتفورد جرامر. وكان يفضل دروس التاريخ، والرياضيات، والعلوم. وكان لديه بعض الموهبة الشعرية، ولكنه كان يصرح بأنه يشعر " بالكبت وليس بالتشجيع". وقد حاول أن يعلم نفسه اللغة اللاتينية سراً ضد رغبة أبيه.

وعندما بلغ سن الثانية عشرة، ترك المدرسة ليتتلمذ على يد أبيه فى تجميع مشدات السيدات. واستمر توم بجوار والده جوزيف لمدة سبع سنين، وتعلم العمل الدقيق المتكرر بإدخال أعواد من الصلب ودعامات من عظم فك الحوت المبرية فى قنوات القماش المخيطة للملابس الداخلية. وعندما بلغ سن التاسعة عشرة، وهو "مشتعل بالبطولة الكاذبة" ومتهور لمغادرة المحل وتذوق المغامرة، فرّ توم إلى لندن متخيلاً أن يبحر على سفينة القراصنة *تيريبل* تحت إشراف القبطان وليم ديث (William Death). ولكن والد توم تبعه إلى رصيف التيمس و"منع ابنه وهو سعيد"، فى آخر لحظة من الصعود للسفينة.

وعاد الشاب متضرراً إلى مجال تدريبه وساعد صانع ملابس فى كوفنت جاردن لمدة تقل عن سنة قبل أن يعثر على وظيفة لمدة ستة أشهر أثناء حرب السنين السبع على السفينة كنج أوف *بروسيا*، وهى سفينة أخرى للقراصنة خارج لندن كانت تحتاج إلى بحارة. وكانت مهمة السفينة، وهى مراقبة القتال الإنجليزى بقيادة القبطان إدوارد منزيس (Edward

(Menzies) ناجحة، إذ استولت على ست سفن فرنسية فى توالى سريع.

وعندما بلغ سن الحادية والعشرين أصبح توم "صانع ملابس راثد" فى ساندويتش، على الشاطئ جنوب شرق لندن، وقابل مارى لامبرت (Mary Lambert) وتزوجها، وهى شابة يتيمة تعمل كخادمة لدى تاجر أقمشة صوفية بارز فى المدينة. وانتقلا إلى مارجيت فى كنت. وخلال هذه السنة ماتت مارى أثناء الوضع، كما مات وليدها. وعاد توم منفطر القلب مرة أخرى إلى ثيتفورد ليعيش مع أبويه، وقرر أن يتدرب على عمل جديد فى مصلحة الجمارك كما كان يفعل والد زوجته المتوفاة. وقد اجتاز الامتحانات وعيّن كموظف مؤقت فى جرانثام بلنكولن شاير. وكان عمله هو قياس محتويات براميل الجعة، وتقدير الضرائب على أصحاب الحانات ومتعهدى البن والشاى، وتحصيل الرسوم والضرائب، إلى جانب مراقبة المستنقعات لاكتشاف المهربين، مما كان يعرض حياته وأوصاله لخطر كبير. وانتقل إلى ألفورد فى لنكولن الساحلية، كموظف جمارك دائم بمرتب خمسين جنيهاً فى السنة.

وفى أواخر صيف عام ١٧٦٥، طرد توم من وظيفته فى ألفورد، بعد أن اتهم كذباً من مشرف مستاء منه بتهمة "التحيز" ــ بمحاباة أصحاب المتاجر بالموافقة على شحناتهم التجارية بدون مراجعة محتويات الشحنات. ويقال إنه أرسل اعترافاً إلى إدارة الجمارك طالباً إعادة تعيينه إذا خلا مكان مناسب، رغم أنه لم يتم العثور على هذه الوثيقة. وكانت هذه التجربة المريرة كافية لإعادة توم إلى لندن مرة أخرى. وقد تمكن بطريقة ما من إقناع نظار المدارس فى جودمان فيلدز ومجاورة كنسنجتون لتعيينه فى وظائف تكفى لضروريات الحياة لتعليم القراءة والكتابة لأبناء الطبقة العاملة مقابل "عشرين جنيها فى السنة، وخمسة جنيهات للسكن". وفى رواية مشكوك فيها عن تلك الفترة، أنه أمضى بعض الوقت كواعظ متجول غير إكليريكى[3].

وفى فبراير ١٧٦٨، عندما بلغ الحادية والثلاثين من عمره سنحت لتوم بين فرصة أخرى للعمل فى مصلحة الجمارك، فى لويس، وهى بلدة عدد سكانها خمسة آلاف نسمة وتقع فى ساسكس داونز على بعد عشرة أميال من مركز الاستشفاء فى برايتون على شاطئ البحر. واستأجر مكاناً لإقامته فى غرف متواضعة فى الدور الثانى فوق محل صمويل أوليف (Samuel Ollive)، تاجر التبغ والنشوق. وكان أوليف يعمل أيضاً فى مهمة مدنية فى الشرطة المحلية، كمسئول عن حفظ النظام فى أبرشيته. وكان مقر عمله يقع عند ناصية بول

لين، بجوار مقر اجتماع الكويكر وعلى بعد يسير من منزل أقارب الشاعر بيرسى بيش شيلى (Percy Bysshe Shelley).

وقد توفى السيد أوليف فى العام التالى. ومع استمراره فى العمل فى الجمارك، قام توم بمساعدة الأرملة إستير (Esther)، فى توسيع وإدارة متجر زوجها. وفى ربيع عام ١٧٧١، تزوج توم فى كنيسة سانت ميشيل من إليزابيث البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً، وهى أصغر أبناء أوليف الأربعة.

وقد وصف أحد الأصدقاء موقف توم السياسى فى ذلك الوقت بأنه "مؤيد قوى لحزب الهويج"، مما يعنى أنه كان داعية للحقوق العامة مع التسامح مع المنشقين، وأنه كان "مشهوراً بتلك الصفة التى تعرف بالمثابرة إذا تعلق الأمر بقضية جيدة، والعناد فى القضية الفاسدة". وقد شارك، كما كانت عادته، فى الكيان الاجتماعى فى لويس. وكان صمويل أوليف قد نجح فى ضم توم إلى"جمعية الاثنى عشر"، وهى مجموعة حاكمة من قادة البلدة كانت تجتمع مرتين كل عام للتصويت بشأن القضايا التى كانت تعتبر هامة للصالح العام. كما كان يتردد على مجموعة تحب أن تسمى نفسها "نادى العنيدين". وكانت هذه "المجموعة المحترمة والعاقلة والمرحة من المعارف" تجتمع مرة كل أسبوع فى حانة وايت هارت، عبر هاى ستريت وعلى المنحدر النازل من متجر التبغ. وكانوا يجتمعون حول مائدة من خشب البلوط فى غرفة فسيحة للاجتماعات، بالدور الأرضى، ذات نوافذ مرتفعة، ويحتسون الجعة، وكان توم بين يشارك فى "مناقشات حارة ورفيعة المستوى" ويمتع أصدقاءه ــ طبقاً لرواية شخص كان موجوداً دائماً ــ "بنكات بارعة... وآراء عنيدة... يدعمها بحماسة، وبراعة، وحجج".

وكان النادى يتداول كتاباً مهترئاً لأعمال هوميروس (Homer) كتذكار مرتجلاً يمنح "لأكثر الخطباء عناداً" فى المجموعة فى الصباح التالى لمناقشة حامية. وكان توم بين الذى كان يوصف بأنه "جنرال حرب العناد" أكثر من يتلقى هذا الكتاب. وقد خط عليه زملاؤه الأعضاء عبارة" إن روحك المشتعلة كالنار يجب أن ترتفع إلى عنان السماء، فشهرتك لا يمكن أن تموت". ورغم أن جميع سجلات نادى العنيدين، ومذكرات اجتماعاته إلى جانب المقالات التى كتبها الأعضاء قد فقدت، فإنه من الصعب تخيل أن هؤلاء السادة المهتمين بالسياسة لم يخصصوا وقتاً لمناقشة الأزمات التى كانت تظهر فى جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية ولاسيما فى أمريكا الشمالية. فقد وقعت مجموعة من الأحداث الدرامية عبر المحيط الأطلنطى، بما فيها المقاطعة الواسعة الانتشار لاستيراد السلع البريطانية فى نيو إنجلند،

وكذلك مذبحة بوسطن فى مارس عام ١٧٧٠، واحتراق المركب البريطانى *جاسبى* فى خليج ناراجانست بالقرب من رود أيلاند فى صيف عام ١٧٧٢، والذى تبعه فى ذلك الخريف نشر كتاب "الأصوات والإجراءات" فى بوسطن، وهو سجل منظم للانتهاكات البريطانية للحقوق الأمريكية[4].

وفى صيف عام ١٧٧٢، بدأ توم بين فى كتابة منشور من واحدة وعشرين صفحة بشأن قضية قريبة إلى قلبه وإلى جيبه والتى سوف تكون أول بحث ينشر له، بعنوان "قضية موظفى الجمارك، مع ملاحظات على مؤهلات هؤلاء الموظفين، والشرور العديدة التى تصيب الدخل بسبب عدم كفاية المرتب الحالى: مقدمة بكل تواضع إلى أعضاء مجلسى البرلمان".

وكان السبب المباشر لكتابة "القضية" اقتصاديا. فقد كان إجمالى الأجر السنوى لموظفى الجمارك فى الدرجة التى يشغلها "بين" هو خمسين جنيها. وكان الصافى أقرب إلى اثنين وثلاثين لأن ثمانية عشر جنيها على الأقل كان يجب صرفها سنويا على "الغلو المفرط لاستئجار حصان". إذ كان أجر الوصول للمنزل لموظف الجمارك فى الريف الذى يعتمد على الحصان يصل إلى شلن وتسعة بنسات فى اليوم. وكان رجال الجمارك فى لندن أسعد حالا لأنهم، على عكس زملائهم فى الريف، يؤدون عملهم سيرا على الأقدام. وكتب بين مقتبسا من كلام النبى إبراهيم فى الكتاب المقدس "إن هناك فجوة كبيرة ثابتة" فى الموقف المتعلق بأجر الانتقالات الذى يثقل كاهل موظفى الجمارك فى المناطق الريفية الذين كان يتحدث نيابة عنهم. إن الضغوط للحفاظ على المقاومة المهنية للرشوة التى تقدم فى كل وقت، والسفر المستمر لمسافات طويلة، "وكثرة الاستبعاد" لفترات من الوقت ــ تمثل "هذه الشرور التى لا حصر لها" وتؤثر تأثيرا شديدا على الحياة الأسرية.

وإذا أغرت بين جاذبية الموضوعات الأكثر أهمية، فإنه اندفع فى جداله إلى مستويات أعلى، مما ينطوى على أن موظف الجمارك وقع فى فخ الإهمال المتعمد. وقال متحديا "قد يقال لماذا يشكو موظفو الجمارك؛ إنهم لم يجبروا على أداء هذه الخدمة، ويستطيعون تركها عندما يشاءون؛ وإذا كان يمكنهم إصلاح حالهم، فلماذا لا يفعلون ذلك؟ يا للأسف إن الرد بهذا تعاطف ساخر من موظف جمارك أمين، ومخلص، وعجوز، أمضى زهرة حياته فى الخدمة، وأصبح غير صالح لأى شئ آخر.... إن خبرة كل عام تكتسب فى الجمارك تعد ضياعا

لخبرة عام فى المهنة؛ وفى الوقت الذى يصبحون موظفين حكماء يغدون عمالاً أغبياء".

لقد كانت مظاهر عدم المساواة الاجتماعية هذه هى الأساس الذى أطلق فيه "بين" صيحة تحذير مؤثرة. "إن الفقر، شأنه شأن الحزن، مصاب بصمم غير قابل للشفاء، مما يجعله لا يسمع أبداً... إن هناك بلاغة قوية فى الحاجة. لا توجد حجة تعوّض الإحساس بالجوع، أو تخفف من قوة الشهية... إن مباهج السرور، أو العظمة، أو الثراء ليست سوى 'ظلال للظل'، إذا قورنت بضرورات الطبيعة التى لا تقاوم". ولم يكن يستطيع أن يقاوم داعى الاستفزاز والمشاكسة، حتى وإن خاطر باستعداء المشرعين من أصحاب الأراضى الذين كان يحاول أن يكسبهم إلى جانبه. ولاحظ فى خاتمة شعرية "إن الأغنياء، الذين يعيشون فى راحة ورخاء، قد يظنون أننى رسمت صورة غير طبيعية؛ ولكن إذا كانوا يستطيعون أن ينزلوا إلى مناطق العوز الباردة، والدائرة القطبية للفقر، فإنهم سيجدون أفكارهم تتغير مع تغير المناخ.... إن البلاغة قد توجع الأذن، ولكن نبرة الحديث عن الفقر توجع القلب؛ قد تحمل الأولى جاذبية مثل الموسيقى، ولكن الثانية تطلق تحذيراً مثل الناقوس".[5]

تم طباعة أربعة آلاف نسخة من الكتيب فى لويس، مدعومة بخمسمائة جنيه تم جمعها عن طريق هبات صغيرة من موظفى الجمارك من جميع أنحاء إنجلترا. وفى شتاء ١٧٧٢-١٧٧٣، سافر بين إلى لندن حيث حاول فى جرأة، بمساعدة بعض الزملاء الشجعان، مقابلة أعضاء البرلمان فى مجلس العموم فرادى. وحاول بين دون جدوى العثور على عضو واحد فحسب من "ممثلى الشعب" على استعداد للتفكير فى مزايا الالتماس ورفعه إلى مجلس وزراء الملك جورج لاتخاذ قرار بشأنه. ولم تسفر جهود بين عن شئ. لقد ضعف الالتماس ثم مات بعد أن أهمله البرلمان. وفى ٨ أبريل ١٧٧٤، طرد توم بين مرة أخرى من مصلحة الجمارك لفترة وجيزة. وقد اكسبت رحلة بين إلى لندن عداوة بيروقراطية فرض الضرائب. وأشار بيان إدانته إلى أنه "غادر أعمال التحصيل فى ساسكس بدون إذن" لمدة ستة أشهر. وبعد أسبوع واحد من فقد وظيفته فى الجمارك، أغلق بين محل أوليف القديم للتبغ والبقالة من أجل سداد ديونه وباع فى مزاد محتوياته وممتلكاته المنزلية أيضاً ("خواتم، وأطباق، وملابس، وبياضات، وبضائع... وصندوقين لم يفتحا من أدوات خزفية")

وفى أوائل يونية وقّع على طلب رسمى للانفصال عن زوجته. وقد قال بين لكاتب سيرة حياته الأول توماس (كليو) ريكمان (Thomas "Clio" Rickman) فى رد جاف على سؤال عن أسباب فشل الزواج، "إن هذا أمر يخصنى وحدى ولا يخص أى شخص آخر، إن لدى

أسبابي، ولكني لن أخبر بها أحداً". وانتقلت إليزابيث للحياة في كرانبروك في كنت مع أخيها توماس صانع الساعات، "كما لو كانت امرأة عزباء".

لم يكن هناك ما يدعو لبقاء بين في لويس بعد ذلك. ففي أوائل سبتمبر أصبح بدون عمل، وبدون أملاك، وبدون عائلة، وانتقل إلى لندن حيث وجد مقراً مؤقتاً للإقامة في "أليف ستريت، في جزء مغمور من المدينة... بدون ثروة أو أصدقاء".[6]

وبعد وصوله إلى لندن، بادر بين بالبحث عن أحد حلفائه، جورج لويس سكوت (George Lewis Scott)، عضو مجلس الجمارك الذي استمر متعاطفاً معه. وكان سكوت وهو رجل مثقف وفي تقدير بين "واحداً من أكثر الشخصيات المحبوبة التي عرفتها"، يعمل كمدرس، ولديه مثل بين اهتمام بالرياضيات والعلوم. ولحرصه على مساعدة صديق في حاجة ماسة للمساعدة، انتهز سكوت فرصة" لوضع كوكبين في برج واحد". وحصل"لبين على موعد لمقابلة بنجامين فرانكلين.[7]

وفي الوقت الذي تقابلا فيه في مقره في كرافن ستريت، على مبعدة من ستراند بالقرب من تشارنج كروس، كان فرانكلين البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً يحاول أن يؤجل إنهاء مهمته التي استمرت عقدا كاملاً في لندن كوكيل عام لبنسلفانيا. كان فرانكلين "يكره النزاع" ويأمل في أنه عن طريق الاستمرار في "الاجتهاد في إجراءاته المتواضعة" بالدعوة إلى الاعتدال من الجانبين، يستطيع المساعدة في تحسين الوضع المتدهور بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية. واعترف بأنه في "قلق دائم عن أشخاص عقولهم مضطربة مما قد يؤدي إلى صراع... قد تنتج عنه مذبحة تجعل القطيعة أمراً يستحيل إصلاحه".[8]

وفي الأسبوع الذي وصل فيه بين إلى المدينة، كان مقال فرانكلين "أسباب سخط الأمريكيين قبل عام١٧٦٨"، قد أعيد نشره مسلسلا في جريدة *لندن كرونيكل*. وكان نصف العام السابق قد شهد تسارع هذه الأسباب ــ بداية من الربيع السابق عندما أصدر البرلمان في عهد الملك جورج الثالث القوانين الإجبارية، التي أسماها أهالي المستعمرات القوانين التي لا تحتمل. وكانت القوانين تقضي بإغلاق ميناء بوسطن أمام التجارة العامة إلى أن يتم تعويض شركة الهند الشرقية عن البضائع التي تبلغ قيمتها خمسة عشر ألف جنيه التي دمرت في يوم ١٦ ديسمبر في "حفلة الشاي" سيئة السمعة. كما قضت القوانين بحرمان مجلس ماساشوسيتس التشريعي من سلطاته وأعطت حقوقاً ومزايا قانونية جديدة للمسئولين الملكيين

فى تلك المستعمرة المتمردة وأعفتهم من الملاحقة القضائية هناك.[9]

وقد اجتمع أول كونجرس قارى لمدة ثمانية أسابيع فى فيلادلفيا بدءاً من أوائل سبتمبر ١٧٧٤. وحضره خمسة وخمسون مندوباً من اثنتى عشرة مستعمرة من الثلاث عشرة. وكان أحد أوائل المواضيع التى طرحت للبحث قرار يتعهد باستمرار المقاومة للسلوك الاستعمارى للبرلمان وكبت الحريات بالقوانين التى لا تحتمل، وذلك بالجهود الجريئة لكل من صمويل وجون آدمز، وباتريك هنرى (Patrick Henry)، وريتشارد هنرى لى (Richard Henry Lee). وقد كتب فرانكلين فى قلق إلى صديقه توماس كوشنج (Thomas Cushing) فى بوسطن، التى كان يوجد بها جندى بريطانى لكل خمسة مواطنين، "لم يحدث منذ أصبحنا أمة أن كان لنا أصدقاء قليلون إلى هذه الدرجة فى بريطانيا... إن الانفصال عن أمريكا، الذى أثارته الإجراءات العنيفة الأخيرة، قد يكون مدمراً للصالح العام للإمبراطورية البريطانية".[10]

ولم تحل المشاكل الخارجية دون أن يسر "بين" لفرانكلين برغبته فى الهجرة. وفى ٣٠ سبتمبر ١٧٧٤، أعطى الرجل العجوز لبين خطابين شخصيين للتوصية، أحدهما موجه إلى ساره ابنة فرانكلين، التى كانت تعيش فى فيلادلفيا مع زوجها ريتشارد باتش (Richard Bache)، التاجر المولود فى لانكشاير، والآخر إلى وليم، ابن فرانكلين الحاكم الملكى لنيوجيرسى الذى تلقى العلم فى أكسفورد. وكتب فرانكلين قائلا "إن حامله السيد توماس بين أوصيكم به تماماً لأنه شاب نابه يستحق التقدير. وهو ذاهب إلى بنسلفانيا بهدف الاستقرار بها. وأطلب منك إعطاءه أفضل نصيحة وتشجيع لأنه غريب تماماً هناك. وإذا استطعت أن تحصل له على وظيفة كاتب، أو مدرس مساعد فى مدرسة أو مشرف مساعد، وهو ما أظن أنه قادر عليه تماماً، بحيث يستطيع الحصول على ما يقيم أوده على الأقل، إلى أن يستطيع الحصول على معرفة بالبلاد وإلمام بأحوالها، فإن ذلك يكون عملاً طيباً من جانبك، ويرضى أباك المحب كثيراً".

وخلال الأيام القليلة التالية، حصل بين على مكان كواحد من خمسة مسافرين فى قمرة فى سفينة *لندن باكت* المتجهة إلى أمريكا.[11]

لقد "كان قدرى أن أصل إلى أمريكا قبل أشهر قليلة من اندلاع المعارك"، كان هذا هو ما كتبه بين بعد أربعة عشر عاماً فى تذكر أول انطباع له. "لقد وصلت [إلى فيلادلفيا] قبل عدة أشهر من وصول الدكتور فرانكلين، وانتظرت وصوله". وبعد رحلة شاقة هبط بين

من سفينة جيريميا واردر فى ٣٠ نوفمبر. وكانت ديبورا (Deborah) زوجة فرانكلين قد ماتت فى فيلادلفيا فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٤. وفى مارس التالى أبحر فرانكلين عائداً إلى وطنه، بعد أن رُفض اقتراحه النهائى المعتدل للتوفيق مع المستعمرات من جانب الوزراء فى مجلس اللوردات. وكان قد تلقى بالفعل خطاب شكر من بين، أخبره فيه أن "تشجيعك لى أكسبنى العديد من الأصدقاء وسمعة طيبة"[12].

وقال بين متذكراً أيامه فى أمريكا، "لقد وجدت الناس على استعداد لأن يقودهم خيط وتحكمهم قصبة"، وهو ما يحتوى على تلميح بنقد المناخ المتناقض السائد، إلى جانب "إفراط فى الرقة.... لقد كان شكهم سريعاً ونافذاً، ولكن ارتباطهم ببريطانيا كان عنيداً؛ لأن التحدث ضد هذا الارتباط كان فى ذلك الوقت نوع من الخيانة". وكان بين، فى الاستشهاد بهذا المثل، يقدم الولاء لراعيه وصديقه فرانكلين. وكان فرانكلين فى أول إقامة قصيرة له فى لندن فى ١٧٦٦، قد تقدم برجاء إلى أعضاء البرلمان لإلغاء قانون الدمغة لأنه لا توجد ضرورة لمزيد من الضرائب. فالأمريكيون كما قال فى ذلك الوقت، راضون بالحكم البريطانى بحيث يمكن "قيادتهم بخيط"[13].

لقد كان الحرص على تقرير المصير وليس القدر هو الذى دفع توم بين إلى المركز التجارى الأول والعاصمة السياسية لأمريكا البريطانية. إذ كان من المعترف به أيضاً أن فيلادلفيا هى همزة الوصل فى أمريكا الأدبية. فبحلول عام ١٧٧٥ كان هناك ثمان وثلاثين جريدة فى المستعمرات، كانت الأغلبية منها تصدر فى فيلادلفيا، إلى جانب الكتيبات والنشرات المطبوعة على ورقة مفردة، وكتب القصص الشعبية، والمجلات. وكانت فيلادلفيا تفخر بأن بها أكثر من ثلاثين محلاً لبيع الكتب و"ضعف عدد الحانات والمقاهى". وقد بحث بين عن مركز كل هذا النشاط عبر الجانب الآخر من الشارع الممتد من مقهى لندن، وهو أكثر الشوارع ازدحاماً ورواجاً. لقد استأجر "ابن السبيل الوحيد" فى مدينة محبة الأخوة (فيلا ـ دلفيوس) حجرة فى منزل يتكون من ثلاثة طوابق فى الركن الجنوبى الشرقى من شارعى ماركت وفرانت، بالقرب من المكتبة وإلى جوار محل بيع الكتب والمطبعة المملوكين للاسكتلندى روبرت أيتكين (Robert Aitken) المولود فى دالكيث فى ١٧٣٤[14].

وكان بين زائراً دائماً لمحل أيتكين، ويمضى ساعات طويلة فى الممرات بين الأرفف المكتظة؛ يسحب، ويقرأ، ويعيد كتاباً بعد الآخر. وكان حلم أيتكين القديم أن يبدأ منشوراته من "الإنتاج الأمريكى الأصيل"، واستعان ببين لكتابة عمود لعدد الافتتاح فى ٢٤ يناير ١٧٧٥. لقد

كانت *بنسلفانيا مجازين*، أو مجلة *المتاحف الأمريكية الشهرية* من حجم مناسب، حوالى ثلاث بوصات فى ست. وكان الشعار الملفت للنظر على الصفحة الأولى يصور "الشمس وهى تشرق من خلف درع من أفرع الزيتون تزينه كرة أرضية، وكتاب، وزهرة، وقيثارة، ومرساة مربوطة جميعها بعبارة مستوحاة من روح روسو (Rousseau) التى تقر بأن الطبيعة مباركة، *Juvat in sylvis habitare* (من السعادة أن تعيش فى الغابات)"[15].

وكان مقال بين بعنوان "المجلة فى أمريكا"، يبدو كأنه بيان (مانيفستو) وطنى، مغلف بلغة أكثر اشتباكاً فى الصراع وأشد دنيوية من شعار المجلة الريفى. وأعلن منذ البداية أن "أمريكا تخطت الآن مرحلة الطفولة". ونظراً لأنه ربما كان يفكر فى أن كتاباته سوف توجه قريباً إلى أهل وطنه الجديد، استمر قائلاً "لا يوجد أى شئ له *تأثير* عام على عادات وأخلاق الشعب يفوق الصحافة؛ ومن هذا النبع تتساب أنهر الرذيلة والفضيلة خلال البلاد... لا يوجد من يتفوق *علينا* فى القدرات، ولدينا ميدان أكثر اتساعاً للبحث، وأياً ما كان وضعنا السياسى، فإن *سعادتنا* ستعتمد دائما علينا شخصياً". لقد كان بين مقيماً فى فيلادلفيا لفترة أقل من شهرين ولكنه كان يشعر بالراحة والأمل بما يكفى لأن يعتبر نفسه فى وطنه فى أمريكا خلال "وضع الأمور الحالى الآخذ فى التوسع والتحسن عندما يضيف تغير الزمان توافقا مع الإجراءات الجديدة"[16].

كان استقبال المقال جيداً، وعين أيتكين بين محرراً لمجلة *بنسلفانيا مجازين* بنفس الأجر الذى كان يتقاضاه كموظف جمارك ـــ خمسون جنيهاً فى السنة. وشغل بين هذا المنصب خلال الثمانية عشر شهراً التالية، التى زاد فيها من توزيع المجلة بصورة مثيرة من ستمائة إلى أكثر من ألف وخمسمائة وكتب "مقالات لا تقل عن سبع عشرة وربما تصل إلى ستة وعشرين" عن مواضيع الساعة. وكانت هذه تشمل مقال ينتقد بشدة الممارسة البريطانية والأمريكية لامتلاك العبيد، تحت العنوان الجانبى "هيومانوس"، وأحياناً "خطاب عرضى إلى جنس الإناث"، داعياً إلى منح مزيد من الحقوق للمرأة فى المستعمرات، حيث كن "محرومات من الحرية والإرادة بنص القانون". ويستحيل تحديد مرات ظهور اسم بين فى الصحف لأنه كان يستخدم أسماء مستعارة مختلفة أو ينشر المقالات بدون توقيع[17].

وبدأ بين إعادة اكتشاف نفسه عن طريق مجال الصحافة. وعندما بدأت مقالاته فى *بنسلفانيا مجازين* تتكاثر، قارنها "بقطرات الثلج المبكر، التى تهطل فى فصل الجفاف، وتكتفى بالتنبؤ المتواضع بأن الأزهار المختارة تستعد للظهور". وإذ أصر على أن "قضية أمريكا

جعلتني كاتباً" فقد كان كتوماً بالنسبة لتفاصيل" حياته الشخصية الأولى" في إنجلترا، لأنها كانت غير سعيدة ومليئة بسوء الحظ. وفي تصوير غير صحيح ومتعمد لماضيه، كتب بين أنه "لم يزعج الآخرين على الإطلاق بأفكاري إلا مؤخراً... ولم ينشر حرفاً في إنجلترا طوال حياته". وكان يعتقد أن الرسالة التي يحتويها النص يجب أن تأتي في المقدمة، لا الدعاية للكاتب. "إن المعايير هي الأولى بالجدل"، وليس الرجال[18].

وفي يومي ١٨ و١٩ أبريل من عام ١٧٧٥، ومع ازدياد التوتر في المستعمرات، أرسل الجنرال توماس جيج (Thomas Gage)، القائد البريطاني في بوسطن، الميجور جون بيتكايرن (John Pitcairn) للاستيلاء على مقر قيادة المتمردين ومخازنهم العسكرية في كونكورد القريبة. وبعد أن عبر نهر تشارلز وتقدم عن طريق قرية لكسنجتون نحو كونكورد نورث بريدج، أحاطت الميليشيا المحلية بجنوده من المشاة الخفيفة وحملة القنابل اليدوية وفتحت عليهم النيران. وقتل ثمانية أمريكيين. وعانى الجنود البريطانيون أثناء انسحابهم إلى بوسطن من خسائر فادحة. وفي الشهر التالي، وفي تحدى للسلطة الدستورية البريطانية، اجتمع الكونجرس القاري الثاني في فيلادلفيا وعين "الكولونيل المتواضع، والصالح، والمحبوب، والكريم، والشجاع" جورج واشنطن من ميليشيات فيرجينيا قائداً للجيش الأمريكي الذي أنشئ مؤخراً[19].

ولجأ توم بين إلى منبره الهجومي في المجلة. وارتفعت حدة بلاغته لتتواءم مع الانفعال في ذلك الوقت. وأصبح هجومه على إنجلترا من تلك اللحظة أكثر فظاظة. فلم تعد أمريكا مجرد دولة تتخطى مرحلة الطفولة لإحراز تقدم سلمي مطرد في العالم. كان البلد في وسط "عاصفة" حقيقية، تنبأ بين من خلالها "أنه سوف ينهض من النزاع إلى أمجاد جديدة، وتعم شهرته كافة أنحاء المعمورة". وفي معركة بانكر هيل في تشارلزتاون، بماساشوسيتس في ١٧ يونيه ١٧٧٥، منى البريطانيون بخسائر تتجاوز الألف. وكتب بين بعد ذلك فوراً مقالاً عن طبيعة الحرب، وانتهى إلى أن "السلاح يحافظ على النظام في العالم كما يحافظ على الممتلكات". وقد رفض الملك جورج الثالث في ٢٣ أغسطس التماس غصن الزيتون الاسترضائي وأعلن أن المستعمرات أصبحت في حالة تمرد. ورد توم بين عن طريق واحدة من آخر مساهماته في *بنسلفانيا مجازين*، بأغنية تسمى "شجرة الحرية" تتضمن أن "الملوك، ومجلس العموم، واللوردات" هم "القوى الاستبدادية" التي تتآمر "لتحطيم حامينا.... من الشرق إلى الغرب"، وقال "دقوا طبول الحرب،/ ودعوا صوتها يعم الأراضي"[20].

لم تخطر فكرة كتابة *منطق العقل** لبين فى لحظة إلهام. لقد كانت هناك فترة حمل ــ كما يحدث قبل أغلب اللحظات التاريخية. وقال بين إن بذرة الرغبة الملحة زرعت فى ذهنه لحظة الإشفاق على الضحايا الذين شعر بمعاناتهم فى الأيام التالية "لمذبحة أبريل فى لكسنجتون". كان بنجامين فرانكلين قد وصل إلى فيلادلفيا من لندن فى أوائل مايو ١٧٧٥ لحضور الكونجرس القارى الثانى ولإعادة الاتصال مع بين. وقد اقترح راعى بين العجوز عليه أن يعد بياناً غير رسمى عن الظروف التى أدت إلى النزاع الحالى. ويقول بعض "المعاصرين" إن فرانكلين قدم "جزءاً كبيراً من المواد" لتلك الوثيقة. وصمم بين على أنه بحلول الخريف لا بد أن يكون قد أتم "وضع الخطوط العامة" لثلاث مقالات فى هذا الكتيب. وقد أخبر بين هنرى لورنس (Henry Laurens)، رئيس الكونجرس القارى الثانى، أنه عندما رفض التماس غصن الزيتون، "صممت فى قرارة نفسى أن أكتب الكتيب". وادعى صديق آخر هو الطبيب، والفيلسوف، والوطنى بنجامين راش (Benjamin Rush)، أن بين قد بدأ الكتابة بناء على اقتراحه، وأخبر بين "أنه ليس لديه ما يخيفه من البغض العام الذى قد يتعرض له نتيجة لذلك المنشور"[21].

ورغم أن راش قد حصل على تقدير ضعيف لاقتراح عنوان الكتيب، فربما كان بين على دراية بتقليد فلسفة "منطق العقل". وكانت هذه المدرسة الشائعة فى القرن الثامن عشر ــ والمعروفة أيضاً باسم "فلسفة التنوير الاسكتلندية" بسبب شرحها بتفصيل فى كتابات توماس ريد (Thomas Reid) ودوجالد ستيوارت (Dugald Stewart) ــ تساند موثوقية وأهمية "اللغة العادية والأفكار اليومية". وكان هؤلاء المفكرون، على عكس المعوّقين من أنصار العقلانية والشك، يحبذون قدرة الإنسان الذاتية والغالبة للشعور "بالحكم الفعال والفاضل... تلك المعتقدات الأساسية التى لا نملك إلا أن نصدقها". وكان فلاسفة منطق العقل يقولون إن الإنسان يولد "بقوة دافع" عملية، ميل قوى، وعاطفى للعمل. وكان هذا النوع من منطق العقل، الذى ينبع من عالم الإحساس، هو أعلى وأفضل خصائص الطبيعة البشرية. وتدعم هذا المثل الأعلى فى مقال بين بالنغمة السائدة فيه للحتمية ومساندة الإرادة الحرة. ويجدر بنا أن نتذكر أن كلا من بائع الكتب روبرت أيتكين وأول طباع لكتيب *منطق العقل*، "الجمهورى" الفخور روبرت بل (Robert Bell) كانا اسكتلنديان"[22].

---

* منطق العقل (Common Sense) أصدرت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ترجمة لهذا الكتاب إلى اللغة العربية فى عام ١٩٩٩ ــ المترجم.

وقد قال بين إنه قرأ مقتطفات من العمل أثناء إعداده على فرانكلين وراش وكذلك على صمويل آدمز ودافيد ريتنهاوز (David Rittenhouse). وفى النهاية "كانت التغييرات التى تمت قليلة". وكان بين يفخر بطريقته الخاصة بأصالة أفكاره، قائلاً إنه "نجح بدون أى مساعدة من أى شخص آخر"[23].

وقد استقال بين، فى خريف ١٧٧٥، من رئاسة تحرير *بنسلفانيا مجازين* من أجل التفرغ كل الوقت للصياغة المكثفة السريعة لأهم أعماله وأبعدها أثراً. وفى ١٨ أكتوبر نشر افتتاحية قصيرة فى *بنسلفانيا جورنال* بعنوان "فكرة جادة"، أنهاها بعرض ما سوف يحدث قريباً: "إننى لا أتردد لحظة فى الاعتقاد بأن الله القادر سيفصل أمريكا عن بريطانيا فى النهاية. أطلقوا عليها اسم *الاستقلال* أو أى اسم آخر لأنها إذا كانت قضاء الله للبشرية فسوف ينفذ"[24].

وقد ظهر إعلان فى ١٠ يناير ١٧٧٦، فى *بنسلفانيا جورنال* يقول "تشر اليوم كتاب *منطق العقل*، موجه لسكان أمريكا الشمالية، ويباع لدى روبرت بل، بجوار كنيسة سانت بول فى ثيرد ــ ستريت، بفيلادلفيا وسعره شلنين". والواقع أن صفحة العنوان جاء بها "سكان أمريكا". وقد اختار بين توقيت النشر فى نفس اليوم الذى نشر فيه فى أمريكا خطاب "الوحش الملكى" الملك جورج "الدموى التفكير" عن "الشر التام... والطغيان الملكى" فى افتتاح البرلمان[25].

وكتب بين، "إننى أحب أن أعمل بدون مقابل فى عظائم الأمور التى تمس مصالح الإنسان". وتبعاً لذلك أعطى المهمة "للطباع الشجاع" روبرت بل مع ضمان أن الطباع سيحصل على نصف العائد، ويخصص النصف الآخر لشراء قفازات للقوة الأمريكية الغازية المتوجهة إلى كويبك، وأى خسارة تنجم عن الإنتاج سوف يدفع بين قيمتها من ماله الخاص. وخلال أسابيع من النشر، اتهم بين بل بحرمان الجنود فى كندا من العائد. وفى الطبعة الثانية، ألغى بين عبارة "كتبها رجل إنجليزى" وكتب صيغة موسعة إن ظلت بدون توقيع أيضاً للمقال، وعرضه للبيع مقابل شلن إنجليزى واحد ــ مع تخفيض للجملة، عشرة بنسات للدستة ــ فى مقهى لندن[26].

ويكمن جمال *منطق العقل* فى أسلوبه المباشر العاطفى وجدّته الواضحة. وهو يُقرأ أحياناً على غرار مناجاة النفس فى أعمال شكسبير، وفى أحيان أخرى يذكّر بالمنولوج الشعرى للاعتراف للشاعر روبرت براونينج (Robert Browning). ويخاطب بين قارئه وجهاً لوجه

بدءاً من عبارات الافتتاح الجازمة "كمحب فلسفى للبشرية" محدقاً بنظرته الملتهبة المسيطرة إلينا حتى النهاية. وتستمر قوة الدفع التى لا تلين لثمانين صفحة (تسع وسبعين صفحة للنص، وصفحة إعلان عن منشورات بل الأخرى) بدون هوادة، بحيث أنه عند الوصول إلى الخاتمة تبدو الدعوة إلى "ولايات أمريكية حرة ومستقلة" أمراً حتمياً[27].

ويحقق بين هذا النشاط المندفع للأمام بثلاثة طرق أساسية. فهو يتمدد ثم ينكمش، من أوسع منظور تاريخى وفلسفى إلى الأزمة الراهنة، ثم يتوسع مرة أخرى ــ من "قضية أمريكا" إلى قضية البشرية جمعاء"، ومن "المحلى" إلى "العالمى" ــ بحيث يبدو وكأن الفقرات تتنفس شهيقاً وزفيراً ونحن نقرأها. ثم يضع كرجل دعاية موهوب، إيقاعاً مستداماً للأضداد منذ البداية ولكنه لا يخرج أبداً عن الموضوع. وهو أستاذ فى التكرار، فهو ينسج أنماطاً متكررة منومة للكلمة ليجعل المواضيع تتردد كالموسيقى[28].

وكتب بين، إن الحكم المطلق الذى تمثله الملكية "الخسيسة" المتواصلة فى إنجلترا، يعتبر شذوذاً يتحدى مثالية المجتمع الحر. إن أمريكا فى عبوديتها لنظم الولاء البالية، قد ضلت عن رسالتها فى العالم. لقد تخلت عن السلطة "للشر" ومؤسسة الملكية ــ المعقدة. لقد نسيت التزامها الأبسط بأن تسترشد "بالفضيلة الأخلاقية" للنظام الجمهورى. لقد نسى الأمريكيون منذ فترة طويلة أصولهم فى المساواة فى نظام الخلق. لقد خلق الله الأرض، كما يقول بين، ثم جاء الملوك وسرقوها منه. إن الترياق الغالب لمنطق العقل يخبرنا أن الوقت قد "حان" لاستعادة أصولنا، عن طريق ما أسماه بين ميثاق "الاتحاد القارى"، وهو البديل المطلوب "للتراضى" مع البلد الأم. "هل نستطيع أن نعيد للبغاء براءته السابقة؟ إنك لا تستطيع بالمثل أن تصلح بين بريطانيا وأمريكا". إن الجدال بشأن المستقبل قد وصل إلى نهايته. إن مصيرنا رهن بموافقتنا المشتركة على أن نكون "أمريكيين" وليس "رعايا لبريطانيا العظمى"[29].

إن هذا ليس تنظيراً مجرداً. ويدّعى بين مع الفخر بأنه لم يقرأ قط أعمال جون لوك (John Locke)، ولكن التأكيد على أن التمرد مسموح به عندما يقرر الناس أن حكومتهم قد أساءت استخدام دورها المحدد بالعمل "ضد ثقتهم فيها" يبدو أنه شبيه بعمل لوك الكلاسيكى *المبحث الثانى فى الحكومة المدنية* (١٦٩٠) مشوباً بدفعة صحية من الراديكالية. ويقول بين إن الأمريكيين، فى عام ١٧٧٦، قد أنعم عليهم بفرصة خلق عالم جديد متميز "حباه الله القدير... كملجأ ومأوى لمحبى الحرية المدنية والدينية المضطهدين من جميع أنحاء أوروبا". إن العيش فى أمريكا يحمل معه مسئولية النظر برؤية غير منحازة إلى أهداف إنجلترا الخفية.

وبمجرد أن يلقى عامة الناس نظرة باردة على الإمبراطورية الواسعة التى يمكن أن تستمر فى الإمساك بهم تحت سيطرتها لأسباب بالية، واستغلالية، وتجارية، ولمصلحتها الذاتية والتى لا تمنح أى فوائد للمستعمرات، فإن فصل عرى الروابط يقفز إلى الذهن، "حان الوقت للانفصال". ويبنى "بين" المزيد من التعليق على هذا الموضوع بالإشارة إلى الملك جورج على أنه "فرعون عنيد" مذكراً القارئ أن العبرانيين لم يجدوا شرعية الاعتماد على الذات إلا بعد انفصالهم عن مصر[30].

ويدعو *منطق العقل* إلى أن يقرر الشعب الأمريكى نبذ السلبية كلية، وتحمل مسئولية شئونهم، والدعوة للانفصال عن إنجلترا "على أساس متين، وآمن ومشرف". وبرغم اعترافه ببعض "المشاحنات والمنازعات" المتتابعة، والتى قد يكون بعضها دمويا، فإن جذور بين فى مذهب الكويكر تلعب دورها. فهو يتوقف عن الدعوة للرد المغالى فيه بثورة عنيفة ويصدر دعوة للبحث عن السلام الشامل. فبمجرد إلغاء الاسمين الباعثين على الاستقطاب ــ حزب الهويج (الاتحادى) وحزب التورى (المحافظين) ــ فإن المواطنين ذوى العقول المتحررة الذين يؤمنون بالاستقلال، يقفون فى مواجهة المحافظين الذين يستمرون فى الولاء للتاج ــ وتتحد المستعمرات فى صداقة مع بعضها البعض، وتولى ظهورها لنظام الحكم الفاسد فى انجلترا، وتكون النتيجة جمهورية صحيحة اقتصادياً، ودائمة، ومتحررة للأجيال القادمة. وقد كتب بين بعد ذلك بسنوات "لقد كان المبدأ الذى يرشدنى فى كتابة [*منطق العقل*] هو إنشاء نظام نيابى للحكومة"[31].

لقد كانت ملاحظة بين الساخرة أن ظهور الكتيب "غيّر اتجاه السياسة فى أمريكا" يعد تقليلاً من قيمته. فقد أرسل أول نسخة من *منطق العقل* عند خروجها من المطبعة، بكل فخر وعرفان، إلى الدكتور فرانكلين. وقد وصفها فرانكلين بأنها "عمل غير عادى". وبقراءته بصوت مرتفع وانتقاله من يد إلى يد بين المندوبين فى الكونجرس القارى الثانى فى فيلادلفيا، كان الكتيب قوة تبلور فى لحظة حاسمة فى العام الجديد ١٧٧٦ عندما كانوا مايزالون متقاعسين ومنقسمين بشأن الطريق الصحيح الواجب اتباعه. كان جورج واشنطن يدعم بين باستمرار طوال حياته، برغم خلافاتهما فيما بعد، وتنبأ بصورة صحيحة عندما أخبر جوزيف ريد (Joseph Reed)، أحد مندوبى بنسلفانيا فى الكونجرس، أن كلمات المؤلف سوف "تحدث تغييراً قوياً فى عقول الرجال" وتوقظ خيال الجماهير. كما وافق واشنطن أيضاً على

"مبدأ بين السليم ومنطقه الذى لا يرد". وقد أبدى مساعد الجنرال، إدموند راندولف (Edmund Randolph)، ملاحظة دقيقة عن أسلوب "بين" البسيط فى الكتابة و "السهولة التى ينساب بها فى قلوب الناس سواء كانوا متعلمين أو غير متعلمين.... إن مشاعر العامة... قد تخطت جميع الحواجز". وقد حيى بنجامين راش "الكاتب الشهير" على "التأثير الذى نادراً ما تحدثه الحروف والأوراق فى أى عصر أو فى أى بلد". وتحدث جوزيف هاولى (Joseph Hawley)، القاضى الشهير فى محكمة ماساشوسيتس العامة، نيابة عن كثيرين من أهالى المستعمرات عندما أعلن "لقد نفذت كل المشاعر إلى قلبى المعد لذلك"[32].

وقد كتب المؤلف قائلاً "ربما لم يكن هناك كتيب، منذ عرفت الحروف، بذل فيه جهد قليل بهذا القدر، وصدر منه عدد كبير بهذا القدر فى فترة قصيرة"، مفضلاً أن يقلل من مدى مشاركته فى الترويج له. وللدعاية للطبعة الثانية من *منطق العقل*، الأكبر كثيراً والتى طبعت فى فيلادلفيا فى مطبعة وليم وتوماس برادفورد (William and Thomas Bradford)، انطلق بين فى عربة إلى نيويورك فى فبراير لحضور مجموعة من حفلات العشاء والصالونات الأدبية، حيث قابل الجنرال تشارلز لى (Charles Lee)، الرجل الثانى فى القيادة بعد جورج واشنطن، الذى رأى "العبقرية فى عينيه". وقد أخذت صحافة الهويج فى العاصمة كذلك ببديهته "وومضات العبقرية الأصلية". ويبدو أن دعاية بين قد أحدثت مفعولها. فخلال الربيع، انضم مندوبون من ماساشوسيتس، ونورث كارولينا، وفيرجينيا لطلب الاستقلال، حيث مال الميزان فى الكونجرس القارى الثانى وتحول الموقف ببطء فى أواخر ديسمبر بموافقة ثلثى الأعضاء على الاستقلال بدلاً من الثلث. ورغم أن "بين" انزلق مرة ثانية فى الديون، مع تلاشى الاهتمام بجمع حقوق التأليف، فقد تنازل "بين" مختاراً عن حقوق النشر للطباعين فى جميع الولايات الثلاث عشرة. وسرعان ما ظهرت ترجمات فى أوروبا. وفى نهاية عام ١٧٧٦، كان *منطق العقل* قد طبع خمسة وعشرين طبعة وأكثر من ١٢٠٠٠٠ نسخة تم بيعها فى أمريكا[33].

وقد تسبب حب "بين" الشديد للخلاف فى الرأى فى اشتعال الجدال. ولم يفلح انطلاق أصوات شريرة قامت من فورها بالهجوم على المعتقدات الموروثة إلا فى زيادة الانتشار السريع *لمنطق العقل*. وقد جاءت أول معارضة علنية على شكل سلسلة من خطابات فظة فى *بنسلفانيا جازيت* بتوقيع الاسم المستعار "كاتو" (Cato)، منتقدة أسلوب بين المشتعل، وحرارة كتاباته، وافتقارها إلى ضبط النفس، و"الغضب والحقد" المخزى، وافتقاد "السيطرة

الهادئة على العاطفة والمشاعر". وكانت مادة وأسلوب مجادلة بين تعتبر غير لائقين.

كان كاتب هذه الخطابات هو دكتور وليم سميث (William Smith)، وهو رجل دين أنجليكانى، ورئيس كلية فيلادلفيا، ومن حزب التورى المجاهرين بالخلاف. وكان اختيار رجل الدين سميث للاسم المستعار مناسباً: ماركوس بورتيوس كاتو (Marcus Portius Cato) (٢٣٤– ١٤٩ قبل الميلاد) الذى كان رجل دولة رومانى ثرى، وخطيباً، ومدافعاً عن الأفكار الرومانية المحافظة. وكان يعرف باسم "كاتو الرقيب" بسبب رصده بوازع من الضمير للموظفين العموميين، وحملاته الجريئة لإبعاد أعضاء من مجلس الشيوخ الذى كان يرى أنهم ليبراليون بأكثر مما يجب أو متقبلين لأفكار أجنبية، وبخاصة حملته للقضاء على النفوذ الإغريقى وإبعاده عن المجتمع الرومانى التقليدى.

وكان سميث مصيباً فى تخمينه عن شخصية "الإنجليزى" الذى كتب *منطق العقل*، ساخراً من بين باعتباره "غريباً يتدخل فى شئوننا". وقد بدأ ظهور خطابات سميث أثناء وجود بين فى نيويورك. وعاد إلى فيلادلفيا، بناء على طلب عاجل من فرانكلين وريتنهاوز، فى مارس ١٧٧٦ من أجل دخول معركة صحفية مناسبة ــ كما كان القراصنة الأمريكيون المسلحين ينطلقون لتدمير سفن العدو، وصدر الأمر للجنود البريطانيين بإخلاء بوسطن، وفتح الكونجرس القارى الثانى الموانئ الأمريكية للتجارة مع جميع الدول الأجنبية فيما عدا إنجلترا. ومع ذلك كتب بين فى أوائل أبريل "أن تكون *مخطئاً بشرف*، أكثر رجولة من أن تكون *على صواب وضيع*". ورغم أنه قد تم الإعلان عن اسمه إلا أنه أصدر ردوده على "كاتو" تحت اسمه المستعار المثير فورستر بمعنى "رجل الأحراج"، وربما كان ذلك إشارة حنين إلى شعار *بنسلفانيا مجازين* الرئيسية، حيث عمل محرراً أمريكيا لأول مرة. أو ربما كان اعترافاً باعتقاد جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) أننا حتى إذا لم نستطع حرفياً العودة إلى الغابات التى جئنا منها، فإننا نستطيع على الأقل أن نسترد الاتصال الأخلاقى مع أنفسنا[34].

وقد ظهرت "خطابات فورستر" الأربعة دفاعاً عن *منطق العقل* فى *بنسلفانيا جورنال* و*بنسلفانيا باكت* خلال شهرى أبريل ومايو ١٧٧٦، بينما أصدر الكونجرس القارى قرارات حازمة تخبر المستعمرات أن الوقت قد حان ليخلقوا حكومات جديدة "خاضعة لسلطة الشعب". وكانت الخطابات بمثابة ملحق وتوسع *لمنطق العقل*. وتعمد "بين" الوصول إلى الجماهير العريضة متخطياً عدوه المباشر. ووجه أقساماً من الخطابات "إلى الشعب"، ممارساً ميله لإثارة مواضيع وتنويعات هامة كوسيلة "لاكتشاف وكشف الزيف فى منطق" معارضيه

الأيديولوجيين. وقال بين إن طلب كاتو "لتسوية الاختلافات" مع إنجلترا، كما لو كـانت البلـد الأم ومستعمراتها لم يدخلوا إلا فى "مشاجرة محبين"، هو "مجرد بعبع للتخويف" جاء متـأخراً جداً فى المباراة "لقد قضى الأمر! وأصبح من الماضى!" وكان إصرار كاتو علـى مخاطبـة شعب بنسلفانيا فقط يكشف عن جهله بقوة المستعمرات المترابطة. وكان نقده "للقيـود" علـى حرية الصحافة على غير أساس، إن الجدال ينطوى "على انتظام فى حركته مثل السـنجاب... الذى يقفز من مكان إلى آخر لأنه لا يستطيع أن يثبت فى مكان واحد". وأشار بيـن بمـرارة خاصة إلى أن كاتو أساء فهم السبب فى أن أوروبا تنظر باهتمام متزايد عن ذى قبـل إلـى المستعمرات ــ ليس كحليف جاحد ولكن كحليف اقتصادى وسياسى محتمل[35].

وقد انضم أيضاً المحامى الشهير جون آدمز إلى الجوقة كواحد من أوائل نقـاد *منطـق العقل الأشد عنداً*. وأثناء مروره فى نيويورك فى أواخر يناير فـى طريقـه إلـى فيلادلفيـا والكونجرس، حصل آدمز على نسختين من الكتيب. احتفظ بأحدهما وأرسـل الآخـر إلـى زوجته، أبيجيل (Abigail)، فى برينترى بماساشوسيتس، معلقاً لها ــ ولصديقيه وليم تيـودور (William Tudor) وجيمس وارين (James Warren) ــ بأن المؤلف "لديه كفاءة للهدم أكثر من كفاءة البناء... وأنا أعتقد أن جميع [حجج الاستقلال] الواردة بكتابـه مبتذلـة.. إنـه كـاتب متحمس، ولكنه جاهل تماماً بعلم الحكم"[36].

كان آدمز يشارك بين فى الميل نحو الاستقلال ولكنه كان يخشى من عداوتـه للنمـوذج الدستورى البريطانى والتأثير المتهور لهذه الراديكالية أو الأسوأ، الفوضى على الشعب فـى لحظة متفجرة كهذه. وكانت نظرة بين المتحمسة لأمريكا، بالنسبة لآدمز المحافظ، مسرفة فـى "الديمقراطية"، وللرد على ذلك ألف كتيباً فى شكل رسائل أسماه "أفكار عن الحكومة". وعلـى عكس إصرار بين بأن الملكية غير مشروعة على الإطلاق، كان آدمز يرى أن الناس تنشـد أمان البنية فى مؤسساتهم. وكان آدمز، فى أعوام تالية، يشير إلى بين على أنه "نجم الكوارث" و "الشهاب الكارثى" إشارة إلى النقطة الرئيسية للخلاف بينهما. فبالنسبة لآدمز كانت الحكومـة المتوازنة مظهراً لحاجة المجتمع الأساسية إلى "إطار، ونظام، وخطة... إمبراطوريـة مـن القوانين وليس من الرجال"[37].

وكان من رأى بين، أنه كلما قلت إدارات الحكومة كـان الوضـع أفضـل. وقـال إن المستعمرات يجب أن تتبع إيمانها بالتقييم الذاتى. وفى ٢ يوليه، ١٧٧٦، فعلت ذلـك، عندمـا تقدم ريتشارد هنرى لى باقتراح إلى الكونجرس القارى يتضمن أن "هذه المستعمرات المتحـدة

ولايات حرة ومستقلة، ويجب أن تكون كذلك". وقد تم إقرار إعلان الاستقلال المكون من ألف وثلاثمائة كلمة بعد يومين.

وفى ٩ يوليه تطوع توماس بين بخدماته كسكرتير لرابطة الأصدقاء المكونة من ألف رجل تحت قيادة الجنرال دانيل روبيردو (Daniel Roberdeau) من ميليشيا بنسلفانيا. وحمل بندقيته وترك فيلادلفيا متوجهاً إلى بيرث أمبوى، فى نيوجيرسى، حيث كان البريطانيون يحتشدون فى راريتان باى لشن هجوم على نيويورك[38].

لقد رأى توماس بين أمريكا، كما فعل جون وينثروب من قبل، كأرض اختبار مثالية لتحقيق كل ما هو صواب أصلاً بشأن أحوال البشر. ولكن بين كان يختلف عن وينثروب من ناحية كبرى: إذ كان بالتأكيد رجلاً غير متدين. إن سيادة الإنسان قد منحها الله له، ولكنه فيما وراء هذه النعمة المشروعة المباركة، افترق المجتمع والحكومة. إن القوانين التى تحدد المؤسسات السياسية التى خلقها الإنسان ملكه وله أن يعدلها أو، إذا لزم، أن يرفضها عن طريق حرية الإرادة التى وهبت له. وكان بين يقول إنه، من بين جميع المؤسسات السياسية على ظهر الأرض، تمثل الملكية أكثر ما يمكن الاستغناء عنه. لقد حان الوقت وأصبحت أمريكا فى وضع يؤهلها للتخلص من هذه الممارسة العتيقة. وما كانت المستعمرات بحاجة إليه بدلاً من ذلك هو الاتحاد عن طريق الانفصال عن "الأم" إنجلترا أو، الأفضل، إقامة نموذج لوحدة وطنية يمكن إنجازها عن طريق قوة الانفصال. كان مبدأ منطق العقل يتطلب اتخاذ إجراء حاسم، ليس فقط لأن "التصميم" هو الطبيعة المميزة للبشرية، ولكن لأن هوية أمريكا الكامنة يمكن أن تظهر على السطح نتيجة لذلك.

ومن الهام أن نتذكر عند قراءة *منطق العقل* أن إصرار بين على "القطيعة"، فى حين كان يمثل جزءاً غالباً وفعالاً فى حجته الشاملة وعمود الصواعق الذى يستقطب الرأى العام ورد فعله، فإنه لم يكن يمثل سوى الخطوة الأولى فقط. لقد تبع ذلك محنة الحرب، وأثارت فى هذه المسيرة، كما سنرى، مزيداً من الأسئلة التى تحتاج إلى إجابات عن مصطلحات تحقيق الذات القومى.



تصميم الختم الكبير للولايات المتحدة

٣

واحد مُكوّن من أجزاء متعددة (E Pluribus Unum)

تقرر. التوصية للجمعيات والمؤتمرات المعنية في المستعمرات المتحدة، التي لم تنشأ بها حتى الآن حكومة تكفي لتصريف شئونها، أن تقيم حكومة يتفق رأي ممثلي الشعب على أنها تتيح السعادة والأمن على أفضل وجه لناخبيهم بصفة خاصة، ولأمريكا بصفة عامة.

ــ قرار الكونجرس القاري، فيلادلفيا، ١٠ – ١٥ مايو، ١٧٧٦[1]

في الرابع من يوليه ١٧٧٦، اجتمع السادة أعضاء الكونجرس القاري الثاني في قاعة الاجتماعات في مقر الحكومة في بنسلفانيا لإقرار إعلان الاستقلال بعد مراجعته وتحديد تاريخ صدوره. لم تكن الوثيقة لتوقع من جانب الأعضاء إلا في ٢ أغسطس. وقد تبقى عمل واحد فقط في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة قبل استكمال جدول الأعمال: "تقرر، أن يشكل الدكتور فرانكلين، والسيد ج. آدمز، والسيد جيفرسون، لجنة لوضع تصميم لختم الولايات المتحدة الأمريكية". وكان فرانكلين الذي بلغ السبعين من عمره أكبر رجال الدولة سنا في الكونجرس. وكان مساهما نشطاً في صنع القرار الجماعي، وكان مشاركاً بالفعل في لجنة المراسلات السرية ولجنة المحافظة على الجيش القاري والإشراف عليه، إلى جانب مجموعات عديدة أخرى. وأخذ فرانكلين يعمل مع آدمز على مدى الثلاثة أسابيع السابقة في لجنة لإعداد قائمة لبروتوكولات المعاهدات مع القوى الأجنبية، وكان الرجلان في نفس الوقت يقدمان مقترحات لإجراء تعديلات صغرى على مسودة الإعلان التي أعدها جيفرسون[2].

وكان هناك بعض العجلة لاستكمال مهمة لجنة الختم الكبير بأسرع ما يمكن. وخلال أسبوع من تشكيل اللجنة، اقترح جون آدمز أن يكون الختم معداً في الوقت المناسب لوضعه على الصيغة النهائية ("الموقعة") لإعلان الاستقلال. ولما لم يكن أي من رجال الدولة الثلاثة

يملك موهبة متخصصة فى ابتكار الشعارات، فقد كانوا فى حاجة للعثور على شـخص "لـه موهبة خلاقة فى الفنون" من أجل أن "يتفرغ بنشاط بالغ" لهذه المهمة. وقد كانوا فى حاجة إلى مستشار للمساعدة فى وضع الختم الكبير. ولجأوا إلى موهبة لبن للتنوير غريـب الأطـوار، رسام سويسرى، وجامع تحف فنية، ومصمم ميداليات، ورسام خرائط، وباحث تاريخى، وفـى بعض الأحيان قاطع صور ظلية، وأعزب وحيد يعيش فى غرفتين فى حالة فوضى مليئتيـن بأشياء غير منظمة، استأجرهما من السيدة روبنسون فى شارع تشستنت فى مقابل فـاونتن إن فى فيلادلفيا. كان اسمه بيير يوجين دى سيميتيير[3].

لقد كان بطل قصتنا الذى لا نظير له رجلاً نشيطاً أعد الكثير مـن "صـور المشـاهير" الرائعة، ولكن لم تبق لنا صورة يمكن إثبات أصالتها أو صحة نسبتها للفنان. لقد ولد فـى ١٨ سبتمبر ١٧٣٧، فى جنيف، لأبويـن فرنسـيين مـن البروتسـتانت، جـان ــ هـنرى دى سيميتيير (Jean-Henri Ducimitiére)، التاجر المضارب، وجوديـث ــ أولريـك كيونيجونـد ديلورم (Judith-Ulrique Cunégonde Delorme). ولا توجد أى وثائق عن أول عقديـن مـن عمره. وعندما بلغ العشرين، ألهمته كتابات مؤسس المتحف البريطانى، السير هـانز سـلون (Hans Sloane) عن *التاريخ الطبيعى لجامايكا ورحلة إلى جامايكا*، فبدأ بيير "سلسلة أسفار" من أمستردام إلى سانت ــ يوستاش فى جزر الهند الغربية. وفى جامايكا وسانتو دومينجو، قـام بجمع عينات من الطبيعة، ورسم لوحات بالألوان المائية فى الحقول، وسجل ملاحظات علـى حياة السكان الأصليين، حيث كانت لديه فكرة نشر تاريخ طبيعى للجزر عند عودته إلى بلـده. ولكنه لم يعد قط إلى سويسرا.

وبحلول عام ١٧٦٣ كان بيير فى نيويورك. وعلى مدى العقد التـالى، عـاش مفتونـاً بأمريكا فى إقامات مؤقتة متكررة فى بيرلنجتون فى نيوجيرسى؛ وتشارلستون فـى سـاوث كارولينا؛ وفيلادلفيا؛ وبوسطن؛ ونيوبورت فى رود أيلاند. وأصبح مواطناً فى ولاية نيويورك فى ١٧٦٩. وعاد لزيارة جزر الهند الغربية لفترة قصيرة وفى خريـف ١٧٧٤ عـاد إلـى فيلادلفيا، بعد أن قرر أن مشروع التاريخ الطبيعى والمدنى سيكون ملحمة مفصلة، موضحـة بالصور الوفيرة للمستعمرات الأمريكية، "الثورة فى أمريكا الشمالية". وبقى دى سيميتيير فـى فيلادلفيا حتى وفاته المبكرة، وهو فقير ومحبط، فى أكتوبر ١٧٨٤، وغير معـروف اليـوم بالتحديد[4].

لماذا اختار فيلادلفيا؟ من المؤكد أنه كان بسبب الخصائص التى اجتذبت توم بين، الـذى

وصلها فى نفس الوقت. لقد كانت "عالماً لرجال نشطين ممتلئين حيوية"، "باريس العالم الجديد"، وقد اكتشف دى سيميتيير بسعادة بعد وصوله بوقت قصير أن حيوية المدينة أبقت على آماله مشتعلة. وكانت تبدو لناظريه كمكان مركزى، خصب يلتقى فيه "الرجال المبدعون من جميع المجتمعات" من أجل "الانسجام المتبادل... وأنا أتوقع شيئاً جديداً من عالمك الجديد، حيث أصبح عالمنا القديم منهكاً". وكانت فيلادلفيا مدينة لمكتبات فاخرة، مما أسعد مؤرخنا الهاوى، من بينها مكتبة بن فرانكلين، ودافيد جيمس دوف (David James Dove)، وفرانسيس أليسون (Francis Alison)، وجيمس لوجان (James Logan). "وكان استخدامها قاصراً على الذكور من المواطنين". وقد استفاد دى سيميتيير منها كثيراً.

وعاش دى سيميتيير بصعوبة معيشة متواضعة كفنان محترف ورسام منمنمات، وكان يستخدم القليل الذى يزيد عن حاجته من المال لإشباع نهمه الشديد لجمع الأشياء. وكان يمتلك عرضاً موثقاً للعملات وأوراق النقد الدولية فى ألبوم ملئ بأمثلة حصل عليها خلال رحلاته فى الكاريبى والمستعمرات. وكانت لديه مكتبة تضم الكتب والنشرات ومجموعة كاملة من الدوريات والنشرات السياسية، مع التركيز على تلك التى توثق الصراع الأمريكى المتنامى من أجل الاستقلال و"المنازعات بين بريطانيا العظمى والمستعمرات الأمريكية". وجمع مجموعة كبيرة من الطبعات الملونة والأكليشيهات. وبأشياء مختلفة ذات قيمة تاريخية وأثرية حصل عليها خلال رحلاته ــ ميداليات تذكارية، وحفريات، وحيوانات محنطة، وقطع من أوانى خزفية، وعظام، وبعض رؤوس السهام، ومخطوطات ممهورة بالتوقيع ــ إلى جانب هدايا أرسلها إليه مانحون متعاطفون رداً على وابل الرسائل التى أرسلها، وضع "فيلسوف الطبيعة" متعدد المواهب هذا الأساس الموسوعى "لخزانة من التحف النادرة... وأشياء من التاريخ الطبيعى"، والذى أعلن عنه مقابل رسم دخول للجمهور المحب للاطلاع بعد الثورة[5].

ورغم أن دى سيميتيير كان يميل للوحدة نوعاً ما، إلا أنه خلال عام من وصوله إلى فيلادلفيا، أصبح معروفاً فى بعض الدوائر الثقافية والسياسية. واختير عضواً فى الجمعية الفلسفية الأمريكية، وأصبح أميناً لها بعض الوقت، ولا بد أنه تقابل مع مؤسسها بنجامين فرانكلين، رغم أن فرانكلين لم يذكره فى كتاباته. وتعرف على مندوب آخر على الأقل فى الكونجرس القارى هو ريتشارد سميث (Richard Smith)، الذى حضر إلى غرف دى سيميتيير خلال استراحة فى آخر سبتمبر ١٧٧٥ وأمضى "صباحاً ممتعاً" فى رؤية ذخيرة دى سيميتيير الموسوعية. ومن الأيام الأولى له فى المدينة، كان يتردد على مكتبة روبرت أيتكين.

وفى أواخر خريف ١٧٧٤، كلفه أيتكين بحفر كليشيه "رمزى" للصفحة الأولى من *بنسلفانيا مجازين*، أو *أمريكان منثلى ميوزييام*، إلى جانب تصميم "صورة محاطة بظلال متدرجة حتى بياض الورق" لصفحة قائمة المحتويات. وقد استمرت زمالة الرجلين على مدى عشر سنوات[6].

وقد ساهم دى سيميتيير بالعديد من رسومات "بالحبر الهندى" كرسوم توضيحية، على مدى الثمانية عشر شهراً من عمر المجلة القصير، وكان من بينها نوع جديد من "المدفأة والموقد" الذى اخترعته سيدة تدعى إيبنيزير روبنسون (Ebenezer Robinson)، إلى جانب صورة "لآلة كهربائية جديدة". وقد تعاون دى سيميتيير مع أيتكين، فى عدد أبريل ١٧٧٦ فى إعداد خريطة تفصيلية "للأجزاء البحرية من فيرجينيا من جزيرة طنجة فى خليج تشيسابيك فى الشمال إلى ما تحت كيب هنرى فى الجنوب، ومن سيتى كاونتى فى الغرب إلى المحيط الأطلنطى فى الشرق"، والتى اعترف بها كأول خريطة منفصلة لفيرجينيا تنشر فى المستعمرات. ولم يشر أيتكين ناشر *بنسلفانيا مجازين*، ولا توماس بين محررها الشهير، بأى إشارة إلى دى سيميتيير فى كتاباتهما[7].

يبدو أنه من بين أعضاء اللجنة الثلاثة الأجلاء لوضع الختم الكبير، كان جون آدمز هو الذى اختار دى سيميتيير لأهم عمل يكلف به فى حياته المهنية. كان آدمز قد اتصل بالفنان السويسرى قبل ذلك بأربعة أشهر، ليطلب وضع تصميم لميدالية ذهبية لجورج واشنطن تخليداً لحصاره وانتصاره فى بوسطن فى ١٧ مارس ١٧٧٦، على الأميرال البريطانى اللورد ريتشارد هاو (Richard Howe). وأصبحت الميدالية المقترحة نموذجاً أصلياً للختم الكبير. كان وجه تصميم الميدالية يبين ــ كما قال آدمز ــ صورة لامرأة ترمز "للحرية مع رمحها *وقلنسوة* [قلنسوة الحرية، متدلية من سنّ الرمح] وهى تميل على الجنرال واشنطن". وكانت سيدة الحرية تنظر بإعجاب إلى الجنرال وتبسط ذراعها الأيسر فى حركة رشيقة نحو "الأسطول البريطانى فى ميناء بوسطن، وهو يولى ظهر سفنه كلها تجاه المدينة، والجنود الأمريكيون يتقدمون." وكان رسم دى سيميتيير للوجه الآخر للميدالية يمثل عين العناية الإلهية الشاملة فى مثلث، مع أشعة المجد تشع منه. وكان تحت العين ذراع أيمن له عضلات وبيده سيف. وكان هذا الرسم محاطاً بدائرة. وحول الدائرة توجد حلقة من الدروع، واحد لكل مستعمرة من المستعمرات الثلاث عشرة. وقد وافق الكونجرس على منح دى سيميتيير اثنين

وثلاثين دولاراً مقابل هذا التصميم.

وقد قام الجنرال واشنطن، بناء على توصية من جون جاى، بزيارة دى سيميتيير في منزله فى ١ فبراير ١٧٧٩، وجلس "بسجية سمحة جداً" لرسم صورة جانبية له بالقلم الرصاص، واستغرق ذلك ساعة تقريباً. وقد تحول الرسم فيما بعد إلى حفر رائع، وأشار واشنطن بإعجاب فيما بعد إلى "الشبه الكبير"[8].

ولم يتم سكّ الميدالية التذكارية "لواشنطن أمام بوسطن" إلا فى بداية عام ١٧٩٠، بعد وفاة دى سيميتيير بست سنوات. وقد قام بحفرها الفنان الفرنسى بيير سيمون دى فيفييه (Pierre Simon Duvivier)، على أساس منظر جانبى لواشنطن مأخوذ من التمثال النصفى الكلاسيكى لواشنطن الذى صنعه، فى ماونت فيرنون فى عام ١٧٨٥، جان أنطوان هودون (Jean-Antoine Houdon). وقد حلت محل صورة دى سيميتيير الحميمة للجنرال والسيدة لوحة يغلب عليها الطابع العسكرى: واشنطن يمتطى صهوة جواد منتصب على قائمتيه الخلفيتين بصحبة هيئة الأركان ومعاونه العسكرى على ربوة تشرف على ميناء بوسطن. ويشير واشنطن عبر كتلة من السلاح والقنابل للبريطانيين المتقهقرين فى الخلفية. وكتبت فوقه على هيئة قوس النصر كلمات *(Hostibus Primo Fugatus)* (أول مرة يُكسره فيها العدو على الفرار). وقد قدم توماس جيفرسون الميدالية إلى أول رئيس للولايات المتحدة[9].

وقد قام جيفرسون، خلال صيف تنفيذ مشروع الختم الكبير، بزيارة شقة دى سيميتيير فى مناسبتين لاستعارة كتب من مجموعة المؤلف المنتقاة، "[بازيل] مكتبة كينيت الأمريكية" (حوالى ١٦٩٦) و "ذكريات عن موطن النعيم" [نوفا سكوشيا] لجوزيف روبينو دى فيلبون (Joseph Robineau de Villebon) (١٦٩٠). وكان جيفرسون يلتمس خبرة دى سيميتيير كما فعل آدمز من قبل. لقد كان يريد تصميم شعاراً لولايته فيرجينيا. وفى أواخر يوليه، أشار جيفرسون إلى دى سيميتيير على أنه "رسام ممتاز هنا (فى فيلادلفيا) سبق أن صنع أختاماً كبرى لجامايكا وبربادوس ويقال إن كليهما جيد التصميم، وختماً للجمعية الفلسفية هنا والذى قيل لنا إنه ممتاز. ولكنها أختام باهظة الثمن. سوف يتكلف الرسم... نحو خمسون دولاراً".

وكان المفهوم بالنسبة لجيفرسون يمثل ما يعتقد دى سيميتيير أنه روح فيرجينيا. ولكى يرمز إلى تقابل التقاليد الهندية المكتشفة حديثاً مع التقاليد الإنجليزية القديمة، كان رسمه يبين صليب سانت جورج تخترق سكين مركزه. وكان نبات التبغ، وحزم القمح، وعود من الذرة الهندية، والأنهار الأربعة العظمى فى الولاية تحيط بالرسم التمثيلى المزدحم.

وكان الشعار أو "الدرع" مدعماً فى المقترح الرسمى المفصل للفنان "بشخص يرتدى الزى المعروف فى عصر الملكة إليزابيث، يمثل سير والتر رالى (Walter Raleigh) وهو يغرس بيده اليمنى علم الحرية، مكتوب عليه كلمات وثيقة الحقوق العظمى "الماجنا كارتا" (Magna Charta). وإلى الجانب الأيسر للتصميم النهائى، اقترح دى سيميتيير "جندى من الرماة من حملة البنادق من فيرجينيا فى زيه وسلاحه الرسمى الحالى". وكان هذا الدرس المرئى الطموح للتاريخ كثيفاً جداً ويستعيد الماضى بالنسبة لجيفرسون، الذى قرر أن يأخذ بشكل أكثر صلة بالموضوع ــ وببساطة: "الفضيلة تضع قدمها على طاغية منبطح أرضاً"[10].

بعد الحصول على تكليف بوضع تصميم للختم الكبير، قام آدمز وجيفرسون بمقابلة دى سيميتيير مرتين على الأقل بدون فرانكلين لمناقشة المشروعات الخاصة بهما، ميدالية واشنطن، وشعار فيرجينيا. وخلال فترة الستة أسابيع نفسها، كان جدال يتسم بالمنازعات يدور فى الكونجرس بشأن هيكل ومحتوى مسودة فرانكلين "مواد الاتحاد الكونفدرالى والاتحاد الدائم"، التى وضعت لجمع المستعمرات معاً. وبرغم التوتر الذى أثارته هذه المناقشات السرية، فإن أعضاء اللجنة الثلاثة وجدوا وقتاً للتشاور المبدئى بشأن الختم الكبير فيما بينهم. وفى يوم الثلاثاء، ١٣ أغسطس، ١٧٧٦، قام آدمز بزيارة دى سيميتيير ليسمع ما لديه عن أفكارهم المختلفة ولفحص ما يقدمه المستشار الفنان فى المقابل.

وقد قام آدمز، كما كان معتاداً طوال حياته، بالكتابة فى اليوم التالى مراجعاً بدقة تفاصيل الرحلة إلى زوجته أبيجال و "لصديق غائب" فى برينترى البعيدة. كتب يقول "إن السيد دى سيميتيير هذا رجل غريب جداً، لقد بدأ بجمع المواد لتاريخ هذه الثورة. وبدأ بأول أخبار عن سفن الشاى [أى، جمارك تاونسند فى أبريل ١٧٧٠]. كان يقطع من الصحف كل معلومة، ولو صغيرة، وكل فكرة، ويلصقها على ورق أبيض، ويرتبها تحت عنوان كل ولاية خاصة بها ويضمها فى مجلدات. إن لديه قائمة بكل فكرة ونشرة خاصة بالاستقلال"[11].

وقد عرض آدمز صياغته لفكرة فرانكلين أولاً. وكتب آدمز يقول: "يقترح دكتور ف. تصميماً للختم"، يظهر فيه "موسى يرفع عصاه ليشق البحر الأحمر، وفرعون فى عربته الحربية وقد غمره الموج ــ [ومنقوش فى أسفل التصميم] هذا الشعار: "التمرد على الطغاة طاعة لله".

وقد أعجب جيفرسون بجرس هذه العبارة إلى الحد الذى جعله يقترحها كشعار ملائم

لولاية فيرجينيا وأضافها لختمه الخاص. ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت ــ ولم يصحح له الدكتور الطيب معلوماته ــ أن الجملة قد انتحلها فرانكلين من عبارة منحوتة على قبر فى مارثا باى، بجامايكا، لجون برادشو (John Bradshaw) (١٦٠٢-١٦٥٩)، المحامى الإنجليزى ورئيس اللجنة البرلمانية التى حاكمت الملك تشارلز الأول وقضت عليه بالإعدام. وفى خطاب أرسله جيفرسون فى ١٨٢٣ إلى إدوارد إيفرت (Edward Everett)، نسب العبارة إلى "واحد فيما أعتقد من قتلة تشارلز الأول.... وصحح صياغتها إلى، 'التمرد ضد الطغاة هو طاعة لله'، ففقدت العبارة كل قوتها وجمالها"[12].

وكان فرانكلين، طبقاً للمذكرات التى كتبها بخط يده، يتخيل موسى "فى رداء الكاهن الأعظم"، وفرعون على رأسه التاج والسيف فى يده. "وكانت أشعة من عمود النار فى السحب" تصل إلى موسى، "للتعبير عن أنه يتصرف بأمر من الله". وكما اختار الله لبنى إسرائيل أن يتركوا من يضطهدهم، ويعبروا الفاصل العظيم، وينشئوا أرضاً مقدسة جديدة، فكذلك كان أبناء بريطانيا المحاصرين والمتغربين فى القرن الثامن عشر موعودين ــ ومباركين ــ ليفعلوا نفس الشئ بإدارة ظهورهم لجورج الثالث[13].

وكان توماس جيفرسون يفضل، بالإضافة إلى شعار الدكتور فرانكلين، تخيلاته، ولختار مع تغيير طفيف فى اللغة، الاستعارة القوية من الكتاب المقدس عن "بنى إسرائيل فى التيه، تقودهم سحابة بالنهار وعمود من النار فى الليل". وللوجه الآخر من الختم الكبير، تحول جيفرسون إلى تقليد مختلف تماماً. وأخبر آدمز زوجته أبيجال أن زميله يريد صورة "لزعيمى الساكسون، هنجست (Hengist)، وهورسا (Horsa)، اللذين ندعى شرف الانتساب إليهما واللذين أخذنا عنهما المبادئ السياسية وشكل الحكومة".

كان الأخوان هنجست وهورسا من زعماء الجوت (Jutes)، القبيلة الألمانية القارية التى ساعدت البريطونيين فى صد غزو البيكت والسكوت فى منتصف القرن الخامس الميلادى. وكان جيفرسون قد درس "لهجة" الأنجلوساكسون وتاريخهم فى شبابه، واستمر ذلك "هواية" له مدى حياته، لدرجة أنه صرح أنها "كثيراً ما تنطلق معى بينما أريد ألا أتخلى عن القياد". وكان اعتقاد جيفرسون الجازم أن قانون الأنجلوساكسون العام، "النظام السعيد لأسلافنا"، تشرّب بالوعى بالحقوق الطبيعية للإنسان. كما بين أن هذه الروح المبكرة قد دخلت إلى إنجلترا قبل المسيحية بمائتى عام[14].

وقد أخبر آدمز زوجته أبيجال أنه بالنسبة لفكرته للختم الكبير فإنه تأثر "كثيراً" بصورة

فى كتاب على أرفف مكتبة أسرته. "لقد اقترحت محاكمة هرقل كما نحتها [سيمون] جريبلين [Simon] Gribelin فى بعض طبعات *أعمال* اللورد شافتسبرى". واستطرد قائلاً "إن البطل يستند إلى عصاه، [ينظر إلى] الفضيلة وهى تشير إلى جبلها الوعر، بإحدى يديها، وتغريه بالصعود. وسلوث [فتاة فى رداء شفاف]، تنظر إلى مسار اللذات المزهر متكئة بخلاعة على الأرض، كاشفة عن مفاتن بلاغتها وجسدها لإغوائه إلى الرذيلة"[15].

كان أنتونى آشلى كوبر (Anthony Ashley Cooper)، ثالث إيرل لشافتسبرى، قد كلف باولو دى ماتيس لرسم هذا المشهد الرمزى فى ١٧١٢ وفى العام التالى طلب من جريبلين حفره للكتاب، *خصائص الرجال، العادات، والآراء، والأوقات*. وقد نشر جون باسكرفيل (John Baskerville) فى برمنجهام، بإنجلترا الطبعة الخامسة فى ١٧٧٣ وحصل عليها آدمز فى نفس العام. والكتاب مسجل فى كتالوج مكتبة آدمز الشخصية، الموجودة فى مكتبة بوسطن العامة. وتتدلى لوحة ماتيس الكانفا المثيرة الآن فى متحف أشموليان فى أكسفورد[16].

وكان اختيار آدمز متسقاً مع "أحلام الكلاسيكية الجديدة" للمؤسسين والمصادر النموذجية لآثار العصور القديمة التى يبحثون فيها عن الإلهام. وقد أعاد زينوفون (Xenophon) رواية قصة هرقل القديمة فى كتابه "مذكرات سقراط"، والتى ترددت كقصيدة نظمها بروديكوس (Prodicus)، أحد سوفسطائيى سيوس. ويظهر هرقل "على مشارف الرجولة ومتأملاً مستقبله". وتأتى إليه امرأتان، إحداهما تقدم طريقاً ميسراً "مزهراً" لحياة اللذة. واسمها الرذيلة. أما المرأة الثانية، الفضيلة، "فارهة الطول فى جمال بسيط"، تخبر هرقل أن "ما هو طيب فعلاً لا يمكن الحصول عليه إلا بجهد شاق" عبر مسار الحياة الوعر شديد الانحدار. ولا يبين الرسم اختيار هرقل، ولكن يمكن معرفة اختيار البطل من لغة الجسم فى لوحة جريبلين[17].

ومع اعترافه بأن الرسم "معقد جداً... وغير مبتكر" بالنسبة للشعار، فإن آدمز لم يبين لأبيجال تسلسل الأفكار الذى أوصله لهذه القصة الرمزية أصلاً. ربما كان هرقل وهو يدخل فى سن الرجولة يمثل الأمة الأمريكية، فتىً وقوى، يتعامل من منطلق التحدى المؤلم للثورة كانفصال ضرورى عن "مغريات" البلد الأم المألوفة والبالية[18].

وأخيراً جاء دور دى سيميتيير. وقد عرض على آدمز رسم صغير بالقلم الرصاص ووصف تفصيلى للختم الكبير بعنوان "شعار ولايات أمريكا". وكان التصميم مكونا من درع مركزى له "دعامتان" أو شخصان، واحد على كل جانب، مع شارة فى أعلاه، وعبارة فى أسفله. وكان الدرع مقسماً إلى ستة أجزاء، يمثل كل منها بلد أوروبى "رئيسى" جاء منه

المستوطنون إلى أمريكا: إنجلترا، واسكتلندا، وأيرلندا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا. وثلاثة عشر شعاراً مرتبة حول الدرع، تمثل "الولايات الأمريكية المستقلة".

وكانت الشخصية الواقفة إلى يمين الدرع المركزى هى ألهة الحرية، مأخوذة من تصميم دى سيميتيير لميدالية واشنطن. وكان رداؤها "عبارة عن درع (إشارة للأوقات الحالية [الحرب])". وفى يدها اليمنى "الحربة والقلنسوة" المألوفين. وفى يدها اليسرى مرساة، "شعار الأمل". وإلى يسار الدرع يقف جندى أمريكى، من سلالة حامل البنادق الذى اقترحه دى سيميتيير على جيفرسون لختم فيرجينيا. وكان هذا السيد أكثر تسليحاً، "مغطى تماماً بقميص وسروال الصيد، مع توماهوك (بلطة القتال عند الهنود الحمر)، وقرن مجوف لحمل البارود، وحقيبة، وغير ذلك، ممسكاً بندقيته بيده اليسرى"[19].

وقد اقتبس دى سيميتيير، للشارة على قمة الختم أيضاً، فكرته السابقة لميدالية واشنطن، حيث وضع "عين العناية الإلهية فى مثلث مشع تمتد أشعة ضوئه على الدرع وإلى ما وراء الدعامتين". وكان دى سيميتيير على دراية بصنع الأيقونات من دراسته لفن السحر؛ وكانت مكتبته تحتوى على نصف دستة كتب عن الموضوع. والشكل الذى يشير إليه على أنه مثلث معروف بهرم (أو *مصطبة*) التقدم، ومأخوذ من الاعتقاد السرى فى مصر بأنها مهد الحضارة — وكان هذا الاعتقاد شائعاً فى أمريكا فى القرن الثامن عشر.

والعين "التى ترى كل شئ" للخالق العليم الموجود فى كل مكان تمثل سمو عالم الروح على عالم المادة وتأكيد على أولوية "القضية الأمريكية". لقد كان بنجامين فرانكلين هو العضو الوحيد فى لجنة الختم الكبير المنتمى للماسونية. وكان رمز عين الله، "المهندس الأعظم للكون" جزءاً أساسياً من جمعية التنوير الراديكالى هذه. ولهذا السبب نسب التصميم خطأ إليه[20].

وكانت كلمات E PLURIBUS UNUM (واحد مُكوّن من أجزاء متعددة) التى تظهر فى أسفل رسم دى سيميتيير مكتوبة بحروف كبيرة سوداء فى لفافة تنفرد عند قدمى سيدة الحرية.

إن تتبع أصل "واحد مُكوّن من أجزاء متعددة" كشعار للولايات المتحدة الأمريكية يقودنا إلى لندن فى نهاية القرن السابع عشر وإلى نشرة لم تستمر طويلاً تسمى *جنتلمانز جورنال*: أو *المنوعات الشهرية*، لمحررها بيير أنطوان موتيه (Pierre Antoine Motteux)، مهاجر من الهوجونوت. وفى صفحة عنوان هذه الدورية، التى استمرت من يناير ١٦٩١ إلى نوفمبر ١٦٩٤، كانت توجد صورة يد تمسك باقة صغيرة من الزهور، ومعها شرح من موتيه، "الصورة الواردة فى هذه *المنوعات* تشير إلى عدة أشياء من بينها أنه رغم أن جزءاً

واحداً منها قد يكون مقبولاً، فإنها قد ترضى كل قارئ. لذلك فسأغامر بأن أحشده فى ما يلى، زهر الربيع وزهرة المرجريت بين للزنبق والورود". وكانت العبارة المطبوعة أسفل الصورة بها فاصلة (E Pluribus, Unum) أى "واحد *مختار من بين كثيرين*"[21].

وقد تجادل علماء الكلاسيكيات لمعرفة من أين اكتشف مونتيه بدوره هذه العبارة، ولم يصلوا إلى اتفاق على مدى عقود من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عند دراسة قصيدة فيرجيل *مورتم* (Moretum)؛ وكتاب هوراشيوس (Horace) الثانى عن *الرسائل*؛ وكتاب شيشرون (Cicero) *دى أميستيا*؛ والكتاب الرابع من *اعترافات* سانت أوجستين (St. Augustine؛ وكتاب *السياسة* لأرسطو (Aristotle)[22].

ربما كان دى سيميتيير، وهو المواظب على جمع الدوريات، على علم *بجنتلمانز جورنال* أو لم يكن على علم به، ولكن من المؤكد أنه كان قارئاً دائماً *لجنتلمانز مجازين* التى خلفت للجورنال وحظت بشعبية كبيرة؛ أو لمجلة *تريدرز منثلى انتلجينس*، التى أسسها فى لندن فى ١٧٣١ إدوارد كيف الابن (Edward Cave Jr.)، تحت الاسم المستعار "سيلفانوس أوربان (Sylvanus Urban)، نبيل من ألدرمانبرى". وعمل "كيف" محرراً لها حتى وفاته عام ١٧٥٤، وقد استمرت المجلة المحترمة ١٧٥ عاماً أخرى.

وكان هذا "السجل الثرى والجامع للحياة فى القرن الثامن عشر" يعلن عن نفسه أنه "مجموعة من جميع مجالات المعلومات والترفيه... وكل ما يستحق الاقتباس من الجرائد العديدة للأخبار والترفيه، بريطانية أو أجنبية، أى الشئون العامة، الأجنبية والمحلية". وكانت *جنتلمانز مجازين* تتمتع بشهرة أكبر وتوزيع أوسع عن أى جريدة أخرى فى ذلك الوقت، وتمتد بالاشتراكات إلى المنازل، والنوادى، والحانات للمثقفين فى المستعمرات. وبحلول عام ١٧٤١ ادعى "كبير كتابها" دكتور صموييل جونسون (Samuel Johnson) الشهير أنها "تقرأ على مدى انتشار اللغة الإنجليزية بل إننا نرى طبعاتها المتكررة... فى المستعمرات"[23].

وابتداءً من ١٧٣٢ كان يصدر مجلد سنوى فى ديسمبر يضم "مقتطفات أدبية" من الأعداد الماضية من *جنتلمانز مجازين* يحتوى على مجموعات مبوبة من المقالات، والأخبار، والأشعار تغطى الاثنى عشر شهراً الماضية. وكان يظهر فى أسفل صفحة العنوان لأعداد المقتطفات الصورة المعروفة ليد تمسك بباقة زهور، وعبارة — "E pluribus unum" بدون فاصلة هذه المرة — وبمعنى آخر "واحد مكوّن من أجزاء متعددة".

وفى حالة عدم إدراك القراء واسعى المعرفة الإشارة البصرية، كان كيف ينهى قصيدة المقدمة لمجموعة ١٧٣٤ كما يلى، "إن الشعار أصدق ما يكون بالنسبة إلى فحصنا الشهرى. ففيه تجمع المحاسن الثرية المختلفة فى مجموعة عطرة"[24].

وقد بدأ دى سيميتيير، فى صيف عام ١٧٧٥، فى واحد من المشاريع البحثية التاريخية العديدة التى قام بها أثناء إقامته فى فيلادلفيا، فى تجميع تسلسل سنوى لتاريخ بنسلفانيا، بدءاً من الأمر الملكى لوليم بين وانتهاء بعودة بنجامين فرانكلين من لندن فى مايو السابق. وكانت مصادره الأولى للأحداث الهامة هى الأعداد السابقة *لجنتلمانز مجازين* التى ترجع إلى أوائل الأربعينيات من القرن الثامن عشر. وتوجد مجموعة كاملة من هذه المجلة فى مجموعة دى سيميتيير فى الجمعية التاريخية فى بنسلفانيا[25].

وكان دى سيميتيير، فى معرفته الوثيقة ببروتوكولات وضع تصميم الشعارات ــ وهو ما دعى اللجنة للاتصال به أصلاً ــ يعرف أنه من حق الفنان تقليدياً الذى يضع تصميم الشعار أن يختار العبارة التى ترد فيه. وقد فعل ذلك بالرجوع إلى *جنتلمانز مجازين*. والعبارة تعليق صحيح على صورة لمجموعة متنوعة من ثلاث عشرة ولاية مستقلة تحيط بالأصول الأوروبية للشعب الأمريكى، وهذا الكيان داخل الكيان يزداد تماسكه داخل الدرع: (E pluribus Unum) واحد مُكوّن من أجزاء متعددة[26].

وقد قدم توماس جيفرسون، فى ٢٠ أغسطس، ١٧٧٦، نيابة عن لجنة الختم الكبير، تقريرها إلى الكونجرس. وتمشياً مع طبيعة جميع اللجان الجيدة، كان الأعضاء قد توصلوا إلى حل وسط. وقد وصف الختم على أنه قلادة (pendant). وكان الوجه الآخر يمثل الصورة التحذيرية المجازية التى اقترحها فرانكلين وجيفرسون ــ فرعون وسط مياه البحر الأحمر المنفلقة، وهو يقترب من موسى، الذى يقف منتصراً على الشاطئ، "باسطاً يده فوق البحر ليجعله يبتلع فرعون". سوف ينتصر الشعب المختار مرة أخرى، كما فعل فى حقبة قديمة. وكانت العبارة الدرامية هى "التمرد على الطغاة طاعة لله".

وكان وجه الختم يعكس مفهوم دى سيميتيير بصورة تكاد تكون حرفية، فيما عدا استبعاد مرساة سيدة الحرية، ويدها اليسرى تستقر مباشرة على درع الولايات؛ مع استبدال الجندى الأمريكى فى زيه الرسمى "المعقد" بشخصية أكثر اعتدالاً، "إلهة العدالة تمسك بسيف فى يدها اليمنى، وفى يدها اليسرى الميزان".

ولا نملك إلا أن نستنتج المناقشة التى دارت بعد تقديم التصميم، لأننا لم نعثر على أى

سجل للمناقشة، فيما عدا ملاحظة إجرائية غير مشجعة: "تقرر أن يؤجل". لقد فشلت عبارة واحد مُكوّن من أجزاء متعددة فى إثارة خيال الكونجرس القارى فى صيف عام ١٧٧٦ الحاسم[27].

لقد رفضت العبارة لأنها جاءت قبل أوانها بست سنوات. كان الجدال فى الكونجرس القارى يشعله تعريفان لأمريكا كديمقراطية: هل هى "اتحاد كونفدرالى من ولايات ذات سيادة أو أمة واحدة موحدة؟" هل يجب الحفاظ على فردية كل مستعمرة ـ وهو ما عرفه جيمس ماديسون (James Madison) فيما بعد بأنه "روح المحليات" ـ أم يجب ضم ثلاث عشرة هوية منفصلة؟ هل يجب أن تسيطر سلطة الحكومة المركزية على الولايات المنفصلة، كما طلب بنجامين فرانكلين فى بادئ الأمر، أم هل يجب توزيع السيادة؟ هل يجب توزيع الأصوات فى الكونجرس بالتناسب، طبقاً لعدد سكان كل ولاية، أم يجب أن يكون التمثيل متساويا للجميع، بصرف النظر عن الحجم؟ ونزل على جون آدمز وحى له مفعول السحر. فطبقاً لمذكرات توماس جيفرسون خلال أيام صيف ١٧٧٦ الحارة، أشار آدمز إلى فردية المستعمرات على أنها "مجرد صوت... [والأحرى] إن الكونفدرالية تجعلنا شخصاً واحداً فقط؛ وسوف تجعلنا، مثل قطع مختلفة من المعادن، فى كتلة واحدة مشتركة"[28].

وفى خضم الصراع الدائر فى الكونجرس، تلقت الولايات تشجيعاً عن طريق قرار رسمى بالبحث عن "هياكل بديلة للسلطة" بصياغة واعتماد دساتيرها المؤقتة، والتى وصفها الكونجرس بأنها تهدف إلى أن تكون "كافية لتصريف شئونها". وفيما بين يناير وديسمبر ١٧٧٦، نفذت ذلك نيوهامبشاير، وساوث كارولينا، ورود أيلاند، وفيرجينيا، ونيوجيرسى، وديلاوير، وبنسلفانيا، وكونتيكيت، وماريلاند، ونورث كارولينا، بهذا الترتيب. وتبعتها جورجيا، ونيويورك، وفيرمونت فى يوليه ١٧٧٧.

كانت دساتير "الولايات الحرة والمستقلة" الثلاثة عشر مختلفة، طبقاً للطبيعة المثالية للجمهورية التى تندمج ببطء وإصرار. وقد عملت بعض اللجان التشريعية خلف أبواب مغلقة بدون إجراء استفتاء. وفتحت لجان أخرى أبواب التشاور والتداول للجمهور. وتم التفكير ملياً فى فصل السلطات نحو طرفى النقيض. فقد وضعت بعض الولايات بصورة قوية صنع القرار ضمن اختصاص هيئة تشريعية من مجلسين، فى حين عهدت ولايات أخرى بالسلطة

الأكبر لرئيس الجهاز التنفيذى. ولم تأخذ بنسلفانيا بأى من هذين الخيارين، وركزت سلطة الحكومة الكاملة فى جمعية عامة من مجلس واحد منتخبة من الشعب[29].

وقد تم خلق كيان "خارج القانون"، وهو مجلس الكونفدرالية الأمريكية استجابة لضرورة قصوى فى ١٧٧٤. وأصبح إنشاء أداة رسمية حكومية "للولايات المتحدة الأمريكية" الآن مطلوباً لتقديمه والموافقة عليه من جانب الولايات المؤسسة من أجل تقنين سلطة الكونجرس وتوضيح حدود سلطاته. وتم صياغة مواد الاتحاد الكونفدرالى للبدء فى تعريف "تحالف راسخ للصداقة" بين الولايات. وبموجب تلك المواد، تكون أغلبية من تسع ولايات مطلوبة للتصديق على القرارات الكبرى مثل إعلان الحرب، وتوقيع المعاهدات، وإصدار النقد. وفى التحليل الأخير، تكون كل ولاية قد احتفظت بقدر من "السلطة، أو الولاية القانونية أو الحقوق" التى لم تفوض بوضوح "للولايات المتحدة". وفى أول مارس، ١٧٨١، ومع الموافقة النهائية على تشريع ولاية ماريلاند، تم التصديق على مواد الاتحاد الكونفدرالى بالإجماع[30].

وفى ٢٣ أغسطس، وبعد خمسة أشهر من التصديق، رفض الكونجرس رسومات الختم الكبير الجديد الذى قدمه فرانسيس هوبكنسون، المصمم الشهير لأول علم رسمى للولايات المتحدة، وقرر أنّ "عمله المزخرف متعدد الألوان... من اللون الأحمر، والأبيض، والأزرق.. يجب عدم الأخذ به". ومر عام آخر. وفى ربيع عام ١٧٨٢، عين الكونجرس لجنة ثالثة للختم الكبير لتولى هذا الأمر. وتم اختيار الأعضاء النشطاء الثلاثة: آرثر ميدلتون (Arthur Middleton)، القادم من تشارلستون، بساوث كارولينا، رئيساً للجنة؛ وإلياس بودينوت (Elias Boudinot) من نيوجيرسى، رئيساً للكونجرس القارى، والذى أصبح أول رئيس للجمعية الأمريكية للكتاب المقدس؛ وجون روتلدج (John Rutledge) الحاكم السابق لساوث كارولينا. وقد انضم إليهم بصفة غير رسمية آرثر لى (Arthur Lee) من وستمورلاند كاونتى، فى فيرجينيا، وهو أحد المندوبين الذين أوفدوا إلى بلاط جورج الثالث لتقديم التماس غصن الزيتون. وكما فعلت اللجنة الأولى مع دى سيميتيير، فقد تعاقدت هذه المجموعة مع مستشار، وهو محامى شاب فنان من فيلادلفيا له علم بفن إعداد الشعارات واسمه وليم بارتون (William Barton)[31].

وبدأ بارتون العمل فوراً وبسرعة. وفى أقل من أسبوع، فيما بين ٤ أو ٥ مايو إلى ٩

مايو، ١٧٨٢، قدم عدداً من التصميمات المعقدة. وكانت العناصر الهامة فيما أسماه أول "إنجاز عسكري" للختم الكبير للولايات المتحدة جاء بمثابة صدى واضح لأفكار دى سيميتيير ـ درع به ثلاثة عشر شريطاً أفقيا يجمعها عمود واحد رأسى قوى فى المنتصف. وكان الدرع مدعماً من جانبه الأيمن بسيدة الحرية (أسماها بارتون "عبقرية أمريكا") ممسكة بحمامة السلام فى يدها اليمنى وإلى الجانب الأيسر يوجد فارس مدجج بالسلاح.

وفى رسم ثان، للوجه الآخر للختم، أضاف بارتون فكرة أخرى تتكر بفكرة دى سيميتيير. فقد اقترح درعاً له حافة مكونة من ثلاثة عشر درعاً صغيراً يعلوها نسر. وقد بقيت "السيدة الجميلة بردائها الفضفاض" فى مكانها. وتم تحويل الشكل الداعم الجديد إلى اليسار إلى جندى أمريكى يرتدى زى الجيش القارى، وأكمل التصميم هرم ذهبى من ثلاث عشرة درجة فى قمته عين ترى كل شئ.

وقدم بارتون مجموعة من عبارات لاتينية وطنية وقوية للولايات المتحدة الأمريكية، مفضلاً *(Virtus sola invicta)* ("الفضيلة وحدها لا تقهر") *(Deo favente),* ("بفضل الله")، *(In vindiciam libertatis),* ("دفاعاً عن الحرية")، *(Perennis)* (وتبقى على مر السنين")[32].

وقد وضع الملف التجميعى فى "اليدين المنظمتين" لسكرتير الكونجرس الدائم المنتخب بالإجماع، وهو رجل كان حاضراً منذ إنشائه فى عام ١٧٧٤، ووقع على إعلان الاستقلال الأصلى فى ٤ يوليه، ١٧٧٦، وسوف يستمر حتى تصل الحكومة الفيدرالية إلى السلطة فى ١٧٨٩. تلقى تشارلز طومسون (Charles Thomson) (١٧٢٩-١٨٢٤) ملفاً سميكاً يضم مقترحات، ورسومات، وملاحظات حصيلة جهد ست سنوات للجان الختم الكبير. وقد كُلف بأن "يقوم بتقدير الموقف" واتخاذ قرار. لم يكن هناك رجل أفضل لتولى مسئولية بمثل هذه الأهمية. وكان هذا الكويكر الأيرلندى المولود فى ديرى، برصانته، وعمق تفكيره، وأمانته، وطوله الذى يقترب من ستة أقدام، "وملامحه المتغضنة وعيناه اللامعتان" يعتبر فى نظر زملائه "روح" الكونجرس. وعندما تقاعد طومسون من الحياة العامة، قام هذا الناظر السابق للمدرسة، ومدرس اللغة اللاتينية، والمؤرخ الهاوى بحماس مفرط بتنفيذ مشروعه الذى نذر له نفسه بحماس طوال عشرين عاماً لترجمة العهد القديم والعهد الجديد من اليونانية إلى الإنجليزية. وقد نشر العمل المكون من أربعة أجزاء فى ١٨٠٨ وحظى بإعجاب شديد[33].

وللوصول إلى التصميم النهائى، غاص طومسون بجسارة فى تلك "الأحراج الفكرية للمواضيع الكلاسيكية والواردة فى الكتاب المقدس" وفحص بعناية العناصر الكثيرة التى قدمتها

اللجان الثلاث. ثم أعد رسماً مبدئياً من جانبه لتصميم لستمر ــ مع تعديلات بسيطة ــ مستخدماً حتى الآن. وكانت لمسات بيير يوجين دى سيميتيير هى الغالبة. وبدأ طومسون تقريره الذى قدمه فى ٢٠ يونيه ١٧٨٢ قائلاً، "إن سكرتير كونجرس الولايات المتحدة الذى أحيلت إليه عدة تقارير للجان خاصة بتصميم الختم الكبير"، عرض صورة للنسر الأصلع الأمريكى الموطن ليكون الشخصية الرئيسية القوية فى الواجهة الأمامية للختم وقد فرد جناحيه العريضين ونيله الذى يشبه المروحة كما لو كان يطير، و"يحلق ويرتفع". فقد جاء فى سفر الخروج ١٩: ٤ كما تكلم الله مع مهاجرى إسرائيل، "أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين، وأنا حملتكم على أجنحة النسور، وجئت بكم إلىّ". وفى سفر الرؤيا ١٢، "إن جناحى النسر العظيم" يمثلان "العناية الإلهية ووسيلة الله القادر للانتصار على أعداء شعبه". والنسر المنقذ يحمل درعاً على صدره "بدون أى مساعدة من الآخرين"، كما أوضح طومسون "لإعلان أن الولايات المتحدة الأمريكية عليها أن تعتمد على فضائلها الخاصة".

وكان الدرع يحمل شارة من ثلاثة عشر شريطاً متبادلاً من الأحمر ("الجرأة والبسالة") والأبيض ("النقاء والبراءة") تمثل "الولايات المختلفة". وكانت الشرائط على خلفية زرقاء ("لون الرئيس، ويدل على اليقظة، والمثابرة، والعدل")، تربط الجميع وتمثل الكونجرس. وكان المخلب الأيمن للنسر يقبض على غصن زيتون به ثلاث عشرة ورقة (السلام)، وفى الأيسر، حزمة من ثلاثة عشر سهماً (الحرب). وفوق رأسه المتميز والذى يعتقد على سبيل الخطأ أنه عرف تنتظم كوكبة من ثلاث عشرة نجمة داود السداسية، مرتبة فى دائرة تحيط بها أشعة لامعة ("أمة جديدة تحتل مكانها بين الدول الأخرى ذات السيادة")، وحشد من السحب المتراكمة. وكان رأس النسر الأبىّ متجهاً إلى اليمين، وهو الاتجاه التقليدى للشرف فى شارات النبالة، بحيث تحدق عينه اليسرى للخارج. ويقبض منقار النسر على علم متموج على شكل شريط يحمل عبارة دى سيميتيير الأصلية مرة أخرى، **E PLURIBUS UNUM**.

أما على الوجه الآخر (الخلفى)، فقد أراد طومسون ــ بلغة وصفية مألوفة مرة أخرى ــ وضع هرم غير كامل ("القوة والتحمل")، وفى قمته عين فى مثلث "محاطة بهالة". وقد انتبه طومسون لرسالة بارتون ولكن فضّل على خيارات المحامى اللاتينية المألوفة المتنوعة، عبارتين من فيرجيل يفضلهما هو. وقد وضع طومسون فوق العين كلمات **ANNUIT COEPTIS** "الرب راض عن مشروعنا". وفى قاعدة الهرم الأحرف العددية **MDCCLXXVI** (١٧٧٦)، وتحتها كلمات **NOVUS ORDO SECLORUM** (دورة أخرى من العصور).

وتشير عبارة *Annuit coeptis* إلى السطر ٦٢٥ من الكتاب التاسع من الإنيادة (Aeneid). والكلمات موجودة أيضاً على شكل مختلف نوعاً ما في *جورجيكس* (Georgics)، الكتاب ٤٠ السطر الأول. ولاشك أن طومسون كان، في الحالتين، يلتمس من عين العناية الإلهية أن تكون "مؤيدة لأعمال أمريكا". وقد أدت التفسيرات المتأخرة إلى ترجمة *Annuit coeptis* إلى صيغة الفعل التام، "لقد أيد الله أعمالنا". أما *Novus ordo seclorum* فمأخوذة بتصرف من كتاب فيرجيل *إيكلوج* (Virgil's Eclogues)، الكتاب ٤، السطر ٥، والذي يمكن قراءته على أنه "السلسلة العظمى للعصور تبدأ من جديد" أو حديثاً، "نظام جديد للعصور".

إن وضوح الاقتباس من فيرجيل (٧٠-١٩ قبل الميلاد) في الختم الكبير ليس مفاجأة. لقد كان طومسون من علماء اللاتينية، وكان عام ١٧٨٢ يمثل الذكرى المئوية الثامنة عشرة على وفاة الشاعر. ولاستكمال موضوع فيرجيل، فربما يكون طومسون على علم بعبارة E pluribus unum من قراءته "لمورتم" Moretum، السطر ١٠٤، ولكن، كما لاحظنا، فإن دي سيميتيير قد اقتبس هذه الكلمات من *جنتلمانز مجازين*[34].

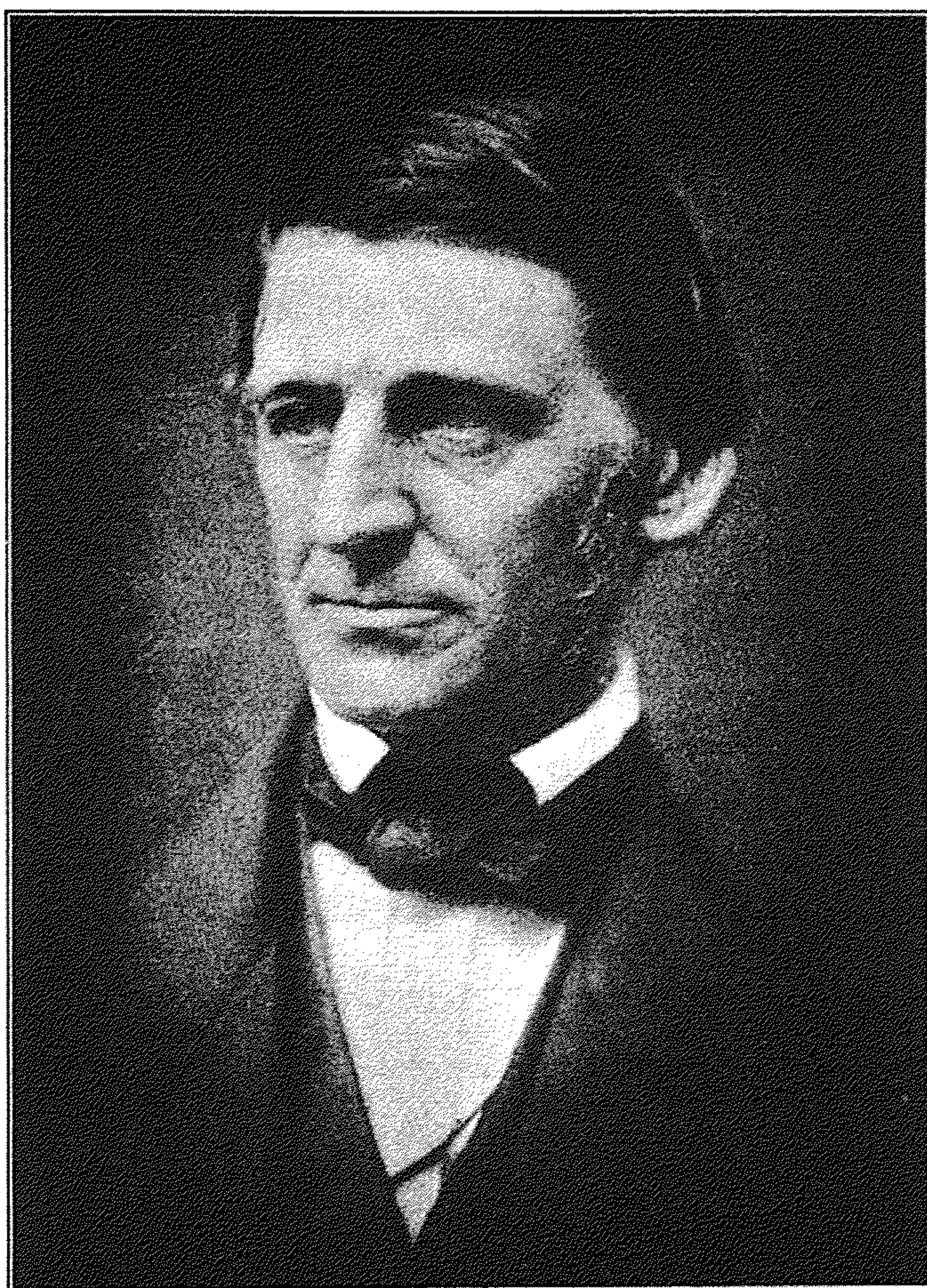
إن القالب النحاسي للختم الكبير، بقطر يقل قليلاً عن بوصتين ونصف، ربما يكون قد نحت في محل روبرت سكوت (Robert Scot) في شارع فرانت في فيلادلفيا. لقد تلقى مكتب طومسون في مقر الحكومة في فيلادلفيا خلال صيف ١٧٨٢ كلا من القالب ومطبعة حفر تعمل بلولب. وفي ١٦ سبتمبر تم استخدام الختم لأول مرة لتنفيذ وثيقة تمنح الجنرال جورج واشنطن سلطة التفاوض بشأن إتفاق مع البريطانيين لمعاملة أفضل لأسرى الحرب الأمريكيين. وفي ٤ مارس، ١٧٨٩، كانت البداية الفعلية للحكومة الأمريكية في ظل الدستور الجديد، وأعلن أن الختم الكبير هو ختم الولايات المتحدة وأن "واحد مُكوّن من أجزاء متعددة" (E Pluribus Unum) هو "الشعار الوطني". وقد ظهر باستمرار منذ ذلك الوقت على أختام رئيس الجمهورية، والمحكمة العليا للولايات المتحدة، ووزارة الخارجية، وغيرها[35].

أما بالنسبة لبيير ــ يوجين دي سيميتيير، فإنه وضع تصميم شعاره الشخصي، درع وخوذة وسيفان متقاطعان داخل الدرع، مع عبارة *"J'espere"* ("إنني آمل") مكتوبة على علم البطولة أسفله، ولكن الأمل لم يكن كافياً لمدّه بأسباب الحياة. وكان الدخل من العروض المنظمة للعامة بواقع "نصف دولار للتذكرة" في أيام الثلاثاء، والخميس، والسبت في متحفه المنزلي في شارع آرش لا يكفي لسداد الفواتير المتزايدة. وكان يبيع بعض الرسومات مقابل عشرة شلنات ولكنه لم يقدم على بيع كل مجموعة نفائسه رغم أنه في خريف عام ١٧٨٤

كان يموت جوعاً مع شدة المرض مما حال بينه وبين تحقيق حلمه بتقديم تاريخ مصور "لثورتنا المجيدة". وكما كتب دى سيميتيير عندما اقترب من النهاية الحزينة لحياته فى أمريكا، "... لن يتفوق علىّ أحد فى الحماس والرغبة فى أن أكون مفيداً فعلاً للشعب الذى عشت معه لسنوات عديدة والذى أحمل له كل تقدير"[36].

إن الجمال المعبر لعبارة "واحد مُكوّن من أجزاء متعددة" كمثل أمريكى أعلى جاء مع التسوية البطيئة للخلافات الرئيسية بين المؤسسين. وقد تعامل أعضاء الكونجرس القارى مع أحداث الحكم الذاتى مقابل التنظيم الجماعى على المستوى الشخصى، واحد مع الآخر. وقد تناولوا تشكيل المستعمرات الأمريكية، كلا على حدة وفى علاقة كل منهم بالآخرين، بصورة أشبه ببلدان أوروبا ذات السيادة عنها بالولايات التى تحولت إليها فى آخر الأمر. وهذا هو السبب فى أن عبارة "واحد مُكوّن من أجزاء متعددة" استغرقت وقتاً طويلاً للموافقة عليها.

إن هذا التماسك الذى تم بجهد شاق، قد ضاع مع الحرب الأهلية. فبعد انقسام الاتحاد، وبمعاناة شديدة طويلة، جاء تزايد الهجرة الذى فرض تغييراً آخر فى تعريف الصفة القومية. لقد أصبحت تلك العبارة صورة لنواة الديمقراطية. فبصرف النظر عن كيفية تصنيف المكونات المختلفة التى دخلت فى تكوين الأمة ــ أيديولوجيات أو أجناس، مجاورات، أو مدن ريفية ــ فقد استطاعت أن تتحول إلى نواة لمعنى جديد. كانت هوية الثقافة الأمريكية موجودة لتكتشف داخل كل مواطن، بطريقته الخاصة. وأصبح تعريف أمريكا هو المجموع الكلى لأجزائها المكونة لها. وكما سيبين رالف والدو إيمرسون الآن، أنه مادامت حياة العقل سليمة ومزدهرة، فإن "أمريكا" ستستمر فى التطور والتوسع.



رالف والدو إيمرسون

٤

الاعتماد على الذات

إن السيد إيمرسون هو أفضل من يمثل الشخصية الأمريكية من بين كتابنا. إن فكرة أمريكا، التى تكمن فى أعماق مؤسساتنا الأصلية، تظهر فيه بجلاء كبير. إننا نعنى فكرة الحرية الشخصية، وكرامة وقيمة الطبيعة البشرية، وتفوق الإنسان على الأحداث التى تعرض لها. إن إيمرسون أكثر الجمهوريين جمهورية، وأكثر المعارضين معارضة.

ــ تيودور باركر (Theodore Parker)، "كتابات رالف والدو إيمرسون"، *ذى ماساشوسيتس كوارترلى ريفيو* III (مارس ١٨٥٠)[1].

من المستحيل أن ينتزع المرء نفسه من القضايا التى تشغل عصره. فأنت لا تستطيع أن تتجنب السياسة مثلما لا تستطيع أن تتجنب الصقيع.

ــ رالف والدو إيمرسون، ١٨٦٢

لقد ولد فى بوسطن، "عاصمة نيو إنجلند، الآن ومن قبل"، فى ٢٥ مايو ١٨٠٣، وكان الرابع من بين ثمانية أبناء للقس وليم (William) وروث هاسكنز إيمرسون (Ruth Haskins Emerson). وكان والدو، كما كان يفضل أن يدعى، سليل أجيال من القسس تمتد إلى المتطهرين (البيوريتان) فى القرن السابع عشر. وكان والده، راعى كنيسة التوحيد الأولى، قد مات بسبب ورم فى المعدة عندما كان والدو فى الثامنة من عمره. ولتوفير وسائل العيش اضطرت الأم روث، ابنة صانع الخمور، إلى بيع مكتبة الأسرة وتأجير بعض حجرات المنزل مع تقديم الطعام للمستأجرين، وعملت كخادمة. ورغم أن أسرة إيمرسون كانت تعيش فى فقر،

إلا أن احترامها للتعليم واعتدادها بالتثقيف الذاتى كان عميقاً. وقد التحق والدو بمدرسة بوسطن اللاتينية العامة، بتشجيع من عمته العانس المثقفة، المتدينة، قوية الشخصية، مارى مودى إيمرسون (Mary Moody Emerson).

وقد التحق الغلام بجامعة هارفرد فى سن الرابعة عشرة، وعمل كخادم فى سكن رئيس الجامعة ومدرساً لزملائه فى المدرسة خلال عطلة الفصل الدراسى. وقد اختاره ثمانية وخمسون زميلاً من الطلبة ليكون شاعر الفصل، وأعرب والدو الصغير عن رغبته فى أن يصبح رساماً. وفى يناير ١٨٢٠، وهى المرحلة المحورية فى السنة قبل الأخيرة، بدأ فى كتابة يوميات دقيقة عن "أفكار الصعاليك المتهورة". وفى صفحاتها الأولى، وضع إيمرسون عنواناً للحدود المتوقعة لعالمه الفكرى على أنه "العالم الواسع". وكتب مفاخراً أن كلماته "مهداة لروح أمريكا". وقد تعهد بأن تكون يومياته هى "بنك ادخاره"، و "مخزنه وملجأه" و "عزاءه". وقد استمرت على مدى عقود وأصبحت ملحمة من عدة أجزاء. وهكذا بدأ التوثيق الرائع لحياة إيمرسون الفكرية التى تلتهم كل شئ، حياة فى العقل فعلاً. وكانت حياته الداخلية ذات المستويات المتعددة، وغير المستقرة، والمتناقضة يدفعها للأمام التزام أخلاقى طموح بأن يرى كل شئ، ويشعر بكل شئ ــ وفى النهاية يعيد تعريف كل شئ[2].

لنبدأ بالأهم قبل المهم. كان على المراهق الحالم أن يتخرج من الجامعة، وقد فعل ذلك، وكان ترتيبه فى منتصف الصف. ثم انتقل إلى والثام ودرّس فى مدرسة للفتيات أنشأها أخوه وليم. ونظراً لأنه كان شديد الخشية من مصير "التوسط فى المواهب والمركز"، فقد التحق بالصف الأوسط فى مدرسة هارفرد للاهوت، بإلحاح من عمته مارى مرة أخرى، التى ذكرته بتقاليد العائلة. وقد اضطربت دراسته بسبب مشاكل فى العينين، وعلل فى الرئة، والروماتزم.

وفى خريف ١٨٢٦، تلقى إيمرسون ترخيصاً من جمعية القساوسة فى ميدلسكس يمنحه الإذن فى أن يقوم بالوعظ. وبعد ثلاث سنوات أصبح راعياً أصغر للكنيسة تحت قيادة هنرى وير الابن (Henry Ware Jr.) فى الكنيسة الثانية فى بوسطن، حيث كان كوتون ماثر (Cotton Mather) رئيساً لها فى وقت سابق. وقد عين راعياً لمجلس شيوخ ولاية ماساشوسيتس، وعندما ترك وير منصبه للالتحاق بهيئة تدريس مدرسة اللاهوت فى هارفرد، ترقى إيمرسون إلى المنصب الأعلى. وتزوج محبوبته البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً، إلين لويزا تاكر (Ellen Louisa Tucker). وقد توفيت بعد عام ونصف، لإصابتها بالدرن فى شتاء ١٨٣١. وقد

كتب زوجها الحزين "لقد ذهبت إلين إلى السماء لترى، وتعرف، وتعبد، وتحب، وتلتمس من الرب.... ليرحمني أنا الخطّاء، ويصلح هذا الهزال البائس الذى خلفه موتها فى روحى"[3].

وخلال الحزن شب صراع بين الموهبة والعقيدة. كان إيمرسون الذى لم يحب قط المناقشة بلا طائل، ولا يتحمل التفاهات الاجتماعية، ودوداً أكثر منه حميماً. وكان يبتعد عن "مهمة" الزيارات للجيران كعمل يتعلق بالأبرشية، ويفضل التحديات الذهنية فى مخاطبة الجمهور. كان طوله ستة أقدام، ويرتدى حلة سوداء، ومنتصب القامة ـ إذ كان يجد الوضع المنتصب ضرورياً بسبب ألم مستمر فى الظهر ـ وله صوت رخيم يشيع السرور، وكان يمثل شخصية خطابية درامية على المنبر. وقد حذره القس ويبر من أن الجمهور يتحير من تفضيله استخدام النصوص من الكتاب المقدس لتجسيد دروسه الروحية بدلاً من الوعظ منها مباشرة، وقد أجاب إيمرسون بأنه لا يؤمن بالمعجزات.

كان السبب الظاهرى لتقديم إيمرسون لطلب الاستقالة المفاجئ من العمل الكنسى فى سبتمبر ١٨٣٢، أنه لم يعد يستطيع بضمير مرتاح أن يؤدى قداس العشاء الربانى (Communion). وقد أخبر مجلس إدارة الكنيسة الثانية "لازلنا، وقد تغير الزمن، نقوم بالعبادة بنفس القوالب البائدة لأسلافنا". وعارض أعضاء المجمع السماح "للسيد إيمرسون" الرقيق والمحترم أن يترك العمل. واقترحوا، كحل وسط، إعفاءه من تناول العشاء الربانى. وكانت معارضة إيمرسون لشعيرة القربان المقدس (Eucharist) نتيجة عن تنقيب فى ذاته عن غرض حقيقى للحياة. وكان يتساءل "أين وكيف يجدر بى أن أعيش... سيرشدنى الله"، بأمل أن يصل إلى ما وراء قيود المهنة الموروثة. "سوف أكون حراً. ولن أتمكن من ذلك إذا أخذت الأمور كما يرغب الآخرون فى ترتيبها".

وكانت أزمته الدينية مصحوبة بإرهاق عصبى وألم مزمن بالمعدة، وقد نصح الطبيب إيمرسون أن يبحث عن مناخ أكثر دفئاً. وفى يوم عيد الميلاد عام ١٨٣٢ أبحر من بوسطن على السفينة *جاسبر*، متجهاً إلى مالطة، متعهداً "أن يشق طريقه الخاص" وآملاً أن يجد فى مناخ البحر المتوسط "الشفاء" لجسمه وعقله المرهقين[4].

لقد تجول إيمرسون على مدى ثلاثة أشهر فى أرجاء "المدرسة الأوروبية". وفى إحدى الليالى فى حفل عشاء أسبوع عيد الفصح الذى أقامه فى روما زميل سابق فى هارفرد، دخل إيمرسون فى مناقشة مع جوستاف ديختال (Gustave d'Eichthal)، عالم

الاجتماع الفرنسي، وعالم التاريخ الإغريقي، وصديق الاقتصادي الإنجليزي جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill). وقد أخبر إيمرسون ديختال أنه متجه شمالاً إلى لندن ومنها إلى اسكتلندا على أمل أن يقابل الفيلسوف توماس كارليل (Thomas Carlyle)، الذي كان معجباً جداً بأعماله. وقد تفضل ديختال وأعطى إيمرسون خطاباً للتعريف به ليقدمه إلى ميل صديق كارليل. وبعد ذلك قام بجولات للفرجة في فلورنسا، وتردد على المقاهي في باريس المزدحمة، وتبع ذلك زيارات للمتاحف والمحاضرات العلمية في لندن ذات الأنشطة المختلفة. وفي أوائل أغسطس أرسل إيمرسون مذكرة إلى دكتور جيمس جيلمان (James Gillman)، في شمال مدينة هاي جيت، والذي كان يقيم في منزله الشاعر صمويل تيلور كولردج (Samuel Taylor Coleridge) الذي كان يعاني من تدهور صحته لعدة سنوات. وكانت أعمال كولردج النقدية تثير اهتمام إيمرسون بشكل كبير، ولا سيما المقالات التي تتأمل في "السياسة، والأخلاق، والدين" التي جاءت في كتاب *الصديق* The Friend (١٨١٨) و*معينات على التأمل* Aids to Reflection (١٨٢٩)، التي تهدف إلى "توجيه انتباه القارئ لعلم الكلمات". وقد تمكن إيمرسون، مثل العديد من المريدين قبله، بفضل سماحة الدكتور جيلمان، من قضاء ساعة في مناقشة مستفيضة مع الأديب كبير السن، الذي مات بعد عام واحد[5].

وقد جاءت ثمرة رحلات إيمرسون العلاجية في صباح يوم أحد في أواخر أغسطس، قبل انتهاء رحلته بعشرة أيام. وكان يحمل خطاباً زوّده به ميل، عندما قام إيمرسون بالحجة التي توقعها طويلاً إلى مزرعة منعزلة في "الفردوس الذابل" في كريجينبوتوك السفلي، في جنوب غرب اسكتلندا، على بعد ثلاثين ميلا جنوب إدنبره وستة عشر ميلاً من دامفرايز، لمقابلة الناقد الصريح والفيلسوف الاجتماعي، "ويخفي نفسه في خلوة في التلال، في آجام مدينة ريفية مغمورة"، ولم يكن يعرف أن ميل قد كتب بالفعل إلى توماس كارليل مباشرة. وخلال عدة ساعات من وصول إيمرسون إلى منزل كارليل الحجري المكون من طابقين، خرج الرجلان لمسيرة طويلة في الحقول والتلال الصخرية متعددة الألوان، "ثم ألقيا نظرة على بلد وردزورث"، ثم توقفا للجلوس على صخور عليها طحالب، "واستمرا في الحديث" كما "يهوى قلبهما" عن خلود الروح[6].

وكانت زوجة كارليل جين بايلي ويلش (Jane Baillie Welsh) الجميلة المتألقة تتذكر زيارة إيمرسون على أنها "زيارة من ملاك". وقد أطلقت أول مقابلة مكاتبات استمرت ثمانية

وثلاثين عاماً وثقت عرى صداقة تاريخية. وكان جيمس الأب الاسكتلندى المتشامخ والبيوريتانى المعمارى، يشارك والدة كارليل، مارجريت، اعتقاد راسخ فى قيمة التعليم. وكان توماس يذهب ماشياً من منزله الريفى فى قرية إكلفيشان لحضور الدروس فى جامعة إدنبره. وقد أمضى سنوات متقطعة كمدرس وناظر مدرسة، بعد أن ترك عام أمضاه فى تدريب يعوزه الحماس على الكهنوت. وفى منتصف العشرينات من عمره مرّ كارليل بصحوة روحية واغتراب عن الدين التقليدى. وخصص مزيداً من الوقت للكتابة فى المجلات والدراسة العلمية المستقلة. وكتب دراسة جليلة عن *حياة شيلر* وأنغمس فى الدراسات الرائدة وترجمة أعمال يوهان فولفجانج فون جوته (Johann Wolfgang von Goethe)، وبدأ تبادلاً منتظماً للرسائل معه[7].

وكان تبحّر كارليل فى اللغة والآداب الألمانية يتيح مفتاحاً لبوابة ثقافية كبرى لإيمرسون. وفى العام السابق لمقابلتهما معاً، استعار إيمرسون من مكتبة بوسطن أثينيوم، وقرأ وأعجب بترجمة كارليل ذات الثلاثة أجزاء لكتاب جوته *تلمذة ولهلم مايستر*. كما كان إيمرسون يتابع أيضاً مقالات كارليل المثيرة فى مجلة *إدنبره ريفيو* بما فيها "الخصائص"، "وحالة الأدب الألمانى" و "*عرض تيلور التاريخى للشعر الألمانى*". وكان إيمرسون، قبل ذلك، قد قرأ ملاحظات كارليل المفعمة بالحيوية عن علم ما وراء الطبيعة الألمانى فى مقال نشر فى عام ١٨٢٩ فى *فورين ريفيو* عن نوفاليس (Novalis)، وهو الاسم المستعار لجورج فريدريك فيليب فون هاردنبرج (Georg Friedrich Philipp von Hardenberg). وكان نوفاليس، الشاعر الرومانسى البروسى المعروف لدى الجمهور على أنه "نبى الرومانسية"، يعتقد أن معرفة "الزهرة الزرقاء البعيدة للمطلق" الرمزية، سوف تستعصى دائماً على إدراك البشر لها، ومع ذلك فقد استمر فى شوق لها ومدفوعاً للبحث عن لمحة للخلاص[8].

ومضى كارليل بهذه المقدمة خطوة أخرى للأمام بقراءات دقيقة تفسيرية لعمل إيمانويل كانط الضخم *نقد العقل الخالص* (١٧٨١، ١٧٨٧) *ونقد العقل العملى* (١٧٨٨). وفى مقاله عن نوفاليس توسع كارليل فى تصوير كانط "للمثالى" العصامى كرجل قوى الإرادة يحظى "بملكة أعلى للفهم". لقد كان النموذج المثالى لدى كانط "ذو المبادئ السامية" يعيش بفلسفة "التسامى"، أى بعبارة أخرى "الارتفاع فوق الحواس". وكان هدف "المثالى المتسامى" هو تسخير طاقة ذكائه لتحقيق غاية روحية، وتنمية المعرفة، وتقوية

ذهنه لتحقيق عادات الإحساس الرفيع، وينظر "بتركيز على الوجود، حتى تتهاوى كل قشور البذور والزخارف الدنيوية واحدة إثر الأخرى". وبالخروج من غابة الالهاء، سيظهر العالم النقى غير العادى كرؤيا فى فضاء مقطوع الشجر غارق فى الندى، كما حدث مع آدم فى الجنة[9].

وقد وصل إيمرسون، عن طريق كارليل، إلى فهم إصرار كانط على الذاتية الشديدة كطريقة لتحقيق الحكمة، وتأكيد كانط على التعاون بين العقل والإدراك الحسى. وفى أول خطاب أرسله إلى كارليل، فى مايو، ١٨٣٤، لاحظ إيمرسون أن "الناطق بالحقيقة" يجب أن يكون قبل كل شئ "مفكرا". وعندما نشرت *أول سلسلة مقالات* لإيمرسون فى ربيع عام ١٨٤١، كرر هذا التشبيه، مساويا بين المثالية والتسامى فى خطاب ألقاه فى المعبد الماسونى فى بوسطن ثم نشره بعد ذلك فى *مجلة ديال مجازين*[10].

لقد وصل إيمرسون إلى بوسطن فى أوائل أكتوبر، بعد أن انتعش بالاعتراف بنهم من الينابيع المتدفقة المسكرة للرومانسية البريطانية والفلسفة الأوروبية، وهو مشحون لتطبيق ما تعلمه من دروس. وفى الشهر التالى ألقى أول خطبة أمام جمعية التاريخ الطبيعى فى المعبد الماسونى. وقد وسع إيمرسون، خلال السنوات العديدة التالية، من نطاق موضوعه الدنيوى، متحدثا فى المدارس وجمعيات تعليم الكبار. وقد حاضر إيمرسون فى التاريخ، والثقافة الإنسانية، والأخلاقيات، والأدب الإنجليزى، مقابل أجر ومصاريف السفر، مع التأكيد الشديد على رفض القيود التجريبية لجون لوك ومؤيدا للخيال الشعرى الراديكالى "الأولى" للشاعر كولريدج، ممثل فكرة *أنا* غير محدود". ولم يمنع إيمرسون من الاستمرار فى اتصالاته واسعة المجال ملقيا المواعظ كل يوم أحد فى منابر مختلفة بالقرب من بيته أو بعيدة حتى مين ونيويورك، أنه لم تكن له ولاية أبرشية دائمة[11].

وقد تزوج إيمرسون من ليديا (التى كان يفضل أن يدعوها "ليديان") جاكسون (Lydia Jackson) من بليموث وانتقل معها إلى منزل يقع على فدانين من المروج والأحراش بالقرب من كمبردج تيرنبايك، على بعد نصف ميل من قرية كونكورد، وقد اشتراها فى مقابل ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار بعائد حصل عليه من ممتلكات زوجته الراحلة. وقد زودت هذه الموارد المالية الإضافية الموروثة إيمرسون بما يكفى لمتابعة دراسته الحرة[12].

وفى سبتمبر ١٨٣٦ نشرت شركة جيمس مونرو فى بوسطن ألف نسخة من أول

كتب إيمرسون، "نشرة من ٩٥ صفحة زرقاء" مكونة من مقالات قصيرة، حماسية عنوانها جميعاً *الطبيعة*. وبهذه المناسبة، بدأت مجموعة من المفكرين، المرتبطين معاً بصورة فضفاضة ذوى التفكير المشابه، والكهنة فى كنيسة التوحيد، والمصلحين الاجتماعيين، وأتباع المذهب الطبيعى، والمعلمين، والفنانين، والكتاب الراديكاليين من بوسطن وكمبردج فى الاجتماع أسبوعياً لتناول الشاى والمناقشة السقراطية. وكان من أوائلهم صديق إيمرسون الذى يصغره بعامين، القس فريدريك هنرى هيدج (Frederic Henry Hedge). أحد علماء كولريدج من اتباع تعاليم سويدنبورج راعى كنيسة القدس الجديدة الذى تعلم فى ألمانيا، يتذكر هيدج جوّ أول "ندوة" عقدت فى منزل جورج ريبلى فى بوسطن على أنه تميز "باتفاق جماعى على أن موقف الرأى العام من اللاهوت والفلسفة كان... غير مرض تماماً".

وقد نمت المجموعة، خلال السبع سنوات التالية، لتشمل أموس برونسون ألكوت (Amos Bronson Alcott)، وإليزابيث بالمر بيبودى (Elizabeth Palmer Peabody)، ووليم إليرى تشاننج (William Ellery Channing)، وأورستس براونسون (Orestes Brownson)، وجونز فيرى (Jones Very)، ومرجريت فولر (Margaret Fuller)، ووليم هنرى فورنس (William Henry Furness)، وجيمس مارش (James Marsh)، وتيودور باركر (Theodore Parker)، وانضم إليهم فيما بعد هنرى دافيد ثورو (Henry David Thoreau). وكان كل منهم موضع تقدير الآخرين لشخصيته الفريدة، وقد تجمعوا معاً استجابة لمناشدة إيمرسون الحماسية فى بداية مقالات *الطبيعة* للتفكير بطريقة مبتكرة وتغير طرق مناقشة مقدسات "الهيكل الداخلى"[13].

وقد حذر إيمرسون زملاءه المعجبين به، استلهاماً لمفهوم إلهامى رومانسى آخر، جاء هذه المرة من وليم وردزورث، من أن الجهد الاستبطانى المؤلم مطلوب "للنظر فى حياة الأشياء". وكان تفكيرهم المتواصل يحمل القدرة على أن يصبح منبهاً "مقلقاً ومثرياً" من أجل ثقافة أمريكية جديدة، تؤدى فى النهاية إلى لغة وأدب أمريكيين جديدين. وقد كتب إيمرسون فى افتتاحية كتابه *الطبيعة* قائلاً "لقد نظرت الأجيال السابقة إلى الله والطبيعة وجهاً لوجه؛ أما نحن فقد نظرنا من خلال أعينهم"، وكان فى ذلك يحاول أن يعبر عن حق المولد* لجيله. "لماذا لا نحاول نحن أيضاً أن نستمتع بعلاقة أصيلة مع الكون؟ لماذا لا يكون لنا شعر

* حق المولد هو امتياز عائد لشخص ما بسبب ولادته فى بلد معين (المترجم).

وفلسفة النظرة الثاقبة وليس للتقليد، ولا يكون لدينا دين وفقاً لرؤيا خاصة بنا، وليس وفقاً لتاريخهم؟"[14]

وقد أعلن إيمرسون قرب نهاية كتاب *الطبيعة* أنه سوف يكرّس نفسه "للمراعاة الكاملة والمخلصة للحقيقة". وقرر القيام بمراجعة شاملة لشخصيته عن طريق "انطلاقة طبيعية للروح، وصحوة ذاتية مستمرة، وتواضع تام". وبذلك فقط سوف يتمكن من الشعور بالوجود المتأصل لله. ويوضح إيمرسون فى *يومياته أنه قرر* عندما كان مراهقاً أنه سوف يتتبع مثال مجتمع شعراء وموسيقيى أورفيوس الإغريقى القدامى، الذين حاولوا تطهير أنفسهم، ليس داخل جدران المعابد، ولكن بواسطة الطقوس الشخصية للإنجذاب الصوفى[15].

وقد ألقى إيمرسون محاضرته رقم مائة، فى عام ١٨٨٠ بعد أربعة وأربعين عاماً من صدور كتابه *الطبيعة*، فى قاعة محاضرات كونكورد، التى كانت مركزاً للتعليم ومنتدى حياً للإصلاح الاجتماعى. وقد تحدث فيها عن "الكتيب الصغير" من المقالات التى أعلنت لأول مرة عن ازدهار "نادى" التسامى. وكان إيمرسون، طوال حياته، وحتى فى مناسبة الاحتفال التذكارى الذى أقيم له قبل وفاته بعامين، ينكر أن التجمع الذى كان يتم في الوقت المناسب للأصدقاء بقيادته المتمنعة يمثّل أى شكل من أشكال المؤسسة أو الحركة الرسمية. لم يكن هناك "تنظيم خارجي، ولا شارة، ولا عقيدة، ولا اسم"، للمتسامين. وبدلاً من ذلك، كان إيمرسون يتذكر ببساطة أن تلك الفترة "يبدو أن العقل كان قد أصبح فيها على وعى بنفسه... كان هناك وعى جديد"، مع فرق واحد كبير: "إن هذه الفكرة، التى كتبت مسودتها فى الثورات والحركات الوطنية [الأخرى]، فى عقل الفيلسوف [الأمريكى] تتميز بدقة شديدة: الفرد هو العالم"[16].

وبعد نشر كتاب *الطبيعة*، كانت الإيقاعات المتضاربة فى حياة إيمرسون تبدو له مثل انقباض وانبساط ضربات القلب. وكانت الضغوط المتزايدة من طلب الجمهور لخطبه تتصارع مع المغريات المريحة للحياة المنزلية. وقد عوض وفاة شقيق إيمرسون المحبوب تشارلز فى مايو السابق فى نيويورك نتيجة لمرض الدرن، ميلاد ابنه والدو (Waldo) فى نهاية أكتوبر. وكان إيمرسون شغوفاً بابنه، ويلاحظ بكل سرور كل "لحن لا يقاوم" وكل حركة جديدة. وكان إيمرسون يراجع، فى ليل يوم الخميس، بجوار المدفأة مع ليديا نص نهاية الأسبوع، قبل أن ينطلق إلى روكسبرى أو فرامنجهام أو لويل أو سالم أو بليموث

أو بروفيدنس أو حيثما كان وجوده مطلوباً[17].

وفى ٣١ أغسطس، ١٨٣٧، ناضل من أجل نشر المبدأ الطموح "بناء العالم" الذى تكــون خلال العقد السابق بخطاب حماسى فى حفل تكريمه فى هارفرد، وأصبح عنوانه فيمـــا بعــد "العالم الأمريكى". وقد أسماه أوليفر ويندل هولمز بمحبة "إعلاننا الفكرى للاستقلال". وقد أقــرّ إيمرسون فى هذه المحاضرة أن "الإنسان المتأمل" القائد والبطل الحقيقى لزمانه، هو المســئول عن التحدث باسم العصر الحاضر وتحديد هويته. إن التفكير التطبيقى المنتظم "عمل" مشروع ويُشرف[18].

وقد كتب إيمرسون قائلاً "لا يوجد ما يشغل الإنسان أفضل من وضـــع كتابــه المقــدس الخاص به عن طريق الإنصات لجميع العبارات التى تسعده مثل صوت البوق، والتى تـــأتى من هنا أحياناً، ومن هناك أحياناً، وفى أغانى الحضانة أحياناً، وباللغة العبرية أحياناً، وبالشعر الإنجليزى أحياناً". وعلى المرء إذا أراد أن يبنى عالمه الخاص، أن يبنـــى لغتــه الخاصــة. وكانت يوميات إيمرســون، أكثر من أى وســيلة أخــرى للتعبير ـــ سواء كانت مناقشــة، أو محاضرة، أو مقالة مصقولة ـــ الأساس الذى يثبت الإسراف فى الاستبطان اليومى الذى كـــان يعتقد أنه الطريق الحقيقى الوحيد للتنوير. وكان يشير إلى يومياتـــه عــن حــق علـــى أنــها "المحاجر" الواسعة الخطيرة التى لا تنفد، والتى يستخرج منـــها المـــادة الخـــام لإيمرســـون كشخصية خاصة تم صقلها فى إيمرسون الشخصية العامة[19].

وكان "علم الأرصاد الجوية لتفكير" إيمرسون لا يعترف بالجو المعـــاكس. فســـواء فـــى المطر أو الجو الصحو، يكون الغوص فى أعماق النفس "واجب وقاعدة سلوك" الرجل المفكر. وكلما استطاع أن يتعمق فى البحث عن اللغة التى تكوّن دستوره الأخلاقى، تحرر من خـــوف الانغلاق فى "العبادات القديمة" و"المعرفة الثانوية" للتوحيد. ولم يكن يهتم بزخارفـــها. وكتـــب مخاطباً نفسه "اترك إذن منبرك وسفر المزامير والمائدة؛ إنها ميتة، لقد أصبحت مثل شـــجرة طويلة جرداء تتطفل على الطبيعة الحية وتتحدى العالم". وكان أكثر اتصالاً برؤيـــــة العـــالم المتسامية عن "حركات الروح الطبيعية". وفى مارس ١٨٣٨ أتيحت لإيمرسون فرصة لـــرأب الصدع بين العالمين وتوضيح شروط تحوله الأخلاقى[20].

كانت لجنة من ثلاثة من "الشباب الأصدقاء" من مدرسة اللاهوت بهارفرد ـــ وهم جورج ف. سيمونز (George F. Simmons)، وهاريسون جراى أوتيس بـــلاك (Harrison Grey Otis Blake)، و و.د. ويلسون (W.D. Wilson) ـــ قد أرسلت خطابا إلى "حكيم كونكورد" تدعـــوه

فيه لإلقاء المحاضرة السنوية أمام دفعتهم المتخرجة فى الكنيسة "بمناسبة دخولهم فى سلك الكهنوت المسيحى النشط". وكان موعد إلقاء المحاضرة المقرر هو مساء الأحد، ١٥ يوليه. وكان أمام إيمرسون حوالى أربعة أشهر للاستعداد، مستنداً على بخار الاستياء الآخذ فى التسرب على مدى عدة سنوات. وكان لابد أن يكون الخطاب "مشحوناً بالحياة". أى مكان أفضل لإلقاء الدرس من الأرضية التى يفرخ فيها، من معقل مؤسسة التوحيد فى نيو إنجلند؟

وقد بدأ إيمرسون بالتقطيع فى العروق الكثيرة فى محجره الذهنى المكون من طبقات فى أوائل ربيع عام ١٨٣٨. وطبقاً لطريقته فى التفكير المركب من طبقات، استخرج مكونات وأفكاراً "لخطاب مدرسة اللاهوت" كانت مطمورة فى مزيج من الموضوعات الأخرى، شاملة العديد من الأفكار والمعالجة المثالية التى سوف يعود إليها ويتوسع فيها كموضوعات لمقاله المحورى فى عام ١٨٤١، بعنوان "الاعتماد على الذات". فعندما كان إيمرسون، على سبيل المثال، يعد لبدء العمل فى "خطاب" هارفرد، قرر أن "ينطق باستقامة وحيوية ويقول الحق بكل الطرق". وقد ظهرت هذه العبارة بعد ثلاث سنوات فى "الاعتماد على الذات". وقام إيمرسون وهو يجلس قرب بركته فى غابات كونكورد ليعد "الخطاب"، بنقل قصة من الجزء الرابع من يومياته بعنوان *مذكرات* إيمانويل أوجستين ديودونيه، كونت دى لا كاس، حول اعتقاد الإمبراطور نابليون بأنه لكى يجعل جيشه أقوى يجب أن يتبع مثال الرومان القدماء، ويأمر رجاله بطحن الذرة بأيديهم وخبز خبزهم بأنفسهم. وقد استخدم هذا الاقتباس فى الفقرات النهائية من "الاعتماد على الذات". وعند كتابة ملاحظات "لخطابه" فى أواخر أبريل، وهو على وعى بأن محاضرته سوف تثير قدراً من "الاضطراب"، كما قال هنرى جيمس برقة فى عام ١٨٨٣، ذكّر إيمرسون نفسه بأنه "من المؤكد أن ما أفعله، هو كل ما يهم جلالتى وليس ما يظنه به رجال عظماء أو صغار" ـــ وكان ذلك نصيحة ذاتية عاد إليها فى "الاعتماد على الذات". وعند اقتراب الموعد النهائى بسرعة، فى شهر يونيه، تحول إيمرسون للحصول على تشجيع إلى كتاب *الفردوس المفقود* ليستحث نفسه بكلمات ميلتون على "التقدم والتقدم والتقدم فى الفوضى والظلام". وقد وردت نفس هذه اللغة فى "الاعتماد على الذات"[21].

وأصبح "خطابه أمام مدرسة اللاهوت الذى ينمو تحت ناظريه" جاهزاً تقريباً. واستخرج إيمرسون، من محجره المتفرد، التشجيع النهائى قبل السفر إلى كمبردج بخمسة أيام. وكتب

قائلا فى موعظة لجمهور مكون من فرد واحد "إن الرجل الحقيقى لا يشعر أبدا بالمنافسة. فكل الرجال كهنة بالنسبة له، وخدم يقدمون له لوازمه، ولكن لا يستطيعون جميعا أو أى واحد منهم أن يعمل ما يجب عليه هو أن يعمله. إنه وحده. إنه وحده المطلع، بل إنه حتى ليس مطلعا على سره الخاص"[22].

وكانت قاعة اللاهوت المزدحمة فى الدور الثانى من الكنيسة صامتة فى حالة توقع. كان هناك ستة خريجين، جميعهم فى الصف الأول. أما باقى "المستمعين الذين يبلغ عددهم مائة أو يقرب من ذلك ممن تمكنوا من العثور على مقاعد" فمنهم أصدقاء إيمرسون، من أعضاء مجموعة المناقشات، وكبار أعضاء هيئة التدريس الحاليين والسابقين فى مدرسة اللاهوت.

وقد قدم إيمرسون للكلية تقريرا عن بحوثه عن أهمية العلاقة المباشرة، بدون وسيط، بين الإنسان وإلهه، "مثل قطة تضع تحت أقدام سيدتها فأر غيط ميت". وبدلا من استهلال هذا الموضوع المثير مباشرة، دخل بسهولة فى المحاضرة بلغة رعوية رقيقة مصممة لراحة مستمعيه. ثم أخذ إيمرسون المستمعين إليه إلى عتبة الأرض الفسيحة التى يشعر فيها بأقصى راحة، إلى العقل الشامل المتفتح المتسع، "الحقيقة الكونية... الداخلية والخارجية". ومستلهما المقطع الأثير لديه من الكتاب المقدس من يوحنا ١٧، "إن ملكوت الله فى داخلك"، ومستشهدا "بالطاقة الداخلية" كمصدر "للعاطفة الدينية" المشروعة فى كل إنسان. والاتصال بين الأشخاص — أو بالأحرى الاتصال بين العقول — هو مفتاح الإنجاز، وليس "العبادة"، أو التفسير "البالى" للطقوس النابعة من المقدسات المستنزفة "للكنيسة العامة"[23].

وبعد التعبير عن هذا المفهوم الثورى، انتقل حديثه إلى طرائق أكثر إظلاما. فقد دخلت علتان فى المسيحية التاريخية إلى رؤية إيمرسون، وقد عددها بالترتيب. أولا، أصبحت شخصية يسوع كممثل لإرادة الله مختفية بسبب قرون من لغة الكنيسة الطنانة. لقد اختفى المسيح الحقيقى داخل صدفة حامية من الخرافات والأساطير. وثانيا، أحيلت التجليات الروحية إلى الماضى التاريخى، مما يعنى ضمنا أن البصيرة الأخلاقية التحويلية لم تعد متاحة لإنسان العصر الحديث طبقا لشروطه هو، لم تعد ممكنة إلا داخل نطاق الكنيسة نفسها. وهذه المشاكل تظهر كل يوم أحد من المنابر. وكما قال إيمرسون، فإن أرضية النفوذ

هذه قد اغتصبت طبقاً لإيمرسون، من جانب "الشكليين" الذين حرمت طرقهم المحافظة التى لا تتغير وصلواتهم المتحجرة الباحث عن الإيمان من الدافع الذى يجعله يقوم بالرحلة بنفسه.

كانت كل محاضرة كلاسيكية للتخرج لابد أن تنتهى بنصيحة للخريجين. ولم تكن محاضرة إيمرسون استثناء من هذه القاعدة. فلم تكن كلماته الختامية الموجهة للرجال الستة الجالسين فى الصف الأول من باب منح البركة الباعثة على الطمأنينة ولكنها كانت أشبه بإلقاء القفاز. فقد قال متحدياً لهم ولنفسه فى ذات الوقت "شقوا طريقكم بمفردكم، وأحبوا الله بدون وسيط أو حجاب... ألقوا وراءكم كل تقليد، وعرفوا الناس بالخالق مباشرة... وعيشوا بميزة العقل غير المحدود". ونصح الشباب بأن يعتمدوا على قوتهم الداخلية مما يحميهم من الانتقاد الاجتماعى الذى يقع بلاشك على أولئك الذين يتبعون الطريق الخاص بهم. وحذر الخريجين من أن وقت العودة إلى الوراء قد مضى؛ فهم لا يستطيعون إحياء كنيسة ميتة، "بنارها تحترق وتدخن بغير لهب، والتى قاربت على الانطفاء فى المذبح". لقد حان الوقت كما قال لأولئك "المنشدين الجدد للروح القدس" لإعادة اختراع الكنيسة، كل بطريقته وبإيمان جديد له خصوصيته، وليس متماثلاً. ولما كان الإيمان الجديد يتطلب نظرة جديدة إلى يسوع، فقد عرض إيمرسون أمام الخريجين ومدرسيهم المنزعجين الوعد الذى لم يتحقق فى "مدرس جديد"، أعيد تشكيل مفهومه وطابعه المثالى، لا توجد رسالته إلا داخل القلوب المختلفة والعقول المستقلة فقط[24].

وقد كتب إيمرسون إلى توماس كارليل فى ٦ أغسطس قائلاً "لقد كتبت وقرأت نوعاً من الموعظة لصف التخرُّج فى مدرسة اللاهوت بكمبردج منذ أسبوعين. وقد سمعت أنها مزعجة جداً". وقد تعهد مازحاً "بأن يمسك لسانه حتى الشتاء التالى". وكان إيمرسون منذ وقت يلح على كارليل أن يزوره ويحاضر فى بوسطن. وقد أصبح إيمرسون، فى النزاع الذى أعقب الخطاب، عصبياً ورأى أنه من الأفضل عدم حضور كارليل، ولاسيما لأن صديقه، "غير المذنب إطلاقاً"، قد دخل برغم ذلك فى المدار الملطخ. وقد أثنى كارليل على إيمرسون، من بعد، لممارسته "التماسك الهادئ" فى وجه "العاصفة فى حوض الغسيل".

وقد رجاه صديق حميم آخر، وهو عم إيمرسون، القس صمويل ريبلى (Samuel Ripley)، ألا ينشر خطبته موضع الخلاف. وقد اعترف ريبلى أن" العالم يحتاج إلى التنوير،

ولكنى لا أحب أن أراك مصنفاً ضمن مجموعة نيلاند، وبين وشركائهم وقد تلوثت بـــالوحل وتم تكذيبك". كان أبنر نيلاند (Abner Kneeland) من بوسطن، وهو من المؤيدين المجاهرين لأفكار توماس بين، قد أدين فى عام ١٨٣٥ بالتجديف وحكم عليه بالســجن ســتين يومــاً. وبرغم إدانته، فقد نشر بعد عامين طبعة من كتاب *عصر المنطق* لتوماس بين فى بوسطن. وجاء تحذير العم صمويل متأخراً. إذ كان "خطاب مدرسة اللاهوت" فى المطبعـــة بـــالفعل ونشـــر فى ٢١ أغســطس، ١٨٣٨، بمعرفة جيمس مونرو وشركاه فى طبعة من ألـــف نسخة[25].

وقد اشتعل الغضب بعد ستة أيام عندما وجـــه أنـــدروز نورتـــون (Andrews Norton)، الأستاذ بمدرسة اللاهوت فى هارفرد وأستاذ إيمرسون السابق فى الأدب المقـــدس، هجومـــاً عنيفاً على الخطاب فى *بوسطن ديلى أدفرتايزر*، منتقداً له بشدة على أنه "إثم كبير،" و "إهانـــة للدين" و"قصيدة غير مترابطة". وقد وافق على ذلك جون جورهام بـــالفرى (John Gorham Palfrey)، عميد مدرسة اللاهوت، ولاحظ أن "جزء الخطاب الذى لم يكن أحمقاً كان إلحـــاداً صرفاً"[26].

لقد كان هنرى وير الابن، الذى خلفه إيمرسون فى الكنيسة الثانية فـــى بوســطن، ثـــم أحرجه، من بين المستمعين كعضو فى هيئة تدريس مدرسة اللاهوت. وقد نبّه إيمرســـون إلى أنه يعـــد موعظة قاســـية رداً عليه، على أمل أن يتراجع إيمرسون أو يخفف مما قالـــه. ورد إيمرسون بردّ مزج فيه بين التصميم المتغطرس والسخرية الساخطة، "إننى لســـت خشـــباً أو حجراً... ولا أملك إلا أن أتألم من أننى قلت فى ذلك المكان وأمام هؤلاء الحضور ما كنـــت أعتقد أنه سيلقى معارضة. إلا أن... اعتقادى سليم فى صدق البيان الـــذى جـــاء فـــى ذلـــك الخطاب... ففى هذا الوضع المضحك لأحوالى، عندما أرى نفسى فجأة وقد ارتفعت إلى أهمية الزنديق، لا أشعر بالراحة عندما يتم لفت انتباهى إلى واجبات مفترضة لمثل تلك الشـــخصية البارزة". وخلاصة القول أن إيمرسون أخبر وير بوضوح أنه "سيستمر، كما كان من قبـــل". حتى العمة مارى مودى إيمرسون أحست بإهانة، من خطأ ابن أخيها، وقالت إن محاضرتـــه "يجب أن تكون شيئا منسياً، كأنما كانت تحت تأثير شيطان خبيث"[27].

وقد أفضى إيمرسون بدخيلة نفسه فى مذكراته فى آخر أغسطس بعبارة "اثبـــت، اثبـــت" مستخدماً مظهره فى الهدوء والسكينة لإخفاء ما يحس به من قلق. "إن الشباب، ومن بلغو سن النضج يلمحون إلى العار، والكره البادى فى الوجوه التى التقيتها فـــى المجتمـــع الآن... إن

المجتمع لا يستطيع أن يرشونى، لا فى السياسة، ولا فى الكنيسة، ولا فى الجامعة، ولا فى المدينة". وكل ما أصبح يرجو أن يفعله حينذاك هو أن يستلهم روح العصر بتميز شديد. وقد شبّه هذا النشاط الهادئ "بشبكة أو إطار" ألقى به من شاطئ النهر من أجل صيد وجمع الأخشاب الطافية. واستمر فى اتباع طريق العالِم واعتنق أهمية صياغة ما يكتب تدريجياً بدون استعجال، سطراً بسطر، وكلمة بكلمة، مشيراً إلى العمل فى "كتابى [مقالات] الذى يريد منى أن أكون ترياقاً "لهؤلاء المتهامسين، والكارهين، واللاعنين" لخطبته فى مدرسة اللاهوت. إن النقاد "ذوى الوجوه الفاسدة" المتقلبة، المزدرين، كما لو كانوا من "الطبقات الراقية"، يضيعون وقت إيمرسون الثمين بتشتيت تفكيره عن المهمة التى يقوم بها.

وقد رحب إيمرسون فى منزله الهادئ بأقرب الأصدقاء المخلصين والمتعاطفين، وفى مقدمتهم جاره فى كونكورد "صديقى الشجاع هنرى" ثورو، البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، الذى كان يهرب معه لركوب القوارب فى ضوء القمر، والسير طويلاً فى الأحراج. وبعد إحدى هذه الجولات، أو كما كان يحب ثورو أن يطلق عليها "المشى الهوينى"، سجل إيمرسون فى مفكرته حكمة مأخوذة من مقطوعة *هجائية* (Satire) من بيرسيوس عن طريق *مقالات* ميشيل دى مونتانى (Michel de Montaigne): *"لا تنظر إلى أى شخص خارج نفسك"* (Ne te quaesiveris extra) والتى أصبحت شعار مقال "الاعتماد على الذات"، وهو بيان دفاعاً عن "مبدأ واحد، وهو، لاتناهى الإنسان الخاص". وفى يوم الأربعاء، ٥ ديسمبر، بدأ سلسلة عريضة من عشر محاضرات، بعنوان "مقرر عن حياة الإنسان"، فى المعبد الماسونى فى بوسطن، بدأها "بمبدأ الروح" وأنهاها بأسلوب جدلى مميز بمحاضرة عن "دراسة الشياطين". وفى ٢٠ يناير، ١٨٣٩، ألقى إيمرسون آخر موعظة له فى كونكورد[28].

كان الكاهن أندروز نورتون يكنُّ بقايا غضب من تلميذه السابق العنيد، محتقراً تلوث فكر إيمرسون المتسامى "بدعاة المؤسسات" المخربين ــ سبينوزا (Spinoza)، وشلايرماخر (Schleiermacher)، وشتراوس (Strauss)، وهيجل (Hegel)، وأشباههم. وقد استغل نورتون مناسبة حفل التخرج فى ١٨٣٨ فى الذكرى الأولى "لمحاضرة مدرسة اللاهوت"، وهو مايزال يشتعل غضباً، هو والعديد من زملائه، لتصعيد المعركة وإعلان أن "بعض تلك الآراء السائدة الآن... تعتبر حرباً على الإيمان بالمسيحية". وقد وضع لخطبته عنواناً صادماً هو "خطاب عن أحدث أشكال الإلحاد". وكان نورتون الذى وصفه إيمرسون

بأنه "الطاغية العجوز وبابا التوحيد العنيد" غارقاً فى ذلك الوقت فى عمله الأكاديمى الضخم *أدلة على عبقرية الأناجيل، ١٨٣٧ - ١٨٤٤*، وهى رسالة مبنية على بحث تابعه بإخلاص على مدى ربع القرن السابق. وأكد نورتون أن الكتاب المقدس نص حاسم قادر على البقاء تاريخياً، وأن "شخصيته المعجزة "لا تقبل المناقشة. ومن هذا المنظور، كان عليه أن يخلص إلى كيف يمكن لأى شخص أن يبلغ هذه الدرجة من الإلحاد بحيث يضع أساساً لإيمان دينى على خصائص متغيرة لا يمكن الاعتماد عليها من "المشاعر غير المحددة وغير المفهومة، وربما كانت مرجعيتها تخيلات معينة؟"[29]

وكان وابل السهام التى أطلقها نورتون تتم بكياسة ولطف وإن كانت تتم عن شعوره بالتفوق بصفة خاصة حيث حرص متعمداً على ألا يذكر اسم خصمه أبداً. وقد وقعت الخصومة عندما كان إيمرسون، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، متفرغاً لكتابة ونشر مزيد من الشعر، ويتردد على المعارض الفنية بحثاً عن الإلهام الخيالى، ويستضيف الأصدقاء فى سهرات ثقافية. وكان يقوم بالنزهة فى الأيام الصحو، ويعمل فى حديقته، ويمد من تجولاته للتريض "صباحاً ومساءً" إلى "[بركة] والدين واتر" وما وراءها، فى رحلات بعيدة طموحة فى المزارع. وفى شتاء ١٨٣٩، قامت والدة ثورو بدور القابلة لمساعدة ليديان فى استقبال مولودها الثانى. وأطلق على الطفلة المولودة اسم إلين إحياء لذكرى زوجة إيمرسون الأولى. وقد حاول إيمرسون أن يستيقظ فى وقت مبكر، ليتوافق مع الاضطراب الإضافى فى المنزل، ويبدأ الكتابة فى السادسة صباحاً، ولكنه استمر متعلقاً بالأطفال كما كان، وكثيراً ما يتوجه إلى غرفة الأطفال للعب معهم وتدليلهم[30].

وفى أوائل خريف ١٨٣٩ اجتمع إيمرسون مع تيودور باركر، وفريدريك هنرى هيدج، ومرجريت فولر لإحياء مشروع كان فى ذهنه منذ أوائل اجتماعات نادى التسامى، وهو إصدار مجلة تكون "لسان حال للفلسفة الروحية... صوت رشيد بهيج فى وسط ضجيج الدنابين والمجادلين". وكان إيمرسون فى ذلك يصغى لنصيحته هو، "فى أوقات الشدة، تعهد نفسك. ولن تستطيع أن تضيع عملك". لقد كان إيمرسون فى حاجة إلى "أعداء يتصفون بالجمال" لدفعه إلى الأمام. وكانت قوة اندفاعه الذهنية تشحذها عداوة نورتون والآخرين. وكان الجانب العملى عند إيمرسون يمارس ايكولوجيا للعقل، ويرد النقد المعادى والمقاومة المحافظة إلى قوة أكبر: "سوف أطلق على عدوى اسمى شخصياً، لأنه يخدمنى بقوته". وكان صديقه كارليل يعرف ويشجع هذه الضرورة. وكتب إليه قائلاً "وإذا كان الشيطان سيسعده أن

يوجه كل الاستقطاب ضدك وضدك دائما، فربما كان ذلك أفضل ما يمكن أن يعمله أى مــلاك رحيم"[31].

لقد كانت مرجريت فولر، أكبر بنات محامى من نيوبرى بورت، والدارســة المتحمســة للكلاسيكيات القديمة عند شكسبير وجوته، تعترف عندما بلغت العشرين من عمرها أنها "منــذ صباها الباكــر كانت تشعــر بأنها لم تولــد لتكون امرأة عادية... يجب أن أكون رحالــة أو جوالة فى الأرض... [لها] مصير كاهنة شاعرة". وقد وافقت على تحرير مجلة *ديال* (Dial) ووضعت خطة لنشر عدد الافتتاح فى ربيع ١٨٤٠. وقد اقترح برونسون ألكوت اسم المجلــة بالإشارة إلى المزولة sundial. وقد شرحت فولر الاختيار المجازى فى الافتتاحية الرئيســية المثيرة للخلاف والتى أعاد إيمرسون كتابتها جذريا ليقول إن نوع مقياس الوقت الموجود" فــى الحديقة نفسها... وليس وجه الساعة الميت"، هو الأكثر ملاءمة لتنبيه "النائم... إلى ما وصلت إليه الحياة والنمو الآن وما سوف تصل إليه". إن الأعضاء المخدرين فى الثقافــة الأمريكيــة بصفة عامة لا يدركون" روح الوقت" الذى يتم فيه تسرب "تقدم الثورة" ــ وبالنســـبة إلــى المسرح المحلى ــ "التيارات القوية للفكر والشعور بصفة خاصة... فى نيو إنجلند"[32].

وقد كتب إيمرسون قائلا، "عندما أشاهد منظرا طبيعيا ثريا، فإن ذلك لكى أعرف لمــاذا يضيع كل تفكير فى التعدد فى إحساس هادئ بالتوحد". وقد ساعد تفتــح الزهــور وارتفــاع حرارة الصيف فى تذكير إيمرسون بأن كتابه "مقالات الغابة" الذى لســتغرق إعــداده وقتــا طويلا، يجب أن ينظم قبل أن تمتلئ أغلفة زهرة الجيررديه الرقيقة بالبذور. وعندمــا كــان إيمرسون يتابع طريقه بين الصخور على جوانب النهر فى صباح يوم مشرق، لاحظ الزهــور الموجودة فى كل مكان، بلونها القرمزى، وأوراق تويجها الأربع، وأثبت فى كراسة ميدانية أن "الصديق القديم" الذى ينبض بالحياة يبدو أنه يتحدث إليه، مبينا بنبض إنباته السنوى وتجدده أن إيمرسون بالمثل عليه أن يعمل ــ وفورا[33].

وقد أعد قائمة على إثر قائمة لجدول محتويات كتابه الجديد، خلال أغسطس وســبتمبر. ومن بين عشرات من مداخل الموضوعات ــ "تاريخ، وتعويض، وصداقة، وحكمة" ــ كــان هناك موضوع "شغل تفكيره طويلا" والذى وصفه بأنه "أسرار جديدة للاعتماد على الــذات". وانتقل هذا الموضوع إلى قمة القائمة فى الأهمية. وقد اعترف إيمرسون فى ٢٣ أكتوبر فــى قلق "إن فصلى لم ينته، ولكن الاعتماد على الذات هو بالتحديد هذا السر ــ الذى يجعل مــن نقصك المفترض حشوا زائدا عن الحاجة"[34].

أرسل إيمرسون مخطوط الكتاب، فى رأس السنة عام ١٨٤١، إلى ناشره المعتاد، جيمس مونرو. وتلقى أول تجارب طباعة الصفحات خلال أسبوعين، وفى خلال ثلاثة أشهر "كان طوفه الصغير طافيا... وهو ليس سفينة شراعية صغيرة، وليس مركبا أحادى الصارى أو مركب صغير ذى مجاديف، إنه ليس أكثر من ألواح وقطع خشبية مثبتة معا". وقد أسماها ببساطة *مقالات*. وقد أسقطت كلمة "غابة" من العنوان، وإن كان إيمرسون مثل روسو، "العبقرى البديع"، الذى كان يأخذ منه الإلهام، يحب العيش مع الطبيعة وكثيرا ما يلجأ إلى البرارى البدائية. لقد كان يرغب فى الوصول إلى مكان النشوة المقدسة، مستوى من قوة الخيال يستطيع أن "يجرد الإنسان من ملابسه" كما كان روسو يأمل فى *الاعترافات*، وهو أحد الكتب المفضلة لدى إيمرسون. وكان المقال "الاعتماد على الذات" بحثا فى طبيعة تلك "النفس البدائية الأصلية التى يمكن أن يبنى عليها اعتماد شامل"[35].

وعند القراءة الأولى للمقال يبدو أنه محكم النسج من قطع كثيفة، كما هى عادة كتابات إيمرسون. وتبدأ فى التفتح بمجرد قبولنا أن التكامل الأساسى للاعتماد على الذات مبنى على رعاية النواحى الروحية للإنسان. "إن الرجل الثانى" قدره أن تبقى جذوره ثابتة فى التوسط فى المقدرة حتى يستسلم للاعتماد على الله، "الحقيقة المقدسة". ويبدأ "الاعتماد على الذات" كأنشودة للعزلة، ودعوة لفحص المشاعر الداخلية، والتفكير الحالم، وعدم التوافق، والفخر بعدم الاتساق كمتطلبات أولية "للحقيقة العليا... ساعة الرؤية... عندما يعيش الإنسان مع الله، سوف يكون صوته عذبا كغمغمة الغدير وحفيف الذرة".

إن الاعتماد على الذات لا يعنى تجاهل المجتمع. فالاعتماد على الذات يجب تنميته من أجل أن يخرج الإنسان ويغير المجتمع. فإذا التزم كل شخص بالنظام السائد الذى يدعو إليه إيمرسون، فسيعاد تشكيله نتيجة لهذا الانضباط، ويصل إلى فهم مستنير لتاريخه الشخصى، وبذلك يصبح المجتمع الديمقراطى أفضل نتيجة لذلك. والدعوة إلى تأكيد الذات جنبا إلى جنب مع استسلام الذات، تجعل إيمرسون يطرح مطالب ضخمة. فهو يتساءل كم منكم "يا جنود الحراسة" لديه الثقة والتصميم على "أن تعهدوا [لأنفسكم] بوظيفة فارض المهام؟" إن موجة مد كبيرة من الاستجابة ستكون مطلوبة من أجل "تجديد... وضعنا الاجتماعى"[36].

إن آخر درس فى "الاعتماد على الذات" هو الأهم. إن القارئ صاحب الضمير الحى، الذى يتطلع لاستيفاء معايير إيمرسون، يبدأ فى رحلة مثيرة فى داخل نفسه، حيث يختبر إيمانه

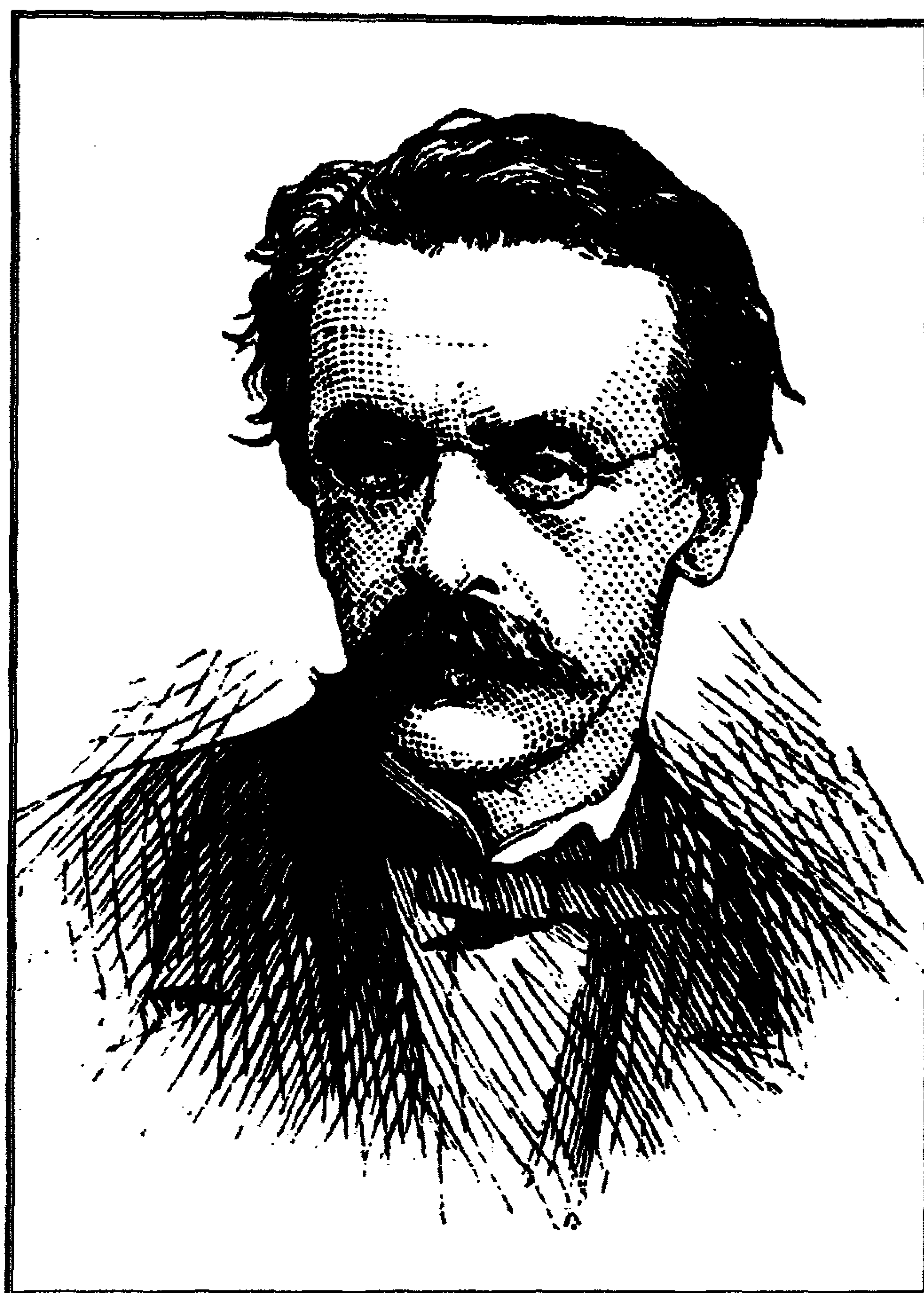
بالإله الذى يكتشفه ويرى أنه يستحق. ثم يطبق طاقة "إرادته" التى أعاد اكتشافها على صراعات وتجارب العالم الخارجى، مما يؤدى إلى نتائج معروفة ــ "انتصار سياسى، زيادة فى الايجارات، شفاء المرضى، أو عودة صديقك الغائب". ومن مثل هذه الإنجازات البشرية التقليدية فى بوتقة الخبرة، ترتفع معنويات الإنسان ويعتقد أنه مصان. وهل ذلك الرضا الاجتماعى بهذه البساطة. "لا تصدق ذلك" وينهى إيمرسون مقاله كما بدأه، مع تحد آخر، والدوران دورة كاملة بعجلة الموضوع، وباستخدام اللغة الإنجليزية الأمريكية الحديثة فى هذه المرة بدلا من اللغة اللاتينية الكلاسيكية، "لا شئ يستطيع أن يعطيك السلام إلا نفسك. لا شئ يستطيع أن يعطيك السلام إلا انتصار المبادئ"[37].

اعتبر المؤمنون الحقيقيون والمثابرون على صنع الذات رالف والدو إيمرسون القديس الراعى لتقدم أمريكا من الفقر إلى الغنى وكانوا يقرأون "الاعتماد على الذات" على أنه بيان الكفاح من أجل روح النجاح الذى أصبح يحتل مكانا محوريا فى ثقافتنا. فهوراشيو ألجر الابن (Horatio Alger Jr) (١٨٣٢–٩٩) مؤلف سلسلة قصص *Ragged Dick* و*Luck and Pluck*، كان أيضا شاعرا ومن أهالى ماساشوسيتس، والتحق بمدرسة اللاهوت بهارفرد.

إن أساس "الاعتماد على الذات"، الجزء الثانى من كتاب إيمرسون *المقالات*، يتم الإعداد له تماما بقراءة "التاريخ"، المقال الأول فى المجموعة، الذى عرف فيه "كل التاريخ كرجل واحد، يفسر جميعه من خبرة فردية". وكتب قائلا، إن كل عقل شخصى متصل "بعقل عام" شامل بخيط غير مرئى من الوعى. وكما هو الحال فى جميع أعمال إيمرسون، فإن خلف كل تجريد وصوفية يوجد أساس عملى مبنى من عادته التى اتبعها طول حياته لدراسة المثل العليا المستوردة إلى جانب الوطنية منها.

ويجب أن نضع فى اعتبارنا من سبقوا إيمرسون. فكتيب توماس بين يحاول إقناع المستعمرات المتفرقة بأن لديها قضية مشتركة. كما أن "واحد مكون من أجزاء متعددة" التعليق البليغ على الصورة الأمريكية، يساعدنا على فهم مفهوم إيمرسون عن إمكانات الفرد الأمريكى للعمل كممثل للمجتمع كله. وكان جون وينثروب يؤمن بالصلة الروحية مع الإنجيل التى وجدت قبل أن تصبح شرعية رسميا، والتى تربط ضمنيا جميع شعبه سواء اعترفوا بذلك أم لا[38].

لقد كان إيمرسون عملاقا ذهنيا وروحيا، عملاقا يتخطى العقود الوسطى للقرن التاســــع عشر. وكانت كتاباته مثل الآلة القوية التى توسع قسرا تعريف الشخصية الأمريكية، التى كان نموها السريع يتطلب مجالا أوسع جغرافيا. إن الاندفاعة التى لا ترتوى للبحث عن مســاحات أرحب، حققت نتائج غير متوقعة. وسوف نكتشف الآن أن بعضها، وليس كلها، كانت مفيدة.



جون ل. أوسوليفان

٥

مصير واضح

هناك بعض الأشياء التى لن تفعلها هذه الأمة مطلقاً. لن تكون أبداً مسيطرة بالقوة على بلدان أخرى؛ ولن تنهب أبداً الأراضى المجاورة؛ ولن تسير أبداً خلال دماء سكانها الآثمين؛ ولن تسمح أبداً أن ينضم إلى الاتحاد أولئك الذين لا ينشدون الوصول بحرية إلى هذه النعمة.

— جون ل. أوسوليفان، *نيويورك مورنينج نيوز*، نوفمبر ١٨٤٥

إن الديمقراطية التى تقاوم، بما تملكه من قلب إنسان وقوة أسد، القيود التى يحاول المخرفون تقييدها بها — هى التى تجعلنا نتوقع مستقبلاً عظيماً لهذا العالم الغربى! مجال يشمل سعادة غير مسبوقة للبشر وحرية فكرية، لأعداد ضخمة لا تحصى، بحيث يقفز قلب *الإنسان* الصادق سروراً لمجرد التفكير فيه!

— والتر ويتمان (Walter Whitman)، *بروكلين ديلى إيجل*، يناير ١٨٤٦

فى صفحة ٤٢٦ من عدد نوفمبر ١٨٣٩ من مجلة *يونايتد ستاتس مجازين آند ديموكراتيك ريفيو*، وهى مجلة دورية ليبرالية واسعة الانتشار تصدر شهرياً من واشنطن العاصمة، بدأت افتتاحية، بدون توقيع، بعبارة "الأمة العظيمة للمستقبل". وكان المقال ملفتاً بالنسبة لمشتركى *الريفيو*، الذين يزيد عددهم عن ستة آلاف، من عدة أوجه — للإصرار الحماسى على أن أمريكا تختلف عن جميع الشعوب الأخرى، وأنها منفصلة عن ماضى أوروبا البالى، والملكى، والأرستقراطى؛ وأن التاريخ الأمريكى ليس مدينا للعصور القديمة، ولكنه يعمل

من صفحة بيضاء بضمير جماعى نقى؛ وأن أمريكا قد اختارها الله للقيام بمهمة مقدسة ولنشر الديمقراطية فى العالم، ولتقف ضد أهواء امتياز و"طغيان الملوك، والكهنة، وحكام القلة".

وقد قال المؤلف بحماسة "إن المستقبل بعيد المدى، وغير المحدود سيكون عصر العظمة الأمريكية"، متخيلاً عصراً قادماً لامحالة يوجد من خلاله "مجال عظيم للمكان والزمان، تقوم فيه الأمة المكونة من عدة شعوب بإظهار تفوق المبادئ المقدسة لكل البشرية... وستكون أرضها هى نصف الكرة ـــ وسقفها القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم، ومجمعها لاتحاد لجمهوريات عديدة... نعم، نحن أمة التقدم، والحرية الشخصية، والتحرر الشامل"[1].

لقد كان مؤلف الافتتاحية المثالية خريج كلية كولومبيا فى السادسة والعشرين من العمر "والمخطط العظيم لكل العالم" اسمه جون ل. أوسوليفان. وهو رجل "مفتون بفصاحة" اللغة الإنجليزية، وهو المسئول عن وضع هذه الكلمات متجاورة فى الطباعة لأول مرة من بين عدة مرات خلال ست سنوات.

وفى مقال افتتاحى لعدد أبريل ١٨٥٩، بعد أن ترك أوسوليفان هذه المجلة التى أسسها وأكسبها شهرة بفترة طويلة، قال الناشر بفخر أنها "منذ ميلادها وحتى هذه اللحظة، كنا ندعو إلى **المصير الواضح** للجمهورية الأمريكية"[2].

لقد ولد جون لويس أوسوليفان على ظهر سفينة حربية بريطانية فى ميناء جبل طارق فى ١٥ نوفمبر، ١٨١٣. وكان له أخ أكبر منه، اسمه وليم؛ واختان أصغر، هما مارى (Mary) وأديلاد (Adelaide)، وتبعهما ولدان آخران، هما توماس (Thomas) وهربرت (Herbert). وكان أبوه جون توماس أوسوليفان من دبلن، تاجر بحرى؛ وكانت أمه مارى راولى (Mary Rowly) "طيبة المحتد" من باور إند، فى ستافورد شاير، بإنجلترا. وقد أصبح والد أوسوليفان قنصلاً لأمريكا فى موجادور فى المغرب وتينيريف فى جزر الكنارى ثم أصبح "رئيساً ومكلفاً بالإشراف على تحميل السفن ومالكاً كلياً أو جزئياً لبعض السفن الأمريكية". وقد غرق، فى عام ١٨٢٤، على أثر تحطم سفينة فى رحلة أمام الشاطئ الغربى لأمريكا الجنوبية وهو يحاول إنقاذ الركاب. وكانت الأم وأبناؤها يعيشون فى فرنسا وقت حدوث المأساة، منتظرين عودة القبطان أوسوليفان حتى يسافروا معه إلى البحار الجنوبية. وانتقلوا بدلاً من ذلك إلى لندن، ثم سافرت الأرملة مارى مع العائلة إلى مدينة نيويورك فى خريف ١٨٢٧[3].

وقد التحق جون لويس أوسوليفان، الذى تلقى تعليماً جيداً بالخارج، بكلية كولومبيا فى سن الرابعة عشرة، وتلقى تعليماً فى الرياضيات واللغات الكلاسيكية، وتخرج "بامتياز" وكان الأول على صفه فى صيف عام ١٨٣١. ثم تقدم إلى شهادة الماجستير ودرس للحصول على درجة فى القانون أيضاً، ووضع لافتة باسمه على المنزل رقم ٦٣ فى سيدار ستريت فى وسط المدينة. وكان الأصدقاء يصفون الشاب الطويل، النحيف، بشعره الأسود، بأن له "مظهر المتأمل المفكر"، وعينان زرقاوان غائرتان. وكان من عدة أوجه جذاباً، ومرحاً، وحاضر البديهة، ومتحدثاً، واجتماعياً، ونشيطاً، ويمتاز بصوت تينور "رقيق وممتع"[4].

وقد انتقلت عائلة أوسوليفان فى ١٨٣٥ إلى جورج تاون فى مقاطعة كولومبيا. وتزوجت أخته مارى من الطبيب الأيرلندى صمويل دالى لانجترى (Samuel Daly Langtree)، واستقر الزوجان مع عائلة أوسوليفان. ويتذكر جون لويس بمودّة أن صمويل إلى جانب اهتمامه بالطب كان "أديباً"، بلا جدال، وعن طريق هذه الهواية المشتركة، سرعان ما أصبحا صديقين. وعندما تقابل لانجترى مع مارى كان قد بدأ بالفعل في إصدار مجلة باسم نيكر بوكر ــ وتوقف فى مدى عام واحد. وكان يحاول الحصول على صحيفة أخرى لإشباع رغبته فى الكلمة المطبوعة وأقنع جون لويس لمشاركته فى امتلاك جريدة متروبوليتان، وهى جريدة نصف أسبوعية فى جورج تاون. وكانا ينشران عروضاً للكتب و"معلومات أدبية" فى الصفحة الأولى[5].

وفى خريف عام ١٨٣٦، أصبح نائب الرئيس مارتن فان بورين (Martin Van Buren) ــ المعروف بسبب مهارته السياسية باسم "الساحر الصغير" ــ رئيسا خلفاً لأندرو جاكسون الذى أمضى فترتين كرئيس للجمهورية. وقد ألهم انتصار فان بورين كلاً من أوسوليفان ولانجترى على تصور جرئ لتجديد جريدة *متروبوليتان* لتصبح "جريدة أدبية وطنية جديدة للديمقراطية الأمريكية"، مخصصة "للطبيعة السيادية للسياسات الديمقراطية... وتعزف على الأوتار الصامتة للعبقرية الديمقراطية لهذا العصر... [مع] توزيع واسع الانتشار فى جميع أنحاء الاتحاد... وسوف تستخدم الشعر والأدب الخيالى لتخفيف المناقشات الأكثر جدية التى تكوّن المظهر الرئيسى للجريدة". وقد وقع كل من الرئيس المنتخب و "شجرة الجوز" الريفية (أندرو جاكسون) باعتبارهما من المشتركين الذين يتلقون الجريدة وأيدوا علناً رسالة *يونايتد ستاتس مجازين وديموكراتيك ريفيو* المعلن عنها فى ١٥ أكتوبر، ١٨٣٧، فى المقال الافتتاحى لأوسوليفان، والذى استغرق أكثر من خمس عشرة صفحة ودافع فيه عن أنه "فى المرحلة الحرجة الحالية من تقدمنا الوطنى... فإن مبدأ الديمقراطية الرفيع والمقدس والذى وضع

ليكون العنصر الأساسى فى النظام السياسى والاجتماعى الجديد قد خلقته 'التجربة الأمريكية'"[6].

لقد تكون حزب الائتلاف الجديد فى عام ١٨٣٤ من أعداء جاكسون السياسيين، بعد لفتة استرضائية "للهويج"، وأسموا أنفسهم على اسم حزب الهويج الإنجليزى فى القرن السابع عشر الذين دافعوا عن الحريات المدنية ضد ملوك أسرة ستيوارت الموالين للكاثوليكية، وتحرك أوسوليفان بسرعة لمخاطبة مؤيديه الحقيقيين، الجمهور الخشن، "ملايين الرجال الأحرار، الذين يتسمون بالرجولة، والذكاء... الأمانة الحقيقية والشعور الطيب للكتلة الكادحة من شعبنا". وكانوا هم جمهور القراء المستهدفين للبيان الجيفرسونى العظيم فى المجلة، "إن أفضل حكومة هى الحكومة الأقل حكماً". إن قداسة الفردية الأمريكية والإيمان بالطبيعة البشرية كانت مرتبطة "بالمحافظة على الصعود الحالى للحزب الديمقراطى كأهمية عظمى، وإن لم تكن حيوية، للمصائر المستقبلية لهذه القضية المقدسة". وقد أنشئ الحزب الديمقراطى فى ١٨٣٢ كخليفة للحزب الديمقراطى الجمهورى الذى نظمه توماس جيفرسون فى ١٧٩٢[7].

وقد تصور أوسوليفان برومانسية أن الأراضى البكر للأدب والثقافة الأمريكية جاهزة للاستكشاف الممتد إلى آفاق أبعد أمامه. وقد أراد أن يبين ويوضح، فى مجلته، العبقرية الأمريكية الأصيلة وأن يتصدى للنزعة الاخذه فى الاتساع والتى تستولى بخطورة على محررى دوريات نيو إنجلند لاستيراد "ثقافة رفيعة". وكتب قائلاً، "إنه من خلال الثقافة الخاصة بها تستطيع أمة واحدة أن تعبر عن نفسها ليتعرف باقى العالم عليها... أدبنا نحن!" وقال متعجباً "... متى تستنشق ثقافتنا روح مؤسساتنا الجمهورية؟ متى ستمتزج مع التطلع الإلهى للحرية العقلية ــ متى ستحقق استقلالها الوطنى؟ ... لماذا لا يستطيع أدباؤنا أن يفهموا الحساسية التى لا تضاهى لوضعنا بين شعوب العالم؟"[8]

وقد ردّ أوسوليفان على هذه الأسئلة الكئيبة بمساعدة اتصالات لانجترى، ولم يثبط همته أزمة البنوك الوطنية التى أثارت الذعر الاقتصادى لعام ١٨٣٧، بإطلاق برنامج نشر واسع فى صفحات أول عدد من *يونايتد ستاتس مجازين وديموكراتيك ريفيو*. لقد حصل على خطبة رالف والدو إيمرسون فى يوم الخريجين، "العالم الأمريكى"، والتى ألقيت قبل ستة أسابيع فى هارفرد. كما احتوى العدد الأول أيضاً على قصة قصيرة جديدة بعنوان "يوم تحصيل المكوس" للكاتب الديمقراطى المتحمس ناثانيل هوثورن (Nathaniel Hawthorn)، مقدماً [للمؤلف]، وعلى

نحو نبيل، مجالاً لاستخدام قلمه، وتحقيق الامتياز". وبعد الترحيب والانتباه الذى حصل عليه كتاب "حكايات رويت مرتين" بعد نشره مباشرة، أصبح أوسوليفان وهوثورن صديقين حميمين، واستمتع "العم جون" الأب الروحى لأونا إبنة هوثورن بأيام كثيرة مرحة مع الأسرة فى كونكورد. وقد استمر المؤلف فى المساهمة حتى بعد أن أصبحت مجلة *ريفيو* عاجزة عن تقديم أكثر من عشرين دولاراً للمقال كحد أقصى.

وفى أعداد تالية قدم أوسوليفان قصائد جون جرينليف ويتير (John Greenleaf Whittier)، والمقالات التاريخية العظيمة لجورج بانكروفت (George Bancroft)، والنقد الأدبى واسع الإطلاع لأورستس أ. براونسون (Orestes A. Brownson)، ويوميات رحلة المكسيك ويوكاتان الغريبة لجون لويد ستيفنز (John Lloyd Stephens) – إلى جانب القصص الخيالية لديمقراطى راديكالى آخر، الفتى المحبوب الهادئ البالغ الثانية والعشرين من عمره والت ويتمان "صاحب الوجه البشوش المتورد والذقن القصيرة" من بروكلين. وكان الشاعر بعيداً لعدة سنوات عن الاستجابة للدعوة الصادرة من *يونايتد ستاتس مجازين* من أجل "هوميروس الجماهير"؛ ولم تنشر "أوراق العشب" إلا فى خريف عام ١٨٥٥[9].

وبحلول خريف عام ١٨٤٠، كانت *يونايتد ستاتس مجازين* قد أصبحت فى ذاتها قوة يحسب حسابها فى الأوساط الأدبية الأمريكية، وعندما دمر حريق محفوظاتها، أصيب دكتور لانجترى بصدمة وخيبة أمل، جعلته يفقد الاهتمام بالجهود اليومية للعمل على استمرار النشر. وأعلن القصصى وكاتب المسرحيات الساخر تشارلز فريدريك بريجز (Charles Frederick Briggs) (الذى كان يكتب تحت الاسم المستعار "هارى فرانكو" Hary Franco) أنه "كما أن باريس هى فرنسا، ولندن هى إنجلترا، فكذلك برودواى هى نيويورك؛ تُوشك نيويورك أن تصبح أمريكا، إذا لم تكن قد أصبحت كذلك بالفعل". لقد عاد جون ل. أوسوليفان إلى بيته فى "المدينة الصاخبة" فى العام الجديد مع دافع جديد للقتال الأشد من أجل قضية الديمقراطية التى تزداد صعوبة دوما. ونقل المجلة إلى محور ارتكاز مختلف، وقرر أن يكون وكيلاً أدبياً لتغيير العاصمة الكبرى، "مقر ومعقل هذه القوة الفنية"[10].

لقد كانت اللحظة المناسبة لعودة أوسوليفان. فقد أصبح المجتمع الأمريكى واعيا كما لم يكن من قبل بأنه قمة الشباب والحيوية النامية. وكان الاقتصاد قد استرد عافيته. وتزايدت بسرعة أعداد المهاجرين من أوروبا، لقد كانت الأراضى فى الغرب شاسعة. وتم

حفر الترع، "وتصاعد دخان قطارات" السكك الحديدية، وكان التلغراف على وشك أن يولد. وبنمو سوق النشر الحضرية، وضع أوسوليفان مزيداً من الجهد فى تقارير *يونايتد ستاتس مجازين*، مستهلاً إلى جانب مظاهر أخرى فى ١٨٤١ "سجلاً شهرياً أدبياً" شاملاً للكتب والمقالات الجديدة التى تستحق الذكر.

واكتسبت مجلة *يونايتد ستاتس مجازين* منزلة رفيعة، إلى جانب دعم من جمعية تامانى* وكانت تعتبر على نطاق واسع من جانب الديمقراطيين كواحدة من أفضل الصحف فى ذلك الوقت، وهى سمعة تعززت عندما استعان أوسوليفان فى وسط العقد، بالمحرر الطموح إيفرت أوجستس ديويكنك (Evert Augustus Duyckinck) من شركة وايلى وبوتنام، وجعله المحرر الأدبى للمجلة. وقد أصبح تحالفهما هو المركز الحيوى لحركة اجتماعية شاملة تسمى "أمريكا الفتاة"، تمثل "الروح الجديدة المنتشرة فى البلاد، القلقة، والحيوية، والقوية... تفرد جناحيها الصغيرين لطيران أعلى وأكثر مجداً"[11].

وكان أوسوليفان، حتى قبل أن يلتقى بديويكنك، متناغماً مع صوت رالف والدو إيمرسون الحكيم. ولعبت معرفة أوسوليفان بمشاعر التسامى "لحكيم كونكورد" دوراً فعالاً فى التكوين الأيديولوجى "للمصير الواضح". وقد تناول إيمرسون مع أوسوليفان طعام العشاء فى نيويورك مساء الأحد ١٢ فبراير ١٨٤٣، فى منزل صديق مشترك هو المحامى دافيد دادلى فيلد (David Dudley Field) الناشط فى حركة حرية التجارة والمهاجر من ستوكبردج. وقد كتب إيمرسون إلى مرجريت فولر فيما بعد فى ذلك المساء، مقيّماً أوسوليفان على أنه "سياسى ــ أدبى". لقد كان تقييمه بليغاً ولكنه لم يكن غير دقيق. وكانت هناك ليالى اجتماعية تالية تتبعها منطوق أحكام من جانب إيمرسون. أما من جانب أوسوليفان فلم يأت إلا الاحترام والإعجاب[12].

لقد توجه إيمرسون بخطاب مثير إلى "الأمريكى الشاب" مباشرة، فى ٧ فبراير ١٨٤٤، أمام جمعية المكتبة التجارية (Mercantile Library Association) فى بوسطن، داعياً الجيل الحالى للنشطاء والمحركين أن يستلهموا من القارة المفتوحة الجانبية، "والموارد غير المحدودة للتربة التى يملكونها... بذلك المسار العظيم من الأرض فى نصف الكرة الغربى... الغرب

* جمعية سياسية فى نيويورك (١٨٨٧) تضم مجموعة من المنظمات كانت تسعى لمحاربة الفساد والديكتاتورية ــ المترجم.

الصخرى المثير". ونصح الشباب أن يتحرروا من قيود الثقافات الأجنبية ولا يصغوا إلا "إلى المصير السامى الصديق الذى يرشد الجنس البشرى... إن ما هو محتم هو فقط ما يثير اهتمامنا". وقد أحس إيمرسون بافتقار موجع للاتجاه الروحى والفكرى فى فكر العالم ككل. ورأى أن هذه هى اللحظة التى ينبغى فيها على شبابنا أن "يتجاوزوا كل ما يسمعونه من نقد الآخرين"، و"يضفوا وجهاً من العظمة على المستقبل". ويجب أن يفعلوا ذلك ليس بغرض المواءمة السياسية أو المكاسب المادية ولكن من أجل بناء "دولة اجتماعية جديدة وأكثر تميزاً". وهذا هو قدر أمريكا "كأمة رائدة" فى العصر الحالى[13].

وكان هناك شاب أمريكى واحد على الأقل ينصت لذلك، وهو جون ل. أوسوليفان. وكانت *مقالات* إيمرسون: *السلسلة الثانية*، التى نشرت فى أكتوبر ١٨٤٤، قد قوبلت بترحيب من خلال العرض المركز والمنطقى الذى شغل أربعة عشر صفحة فى *يونايتد ستاتس مجازين أند ديموكراتيك ريفيو*. وكان المؤلف المجهول، الذى يكتب تحت اسم "المريد"، قد بدأ بذكر عبارة مقتبسة من كولردج تشهد "باكتشاف الوحدة الأساسية"، ثم كرّس إيمرسون على أنه "الفيلسوف والشاعر العظيم... الذى يفهم روح العصر". وبيّن المريد أن أعظم تراث فى هذه المرحلة الحاسمة ذات الإمكانيات غير المسبوقة فى التراث الأمريكى هو فهم إيمرسون العميق أنه "فى ظل وجود الماضى القوى، يتطلع الناس إلى مستقبل سوف يؤكد الفكرة العظيمة للتقدم غير المحدود". وقد نبّه الكاتب بصفة خاصة إلى كيفية تدفق الأفلاطونيين الجدد من التاريخ القديم، إلى جانب شيلنج (Schelling) وكانط، وكارليل، كروافد إلى فكر إيمرسون الذى استوعبها و "لمثالية بيركلى" فى مقالاته، التى تمتاز "بوحدة طبيعتها، حيث يعاود الكل الظهور فى جميع الأجزاء"[14].

والإشارة إلى مقطع ورد قرب نهاية *المقالات: السلسلة الثانية*، كآخر جزء فى الكتاب، فى محاضرة بعنوان "مصلحو نيو إنجلند" مؤرخة ٣ مارس ١٨٤٤، بينت مدى الدقة التى استوعب بها "المريد" هذا الكتاب. لقد كتب إيمرسون فيها بمزيد من الثناء على "الفكر القوى والمثير... [و] عظمة القلب والعقل" عند الفيلسوف المثالى جورج بيركلى (George Berkeley) (١٦٨٥-١٧٥٣)، الذى ولد فى توماس تاون، وكان أسقفاً أيرلندياً معجباً بأمريكا لدرجة أنه هاجر من لندن ليعيش لمدة أربع سنوات فى منزل ريفى أسماه "هوايت هول" يبعد بحوالى ميل من الشاطئ عند نيوبورت فى رود أيلاند. وقد أنشأ بيركلى جمعية علمية هناك فى أواخر عشرينيات القرن الثامن عشر، وألف كتابا مبنياً على إقامته المؤقتة فى أمريكا. وكانت تأملاته

الشعرية عما تعد به الأرض الجديدة الواعدة، *أبيات شعرية عن مستقبل غرس الفنون والتعلم في أمريكا* (١٧٢٦) متصوراً "مقعد البراءة/ حيث تقوم الطبيعة بالإرشاد وتقوم الفضيلة بالحكم" في تناقض صارخ مع "أوروبا التي تتوالد في اضمحلالها"، وكانت أنشودة تتبؤ بالمصير الواضح. وقد أنشد الأسقف في المقطع السادس والأخير من قصيدته قائلاً "يتجه مسار الإمبراطورية غرباً"، وكان على ثقة من أن الدولة الجديدة الناشئة ستقيم "عصراً ذهبياً آخر/ قيام الإمبراطورية والفنون".

ويستطيع الزائر إلى مجلس النواب في واشنطن أن يرى على جدار سلم مبنى الكابيتول آخر مشروع لأسطورة رمزية عظيمة للرسام إيمانويل جوتليب ليوتز (Emanuel Gottlieb Leutze) (١٨١٦–١٨٦٨). وقد سميت هذه الصورة الجدارية الضخمة بأبعادها التي تبلغ عشرين في ثلاثين قدماً والتي نحتت في عام ١٨٦١، "مسار الإمبراطورية يتجه غرباً"، تحية لقصيدة بيركلي، ويظهر بها رجال الجبال، والمهاجرون، وعبد تم تحريره "يتدفقون عبر الصورة من اليمين إلى اليسار"، ويعتلون قمة جرف صخري قرب غروب الشمس عند الفاصل القاري. ويقود المجموعة مستكشف نبيل يلوّح بقبعته نحو "بساط الله"، ويستعد في الوهج المنعكس للبوابة الذهبية للمحيط الهادئ لأن يغرس العلم الأمريكي، بنجومه وشرائطه مذكراً بصورة موسى وهو يقود بني إسرائيل خلف عمود من النور، محملقاً من قمة صحراء بعيدة إلى أرض الميعاد.

كان الأمريكيون بالنسبة للكاتب ج. هيكتور سانت جون دي كريفكير (J. Hector St. John de Crévecoeur) في *خطابه الثالث من مزارع أمريكي* (١٧٨٢)، هم "المهاجرون الغربيون، الذين يحملون معهم ذلك الحشد من الفنون، والعلوم، والحيوية، والصناعة". وبعد نصف قرن تعجب ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville). في كتابه *الديمقراطية في أمريكا* من أن "التقدم التدريجي والمستمر للجنس الأوروبي نحو جبال روكي.. يشبه طوفاناً من البشر، يرتفع بدون توقف، وتدفعه يومياً إلى الأمام يد الله"[15].

كان أوسوليفان، شأنه شأن إيمرسون، يؤمن بحقيقة التقدم الأمريكي. فقد كانت مجلة *يونايتد ستاتس مجازين* منذ بدايتها تتبع مسار المصير الواضح في عالم الأدب في حين تغترف من رسالة أمريكا الدينية. وقد وصف فريدريك جاكسون تيرنر (١٨٦١–١٩٣٢)، مؤرخ "المقاطعات الجغرافية الطبيعية الشاسعة" للغرب الأمريكي غير المحدود، جيل أوسوليفان بأنهم الورثة المباشرون لتراث أندرو جاكسون ــ ديمقراطية التخوم. وكتب تيرنر

أن أوسوليفان ونظراءه كانوا، مثل الجنرال جاكسون، رجالاً يعرفون قيمة "التنمية غير المتوقفة للفرد" كما كانوا أيضاً معرضين "لقوة كهربائية محركة دينية مرتفعة" ولتوضيح هذه التوليفة، كتب أوسوليفان فى ١٨٤٠ عن الديمقراطية على أنها إكمال "بالمعنى الحقيقى... لآخر أفضل رؤيا للفكر الإنسانى. ونحن نتحدث بالطبع عن تلك الديمقراطية الحقيقية والأصيلة التى تتنفس الهواء وتعيش فى ضوء المسيحية ــ والتى لبابها العدل، وغرضها التقدم الإنسانى"[16].

لم يكن هناك سوى عدد قليل من شباب الأمريكيين يؤمنون بالعقيدة الديمقراطية بصورة أكبر من جيمس نوكس بولك (١٧٩٥-١٨٤٩)؛ الذى عُيّن كاتباً فى مجلس شيوخ ولاية تينيسى فى ميرفريزبورو وهو فى سن الرابعة والعشرين، وأصبح بولك إبناً يدين بالولاء للحزب منذ ذلك الوقت. وكان من رواد الجاكسونية، وصوّت لصالح "الرئيس العجوز"، ابن تينيسى المفضل، لمنصب الرئاسة فى ١٨٢٣. وأصبح بولك رئيساً لمجلس النواب، وفى الدورة السابعة له فى الكونجرس عندما قابل جون ل. أوسوليفان الذى أثنى عليه كثيراً فى مقابلة شخصية مطولة ترسم صورة عن حياته نشرها فى عدد مايو ١٨٣٨ من *يونايتد ستاتس مجازين*. وقد استقال بولك من الكونجرس فى ١٨٣٩ ليرشح نفسه لمنصب حاكم تينيسى. وقد تولى المنصب لدورة واحدة ــ ثم خسر سباقين متتاليين لإعادة الانتخاب بصورة "قاتلة وغير مفهومة". وكان مستقبله الذى بدى واعداً فى وقت ما على حافة السقوط عندما اختار بولك الذكى أن يدخل إلى الجانب الصحيح فى ضم تكساس[17].

وعند حلول قمة الانتخابات الفيدرالية فى عام ١٨٤٤، كانت الأمة قد تضاعفت من ثلاث عشرة ولاية إلى ست وعشرين. وكانت الكفتان متوازنتان ــ ثلاث عشرة بها عبيد وثلاث عشرة أحرار. لذلك كانت كيفية دخول جمهورية تكساس المستقلة الوليدة فى هذا التكوين عملاً محورياً. وفى ٢٧ أبريل، أى بعد خمسة أيام من إرسال الرئيس جون تايلر معاهدة ضم تكساس إلى مجلس الشيوخ للموافقة عليها، أعلن كل من هنرى كلاى (Henry Clay)، وزير الخارجية السابق وكبير رجال الدولة فى حزب الهويج، والرئيس السابق مارتن فان بورين، الديمقراطى من نيويورك، فى جريدتين من جرائد واشنطن، معارضتهما المشتركة للضم. ومازال المؤرخون على خلاف حول ما إذا كان الطامحون المتعادون فى الرئاسة قد توصلوا لاتفاق سرى ضد الضم طالما ظلت المكسيك تعارضه. وكانت الاستراتيجية المشتركة لكلاى

وفان بورين مقصود منها تهدئة الموضوع وتجنب أى مناقشة علنية عن ضم أراضى تكساس إلى ما بعد انتخابات الخريف.

ولكنهما فى ذلك أخطآ فهم رأى أغلب الأمريكيين ــ بما فيهم بولك ــ من أن الحدود التى تفصل تكساس عن باقى البلاد مصطنعة ويجب التخلص منها بأسرع ما يمكن. وبحلول موعد المؤتمر الديمقراطى فى مايو فى قاعة أود فيلوز فى بلتيمور، كان أندرو جاكسون قد تخلى عن فان بورين وتحول إلى بولك، المفضل الجديد لديه، وأبعد المشاركين فى سباق الرئاسة عن الفوز. ولكن مناورات جورج بانكروفت العنيفة، فى آخر لحظة، كان لها الفضل فى قيام وفد نيويورك بوضع بولك فى القمة فى الجولة التاسعة كمرشح منتصر وغير متوقع. وقد أضاف اختيار بولك الحماس إلى قضية تكساس، التى كانت، كما قال ديكسون هـ. لويس (Dixon H. Lewis)، من دعاة التوسع من ألاباما، قد جعلت الرأى العام "يغلى ويفور مثل البركان أكثر منه مثل برميل عصير التفاح المختمر"[18].

وفى تلك المرحلة أظهر جون أوسوليفان مرة أخرى غرائز سياسية ذكية. وكتب أوسوليفان، وكان إصبعه على نبض رجل الشارع، أنه ليس لديه شك فى أنه "إن عاجلاً أو أجلاً ستصبح تكساس جزءاً من الولايات المتحدة" بطرق سلمية. واتساقاً مع وجهة النظر المحبة للغير هذه، كان أوسوليفان من المعارضين لعقوبة الإعدام وأدان بناء الأمة على أساس سفك الدماء. وفى مقالات افتتاحية أخيرة مضى لحد اقتراح إنشاء نظام دولى للتحكيم، مثل عصبة الأمم، لوضع حد "لروح الحرب هذه... التى تتعارض تماماً مع عبقرية الديمقراطية الأمريكية".

وخلال ثلاثة أشهر بعد المؤتمر الديمقراطى، أقنع أوسوليفان المرشح بولك وغيره من كبار رجال حزب الهويج بضرورة توفير منبر إضافى لأفكارهم الموحدة. وبالتنسيق مع دعم من صديقه صمويل ج. تيلدن (Samuel J. Tilden) محامى السكك الحديدية والعقارات الناجح، كمدير أعمال، وسع أوسوليفان من الأعمال الخاصة به فى مجال النشر بإنشاء *نيويورك مورنينج نيوز*. وقد أصدرت الجريدة اليومية الجديدة أيضاً طبعة وطنية أسبوعية، مثل سابقتها *يونايتد ستاتس مجازين*، مخصصة للحكم بواسطة الشعب ــ بعنوان "الديمقراطية". وللتأكد من فوز بولك، والذى أصبح يلقى الترحيب ويطلق عليه اسم "شجرة الجوز الفتية"، بأصوات نيويورك الانتخابية فى انتخابات الخريف التالية، تطلع أوسوليفان إلى ما بعد انتخابات نوفمبر لضمان استمرار نفوذه فى دهاليز القوة فى البيت الأبيض عن طريق الوسيلة التى يعرفها تماماً ــ الصحافة[19].

وقد بدأت القيادة الديمقراطية فى الدورة الثانية (البطة العرجاء) للكونجرس الثامن

والعشرين من حيث انتهى الرئيس تايلر فى الربيع السابق، وبمباركة بولك وضعت قراراً مشتركاً بشأن ضم تكساس أمام المجلسين. وقد صدر القرار فى يناير وفبراير. وقد عبر النائب ستيفن أ. دوجلاس (Stephen A.Douglas) من إلينوى عن مزاج المشرعين عندما قال "أزيلوا الخطوط من على الخريطة التى تبين الآن حدودنا الوطنية فى هذه القارة... واجعلوا مساحة الحرية بنفس عرض القارة... وليست جمهوريات صغيرة متنافسة تعانى لتنمو هنا، وهى تثير الغيرة فيما بينها".

تولى جيمس ك. بولك مهام منصبه فى ٤ مارس ١٨٤٥، وأصبح الرئيس الأمريكى الحادى عشر وأصغر رئيس أمريكى. وكان من أوائل إجراءاته الرسمية فى ذلك اليوم، مساندة دعوة الضم التى نقلها أندرو ج. دونلسون (Andrew J. Donelson)، القائم بالأعمال الأمريكى فى جمهورية النجم الوحيد (تكساس). وقد أبدت جريدة *نيويورك مورنينج نيوز* موافقتها التامة: على أنه "منذ وطئت أقدام آبائنا المهاجرين هذه الشواطئ إلى هذه اللحظة" كما قال أوسوليفان، "زحف المستوطنون الرواد إلى الأمام كمقدمة للحضارة.... إن هذا هو التأثير الطبيعى الذى لا يتغير لوضعنا فى هذه القارة". لقد كان إجراء بولك هو الخطوة الأولى نحو زيادة أسيّة فى "المجال الوطنى" الأمريكى. فبنهاية الفترة الأولى للرئيس بولك التى اختار ألا يتبعها بفترة ثانية، حصلت الولايات المتحدة على أكثر من ١,٢ مليون ميل مربع من الأراضى، أى ما يزيد على ثلث المساحة التى تشغلها الآن[20].

وكان كل ما تبقى هو أن تمسك تكساس باليد المرحبة التى بسطها الكونجرس. وقد اقترع مواطنو تكساس بالموافقة فى استفتاء أجرى فى يونيه، ولكن ساد بعض الارتباك فى أشهر الصيف عندما أرسلت دبلوماسية النسر الناشر الجناحين التى اتبعها بولك، إشارات مختلطة لجار أمريكا الآخر فى الجنوب. فقد قدم جيمس بوكانان (James Buchanan) وزير الخارجية، غصن الزيتون إلى المكسيك، مؤكداً على أن استمرار العلاقات الطيبة له أهمية كبرى، برغم أن الكابتن جون فريمونت قد توغل داخل الأراضى المكسيكية مع بعثة استكشافية من أكثر من ستين رجلاً متجهين من تخوم ميزورى نحو الحوض العظيم[21].

وقد ألهبت الضغوط المتراكمة أوسوليفان ــ الذى تملكته روح أندرو جاكسون الباقية، والذى كان قد توفى قبل شهر فى الأرميتاج، منزله بالقرب من ناشفيل ــ فأطلق بياناً من مصدرين. ففى عدد ٩ يوليه ١٨٤٥ من *المورنينج نيوز*، تحدث أوسوليفان عن "مصيرنا فى الانتشار فى كل أمريكا الشمالية مصحوباً بالتقدم الذى يشبه المعجزة لسكاننا ونفوذنا". كما قدم

المقال الافتتاحى الرئيسى فى عدد يوليه من مجلة *يونايتد ستاتس مجازين*، وكان بعنوان "الضم" كتمرين فى "التأمل الذكى". لقد أحس أوسوليفان "بنشاط بالغ يسرى بانتظام فى دمه"، معيداً التأكيد على فكرة مسلطة ترددت فى خطبه على مدى نصف دستة من السنين. وأعلن فى سخط "لقد حان الوقت للكف عن المعارضة فى ضم تكساس، لقد حان الوقت أن يستسلم منطق العقل لموافقة كريمة على ما هو محتم".

وقد اعترف أوسوليفان بأن موضوع العبيد هو "موضوع مثقل بالحرج والخطر، ومتشابك وله وجهان،" ولكن ينبغى ألا يكون عاملاً حاسماً يؤثر فى قبول تكساس فى الاتحاد. وباتساع رقعة البلد، كان التوازن غير المستقر مستمراً بضم ولايات متحررة وولايات بها عبيد بالتبادل، كما حدث مع أركنسو وميشيجن فى ١٥ يونيه ١٨٣٦، و٢٦ يناير ١٨٣٧ على التوالى. ولكن الضم كان جزءاً من التدفق الثورى الأكبر للأحداث، ولتجاها يمتد من وادى المسيسبى إلى كاليفورنيا وأوريجون، وإلى أبعد من ذلك فى كندا البريطانية وباقى أمريكا الأسبانية. ومن أجل ذلك استمر أوسوليفان قائلاً، "لنتخلص إذن من الحديث الفرنسى الذى ليس له طائل عن 'توازن القوى' فى القارة الأمريكية". لقد كانت تكساس مدخلاً "لتحقيق مصيرنا الواضح فى الانتشار فى جميع أنحاء القارة التى خصصتها العناية الإلهية للنمو الحر لملايينا التى تتضاعف سنوياً". وقد حذر أوسوليفان بأنه بعد مائة عام، وفى العام الذى "يقترب سريعاً ١٩٤٥... سيكون من المقدر أن يحتشد ثلاثمائة مليون ـ ملايين الأمريكيين ـ تحت العلم الخفاق للولايات المتحدة"[22].

لقد أوشك القرن المتوقع أن ينقضى عندما صدرت دراسة برنارد دى فوتو (Bernard De Voto) البارزة بعنوان *عام الحسم* فى ١٨٤٦. وفى عام ١٩٤٣ استرجع المؤرخ ومحرر مجلة *هاربر مجازين* الحماس الثقافى الذى شكل لغة أوسوليفان. وكان دى فوتو يعتبر "المصير الواضح واحدة من أكثر العبارات ديناميكية". لقد رأى المبررات المزدوجة للتعبير، ولاحظ أن المصير الواضح بالنسبة لأوسوليفان يسمح "باحتلال الأراضى إلى جانب ممارسة الفضيلة.... وفى تلك العبارة وجد الأمريكيون كلاً من الاعتراف والرؤيا"[23].

وقد كافأ الرئيس بولك، جورج بانكروفت (١٨٠٠-١٨٩١)، المؤرخ الممتاز، على ولائه للحزب الديمقراطى بأن عينه وزيراً للبحرية. لقد ولد بانكروفت فى ورشستر، وتخرج من هارفرد وأمضى أربع سنوات فى الخارج فى جامعات جوتنجن

وبرلين، حيث درس مع ج.و.ف. هيجل (G.W.F. Hegel) ووقع تحت المذهب العقلي الألماني الجديد والإيمان بطبيعة التاريخ الذي تحركه العناية الإلهية وتدفعه الرسالة. وخلال عقد من الزمان بعد عودته إلى أمريكا، أصبح بانكروفت "مرتداً مجاهراً" عن المصارف الكبرى والحكومة الضخمة، وخلع ملابس مثقفي الطبقة العليا، وتحول إلى الجاكسونية. وبدأ في مشروع كتابة مجلد من عشرة أجزاء عن *تاريخ الولايات المتحدة منذ اكتشاف القارة*. وقد أثنى ليوبولد فون رانكا (Leopold Von Ranke) على عمل بانكروفت الطويل على أنه أفضل تاريخ كتب من وجهة نظر الديمقراطيين، وهو تقدير "أغاظ وأرضى" بانكروفت. وقد تدرج بسرعة في سلّم قيادات الديمقراطيين. وعين محصلاً لميناء بوسطن بقرار من الرئيس فان بورين، ومن قاعدة القوة تلك أصبح "رئيس" الحزب في ماساشوسيتس. وقد ازداد بريق سمعة بانكروفت السياسية أكثر عندما تم اختياره لتقديم التأبين الرسمي في جنازة أندرو جاكسون العظيم[24].

ويشير تاريخ حياة جيمس ك. بولك الذي وضعه تشارلز جريير سيللرز (Charles Grier Sellers)، إلى أنه خلال أيام من توليه منصبه، استدعى الرئيس الجديد بانكروفت المؤرخ ليخبره " بالإجراءات الكبرى" الأربعة لولايته. فبالإضافة إلى خفض الجمارك، وإعادة إنشاء وزارة مالية مستقلة، والحصول على كاليفورنيا من المكسيك، أعاد بولك على مسامع بانكروفت تعهداً قدمه عند بداية ولايته بالحصول على "كل أوريجون" من وراء نهر كولومبيا شمالاً إلى خط ألاسكا، منتزعاً لها من البريطانيين. وقال بولك "إن حقنا في منطقة أوريجون واضح ولا نزاع فيه"[25].

ويعتبر بعض الدارسين المحدثين أن هذا التقرير مشكوك فيه لأن بانكروفت لم يسجل هذا الحدث في الأوراق إلا بعد أربعين سنة. وحتى لو لم تكن تلك المناقشة قد حدثت، فإن بانكروفت الرومانسي كان معجباً بتعبير بولك القوي عن قوة الإرادة التنفيذية. إن يقين الرئيس بأن الولايات المتحدة هي الممثل الشرعي "لقانون النمو" تتفق تماماً مع تتابع الأبطال الأمريكيين سريعي الإدراك بدءاً من جون آدمز في عام ١٧٧٨ وامتداداً حتى جون كوينسي آدمز (John Quincy Adams) في ١٨٤٦، المتشككين في منافسة بريطانيا في أي جزء من القارة. وكتب جون آدمز قائلاً "طالما احتفظت بريطانيا العظمى بكندا ونوفاسكوشيا وفلوريدا، أو أي منها، فستبقى بريطانيا العظمى عدواً للولايات المتحدة، مهما تحاول أن تخفي ذلك". إن حق أمريكا المطلق في الأمن الداخلي يمتد متمشياً مع "الطوارئ" التي تهدد حدودها. وفي

مقال *تفنيد دعاوى المزارعين* (٢٣ فبراير ١٧٧٥)، عبر ألكسندر هاملتون (Alexander Hamilton) عن ذلك الحق بقتال شعرى معتدل ضد "ادعاءات البرلمان"، كأنما "كتب بشعاع الشمس، فى الكتاب الشامل للطبيعة البشرية، بيد القدرة المقدسة ذاتها؛ ولا يمكن محوه أو إخفاؤه بقوة بشرية".

وفى قمة الجدال فى الكونجرس بشأن منطقة أوريجون، استمد رجل الدولة الأكبر جون كوينسى آدمز القوة أيضاً من القانون الأعلى فى الكتاب المقدس. إذا أرادت أمريكا أن تطالب بالأراضى الشمالية الغربية، فإن ذلك كما قال هو التصرف الصحيح بناء على الأمر الواقع. إن شركة خليج هدسون الإنجليزية تعتبر حامية اسمية للمنطقة ولا يمكن أن يسمح لها بالوقوف فى طريق آلاف المستوطنين الأمريكيين الذين ينتقلون بعربات القطار إلى وادى ويلاميتى. وقد توقف آدمز أثناء حديثه أمام مجلس النواب، وطلب من سكرتير الجلسة أن يقرأ ويثبت فى السجل مقطعاً من مزمور داود الثانى العتيق: "ومع ذلك فقد وضعت الملك على جبل زيون المقدس". وكانت السطور تحمل شهادة عن الحتمية الأمريكية الحالية. وأنهى آدمز حديثه قائلاً "حسناً يا سيدى، إن حقنا فى أوريجون يقف على نفس القاعدة... لجعل البرّية تتفتح مثل الوردة"[26].

وبحلول خريف عام ١٨٤٥، كانت أغلب الصحف الأمريكية قد أيدت المغالاة فى الوطنية وفقاً لمقولة جون ل. أوسوليفان "كل أراضى أوريجون"، والذى كان يعتقد أن الشعب يجب أن يدعم موقفه الدولى. ومن الصعب مقارنة الحصول على أراضى فى الأمريكتين "بالغزوات والانتصارات فى العالم القديم [أوروبا].... فنحن فوق وأبعد من تأثير مثل هذه الآراء"، كما قال بفخاره المعتاد. "نحن لا نأخذ من أحد؛ بل على العكس ــ نحن نعطى... لذلك من حقنا أن نزدرى ما توجهه إلينا الشعوب المنافسة من قدح واتهامات"[27].

ولم يكن اتجاه الرئيس فلسفياً بهذا القدر. فقد كان يمكن تمييز صوت قعقعة السلاح المشؤوم فى رسالته السنوية الأولى للكونجرس فى ٢ ديسمبر. لقد طلب بولك سلطة لإقامة حكومة محلية فى أوريجون ــ كل أوريجون، حتى خط عرض ٥٤ درجة و ٤٠ جزء من ستين من الدرجة ــ إلى جانب إبلاغ بريطانيا أن الاتفاقية الإنجليزية الأمريكية للاحتلال المشترك، والتى كانت سارية منذ ١٨١٨، قد ألغيت. ولم يبالى بولك بالمخاوف التى عبر عنها وزير الخارجية جيمس بوكانان والسناتور جون س. كالهون (John C. Calhoun) من ساوث كارولينا بأن مثل هذه "الشجاعة الكلامية" ستؤدى إلى الحرب، ورفض بعناد رجاءهم

بأن يحترم "توازن القوى" فى العالم. وفى الأيام التى أعقبت عيد الميلاد وقبل بداية العام الجديد، كان الجو فى قاعة مجلس الوزراء كئيباً. وفى يوم السبت، ٢٧ ديسمبر ــ وهو نفس اليوم الذى اجتمع فيه مجلس وزراء بولك للتصويت بالإجماع على رفض التحكيم مع بريطانيا ــ نشرت *نيويورك مورننج نيوز*، ما أصبح يعرف "بأشهر مقال رئيس تحرير فى هذا العقد"[28].

وقد بدأ جون أوسوليفان عموده بعنوان، "الحق الشرعى الصحيح"، بتحية للرئيس، مشيراً إلى خطاب بولك الافتتاحى حرفياً: "إن حقنا الشرعى فى أوريجون سليم طالما كان القانون سارياً لحماية هذه الحقوق... وجميع أوريجون كلها، حتى لو كان ربع فدان!" وربما كان أوسوليفان يخشى أن ما كتبه منذ خمسة أشهر فى مجلة *يونايتد ستاتس مجازين* لم يلفت نظر عدد كبير من القراء، ولذلك فقد قرر أن يكرر الرسالة بأسلوب عنيف. وربما يكون قد انتقل إلى تعبير مجازى أكثر سخونة "للتعبير عن نفاد صبره مع أعضاء حزبه المراوغين. واستطرد أوسوليفان قائلاً إن حق أمريكا فى أوريجون "هو بموجب حق مصيرنا الواضح فى الانتشار وامتلاك كل القارة التى منحتها لنا العناية الإلهية لتطبيق التجربة العظمى للحرية والحكم الذاتى الفيدرالى الذى عهدت إلينا به. إنه حق يشبه حق الشجرة فى مجال الهواء والتربة الملائمة كى تمتد جذورها إلى أقصى حد وتحقق مصيرها فى النمو ــ حق يشبه حق النهر فى مجرى مطلوب للحجم الآخذ فى التزايد لمجراه.... إنه المصير الأمريكى.... الذى أنشأته وقادته هنا أصابع الله ــ ذلك الاتجاه الغالب غرباً، وغرباً، والذى يمثل اتجاه حركتنا الوطنية، ويحملنا بصفة دائمة للمضى قدماً نحو المحيط الهادى، مثل الجاذبية التى تحسها تجمعات المياه المندفعة فى أنهارها والتى تستمع وتطيع الدعوة من المحيط الكبير لمصيرها....".

لقد انضمت جمهورية تكساس كولاية مسموح بوجود العبيد بها، وأصبحت الولاية الثامنة والعشرين فى الاتحاد فى آخر ديسمبر ــ وكانت فلوريدا هى الولاية السابعة والعشرين، وسوف تصبح أيوا قريباً الولاية التاسعة و العشرين ــ وتم الاعتراف بدستور تكساس فى أول اجتماع للكونجرس التاسع والعشرين فى ٣ يناير ١٨٤٦. وقد ركب النائب روبرت س. وينثروب (Robert C. Winthrop) من حزب الهويج فى ماساشوسيتس، الموجة التى بقيت تحركها عبارات أوسوليفان البليغة، ووقف يحدث زملاءه فى مجلس النواب قائلاً: "إن هناك عنصراً واحداً فى حقنا الشرعى [فى أوريجون] أعترف بأننى لم أذكره، والذى ربما لا أكون

قد أعطيته حقه كاملاً. إننى أعنى تلك الرؤيا الجديدة للحق الذى تحدد باعتباره حق مصيرنا الواضح للانتشار فى جميع أنحاء هذه القارة". وقد أرجع وينثروب الفضل فى هذا الاستخدام المستتير لجريدة *نيويورك مورنينج نيوز*، التى أشار إليها على أنها "جريدة الإدارة الرائدة"، معترفاً "بأن ذلك بعد كل شئ هو أفضل وأقوى حق شرعى لنا.... حق مصيرنا الواضح! إن هناك حقاً لفصل جديد فى قانون الأمم؛ أو بالأحرى، القوانين الخاصة ببلدنا". ورغم أن المشاعر كانت ملتهبة داخل النوايا الأمريكية منذ القرن السابع عشر، إلا أنه من اللحظة الحاسمة التى أثبتت فيها خطبة وينثروب إلى شكل آخر فى الصفحة ٩٩ من ملحق *كونجرشيونال جلوب*. "دخلت عبارة مصيرنا الواضح فى المفردات الوطنية الدائمة"[29].

وفى صباح اليوم التالى، الرابع من يناير، ومع استمرار المناقشات فى الكونجرس، توجه النائب الديمقراطى جيمس أوجستس بلاك (James Augustus Black) من ساوث كارولينا إلى البيت الأبيض للتعبير عن مخاوفه. وقد جاء فى مذكراته عن تلك الليلة، استمر الرئيس مصمماً على موقفه، ولاحظ أنه أجاب السير بلاك "بأن الطريقة الوحيدة لمعاملة جون بول [التجسيد الكاريكاتورى الشهير لبريطانيا العظمى] هى إطالة النظر فى عينيه مباشرة؛ إذ أننى أعتقد أن المسار الشجاع والحازم من جانبنا [هو] المسار المهدئ، وإذا تردد الكونجرس أو تقاعس فى مساره، فإن جون بول سوف يصبح فوراً متغطرساً ومتشدداً أكثر فى مطالبه، وأن ذلك كان تاريخ الأمة البريطانية فى جميع صراعاتها مع القوى الأخرى على مدى القرنين السابقين".

وفى صباح يوم ٥ يناير، تم تقديم مشروع قرار" لمجلس الشيوخ لإنهاء الاحتلال المشترك لأوريجون، وارتقى جون أوسوليفان منبره المنتصر مرة أخرى، ونشر خطاباً طويلاً بعنوان "تحية عظيمة للعام الجديد" فى الصفحة الأولى من جريدة *مورنينج نيوز* موجهاً إلى "أصدقائه السياسيين" فى اللجنة العامة للشباب الديمقراطى. وإذ استحضر "الروح التى استيقظت" للديمقراطية فى أفضل أحوالها، حثهم أوسوليفان على الانضمام إلى الاحتفال "بحتمية المصير القومى" المؤدى إلى ضم تكساس. وكتب قائلاً إن هذا الإجراء دليل حى على "نمو عظمتنا الوطنية... تلك الحركة الشعبية الديمقراطية العظيمة نحو التوسع فى الأراضى التى تميز الفترة الحالية بكل وضوح". لقد حان الوقت لاستمرار قوة الدفع، والحركة إلى الأمام دون تباطؤ إلى أراضى أوريجون (والتى سوف تصبح فى النهاية واشنطن كلها وأجزاء من ولايتى ويومنج وأيداهو). ثم سيتبع ذلك بالتأكيد "الاستيلاء على كاليفورنيا". ثم بعد ذلك، كما قال أوسوليفان ــ إلى الأمام إلى المكسيك[30].

خلال شتاء وربيع عام ١٨٤٦، بدأ غرض وصياغة المصير الواضح الذى كان جون أوسوليفان قد استشعره بصورة مجيدة، يكتسب نغمة منذرة بـالخطر، ويغشاه الظلام الذى ألقاه عودة المبدأ الألفوى للظهور، القائل بأن مسار التاريخ الأمريكى فى ظل إرشاد الله يجب أن يؤدى إلى إقامة مدينة فاضلة مقدسة على الأرض. وكانت الألفوية الأمريكية تستمد جوهر عقيدتها من كتاب النبوءات لرؤى القديس يوحنا، الذى يشير إلى أن "غاية"، أو هدف، التاريخ الشامل للإنسان هو التغلب على قوى الشر. فمن أجل الانتصار على الشيطان وانكماش أرضه، يكون للأمة الأنجلو ساكسونية المبرّأة من الخطيئة الحق ـ الالتزام ـ فى النمو الذى لا يتوقف فى رغبتها المتزايدة للسيطرة[31].

وقد تصاعدت أنشطة الرئيس بولك التوسعية. وفى منتصف يونيه توصلت الولايات المتحدة على مضض إلى اتفاق مع حكومة صاحبة الجلالة بشأن أراضى أوريجون "بالنسبة للحدود الغربية لجبال روكى". وقد امتدت الحدود على خط العرض التاسع والأربعين. وفى حين أن رحلة تمتد إلى ألفى ميل من ميزورى جعلت الهجرة الأمريكية الكبرى تتـهمر فى الوديان الداخلية لكاليفورنيا، فقد رفض بولك بغرور أن يؤكد لبريطانيا وفرنسا أنه ليست له أى نوايا فى امتلاكها بالقوة. وتدهور الموقف فى المكسيك عندما تحركت جنود الجنرال زاخارى تيلور (Zachary Taylor) البالغ عددهم أربعة آلاف إلى الجنوب، إلى أراضى متنازع عليها عند ريو جراند فى فورت براون، فى مواجهة ماتاموروس. وأصر بولك وهو يحس أنه محق فى رأى نفسه بأنه لا يخطط لامتداد نظام الرقيق الأمريكى بحرب للفتح، ملتزماً بسياسة حافة الهاوية عبر القارة والتى أسماها بعبارة ملطفة "الاحتلال الحمائى"[32].

وتحولت لغة أوسوليفان، التى لم تعد تتسم بالإيثار والتفاؤل، إلى لغة نزقة ومتعالية. لقد فقد عاطفته الجامحة للدعوة إلى "النزعة القارية العادلة والخيرية والسلمية". ولم يعد يتحدث كما كان من قبل عن الديمقراطية الأمريكية المغامرة التى تسمو على "طغيان الملوك، والكهنة والأقليات الحاكمة"، وأصبح بدلاً من ذلك يؤكد على أن مصير المتوحشين غير المتنورين ـ هنود تكساس، وأوريجون ولويزيانا، وجورجيا، وفلوريدا ـ هو أن يحرموا من جنة عدن الجديدة. إن الهنود يستحقون إبعادهم بالقوة من أراضيهم بحق الولادة، وهو ما كان يؤيده جاكسون وفان بورين. والسكان الأصليين من "الشعوب المحرومة" فى "المكسيك البلهاء" أيضاً يبدو أنهم لا يفهمون النعم التى ستصيبهم مع وطأة "قدم الأنجلو ساكسون". إن المكسيكيين كانوا مضطهدين لقرون عديدة بحيث أصبحوا، كما كتب أوسوليفان، "غير معتادين على

واجبات الحكم الذاتى". وفى محاولتهم لوقف التقدم الأمريكى المحتوم، يثيرون القلاقل ويقوضون نهضتهم وسعادتهم فى المستقبل. إن الأجناس المختلطة فى المكسيك تحتاج من أجل صالحها أن "تتعلم معنى وأساليب الحرية"، فى ضوء مشعل الحرية[33].

وفى نوبة من نوبات زوال الوهم، قام أوسوليفان بخروج مفاجئ من *يونايتد ستاتس مجازين أند ديموكراتيك ريفيو*، وباعها لتوماس برينتس كندال (Thomas Prentice Kendall) مقابل مبلغ شامل يبلغ خمسة آلاف دولار. وكان صديقه صمويل تيلدن قد ترك رئاسة تحرير *مورنينج نيوز* منذ زمن، وكانت الجريدة على وشك الإفلاس. وقد ساهم سوء الإدارة المالية فى ابتعاد المستثمرين. وقد أكره أوسوليفان على الخروج وتوقفت *المورنينج نيوز* عن الصدور فى مايو[34].

وقد تزوج أوسوليفان فى خريف عام ١٨٤٦من سوزان كيرنى رودجرز (Susan Kearny Rodgers)، ابنة طبيب فى مدينة نيويورك وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره. ولم ينجبا أى أطفال. وقد عين عضواً بمجلس جامعة نيويورك فى ذلك العام. ويبدو أنه كان فى عام ١٨٤٩ يعيش فى الجنوب وله نشاط فى حزب الأرض الحرة الذى لم يستمر طويلاً كمؤيد لإلغاء الرق. وقد تورط فى خطة للإطاحة بالسلطات الأسبانية فى كوبا، ثم فى محاولة فاشلة لشراء الجزيرة، ومهمة مخفقة لمهاجمتها. وقد أدت هذه المغامرة الفاشلة لتوجيه الاتهام لأوسوليفان فى نيو أورليانز، ولكن لم يصدر حكم بإدانته.

جاء فى خطاب أرسله توماس كارليل إلى رالف والدو إيمرسون، "كم هو جميل أن نفكر فى مستوطنى اليانكى، الذين يتصفون بالرشاقة والخشونة، خشونة مثل المطاط، مع النار الخفية التى لا تنطفئ فى باطنهم، يتطلعون عبر الجبال الغربية، لإزالة الأدغال، وليستخرجوا لحم الخنزير والذرة منها لذرية آدم". ومع الانتصار فى حرب المكسيك، أصبحت الأراضى الجنوبية الغربية جزءاً من الاتحاد، وتم تولى الرئيس المنتخب الجنرال زاخارى تيلور منصبه خلفاً لجيمس ك. بولك. وقد أكتشف الذهب فى كاليفورنيا، وتشوه مَثَل أوسوليفان الأعلى إلى نهم متفشى للحصول على الأرض بأى ثمن. وكان ذلك نهاية "المرحلة البطولة" للمصير الواضح.

وقد عين الرئيس فرانكلين بيرس (Franklin Pierce) أوسوليفان ليكون قائماً بالأعمال فى البرتغال، وقد خلعه من هذا المنصب فى لشبونة الرئيس جيمس بوكانان فى صيف عام ١٨٥٨. وظل أوسوليفان يتسكّع "فى أوروبا" لمدة سنتين، "وكان يعيش على مال يقترضه".

وبعد عودة قصيرة إلى نيويورك، أبحر إلى لندن، حيث عاد للظهور كمؤلف لسلسلة من الكتيبات تدعم قضية الجنوب خلال الحرب الأهلية، وتنبأ فيها بهزيمة الشمال، وحث حكومة بريطانيا العظمى على دعم الكونفدرالية. لقد كانت الحرب بعيدة بعداً كبيراً عن الذروة التي تنبأ بها أوسوليفان فرحاً عندما كتب لأول مرة عن "أمة المستقبل العظيمة"[35].

وكانت هناك تقارير غير مؤكدة عن أن أوسوليفان قد عاش لفترة قصيرة فى باريس فى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر. وبنهاية ذلك العقد ظهر فى نيويورك مرة أخرى، يمارس الروحانيات، ويزعم بجدية تامة لجيمس راسل لويل (James Russell Lowell) أنه اتصل بزوجة لويل الثانية، فرانسيس، من وراء القبر. وطبقاً *للانسيكلوبيديا الوطنية للسير الأمريكية الذاتية*، الجزء ١٢، تم اختيار أوسوليفان من جانب إدارة مدينة نيويورك لتحية السفير و.أ. لوفايفر (W.A.LeFaivre) والوفد الفرنسى عند إزاحة الستار عن تمثال الحرية فى ٢٨ أكتوبر، ١٨٨٦، رغم أن تقارير الصحف المعاصرة لا تشير إلى وجوده فى هذا الاحتفال. وفى عام ١٨٨٩ أصيب بسكتة دماغية. وفى ٢٤ مارس، ١٨٩٥، مات جون ل. أوسوليفان وهو فى سن الحادية والثمانين، وبعد إصابته بنوبة أنفلونزا، وهو معدم، وإلى جانبه زوجته، بدون أن يترك وصية مسجلة، فى غرفة وحيدة فى "فندق عائلى" فى إيست إلفنث ستريت فى مانهاتن[36].

وفى النهاية، كان قوس حلم أوسوليفان بالسيطرة على القارة قصيراً وضيقاً بشكل مثير للدهشة، لا يكاد يتجاوز عقداً واحداً من بلاغة تحريرية أدبية، وضغطاً مستمراً حيث كان يتجول بكل راحة فى الدهاليز الرخامية البيضاء لمحبوبته "الديمقراطية". وقد تزايد الوعى العنصرى والإمبريالية ليصبحا توليفة متقلبة مشتعلة فى انتخابات ١٨٩٢، فى الوقت الذى كان فيه الحزب الجمهورى فى فورة حماسه بحيث أدرج بند "المصير الواضح للجمهورية فى أوسع معانيه" فى برنامجه الرسمى. وأصبحت جزر هاواى، وكوبا، وارخبيل الفيلبين، وحتى كندا، أهدافاً توسعية بنهاية القرن. لقد تم غرس بذرة المصير الواضح بمعرفة جون ل. أوسوليفان، بثقة قوية لا تقاوم فى التجربة الدائمة التقدم للإمكانات الأمريكية. ولكن الثمرة الناضجة كان مذاقها مراً فى الشخصية الوطنية.



هنری جورج

٦

التقدم والفقر

هذا هو شاطئ الباسيفيكى. وهذا هو الباب الذهبى. إن مسيرة جنسنا المتجهة غرباً تنتهى بالمحيط، الذى يوجد الشرق العتيق على شاطئه البعيد. ومع ذلك، فإنه هنا، فى هذا البلد الجديد، وفى هذه الولاية الذهبية، هناك رجال على استعداد للعمل، وتواقين للعمل، ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون الحصول على فرصة للعمل لفترات قد تطول وقد تقصر.

ـــ هنرى جورج، "العدالة هى الهدف ـــ والضرائب هى الوسيلة"، خطبة ألقاها فى قاعة متروبوليتان، سان فرانسيسكو، ٤ فبراير، ١٨٩٠.

لقد ولد هنرى جورج فى ٢ سبتمبر، ١٨٣٩، فى بيت من الطوب ذى طابقين على الجانب الأيمن من تنث ستريت جنوب باين، على بعد يقل عن نصف ميل من مقر الولاية القديم فى وسط فيلادلفيا حيث تم التوقيع على إعلان الاستقلال. وكان ثانى أطفال وأكبر الأبناء العشرة لريتشارد صمويل هنرى جورج من نيوبرونزويك، فى نيوجيرسى، وكاثرين برات فالانس (Catherine Pratt Vallance) من فيلادلفيا. وكان السيد جورج الأب عضواً صالحاً فى مجلس كنيسة سانت بول الأسقفية البروتستانتية، ويمتلك دار نشر متخصصة فى كتب مدارس الأحد. أما مسز جورج، ابنة النحات المولود فى جلاسجو ويدعى جون فالانس، فكانت تدير مدرسة خاصة صغيرة للفتيات بالاشتراك مع أختها مارى[1].

وعندما بلغ هنرى سن التاسعة، باع أبوه أعماله ومحل بيع الكتب وأصبح "كاتب تحقيقات" فى مصلحة الجمارك بمرتب حكومى يبلغ ألف وثلاثمائة دولار سنوياً. وقد التحق هنرى بالأكاديمية الأسقفية فى فيلادلفيا ولكنه وجد الدراسة المنتظمة فى المدرسة مقيدة.

وطلب الغلام أن يتلقى تعليماً خاصاً كمرحلة انتقالية إلى المدرسة الثانوية الجديدة فى فيلادلفيا، حيث أمضى أقل من خمسة أشهر فى المراتب المتوسطة فى الصف السابع. وعندما بلغ سن الثالثة عشرة، أصبح حريصاً على أن يلتحق بعمل، فترك المدرسة نهائياً، وعمل فى وظيفة توصيل الطلبات لمحل استيراد الزجاج والصينى.

وتبين صورة دَغْرية باهتة من تلك الفترة الوجه الشاحب الشارد لغلام يبدو وكأنه قد اندفع إلى الحجرة منذ لحظات. كان يرتدى ياقة بيضاء مرتبة على عجل ومجعدة على نحو غير متساو حول رباط عنق واسع، وسترة سوداء مفتوحة وغير مثبتة الأزرار. وكان شعره الأسود الكثيف المجعد متجه للخلف من جبهة عريضة ويلتف فوق وأسفل أذنيه بارزتين. والفم مغلق فى حزم، وقد قطب جبينه قليلاً بين عينين ثاقبتين تحدقان إلى الجنب. وكانت "الدجاجة الصغيرة" أو "هارى" جورج، حتى عندما أصبح بالغاً، يصل وزنه إلى حوالى ١١٣ باوند ولم يتجاوز مطلقاً طوله خمسة أقدام وست بوصات.

وكان هنرى، عندما يعود إلى بيته فى المساء، ينسحب من غرفة جلوس العائلة المزدحمة، ويأوى إلى غرفة نومه الخلفية الواقعة تحت سطح المنزل، للقراءة على ضوء مصباح غاز فى الكتاب المقدس إلى جانب التاريخ وروايات المغامرات التى ينتقيها من متاجر الكتب المستعملة أو يستعيرها من مكتبة متدربى الكويكر ومعهد فرانكلين. وقد كسب هنرى، من أمه وأختها مارى، تلك الخالة المحبوبة العانس التى ساعدت فى تنشئته، محبة للشعر استمرت طوال حياته، وقد حاول كتابة الشعر، وكتب أبياتاً شعرية كدح فى إتقانها وعدّل فيها كثيراً فى صفحات يومياته التى بدأها فى سن السادسة عشرة واستمرت معه يومياً طوال حياته.

وكانت عائلة جورج قد انتقلت فى ذلك الوقت إلى منزل أكبر فى ثيرد ستريت، على بعد ثلاثة صفوف من البيوت والمحلات التجارية المتلاصقة من نهر ديلاوير، وكان هنرى يعمل ككاتب فى مكتب وكيل تأمين بحرى مجاور له. وكان هنرى ووالده ــ الذى كان فى شبابه "يستطيع أن يسبح مثل البطة ويقود المراكب مثل أى شخص آخر" ــ يسيران على أرصفة الميناء، فى أيام الأحد بعد الظهر، على أثر انتهاء الصلوات فى الكنيسة ودراسة الكتاب المقدس، يجوبان رصيف تحميل السفن وتفريغها بتمهل ويعجبان بالسفن الشراعية عالية الشراع والسفن البخارية. وقد ذهب هنرى، فى صباح أحد أيام منتصف يناير عام ١٨٥٥، إلى محل بقالة وفى طريق عودته إلى المنزل توقف ــ كعادته ــ عند المكتبة. وقرأ هناك

إعلاناً فى جريدة *نيويورك هيرالد* أن السفينة التجارية *هندو* التى تبلغ حمولتها ٥٨٦ طناً وهى "سفينة قديمة من سفن شركة الهند الشرقية"، والتى ألقت مراسيها فى ميناء نيويورك بعد رحلة عودتها من الشرق، سوف تتجه مرة أخرى فى أبريل إلى أستراليا والهند بحمولة نصف مليون قدم من الأخشاب. وكان قبطان السفينة صمويل ميلر (Samuel Miller)، من أصدقاء أسرة جورج. وقد اغتنم هنرى هذه الفرصة لتجربة "الحياة الشاقة على سطح ومقدمة السفينة"، وانضم كمسئول عن الصارى الأمامى إلى الطاقم المكون من عشرين رجلاً.

وقد دارت السفينة حول رأس الرجاء الصالح ودخلت المحيط الهندى، وكانت عواصف من البرد والأمطار تدفعها نحو ميلبورن. وعُهد إلى هنرى بخدمة المراقبة فى منتصف الليل، كما كتب فى مذكراته. وكان يتأمل أول خاطر طرأ على فكره عن أوقات الشدة فيما كان يدعى "أرض الميعاد"، عندما أضرب البحارة فى رصيف خليج هوبسون احتجاجاً على انخفاض الأجور. وفى كلكتا وصف "القصور الإنجليزية" على ضفتى نهر هوجلى وهو فرع من نهر الجانج، التى تقف فى تناقض صارخ مع أجساد الموتى الهزيلة للفقراء الجوعى طافية على سطح الماء، "مغطاة بغرابيب تقطع أوصالهم".

وبعد أن أمضى أربعة عشر شهراً فى البحر، عاد هنرى المراهق إلى فيلادلفيا ومعه قرد أليف، إلى جانب اعتقاده، كما كتب، أن الرحلة سيكون لها "تأثير كبير فى تحديد موقفى فى الحياة، ربما لدرجة قد تفوق ما أتصوره الآن". وقد حصل له أبوه على وظيفة متدرب على جمع الحروف فى شركة كنج وبيرد. واكتسب هنرى بسرعة سمعة أنه كثير الكلام، وذكى، ومحب للاستطلاع، مع الميل للدخول فى مناقشات مع رجال أكبر سناً فى المكتب من أجل "تخزين" حقائق وتواريخ فى ذاكرته. وبعد جدال مع رئيس العمال، غادر هنرى العمل غاضباً. وقبل عيد الميلاد عام ١٨٥٧ مباشرة، ركب هنرى البحر مرة أخرى وقد تملكته رغبة جامحة فى التجوال وأحلام يقظة فى حياة أكثر إثارة فى الغرب، وأبحر هذه المرة ثانية كخادم فى السفينة البخارية الجديدة *شوبريك* المتجهة إلى سان فرانسيسكو عن طريق ريودى جانيرو، ومونتفيديو، وكيب هورن.

ولما كان هنرى قد أغراه بريق رواسب الذهب الكندى فى نهر فريزر فى كولومبيا البريطانية، فقد أمضى صيفاً وخريفاً بدون طائل ينقب عنه فى فكتوريا، وعاد إلى سان فرانسيسكو مستنزفاً، ومفلساً إلى درجة أنه لم يكن يمتلك سترة، واعترف فى خطاب أرسله إلى أخته جينى (Jennie) أنه منذ غادر منزله أصبح "أشد قبحاً وخشونة".

وعثر هنرى على مكان يقيم فيه فى فندق للرجال، باسم "هوات تشير هاوس" واستأجرته جريدة *كاليفورنيا هوم جورنال* الأسبوعية للعمل فى صف الحروف. وكان يتطلع إلى عيد ميلاده الحادى والعشرين بحيث يكون مؤهلاً للعمل كطبّاع ماهر، ويلتحق بالاتحاد، ويحصل على أجر البالغين. وكان من دواعى سرور والديه أنه التحق بكنيسة بيثيل الميثودية المجاورة. وأعطى صوته لأول مرة لأبراهام لنكولن (Abraham Lincoln) للرئاسة. وعثر على حلقة للقراءة الأسبوعية حيث بدأ يناقش بحماس أعمال إيمرسون، وهوثورن، وسكوت، وديكنز. وتقابل مع الحب الوحيد فى حياته، آنى كورسينا فوكس (Annie Corsina Fox) ذات السبعة عشر ربيعاً والتى ولدت يتيمة فى أستراليا، وتعلمت فى الدير وتعيش تحت وصاية لثنين من أعمامها. وهربا معاً ليتزوجا فى ٣ ديسمبر، عام ١٨٦١، بدون شهر عسل. وقد استيقظ هنرى كعادته فى الخامسة من صباح اليوم التالى وتوجه للعمل. وانتقل الزوجان الصغيران إلى عاصمة الولاية سكرامنتو حيث عمل هنرى فى صف الحروف فى جريدة *يونيون*، المنافسة لجريدة *بى*، ثم عاد إلى سان فرانسيسكو، ورزقت أسرتهما بابنين خلال أربع سنوات.

وكان هنرى جورج وهو فى منتصف العشرينيات، مازال متجولاً، ينام مع أسرته فى توالى متعب فى فنادق حقيرة "وشقق لمديرات المنازل"، وحجرات مستأجرة. وكان بالكاد يتخطى خط الفقر، ومعرضاً لتذبذب غير منتظم فى عمله، "غير مستقر وقلق"، كما اعترف لجينى وهو محرج بأن آنى كان عليها أن تعمل فى أشغال الإبرة، وتنظيف شقة صاحبة المنزل، وبيع بعض حليها لاستيفاء ضروريات الحياة. وكان هنرى فى وقت من الأوقات لا يملك سيولة بحيث لجأ إلى مقايضة بائع اللبن بتبادل بطاقات عمل مطبوعة مقابل لبن وبيض.

وكان هنرى جورج يفخر بأنه يعتبر نفسه رجلاً كادحاً يعمل دائماً من الصباح إلى المساء، ثم يعود للعمل فى ساعات مبكرة من اليوم التالى إذا لزم. ولكنه كان طموحاً، يريد أن يتجاوز العمل كطبّاع بديل. لقد حان وقت العمل ووقت القول ـــ "أن أعرف البحث فى المعجم معرفة جيدة... وأن أنمى عقلى وأن أستخرج كل ما لدى من طاقة إلى أقصى حد..." والأكثر حماساً، "أن أحاول لاكتساب سهولة ورشاقة التعبير عن أفكارى بكتابة مقالات أو أمور أخرى"[2].

وقد بدأ فى كتابة رواية. وكتب ذكريات عن رحلته على السفينة *شوبريك*، تأملات خيالية عن إغراء "ما وراء الطبيعة" وإعادة رواية أسطورة من شمال غرب الهند. وكان يكتب بتوقيع "هـ. ج"، أو تحت اسم أكثر دلالة "البروليتارى"، ويرسل خطابات إلى محررى صحف سان فرانسيسكو المختلفة، معبراً عن آراء فى موضوعات الساعة. وكان ذلك عملاً مبكراً، شجع العمال على ألا يبتعدوا عن تأمل "قضايا سياسية واجتماعية". وقد أتيحت لجورج فرصة مثيرة لممارسة ما يدعو إليه. فقد انزعج من أخبار اغتيال لنكولن فى ١٤ أبريل، عام ١٨٦٥، وأودع رثاءً حزيناً تحت عنوان "هكذا الطغاة دوماً" "Sic Semper Tyrranis!" فى صندوق بريد محرر جريدة *ألتا كاليفورنيا* التى كان يعمل بها فى صف الحروف والذى دهش منها. وبذلك تحول هنرى جورج من صف الحروف إلى التأليف. وفى خريف عام ١٨٦٦، أنشئت جريدة *سان فرانسيسكو تايمز*. وأصبح الزميل القصير الذى كان يجب عليه أن يقف فوق صندوق خشبى ليصل إلى "الارتفاع الملائم للعمل فى صف الحروف" محرراً، ثم كاتباً لافتتاحية الجريدة، وأخيراً مدير تحرير[3].

وكان بريت هارت (Bret Harte) ــ صديق مارك توين (Mark Twain)، مبدع روايات الغرب، والطبّاع الشاعر المحب للكتب المهاجر من الشرق، ومؤسس مجلة *أوفرلاند منثلى* ــ قد لاحظ كتابة هنرى جورج الصحفية الحية والملائمة. ودفع له هارت أربعين دولاراً، وهو مبلغ يزيد على مرتب جورج فى أسبوع فى *التايمز* بعشرة دولارات، مقابل مقال مكون من سبعة آلاف كلمة مقدم كمقال رئيسى فى عدد أكتوبر ١٨٦٨ من المجلة، الجزء ١، رقم ٤. وكان مقال "ماذا سوف تحمل لنا السكك الحديدية" ــ وهو بيان تصريحى، وليس سؤالاً ــ هو أول معالم طريق هنرى جورج كناقد اجتماعى واقتصادى لستمر محط أنظار الجمهور على مدى الثلاثين عاماً التالية.

وعندما بدأ هنرى جورج إعداد المقال فى أواخر صيف عام ١٨٦٨، كان على وعى بأن شركتى سكك حديد سنترال باسيفيك ويونيون باسيفيك تتسابقان عبر السهول نحو برومونترى بوينت، فى يوتاه، وهى نقطة الالتقاء التى اتفقا عليها، وبذلك يتم الربط بين الأطلنطى والباسيفيكى. وقد توقع عن حق بأنه بحلول منتصف الربيع، أو الصيف القادم على الأكثر، ستكون "أعظم أعمال العصر" قد تمت، وهى أكثر روعة فى تداعياتها الثابتة لمستقبل البشرية من العمل الطموح الآخر الجارى تنفيذه وهو قناة السويس. وفى ١٠ مايو، ١٨٦٩، عندما تم تثبيت المسمار الذهبى، انتقلت أخبار ضربات المطرقة فى نفس الوقت لأمة كانت تصيخ

السمع عن طريق التلغراف، المعجزة الحديثة الأخرى.

وقد أثنى جورج على الإنجازات العظيمة غير المسبوقة فى الهندسة، والتى أحالت البرارى إلى "إمبراطورية آهلة بالسكان"، وتكشفت مصادر معدنية طبيعية غنية بوفرة، وترابطت الاقتصاديات المحلية فى شبكة تبادل وطنية رائعة. وبفضل شركات السكك الحديدية التى باعت قطع الأرض على طول خطوطها، لاحظ "إحساساً عميقاً محسوساً بالمكاسب" داخل الأجواء الأمريكية "النشطة" توقعاً لرخاء مادى عندما تحصل الأراضى البكر على شخصيتها الحقيقية عندما يسكنها الناس.

ولكن من الذى يزدهر فعلاً؟ لقد كانت سمعة السكك الحديدية موصومة من عدة نواحى. فقد أضرب العمال الصينيون الموجودون فى جبال سييرا. وانبثقت مواقع غير قانونية كانت توصف عادة بأنها مدن "الجحيم على عجلات". وكان هنود السيوكس فى وادى باودر ريفر والشيين فى نبراسكا ينهبون الخطوط ويقتلون طاقم العمل. وتعجب جورج مما سيحدث عندما "تخترق عربات القطار" مدن كاليفورنيا بصفة عامة وسان فرانسيسكو بصفة خاصة. وبينما كان يتحسس طريقه ناحية المنحنى الوعر تخيل، بنفس قدرته على التنبؤ، الحال عندما تفرض خطوط سكك حديد الباسيفيك الجنوبية الاحتكارات وتملى أوامرها بشأن مستوى تكاليف النقل للشحنات الداخلة إلى منطقة أوكلاند باى والخارجة منها.

وكان يخشى من النتائج المحتمة للنمو تحت رحمة "قوانين التعويضات الكبرى التى تستخلص بعض الخسارة من كل مكسب". هل سيرفع المد العالى كل المراكب، أو الأكثر احتمالاً، هل سيكون استكمال خطوط السكك الحديدية العابرة للقارة مع الارتفاع المصاحب فى أعمال المقاولات "ذا نفع لنا جميعاً، [أو] لجزء واحد فقط؟" وقدم هنرى جورج قضيته فى ثقة بلاغية، طارحاً أسئلة استكشافية فى خطوات محسوبة. وإذ كان يجيب عليها فجأة، مثل الثعبان الذى يضرب بعنف، كان يبرز القضايا المليئة بالتناقض التى ستشكل لب الجزء الأساسى لعمله. وقال إنه "اتجاه العصر" أن يأتى الربح بسرعة شديدة للأغنياء أصلاً. وخلال أوقات الازدهار الاقتصادى، فإن من لا يملكون الموارد المالية المترفة من "الصفوة الجديدة" سوف يتخلفون للوراء. أما أولئك الذين يمتلكون أراض ومناجم فعلاً فسوف يزدادون ثراء بسببها، فى حين أن "أولئك الذين لا يملكون سوى جهدهم سيزدادون فقراً، ويجدون صعوبة أشد فى المضى قدماً".

وكانت خاتمته المفعمة بالأمل تتخذ عرضاً إنسانياً ممزوجاً بتحذير. "إن مستقبل دولتنا،

وشعبنا، وجنسنا يبدو مشرقاً وبراقاً"، كما قال جورج مضيفاً مع وعى بالتاريخ أنه "ربما كان المستقبل يبدو كذلك بالنسبة للفلاسفة الذين جلسوا فى وقت ما فى أروقة أثينا.... إن حضارتنا الحديثة تضرب بعمق وتتطلع إلى أعلى، ولكن "كذلك كان برج [بابل] الذى بناه الرجال مرة ليصل إلى عنان السماء". وحاول أن يصور مأزق اقتصاد المجتمع الأمريكى وكان يحتاج إلى وسيلة للعثور على حل[4].

ترك هنرى جورج *التايمز* فى نهاية العام للعمل لفترة وجيزة فى جريدة *كرونيكل*، ثم التحق بجريدة *سان فرانسيسكو هيرالد*. وكانت هذه الجريدة التى أفلست وتوقفت خلال سنوات الحرب الأهلية، قد عادت إليها الحياة بضخ رأسمال جديد فيها تحت إشراف من الناشر المخضرم جون نيوجنت (John Nugent)، الذى كان يعلم أن خدمة الاتصال السلكى أساسية للنجاح فى عصر التلغراف. وكان يجب أن يقوم شخص ما برحلة هامة إلى مدينة نيويورك فى الشرق لإعداد ترتيبات لالتحاق الهيرالد بالأسوشييتد برس. وعندما اختار نيوجنت جورج لهذه المهمة، أرسل هنرى آنى والأطفال الثلاثة بما فيهم ابنة تبلغ من العمر سنة واحدة اسمها جينى تيريزا (Jennie Theresa) للإقامة مع والديه فى فيلادلفيا.

وقد تنقل جورج خلال الأشهر الستة التالية ما بين مدينته ونيويورك، وتقابل مع مسؤولى وسترن يونيون وكذلك الأسوشييتد برس. وقوبل ببرود فى كلا المكتبين، وقارن تصرفهما الجاف "بكبار رجال الصناعة". وكانت خدمة الاتصال السلكى، التى كانت قد وصلت لجميع الجرائد الأخرى اليومية على الساحل الغربى، غير راغبة فى التعاقد مع جريدة تشعر بأن لها ماضى متقلب. وأصبح جورج ميالاً للقتال بعد أن نفد صبره من توالى الأسابيع. وحاول، لفترة قصيرة، أن يدير مكتباً مرتجلاً لمطبعة تلغرافية فى مخزن الفحم الذى يستأجره والده فى ثيرد ستريت.

وقد جنى فائدة واحدة من حياة التنقل المرهقة. لقد كان جورج يؤمن دائماً فى مدى فائدة السير على الأقدام فى شحذ الذهن، لذا كان يمضى بعض الوقت قبل ركوب قطار العودة كى يستكشف الشوارع المجاورة فى مدينة نيويورك. وقد ساعدت هذه التجولات فى تقوية إحساسه "بالانزعاج" من الفجوة الشديدة "بين الرفاهية المتوحشة والحاجة المذلة" فيما يسمى بأرض الفرص، وهذه ظاهرة لم تكن مسجلة فى آخر مرة كان فيها فى نيويورك وهو فى سن السابعة عشرة.

وقد وصف هنرى جورج هذه الرحلات الميدانية فى خطاب اعترافات لصديقه القس توماس داوسون (Thomas Dawson) من جلينكرى فى أيرلندا. قال جورج متذكراً عيد الغطاس "لقد مرت بخاطرى ذات يوم وأنا أجوب طرقات المدينة نهاراً فكرة أو رؤية، أو هاتف... اهتزت له كل أعصابى. وعندئذ أخذت على نفسى عهداً. أننى سوف أكون صادقاً سواء فى الشر أو فى الخير، وأياً كان ما عملته أو ما لم أعمله".

واستمر قائلاً "هناك عوالم وعوالم ــ حتى فى حدود نفس الأفق. فالرجل الذى يأتى إلى نيويورك ومعه مال وفير سيرى صورة معينة لنيويورك. أما الرجل الذى يأتى ومعه دولار ونصف، ويعيش فى نزل مقابل خمسة وعشرين سنتاً، فإنه يرى نيويورك أخرى. وهناك أيضاً نزل مقابل خمسة عشر سنتاً، وأشخاص لا يستطيعون حتى الذهاب *إليها* من شدة الفقر.... إن 'هذا النصف من العالم لا يعرف كيف يعيش النصف الآخر' عبارة تصدق أكثر على النصف العلوى منها على النصف الأدنى. إن المعاناة الاجتماعية كثيراً ما تكون خرساء. فحسنوا الهندام يسلكون الطريق الرئيسى، أما أصحاب الأسمال البالية فيتسللون فى الطرق الجانبية"[5].

ولما كان جورج رجلاً لا يحب إضاعة الوقت بين مقابلة وأخرى، ومتيقظاً لما يعهد إليه من مهام الكتابة الحرة، فقد ذهب إلى جنوبى مانهاتن وزار أول جريدة يومية للهويج فى المدينة وهى جريدة *نيويورك تريبيون*. كانت هذه الجريدة منذ ١٨٤١، تحت إدارة مؤسسها الأسطورى هوراس جريلى (Horace Greeley). وهو أمريكى آخر يجرى حبر المطابع فى عروقه والذى انتهت أيام دراسته الرسمية قبل أن يصل إلى سن الرابعة عشرة. وكان جريلى، طبقاً لتقاليد هوراشيو ألجر، (Horatio Alger) قد عمل كمتدرب على صف الحروف، وأوشك أكثر من مرة خلال مراحل تاريخه العملى على الوقوع على حافة الإفلاس. وقد قال جريلى فى بيان أصدره مبكراً عن وضع رئيس التحرير، "إننا لا يمكن أن نتحمل رفض أى فكرة توصى بتحسين الوضع الأخلاقى أو الفكرى أو الاجتماعى للجنس البشرى بدون دراستها". إن المحرر الذى يستحق هذا اللقب "يجب أن يستمع بإنصات لشكاوى الذين يشعرون بالظلم والمعاناة، رغم أنهم لن يتمكنوا من دفع مقابل الدفاع عنهم". وقد حققت "جريدة جريلى الأدبية" نجاحاً شعبياً، وبلغ توزيعها الذى كانت تزهو به ما يزيد على ربع مليون قارئ. وقد نشر جريلى فى صيف عام ١٨٥٩ تقريراً عن *رحلته عن طريق البر* إلى

سان فرانسيسكو، كما أصدر مؤخراً سجلاً تاريخياً فى جزئين عن الحرب الأهلية وذكرياته عنها فى كتاب *ذكريات عن حياة كثيرة المشاغل*[6].

وكان مدير تحرير جريدة *التريبيون* هو جون راسل يونج (John Russell Young)، الذى يصغر جورج بسنة واحدة. وقد بدأت مسيرة يونج الصحفية فى *فيلادلفيا برس* فى ١٨٦٢؛ ثم سافر ليشغل منصب السفير فى الصين فى أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وفى عام ١٨٩٧ عينه الرئيس وليم ماكنلى (William McKinley) ليكون ثامن أمين لمكتبة الكونجرس. وقد نشأت بين الرجلين المقاربين فى السن صداقة فورية. وقد وجد يونج فى جورج مستمعاً ممتازاً، "رجل جاد... يريد أن يعرف بدقة الموضوع الذى يتناوله". إن "طريقته المباشرة والمتعجلة" و "ذكاءه الشديد" يجذبان الناس. وفى الليالى-التى كان جورج يقرر فيها ألا يلحق بآخر قطار يغادر محطة بنسلفانيا، كان الصديقان "يتجولان فى ميدان برينتنج هاوس" عند تقابل بارك رو وشارع ناساو ستريت، "وينضمان إلى الطباعين ورجال الصحافة الذين تقتضى طبيعة عملهم السهر لساعات متأخرة من الليل"[7].

وفى أثناء واحدة من مناقشاتهما الليلية، أثار جورج موضوعاً يشغل تفكيره كثيراً، وهو الانخفاض المستمر فى أجور العمال فى كاليفورنيا وهو ما يتناقض كثيراً مع نمو رأس المال الذى تحققه احتكارات الشركات. وأشار جورج إلى أنه يلقى باللوم فى هذا الاختلال فى الموازين على الإتاحة غير المقيدة للعمالة الصينية المهاجرة. وطلب يونج من صديقه أن يكتب مقالاً عن الموضوع لجريدة *التريبيون*، فى مقابل مبلغ كبير هو خمسة وستون دولاراً. ولكن جورج قبل أن يبدأ فى العمل، تبين أنه يحتاج للقيام ببعض الأبحاث والتعرف على "ما يقوله الاقتصاد السياسى عن قضية الأجور"[8].

واتجه جورج مباشرة إلى نبع هذا الموضوع، مسترشداً بالنص الكلاسيكى لهذا "العلم الكئيب"، كتاب *مبادئ الاقتصاد السياسى مع بعض تطبيقاتها على الفلسفة الاجتماعية*، لجون ستيوارت مل (John Stuart Mill) (١٨٠٦-٧٣) "تلك الشخصية البارزة فى الحياة الفكرية الإنجليزية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر". ولم يجد جورج صعوبة فى العثور على كتاب مل فى مكتبة فيلادلفيا. لقد نشرت أول طبعة أمريكية منه بمعرفة ليتل وبراون وشركاهما فى بوسطن فى ١٨٤٨، أى فى نفس وقت صدور الطبعة الإنجليزية الأولى. وصدرت طبعة أمريكية ثانية فى جزءين فى أوائل ١٨٦٤ بمعرفة د. أبلتون وشركاه فى

مدينة نيويورك، وتبعتها فى السنة الثانية طبعة "شعبية زهيدة الثمن" بدعم من مل حتى تصبح "فى متناول الطبقة العاملة"[9].

وكان التحدى الذى فرضه مل بضرورة التفكير المتناسق الأجزاء و"دراسة جميع القوى الفاعلة التى تحدد الأمور بصورة متساوية" قد ألهم هنرى جورج. وكانت جاذبية جورج لمل تكمن فى "تحرره الفكرى" — الطريقة التى يبحث بها عن "الأجزاء المتفرقة للحقيقة الهامة" بين جميع المنظرين الاجتماعيين، ويختبر نفسه دائماً فى مقابل من لا يتفق معهم. وكانت مواضيع مل الإنسانية الانتقائية الرائعة المنطقية والإنسانية مصدراً لأيديولوجية جورج، وبعد أن نضج أسلوبه أصبحت مصدر قوة لها[10].

وقد نشر واحد من أوائل أبحاث مل فى *برلیامنتری هستوری آند ریفیو* عندما كان الفيلسوف وعالم المنطق الشاب فى التاسعة عشرة من عمره وكان قد أمضى بالفعل ثلاث سنوات وهو يعمل ككاتب فى شركة الهند الشرقية. وقد بين البحث الرابطة بين مجموع رأس مال البلد ونموه السكانى كأساس لمعدلات الأجور. وكانت قوة مل فى التأكيد على السياق، والسبب، والنتيجة، عند تحليل القوى الاقتصادية، مع إدراك أن تلك العوامل المترابطة المميزة لجميع المجتمعات مثل البيئة، والقانون، والجنس، والتركيبة الطبقية، و"عادات الناس ونزعاتهم" يجب أن تؤخذ فى الاعتبار. ولما كان المجتمع بطبيعته تركيبة مادية، فإن المعرفة السياسية والاقتصادية يجب أن تمثل الظروف الفعلية ولا تكون فكرة مجردة أو "عقلية". لقد كان مل يرى العملية الاقتصادية بدون سواتر. إن "التعليم الحالى البائس" و"الترتيبات الاجتماعية البائسة"، كما كان يقول هى "العوائق الحقيقية الوحيدة" أمام سعادة البشر. وفى المجتمع التقدمى المرن، يجب ألا يسمح للحكومة بإعاقة الرغبة فى تحسين الذات أو حق المرأة فى الاقتراع، وهى الأفكار التى كان ينادى بها مل بفضل "حث" زوجته وابنتها القوى له[11].

وكان مل يعلن أنه "لا يجذبه المثل الأعلى للحياة الذى يعتنقه أولئك الذين يرون أن الوضع الطبيعى للبشر هو الكفاح من أجل التقدم". إن جميع من يساهمون فى سلسلة أحداث العمل — جميع العاملين الذين تؤدى "قوتهم الإنتاجية" إلى تواجد السلع المطلوبة واللازمة فى السوق — يستحقون أن يجنوا فوائد تتفق مع هذا العمل[12].

وقد نشر مقال هنرى جورج فى الصفحة الأولى من *نيويورك ديلى تريبيون* بعنوان "الصينيون فى كاليفورنيا"، فى أول مايو ١٨٦٩، فى طبعة من "ثلاث ورقات"، مع عنوان

فرعى "طبيعة الهجرة الآسيوية ــ مشكلة شاطئ الباسيفيكى". وكانت نقطة انطلاق جورج هى تفسيره لنظرية مل عن "مخصص الأجور". لقد ولع بالكتابين الثانى والرابع من *مبادئ* مل اللذين يتناولان "العمل، ورأس المال، والأرض" و "تأثير التقدم". وكتب فى *الـتريبيون* أن الاستيراد دون تمييز لقوى العمل الراغبة والمكرهة للتعدين، وبناء السكك الحديدية، وبناء الطرق، "وخدمة الغرف"، والطهى، والبستنة، وجنى الثمار، ورعاية الماشية ــ وفى هذه الحالة "السباق الذى بدأ من أواسط آسيا" ــ كان له تأثير ضار على اقتصاد الولايات الأمريكية الغربية. وكان جورج فخوراً بهذا المقال لدرجة أنه أرسل نسخة منه إلى "الأستاذ" نفسه.

وقد أرسل مل رداً مراوغاً فى أكتوبر. وقال مل إنه، على المستوى النظرى، قد يكون من الممكن الموافقة على تأكيد جورج "الصعب والمحرج" على أن العمالة الصينية تزاحم سوق العمل الأمريكية، مما يخفض الأجور. وواصل مل كلامه قائلاً: "ولكن هناك الكثير مما يمكن قوله أيضاً على الجانب الآخر"، موجهاً سؤالاً محدداً إلى جورج عما إذا كان يمكن على المستوى العملى فى أعظم مجتمع ديمقراطى تنافسى فى العالم، "تبرير افتراض" أن وضع الصينيين وشخصيتهم وعاداتهم غير قابلة للتحسين". وبدلاً من أن "تضع الحكومة حداً للهجرة... بالقوة"، دعى مل إلى زيادة جهود إدماج الأطفال الصينيين فى نظام التعليم الأمريكى. وبعد نشر مقال *التريبيون* بخمسة وعشرين عاماً، أعاد جورج النظر فيه وانتقده على أنه "فجّ"، ومظهر لوقت مضى عندما كان استيعاب فلسفة مل الاقتصادية بحسن نية لم يتكون لديه بعد. وفى النهاية أصبحت قراءة جورج المتأنية لأعمال جون ستيوارت مل، هى الجوهر الحر العملى لغزواته فى أدبيات الاقتصاد السياسى والتاريخ العالمى[13].

وقد عاد هنرى جورج إلى الشاطئ الغربى بحلول صيف عام ١٨٦٩، تراوده خطط البدء فى إصدار جريدة خاصة به لخفض الاعتماد على نزوات المحررين الآخرين والسيطرة على منفذ منتظم لتشكيلته التى لا يمكن السيطرة عليها من النظريات الاجتماعية. وقد بدأ هنرى جورج إصدار جريدة *سان فرانسيسكو ديلى ايفننج بوست* فى أواخر عام ١٨٧١، بالاشتراك مع الطباعين وليم م. هينتون (William M. Hinton) وفرانك ماهان (Frank Mahan) كشركاء وعلى آلة طبع مزدوجة مسطحة القاعدة وبمبلغ ألف وثمانمائة دولار مشتركة بينهم. وكانت النسخة من الجريدة المكونة من أربع صفحات أبعادها أحد عشرة فى أربع عشرة بوصة تباع بمبلغ بنس واحد. وأعلن رئيس التحرير أنها "ديمقراطية بالمعنى

الأعلى والأوسع، أى أنها سوف تقاوم المركزة والاحتكار من جميع الأنواع". وقد قامت بذلك إلى أبعد حد خلال الأعوام الأربعة التالية.

لقد كانت الا*يفننج بوست* هى المنبر المثالى لنشر سلسلة مقالات جورج الهامة الجديدة، "أرضنا وسياسة الأرض، القومية والولاية". وقد أصدر هنرى جورج الابن، فى ديسمبر، ١٩٠٠ طبعة من كتيب والده التمهيدى بعد وفاته على أنه "يوضح العلاقة بين البلوط والسنديان"* عند قراءتها كأول جولة للعمل الكبير التالى، وهو كتيب *التقدم والفقر*. وهذه استعارة مناسبة لأن جورج أصبح أكثر تفهما لجون ستيوارت مل، وانتقل لما وراء قضايا الأجور إلى موضوع أوسع، وأكثر أهمية ـ وهو حقوق الإنسان الأصيلة فى استخدام ممتلكاته حيث أن هذه الحقوق تنطلق بصورة طبيعية من "حقه الشخصى" الذى لا ينكر[14].

وتشير "الأرض" فى لغة الاقتصاد الكلاسيكى إلى جميع الموارد الموجودة فى الطبيعة. كانت الأرض واحدة من ثلاثة عوامل للإنتاج، أما العاملان الآخران فهما رأس المال والعمل. ولما كانت الأرض "لا تنتج"، فإن قيمتها السوقية تحتاج إلى فهم يختلف عن العمل والسلع المنتجة. وربما يكون جورج، أثناء معاناته فى إعداد مقال "الأرض"، قد تذكر تعبيراً مرتبطاً بذلك من قراءته فى شبابه فى أنشودة رالف والدو إيمرسون عن قداسة "أى علاقة بالأرض، من عادة حرثها، أو استخراج المعادن منها، أو حتى الصيد فوقها"، "على أنها تولد شعوراً بالوطنية". وقد قال سام هيوستون (Sam Houston) نفس الشئ وإن كان بفصاحة أقل: "لا يوجد أمريكى فى العالم إلا ويحب الأرض". وفى رؤية هنرى جورج لداود وجوليات فيما يعانى منه بلده المحبوب، فإن أول ما يجب عمله هو الانتباه إلى حقيقة اشتراك الحكومة بعمق شديد مع المضاربين الخونة، وسطاء "ملك الحبوب"، ومؤسسى مشروعات السكك الحديدية الجشعين الذين يحصلون على حقوق فى ملايين الأفدنة من الملكية العامة التى لم تصلها يد الإصلاح. وقال جورج محتجاً "لو بحثنا فى التاريخ، فلن نجد شبيها لمثل هذه التنازلات... والإسراف المتهور، منذ أن باع 'عيسو' (Esau) حق مولده وميراثه مقابل قدر من الطعام من حساء الخضر باللحم!"[15]

وكما ذكر مل بصورة متكررة فى الكتاب الثانى من *المبادئ*، فإن الموضوع ليس الأسف على وجود ملكية خاصة، ولكن تدبر ما إذا كانت توجد فى أحسن صورها. إن هنرى جورج يوافق على أن الملكية فى ذاتها وبذاتها "كشرط حقيقى للحضارة" ليست هى المشكلة. "إن

---

* البلوط والسنديان هما نفس نوع الشجر (المترجم).

الاحتكار – الذى يقف بين الشخص الراغب فى العمل والمجال الذى تتيحه الطبيعة لعمله – هو الجريمة القومية"، كما كتب جورج. وأصر أن الوقت قد حان لإجراء مراجعة شاملة تحقق المساواة فى الهيكل الضريبى الأمريكى، بنزع جميع أعباء الضرائب الحالية فى مجالات الإنتاج والتبادل، والتركيز بدلاً من ذلك على مصدر واحد للضريبة، على أساس قيمة ملكية الأراضى. ومن رأى جورج أن الدولة يجب أن "*تعطى* ولا تبيع" كل الأراضى الباقية التى مازالت متاحة "*بكميات محدودة*" "*للمستوطنين الفعليين*" فقط لاستخدامها فى مشاريعهم الخاصة.

لقد بيعت ألف نسخة من كتاب *أرضنا وسياسة الأرض*. وبرغم ظهور اقتباسات حية منها بين حين وآخر فى *ديلى ايفننج بوست*، فإن آراء هنرى جورج بشأن فوائد "ضريبة الأرض" الجديدة وقدرتها على التصحيح الدائم لأوجه عدم المساواة الاقتصادية المتفشية فى أكثر الحضارات ازدهاراً فى العالم لم تحظ إلا بتعاطف قليل[16].

كان هنرى جورج، الذى اعتاد أن يستيقظ مبكراً، يترك زوجته وأطفاله الثلاثة نائمين فى الفجر (ولدت ابنته الرابعة فى ٢ أكتوبر ١٨٧٧ وسميت أنا أنجيلا Anna Angela) لأنها ولدت فى عيد الملائكة) فى منزله المكون من طابقين ومغطى بورود بيضاء متسلقة فى فالنسيا ستريت فى حى ميشان. وكان يسير مشياً على الأقدام إلى اسطبل قريب ويمتطى حصانه الهزيل، داكن اللون – "حيوان أصلى صغير الحجم، أشعث، نحيل وقوى" – وينطلق "وحده مفكراً"، ويتهادى بسهولة إلى مقر جريدة *إيفننج بوست* فى مونتجومرى ستريت. وكان مكتبه، الذى يشبه الزنزانة، يحتوى على منضدة كبيرة مغطاة بأكوام من الورق عليها رماد السيجار، وتختفى الأرض المحيطة بها بأعداد سابقة. وكان يمارس "طريقة غير منتظمة... وعصبية فى العمل"، ويخط فقرة هنا وفقرة هناك. وكانت صفحات جورج مليئة "بالإضافات"، على شكل مقاطع مختصرة مرتبة هجائياً خلال النص الأصلى وتوضع بينهما أوراق بيضاء، كأنما تتسع من الداخل عندما تطرأ عليه أفكار إضافية. وكان فى بعض الأحيان يقفز من كرسيه أثناء كتابة جملة ويلقى بنفسه على أريكة قديمة بالية فى الركن، أو يمشى نحو الشرفة ويحملق فى الطريق، مستغرقاً فى التفكير بحيث لا يحس بالزائرين الذين يدخلون من الباب المفتوح دائماً[17].

لقد انتهت علاقة جورج بجريدة *إيفننج بوست* فى نوفمبر ١٨٧٥. وكانت الجريدة قد

أضافت طبعة صباحية على مدى سبعة أيام وتعثرت مالياً، لعدم قدرتها على سداد القــروض. وفى تلك الأثناء قام جورج أيضاً بإجراء بعض الاستثمارات الطائشة فى شركة تعدين تعثرت أيضاً. وقام بكتابة التماس يائس إلى حاكم كاليفورنيا الديمقراطى المنتخب وعضـــو مجلـس الشيوخ السابق فى الولاية، وليم س. إيروين (William S. Irwin) ، على أمل أن يحصل علـى منصب سياسى يسمح له بتخصيص مزيد من الوقت "لخطته التى راودته طويلاً"، وهى كتابـة كتاب ضخم يختمر فى ذهنه. وكان إيروين يقدر جورج تقديراً كبيراً وكان مديناً لــه بدعمــه المطرد تحريرياً خلال حملته الانتخابية. ولكنه اختار له منصباً متواضعاً كمفتـــش عـدادات الغاز فى الولاية[18].

وقد عرض هنرى جورج نفسه كمحاضر، لدعم دخله والتدريب على الإلقاء أمام جماهير مختلفة على الحجج التى سيوردها فى *التقدم والفقر*. وبرغم قامته الضئيلة، فقد كان له صوت رنان محبب للمستمعين. وقد ألقى محاضرتين عامتين كبيرتين خلال أربعـــة أشـــهر. كـانت الأولى، فى ٩ مارس ١٨٧٧، استجابة لدعوة من طلبة وأعضاء هيئة تدريس فى حرم بيركلى الجديد بجامعة كاليفورنيا، حيث كانت تجرى مشاورات ليشغل هنرى جورج كرسى الأستاذية فى الاقتصاد السياسى. وبعد أن قدمه جون لى كونت (John Le Conte)، رئيــس الجامعــة، تحدث جورج على مدى خمسة وأربعين دقيقة. وفى الوقت الذى كان ينظر إلى الاقتصاد على أنه مهنة أصيلة فى التعليم العالى، كان ما قدمه جورج يتحدى التأثير الصادم لحديث رالـــف والدو إيمرسون أمام طلبة مدرسة اللاهوت فى هارفرد. لقد كانت "دراســـة فـــى الاقتصــاد السياسى" فرصة أمام جورج للإشارة إلى "الجانب المظلم من تقدمنا الذى نفخر به، تلك اللعنة التى يبدو أنها ستتبعه". وقد تحدى الأساتذة لحشد قوتهم الذهنية للمساعدة فـــى تخفيــف حـــدة معاناة الكادحين، بدلاً من الاختفاء فى أبراجهم العاجية. وقد حذر من أن ذلك المسعى قد يكون صعباً، لأن علم الاقتصاد لم يتطور خلال مائة عام منذ أصـــدر آدم ســـميث (Adam Smith) كتابه عن *ثروة الأمم*. وقد اتهم الأكاديميين بالخطأ لفشلهم فى تبيين الهوية الأخلاقية فى علـــم الاقتصاد، ويجب عليهم أن يغيروا نهجهم المتقاعس ويطلقوا المعرفة التى اكتسبوها من أجـــل تحقيق "فائدة عملية" وتحسين حال الرجل العادى. ويجب على الأساتذة، فى قيامـــهم بعمليـــة تطوير "الاعتماد على الذات فكريا"، أن يجدوا مبرراً لوجودهم فى مجتمع يحتاج إلى قيادتـــهم أو أن يكون مصيرهم الإهمال[19].

وكانت شكوك جورج فى الأكاديميين سبباً فى إصابة نظرياته الاقتصادية فى مقتل فـــى

نهاية الأمر. وقد أعد العديد من المحاضرات الإضافية كسلسلة مقترحة، ولكن لم يطلب منه العودة إلى حرم الجامعة بعد ذلك. وقد اختارته إدارة مدينة سان فرانسيسكو ليكون "المتحدث المفوّه في يوم" الاحتفال السنوى بالرابع من يوليه فى مسرح كاليفورنيا المزدحم فى وسط المدينة. وإذ ارتقى جورج المنصة، بعد قراءة درامية لإعلان الاستقلال، تحول إلى توجهه المسيحى مبتعداً عن دور الشخص المزعج الذى خلعه لنفسه فى بيركلى إلى محاضرة بعنوان "الجمهورية الأمريكية: أخطارها واحتمالاتها". وكانت صياغة رسالته تتسم بتضارب واضح. فأمريكا تعتبر "المثل الأعلى للحرية"، ولكن فقط فى "ومضات متقطعة وإضاءة جزئية"، لأن "العدالة" مازالت لا تصل إلى العديد من مواطنيها نتيجة لانتهاكات الأقلية الثرية التى "أساءت توزيع نعم الخالق بدون أن ينالها عقاب". إن أمريكا، التى نشأت كأمة فى رعاية الله، قد ضلت بطريقة تؤدى للهلاك عن ميثاقها الأصلى ــ تحت ستار التقدم الحديث، الذى يغلفه البخار وتحركه الكهرباء. وكانت النتيجة هالة لا تحتمل من النفاق، "الذى أسقط حقوق الإنسان المؤكدة ثم حرمه من حقه فى الوفرة التى أتاحها الخالق".

لقد وقف هنرى جورج، فى الذكرى الأولى بعد المائة لإنشاء الجمهورية، أمام مواطنى سان فرانسيسكو الصالحين، معلنا أنه مازال هناك إمكانية "لرؤية مجيدة" للمستقبل، وقال إنه يشعر بعلاقة قرابة مع القديس جون، الذى تلقى كتابه عن الرؤيا فى "جزيرة باتموس النائية فى بحر إيجه". لقد قام هنرى جورج أمام مواطنيه فى ذلك اليوم بالدعوة إلى أمريكا المستقبل، أمريكا التى يجب أن تنجز رسالتها وتصبح "مدينة الله فى الأرض، أسوارها من اليشب• وأبوابها من اللؤلؤ!"[20]

كان المانشيت الرئيسى فى الجريدة يقول ببساطة، "الثلاثاء، ١٨ سبتمبر ١٨٧٧. بداية التقدم والفقر". لقد كان هذا التاريخ هو البداية الموثقة. أما العنوان الفرعى فكان ــ "بحث فى سبب الكساد الصناعى وزيادة الفاقة مع زيادة الغنى"ــ تلك الفكرة التى ظلت متسلطة على العقول على مدى سنوات طويلة فى الوقت الذى تم فيه تأليف الكتاب فى صياغة مركزة خلال ثمانية عشر شهراً. وكان جورج لا يهتم إلا بالنذر اليسير لوظيفته فى البلدية. ولم يكن يغادر منزله إلا نادراً لنزهة سريعة على أرصفة السفن أو يمضى نصف ساعة ممتطياً جواده، وكان جورج يفضل أن يبقى فى ردائه المنزلى الأصفر، غير حليق الذقن،

• نوع من الأحجار الكريمة ــ المترجم.

معتكفاً فى مكتبه بالطابق الثانى الذى يوجد به ثلاث نوافذ تطل على خليج سان فرانسيسكو، محاطاً وهو راض بثمانمائة مجلد يمتلكها شخصياً. ولم يكن له روتين ثابت للكتابة. فعندما يحركه الإلهام، فى أى وقت من النهار أو الليل، كان يكتب عدة أسطر، مرتبة فى سطور منتظمة، تاركاً هامشاً ناحية يده اليسرى وبخطوط عمودية وبأسلوب للخط يشبه الكليشية، مع إضافة بعض الصور والخطوط المنمقة، ــ ثم يتبعها بأفكار سريعة، يكتبها بالقلم الرصاص بما يخطر على باله فيما بعد.

وكان التوقف والاستطراد، والإيقاع السريع المنتظم يعكس سنوات القمة فى "سبعينيات السخط" فى كاليفورنيا، والاضطراب المتشكك الذى ظهر خلاله كتاب *التقدم والفقر*. وبينما كان دينيس كيرنى (Denis Kearney) يحرض حزب العمال على المزيد من كراهية الأجانب، كانت القوات الفيدرالية تستدعى لفض الإضرابات. وفى الوقت الذى كانت فيه قصور العصر الذهبى المثالية ترتفع على تل نوب (Nob Hill)، كان بنك كاليفورنيا ينهار. وفى الوقت الذى كانت فيه الهيئة التشريعية فى الولاية تصوغ دستوراً جديداً، زادت حيازة سكك حديد جنوب وسط الباسيفيكى إلى ما يزيد على أحد عشر مليون فدان[21].

وعندما كان هنرى جورج يركز على "التقدم" فى صفحات الكتاب البالغ عددها ستمائة، لم يكن يقتصر على أقرب تعريف للنمو الإيجابى. وكان الفصل الأخير، وهو بعنوان "شكلة حياة الفرد"، تأملاً غير محدود لقدرات الجنس البشرى. وكتب بعد أن نزع خمار النقود: "المهم هو أن يحيا الفرد أولاً، قبل أن يتطلع إلى حياة طيبة". والتزاماً منه فى هذا المجال بالمبدأ الأمريكى "الواحد للكل"، كان الفرد هو النموذج الأصلى "للجنس" أو المجتمع المشترك كله، بحيث ينعكس الجميع فى الفرد. إن الصراع ضد الجشع يبدأ فى الساحة الشخصية الأخلاقية ويتم التعرف على ترياق "لنوبات المرض" الصناعى.

لقد دار هنرى جورج دورة كاملة ووصل إلى لب الحتمية الاقتصادية كما عرفها فى كتيبه الفاشل فى ١٨٧١: إن المكون الرئيسى للنظام الطبيعى، كما قال، هو الأرض. وبالنسبة إلى الفيلسوف "المثالى" *التقدم والفقر* ــ "الفارس الرحالة المتقد حماساً [من] خارج الغرب الجديد" ــ فإن الحق فى الأرض لم يعد من الممكن أن يكون حكراً على البارونات اللصوص والطبقات المالكة. ويجب أن يتم تقاسم فرصة التقدم مع العمال ذوى الياقات الزرقاء الذين يتم استغلالهم والواقعين فى شرك طاحونة الكدح والذين لا تتناسب أجورهم مع "جهدهم". وقال جورج لا تقربوا الدخل الذى يعود على العامل مقابل عمله. إن فوائد البنوك ليست سوى مثال

لا مبرر له لاستنزاف "رأس المال الزائف". وبدلاً من ذلك، يجب أن يتم فرض نوع واحد من الضرائب، تحصل ممن يحوز ممتلكات وتقاس بالنسبة للقيمة السوقية لأراضيهم. لقد كان "هارى" جورج يملك، فى فترة المخاض للعصر الذهبى، الجرأة اللازمة لتفسير "حقائق الملاحظة والمعرفة العامة". لقد كان يؤمن بأن ضريبته التصحيحية سوف توقف ـ أو "تبرر" ـ النظام الخاطئ، غير المتناسق الذى يتم فيه تحقيق المكاسب وتوزيعها بصورة غير متكافئة فى أمريكا: "إن المجتمع ليس له حق المطالبة بما لم ينتجه هذا المجتمع"[22].

لا شك أن هنرى جورج، عندما بدأ فى كتابة *التقدم والفقر*، كان يرى نفسه مؤهلاً، وواثقاً، واقتصادياً عصامياً، بصرف النظر عن نظرته الرجعية بأن الحل يكمن فى الزراعة فى الوقت الذى كانت فيه أمريكا تتحرك بسرعة نحو التصنيع. لقد كان يأخذ بأقوال منظّريه المفضلين ويتحداها، بدءاً من "المدرسة الكلاسيكية" البريطانية ومن يسمى "أبو" علم الاقتصاد الحديث والداعى للحرية فى النظام الاجتماعى، الاسكتلندى آدم سميث؛ ودافيد ريكاردو (David Ricardo)، الحجة المبكرة فى الضرائب وأفضل أصدقاء وزميل جيمس مل، والد جون ستيوارت مل؛ وتوماس روبرت مالثوس (Thomas Robert Malthus)، مؤلف الكتاب الهام، *بحث فى مبادئ السكان*. وكان يتجه، علاوة على ذلك، إلى التقاليد التاريخية، فتعرض إلى المدرسة الفلسفية الفيزيوقراطية فى التنوير الفرنسى، *والاقتصاديون* المحيطون بمؤسس هذه الحركة فرانسوا كسناى (François Quesnay) ـ الطبيب فى بلاط لويس الخامس عشر ـ ودعوتهم إلى "الضريبة الموحدة". ولم يعترف جورج بالتأثير "غير المباشر" للفيزيوقراطيين* إلا فيما بعد لأنه كما قال لم يكن يعرف الفرنسية[23].

"إن هنرى جورج اقتصادى علم نفسه بنفسه، ولكنه *كان* اقتصادياً"، كان هذا هو تقييم جوزيف أ. شومبيتر (Joseph A. Schumpeter) الاقتصادى من جامعة هارفرد والمولود فى النمسا (١٨٨٣-١٩٥٠)، ومخترع مفهوم "دورة الأعمال"، والحَكَم فى ذلك الميدان الحديث. وقد وضع هنرى جورج فى نسيج *التقدم والفقر* العديد من الأدلة من نصوص العهد الفيكتورى المدروسة جيداً والتى تحظى بالشعبية أخذها من أرفف مكتبته المنزلية، إلى جانب درس تفصيلى فى تسلسل تاريخ الاقتصاد السياسى. وكان كثيراً ما يشير إلى سياسة "عدم التدخل" (laissez-faire) فى علم الاجتماع التطورى لهربرت سبنسر (Herbert Spencer) (١٨٢٠-

* مدرسة سادت الفكر الاقتصادى فى فرنسا فى منتصف القرن ١٨ مؤسسها وزعيمها فرانسوا كسناى وتؤمن بحرية الصناعة والتجارة وأن الأرض هى مصدر الثروة كلها (المترجم).

١٩٠٣)، وإيمانه بتأثير شخصية الفرد على الشخصية الجماعية للدولة التنافسية، وهو ما يظهر في عمله الكبير، *الثوابت الاجتماعية، أو، الشروط الأساسية للسعادة البشرية محددة مع تفصيل أولها*؛ وعمل هنرى توماس بكلى (Henry Thomas Buckle) (١٨٢١-١٨٦٢) فى جزئين، والذى كانت تفسيراته الضخمة، *تاريخ الحضارة فى إنجلترا*، محاولة لتلخيص القوانين الطبيعية والعلمية التى تحكم مصير جميع الشعوب، وكانت تمثل مادة متكررة لقراءات جورج فى ساعات الليل المتأخرة؛ والقصة الأسطورية لوليم وينوود ريد (William Winwood Reade) (١٨٣٨-٧٥) *استشهاد الإنسان*، المعتمدة على رحلات المؤلف فى "أرض الزنوج" (فى داخل أفريقيا) بحثاً عن دعم لإيمانه بالتاريخ العالمى ــ أن "رخاءنا... مبنى على آلام الماضى"، ويجب ألا يؤخذ على أنه من المسلمات.

وهناك عشرات من المقتطفات من التعبيرات الفكرية والأخلاقية مقدمة لقارئى *التقدم والفقر* مأخوذة من تشارلز داروين (Charles Darwin) ولويس أجاسيز (Louis Agassiz) إلى إدموند بيرك (Edmund Burke) وصمويل تيلور كولردج؛ ومن توماس كارليل وألكسيس دى توكفيل إلى موسى وبلوتارك؛ ومن بنجامين فرانكلين ووليم وردزورث إلى القرآن، والإنجيل، والرامايانا، وكل ذلك يشهد على الشهية التخيلية الضخمة "لنبى سان فرانسيسكو". ولكن كان من الواضح غياب اثنين من عمالقة المفكرين فى كل أعمال هنرى جورج. كان الأول هو جان جاك روسو. ومن الصعب تخيل أن جورج ــ الذى كان من أتباع جيفرسون طوال حياته ــ لم يصادف ادعاء روسو فى *خطاب فى الفنون والعلوم* (١٧٥٠) بأن "أول رجل أحاط قطعة أرض بسور، قائلاً هذه ملكى، ووجد أن الناس من البساطة بحيث أنهم صدقوه، هو المؤسس الحقيقى للمجتمع المدنى"[24].

وليس من الصعب بنفس القدر تفسير الإشارة العابرة إلى كارل ماركس (Karl Marx) فى جميع كتابات هنرى جورج، وعدم ذكره على الإطلاق فى *التقدم والفقر*. وقد كتب جورج بعد مضى اثنتى عشرة سنة فى واحد من أواخر كتبه *ظروف العمل*، "نحن نختلف مع الاشتراكيين فى تشخيصنا لشرور [عدم التوازن الاقتصادى] كما نختلف معهم فى العلاج، فليس لدينا خوف من رأس المال... ولا نرى شراً فى التنافس، ولكننا نعتبر أن التنافس غير المقيد ضرورى لصحة النظام الصناعى والاجتماعى مثلما أن حرية دوران الدم ضرورية لجسم الكائن الحى". وكان ماركس يختلف مع ذلك تماماً؛ وقد كتب فى خطاب أرسله إلى فريدريتش سورج (Friedrich Sorge) ، المهاجر الألمانى الراديكالى والذى كان فى طليعة

الحركة الفوضوية فى أمريكا، مزدرياً هنرى جورج على أنه "يانكى مشغول بالدعاية لنفسه... ورجعى تماماً... يتجول هنا وهناك بواسطة تأملات تتبع النموذج الانجليزى". وقد سخر من احترام جورج "العاطفى" للملكية الخاصة كما لو كانت "شرطاً أساسياً للبشرية"، وانتقد "عقيدته الأساسية (المتسلطة) بأن كل شئ سيكون على ما يرام إذا تم أداء إيجار الأرض للدولة ليحل محل الضرائب. إن هذا تعبير واضح عن كراهية الرأسمالى الصناعى لملاك الأرض". إن الاقتصاد الشيوعى المثالى الذى دعى إليه ماركس يأتى بعد احتضار وموت الرأسمالية الحتمى ويزدهر فى مجتمع تم تحريره من العبودية تحكمه الطبقة العاملة التى لم تعد مغتربة. لن يكفى إلا التغيير الشامل. أما مجتمع جورج المثالى فلم يكن يتطلب، من جهة أخرى، حرباً طبقية شاملة لأنه مرتبط بإصلاح منتظم عن طريق إعادة توزيع المنافع الاقتصادية. ورغم أن ماركس، المفكر المتحذلق، كان يعترف بأن كتاب *التقدم والفقر* "حدث مثير"، إلا أنه كان يصر على أن الكتاب سيظل "محاولة فاشلة للتحرر من الاقتصاد السياسى التقليدى"[25].

وقد أكمل هنرى جورج فى أوائل مارس ١٨٧٩ كتاب *التقدم والفقر* "فى هدوء الليل، عندما كان وحده تماماً". وركع على ركبتيه وبكى. وقد قال صديقه القديم، جون راسل يونج، الذى كان يزور سان فرانسيسكو فى ذلك الوقت، إن جورج لم تكن تظهر عليه "علامات المرح" المعتادة وكان يبدو مجهداً تماماً كأنما "وهب كتابه روحه ذاتها". وفى ٢٢ مارس أرسل جورج المخطوط إلى د. أبلتون وشركاه فى نيويورك، وهم ناشرو مل وسبنسر. وقد رأى المحررون أن الكتاب قد "كتب بوضوح وصراحة كبيرة"، ولكنه "عدوانى جداً". وبالمثل اعتذر ناشرو هاربر وسكريبنر.

وقد قرر هنرى جورج أن يطبع الكتاب بنفسه. "وجمع بنفسه أول صفين" من الحروف المصنوعة من الرصاص. وقد نفدت طبعة المؤلف التى ضمت خمسمائة نسخة وكانت بعنوان مؤقت، *الاقتصاد السياسى للمشكلة الاجتماعية*. وأرسل جورج نسخة غير مجلدة إلى أبلتون، والذين أجابوا بأنهم سيجازفون بنشر الكتاب إذا زودهم جورج بالزنكات الأصلية. وفى يناير ١٨٨٠ ظهرت الطبعة العادية من *التقدم والفقر* وكانت تباع بسعر الغلاف دولارين. وخلال ذلك العام ظهرت ثلاث طبعات متتالية من أبلتون، كما نشر كيجان بول (Kegan Paul) فى لندن أول طبعة أوروبية. ونشرت مكتبة لوفيل فى نيويورك الكتاب مسلسلاً فى مجلتها، ثم أصدرت طبعة رخيصة مقابل عشرين سنتاً. وكانت طبعة كيجان

بول ذات الغلاف الورقى تباع بستة سنتات.

وقد تصدر *التقدم والفقر* مكان الريادة فى عصر مشروعات الأعمال الكبرى فى أمريكا، ولكن هنرى جورج كان يفضل أن يُرجع مصدر القوة إلى مجال العمال. "إن العمل هو القوة الأولية والنشيطة"، كما كتب، فى عكس مقصود للسببية المفترضة، "ولذلك فإن العمل هو الذى يوظف رأس المال". وقد اجتذبت هذه البلاغة المشبوبة التى جاءت فى وقتها انتباه وتعاطف العمال عندما كانت نوعية حياتهم معرضة للتهديد. كان الكتاب مشوباً بحنين إلى الماضى حيث وُجدت سوق أكثر بساطة يتقاسم فوائدها أصحاب الحرف، وأصحاب المتاجر الصغيرة، والتجار المحليون، وتنتشر فيها تحذيرات من العواقب الضارة لتركيز الثروة الجامح ـــ ولاسيما من النقد.

وخلال خمس سنوات، ظهرت ترجمات ألمانية، وفرنسية، وسويدية، ودنماركية، ونرويجية، وهولندية؛ وتبعتها ترجمات إلى الأسبانية، والإيطالية، والمجرية، والروسية، والبلغارية، والصينية، والعبرية، مما جعل الكتاب حدثا مثيرا عالميا. وفى نهاية القرن، كان هناك أكثر من مليونى نسخة مطبوعة. وقد جاءت مبيعات *التقدم والفقر* فى أمريكا قبل عام ١٩٠٠ فى المرتبة الثانية بعد الكتاب المقدس مباشرة[26].

ومع اكتساب الكتاب لقوة دفع، أصبح جورج مطلوبا للتحدث فى المجتمعات العامة. وقد انتقل مع أسرته إلى أعلى مانهاتن، ونشر كتابا عن *قضية الأرض الأيرلندية* فى عام ١٨٨١، وبدأ جولة لإلقاء محاضرات فى المملكة المتحدة ممولة من الأمريكيين الموالين لرابطة الأراضى الأيرلندية. وفى عام ١٨٨٣ انضم إلى رابطة "فرسان العمل". وقدم سلسلة المقالات التى كتبها بعنوان *المشاكل الاجتماعية*، والتى نشرت أصلا فى مجلة *فرانك ليزلى الأسبوعية المصورة* كتوسعة للموضوعات الواردة فى *التقدم والفقر*، من أجل إظهار مزيد من العلاقة الوثيقة مع "القضايا الصناعية ومشاكل المنفعة العامة التى أحاقت بالمدن الكبرى". وقد تبع ذلك كتاب آخر بعنوان *الحماية أم التجارة الحرة*؟ وفى عام ١٨٨٦ جمع حزب العمال المتحد، بتحريض من صمويل جومبرز (Samuel Gompers)، ستة وثلاثين ألف توقيع على التماس لاختيار هنرى جورج كمرشحهم لمنصب عمدة نيويورك ضد كبار رجال تامانى هول. وخلال شهر من الحملة الانتخابية، تحدث جورج أكثر من اثنتى عشرة مرة فى اليوم. وقد قال للجموع المؤيدة والمهللة المحتشدة فى كوبر يونيون فى ٥ أكتوبر ١٨٨٦، "انظروا إلى مدينتنا الشاسعة، ماذا إذن نرى؟ عدد قليل من الرجال يزيد ثراؤهم عما يصلح للناس على

جانب، وعلى الجانب الآخر حشد كبير من الرجال والنساء يكافحون ويقلقون ويلهثون للحصول على أشد أنواع الحياة إثارة للرثاء. وقال جورج "إن الهدف من هذه الحركة هو التأكيد على الحقوق المتساوية للبشر... إن واجبنا كمواطنين أن نجند أنفسنا لتصحيح المظالم الاجتماعية" ـ وكانت كلمته تقابل بهتافات مدوية من الجمهور "برافو؛ حسناً؛ ولتنصتوا، أنصتوا!". ورغم أنه خسر الجولة أمام أبرام هيويت (Abram Hewitt)، إلا أنه تفوق على "سياسى شاب" اسمه تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) [27].

لقد برزت للوجود شبكة دولية من أندية "الضريبة الموحدة" تحت قيادة محامى الشركات فى نيويورك توماس ج. شيرمان (Thomas G. Shearman)، مؤلف كتاب *فرض الضريبة الطبيعية Natural Taxation* (١٨٨٨). ورغم أن هاتين الكلمتين اللتين اصبحتا شعار المدرسة لم تردا فى كتاب هنرى جورج *التقدم والفقر*، فإن هذه المنظمة الشعبية أعطت قوة دفع لفلسفته الاجتماعية، ولمبيعات الكتاب. وقد قام جورج بجولة أخرى فى إنجلترا فى ١٨٨٨ و١٨٨٩ ثم ذهب لمدة ثلاثة أشهر لإلقاء خطب فى أستراليا ونيوزيلندا مع زوجته وبناته، وأجهد نفسه إلى درجة الإصابة بسكتة دماغية[28].

وقد أصدر جورج، بعد عودته من رحلة حول العالم، كتاب *ظروف العمل* فى ١٨٩١، معترضاً على موضوع رآه متعارضاً ظهر فى منشور بابوى للبابا ليو الثالث عشر (Pope Leo XIII) بشأن ملكية الأرض. وقد انتقد البابا بشدة قائلاً "إنك تعطى الإنجيل للعمال والأرض لأصحاب الأراضى، إنك تعطينا حقوقاً متساوية فى السماء، ولكن تنكر علينا الحقوق المتساوية على الأرض!" وقد أعقب هذا المنشور فى ١٨٩٢ بنقد لهربرت سبنسر بعنوان *فيلسوف حائر*. كما بدأ جورج فى نفس تلك السنة العمل فى دراسته الأخيرة *علم الاقتصاد السياسى* بقصد أن يكون "كتاباً دراسياً" وردا تربوياً على نقاده و"تشراً واسعاً للحقائق... موضحاً للعالم" ما قدمه من قبل فى *التقدم والفقر*. لقد كان المؤلف يخشى، رغم الترحيب الشعبى، أن يهمش المجتمع الأكاديمى إنجيله، وأن تراثه قد لا يثبت بمضى الوقت.

وقد دخل جورج مرة أخرى فى سباق الانتخاب لمنصب عمدة نيويورك، رغم تدهور حالته الصحية ومخالفاً النصيحة الطبية، كديمقراطى حر ضد المرشح الجمهورى الليبرالى سيث لو. وقبل الانتخابات بخمسة أيام، وفى ٢٨ أكتوبر، ١٨٩٧، ألقى جورج أربع خطب. كان آخرها فى دار أوبرا متروبوليتان واستمرت إلى ما بعد الحادية عشرة مساءً. ولم يعد

لغرفته فى فندق يونيون سكوير إلا فى منتصف الليل. وفى الصباح الباكر لليوم التالى أصيب بسكتة ومات بين ذراعى زوجته، وهو يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً.

وطوال يوم الأحد، ٣١ أكتوبر، عرض جثمانه فى جراند سنترال بالاس، وهو صالة عرض فسيحة فى لكسنجتون أفنيو وفورتى ثيرد ستريت. وقد مر بنعشه أكثر من مائة ألف شخص بينما لم تستطع آلاف أخرى لا تحصى الدخول وظلت تتجول فى الشارع[29].

وكان النقش بحروف معدنية الذى وضع على شاهد قبر هنرى جورج على قمة تل فى مقبرة جرينوود فى بروكلين يبدأ بكلمات، "إن الحقيقة التى حاولت توضيحها لن تلقى قبولاً سهلاً". لقد كانت تلك النبوءة المُرة صحيحة تماماً. فبينما كان فى غمرة انشغاله بكتابة *التقدم والفقر*، كان هنرى جورج يأمل أن يبقى "كتاباً للقرن العشرين". وكان يؤمن أن الاقتصاد المرن والعادل فى أمريكا ليس ممكناً فحسب ولكنه حتمى. لقد كان جورج الكاتب الذى يضع إحدى قدميه فى مكتبه الخاص والأخرى فى ورشة العمل يصف كلماته فى أحرف من الرصاص، يتمسك بنظام موقر للعمل ويحترم ممارسيه الذين يتناقصون. وكانت حركة الضريبة الموحدة المظهر الأخير ــ والخيالى ــ لجدول أعمال اقتصادى داخلى بسيط متفاعل مع دوامات حركة الاقتصاد الدولى المتزايد التعقيد. وكان جورج، كمريد لجون ستيوارت مل حتى النهاية، قد بدأ حركة الضريبة الموحدة للاحتجاج على وزن الحكومة الجامح وتعدى المصالح الخاصة على حياة المواطنين البسطاء. ولكن الحركة بلغت ذروتها بسرعة شديدة لتكسب جيل "الجورجيين" قوة دفع، وهم الذين كانوا مازالوا يكافحون باسم قديسهم الراعى لهم فى العقد الثانى من القرن العشرين.

وبوصول المبادئ التقدمية إلى الصدارة والوسط فى المسرح الانتخابى الوطنى فى عام ١٩١٢، كانت مساهمات جورج فى الفلسفة السياسية محل مؤازرة وتشجيع من قبل المصلحين الاثنين، تيودور روزفلت وودرو ويلسون (Woodrow Wilson)، ولكن لم يعترف أى منهما بتأثير الفيلسوف الراديكالى العصامى الذى أضاء الطريق أمامهم. وقد كتب جون راسل يونج، فى تأبين صديقه القديم، "إن الذين يحترمون ذكرى هنرى جورج لن يتذكروه كقائد سياسى، فهو بالنسبة لهم لم يكن من المصارعين، ولكن مفكر، وفيلسوف عاش لينفع زملاءه فى البشرية وحسب". إن "علاج" هنرى جورج للمجتمع الأمريكى يبدو الآن ساذجاً، ومعقداً، وقد يكون غير عملى. ولكن يجب إعادة تقييم مساهمته فى ميدان الدراما الأمريكية. لقد كانت

رغبته الملحّة والمستمرة فى التوفيق بين ما يراه على أنه "دار من يملك، ودار المحتاج" نبيلة جداً، وقد استنار ثقافياً وروحياً من سابقيه. وعندما عدّل توماس جيفرسون العبارة الثالثة فى إعلان الاستقلال فى الحق الشامل "لطلب السعادة"، كان على وعى تام بتأكيد جون لوك الأصيل على "الحياة، والحرية، *والملكية*"[30].



جين آدامز

٧

مجال العمل

كنت أقرأ للتو كتابك عن *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية*، وشعرت برضاء عميق يجعل من الواجب على أن أرسل إليك تقديرى وشكرى. ويبدو لى أنه واحد من الكتب العظيمة فى زماننا. إن عقيدة الديمقراطية لا تحتاج لأكثر من تفسير متعاطف بين الطبقات المختلفة التى يتكون منها المجتمع؛ وقد ساهمتى فى ذلك باقتدار.

ــ وليم جيمس إلى جين آدمز، ١٧ سبتمبر، ١٩٠٢[1]

لقد جاء هذا المديح لأول كتب جين آدمز من أول عالم نفسى فى أمريكا، "فيلسوف أصيل" له أسلوبه الخاص وداعية ممتاز للبراجماتية إلى اخصائية إجتماعية ظلت تقيم فى أسوأ عشوائيات شيكاجو على مدى سبعة عشر عاماً، مكرسة كل حياتها لتخفيف مشاكل الفقراء المهاجرين. وعندما وصل كتاب *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية* إلى عتبة باب وليم جيمس (William James) فى مقره الصيفى فى شوكوروا، بنيو هامبشاير، من دار نشر ماكميلان فى نيويورك، بدأ فى قراءته فوراً، ثم لم ينتظر الانتهاء من قراءته ليرسل تعليقه عليه. إن "عقيدة الديمقراطية" هى الصياغة الصحيحة للعبارة. وقد كانت ضرورة وجود "العمود الفقرى الحقيقى لحياة العالم الدينية" دعماً "للوازم الحياة الكريمة للرجل الفرد" (والمرأة) هى الشغل الشاغل لجيمس. لقد كان يؤمن بوجود نوع من التقديس والإيمان فى التزام آدمز العادل برسالة "هال ــ هاوس"، وهو مركز المجتمع الذى أسسته.

كانت أبواب هذه المستوطنة مفتوحة من أول ساعة فى أول يوم لها لآلاف الأشخاص اليائسين أسبوعياً، والذين جاءوا إليها بحثاً عن الطعام، والملابس، والمأوى إلى جانب غذاء العقول من خلال حشد من أنشطة مختلفة، تشمل مجموعات قراءة، ودروس فى اللغة واستديو

الفنون. وكانت المؤسسة النابضة بالحياة تجسد مفهوم جين آدمز للديمقراطية كوسيلة للحياة. وكان كتابها، *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية*، إلى جانب أشياء أخرى، دعاية صريحة للمرأة العصرية. لقد كان مسار جين آدمز لهذا التعريف الذى ينم عن ثقة بالنفس للديمقراطية الفعالة طويلاً وشاقاً[2].

لقد ولدت لورا جين (Laura Jane) ("جينى") آدمز فى ٦ سبتمبر ١٨٦٠، قبل بداية الحرب الأهلية بسبعة أشهر، فى سيدارفيل، فى إلينوى، وهى قرية ريفية فى شمال فريبورت فى مقاطعة ستيفنسون. وكانت أصغر أبناء جون هاى آدمز (John Huy Addams)، وهو جمهورى ثرى ومحترم من أتباع لنكولن، ويمتلك مطحناً للقمح، ومن رجال البنوك، ويشارك فى بناء السكك الحديدية، وعضو بمجلس شيوخ ولاية إلينوى. وكان السيد آدمز الريفى من الكويكرز، يؤمن بأن "النور الداخلى" أشد قوة من الكتاب المقدس. وقد ماتت أمها، سارة ويبر (Sarah Weber)، من مضاعفات الولادة عندما كانت جين فى الثانية من عمرها. وفى عام ١٨٦٤، تزوج السيد آدمز من أرملة وسيمة اسمها أنا هوستتر هالدمان (Anna Hostetter Haldman) . وإلى جانب زوجة أبيها الاجتماعية اللامعة، التى كانت جين ترى فيها منافساً لها فى اهتمام أبيها، أصبح لها أخوين غير شقيقين من زوجة أبيها، هما هارى وجورج هالدمان (Harry and George Haldman) . وعندما كانت جين فى سن المراهقة، كانت ضئيلة الحجم، وأصابع قدميها مرتدة إلى الداخل، وواعية بشكل مؤلم بقامتها المنحنية، نتيجة لإصابتها بالدرن فى العمود الفقرى. وكانت تعقد شعرها البنى الفاتح على شكل كعكة، كما كانت تتمتع بعينين بنيتين واسعتين لامعتين، وصوت هادئ وخفيض. وقد تركت منزل الأسرة فى خريف ١٨٧٧، لتعيش فى معهد روكفورد الثانوى للإناث، والذى يبعد ثلاثين ميلاً عن سيدارفيل. وكان أبوها، الداعية لفضائل "الكمال العقلى"، عضواً فى مجلس إدارة المدرسة، التى أنشئت لبث القيم المسيحية عن "الواجب، والمسئولية، ومساعدة الآخرين". وكان المتوقع من كل فتاة أن توقد النار الخاصة بها للتدفئة، وتحافظ على نظافة فراشها وغرفتها فى نظام متقن.

وإذ كانت جين تمتاز كدارسة رفيعة المستوى فى جميع المقررات، فقد قررت فى مقال مبكر فى درس الإنجليزية، أن الفتاة الناضجة التى تلقت تعليماً مناسباً فى القرن التاسع عشر يجب أن "تنمى قوتها الذهنية وقدراتها على العمل المباشر... لا *لتكون* رجلاً، ولا لتكون *مثل* الرجل، ولكن للمطالبة بنفس الحق فى التفكير والعمل الحر". وقد وجدت نفسها بسرعة كنواة

لمجموعة من الشابات قويات الإرادة والنشيطات، وكان من بين أوائلهن إيلين جيتس ستار (Ellen Gates Starr)، التى استمتعت بزمالتها على مدى طويل[3].

وقد تعمقت الفتيات فى دراسة التاريخ، والأناجيل، والكلاسيكيات الإغريقية والرومانية، والكتابات الملهمة لكبار كتاب العصر الفيكتورى، ديكنز، وأرنولد، وتينيسون، (Tennyson)، وبراوننج، وكارليل، وكان أفضل الجميع لدى جين هو جون راسكن (John Ruskin)، الذى كانت "جوانب كتاباته المبهمة مفضلة لديها". كان راسكن جذاباً بالنسبة لها لأن أعماله ساعدت جين على التفكير بعمق فى "أداء الواجب"، الذى كان يمثل لها نوع من "الدين بالمعنى العملى". وكانت مقالاته المكتوبة ببراعة، ولاسيما "حتى هذا الأخير" (١٨٦٢) و"الزنابق: من حدائق الملكة" (١٨٦٤) تمجد أهمية حق الإنسان فى المجتمع الصناعى للاستمتاع غير المحدود بمهنته والأجر المناسب "لعمله" المهنى، أياً ما كان نوعه، وبالمثل المساواة فى حق المرأة فى جنى ثمار "دراستها الرفيعة" واستغلال هذا الوعى فى تحديد مكانها المناسب فى المجتمع، واستخدام "قدراتها... ومنصبها ومنزلتها" إلى أقصى مدى من أجل تحقيق الاستقلال الذاتى[4].

وقد انتخبت جين رئيسة للفصل المكون من سبع عشرة فتاة، وكتبت بغزارة فى مجلة المدرسة، وعندما تخرجت ألقت كلمة الوداع. وفى خطبة مختصرة، ومنعشة وذات نظرة مستقبلية، أعلنت "إننا اليوم نتخذ موقفاً موحداً فى الإيمان بالجمال، والعبقرية، والشجاعة، وأن التعبير عن كل ذلك عن طريق الأنوثة الصادقة يمكن أن يغير العالم"[5].

وبعد ستة أسابيع، وقبل أن تصل إلى عيد ميلادها الحادى والعشرين، مات والد جين المحبوب فجأة وقبل الأوان وهو فى التاسعة والخمسين. وكتبت إلى صديقتها إيلين جيتس ستار "لقد مررت بأعظم حزن أصابنى". وبعد أن اختفى "الأب ــ الرب" الموقر من حياتها، انزلقت جين إلى جحيم التوتر العصبى. وانتقلت إلى فيلادلفيا حيث كانت تخطط للالتحاق بكلية طب البنات، ولكنها استمرت لمدة نصف سنة فقط ثم عادت إلى سيدارفيل. وقد ألزمتها عملية تصليح العمود الفقرى الفراش لمدة تقترب من سنة أخرى، سافرت بعدها إلى أوروبا، طبقاً لعادة العديد من شابات الطبقة الوسطى الأمريكية فى ذلك الوقت. وقد شملت جولة التنمية الثقافية والتسوق الطويلة الأمد الجزر البريطانية، وهولندا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، واليونان، وسويسرا، وبرلين، وباريس مع مجموعة من

الصديقات تحت الإشراف الدقيق لزوجة أبيها. وقد عادت جين إلى سيدارفيل "مرتبكة دائماً... وأكثر ارتباكاً من الناحية النفسية عما كانت عند المغادرة... ذاهلة تماماً عن أى هدف أخلاقى".

وقد أصبحت أنا الاجتماعية بطبعها، بعد أن فقدت زوجها، تتطلع للهروب من حياة المدن الصغيرة المحدودة وتوسيع أفق حياتها الاجتماعية. وقد انتقلت جين غير المتزوجة، بناء على تصميم زوجة أبيها، إلى بالتيمور لمساعدتها فى أعمال المنزل. وقد أسرّت إلى صديقتها إيلين "إننى أشعر بالعار، من أننى رغم كل ما يتاح لى من وقت فراغ لا أعمل شيئاً على الإطلاق"[6].

وفيما بين المحاضرات المملة فى تاريخ الفن وعلم الحيوان فى جامعة جونز هوبكنز (Johns Hopkins)، والرسم ودروس الفرنسية، وحضور الحفلات الموسيقية، وحفلات لعب الورق وحفلات الشاى، والمناقشات الفارغة، كان إحساس جين آدمز "بعدم التوافق" يخفف منه مطالعة الكتب. فقد اكتشفت فى نحو ذلك الوقت ليو نيكولايفتش تولستوى (Leo Nikolayavich Tolstoy) (١٨٢٨-١٩١٠). فقد نشرت الطبعة الإنجليزية من كتابه *ديانتى* فى عام ١٨٨٥ وقرأته آدمز فى بالتيمور فى خريف العام التالى. ثم نشرت ترجمة إيزابيل هابجود (Isabel Hapgood) لكتابه *ماذا نصنع؟* (١٨٨٧) والذى نشر فيما بعد بعنوان أكثر دقة ماذا *علينا أن نصنعه إذن؟* وأحدث هذا الكتاب تأثيراً عميقاً فى حياة آدمز. لقد كان، كما قالت، "خبرة حيوية تحدث تغييراً... وتحدياً عميقاً، ومكتوباً بإخلاص وبساطة غامرة"[7].

لقد كان "*التحدى*" الذى أحست به آدمز مصدره اختيار تولستوى للاقتباس الذى افتتح به الكتاب، وهو من إنجيل لوقا ٣: ١٠-١١. كانت هى كلمات يسوع الإنسان: "وسأله الجموع قائلين، فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم من له ثوبان، فليعط من ليس له؛ ومن له طعام فليفعل هكذا". ولما كانت آدمز تبحث خلال تلك الأعوام عن هدف يدفعها للأمام، كانت على وعى "بالنصف الآخر" المحتاجين من جولاتها الخيرية العارضة والمسرعة فى بالتيمور لملجأ للأيتام وإلى مأوى صغير للمسنين من النساء السود المعوزات. وقالت إن "الحفر العميقة" التى تندفع بقوة نحو "السطح الناعم للرضاء فى القرن التاسع عشر من منطلق إيمان بأن التقدم قادم لا محالة" قد تكون هى نفس خطوط القلق التى كانت تغشى جبهتها البكر.

وقد أعجبت آدمز بتولستوى لتناوله مشاكل الفقر واسعة الانتشار. فها هو رجل مثقف

ولد لأسرة نبيلة، ثرية، وتزوج من الأثرياء، ومع ذلك كان يشعر بعدم رضاء عميق، بل كان "يشعر بالرعب من ضلال" أسلوب حياته المنغمسة فى الملذات، "والحياة على أكتاف الطبقة العاملة". فبعد أن أصدر تولستوى كتاب *الحرب والسلام* وكتاب *أنا كارنينا*، مر بتحول فى ضميره الأخلاقى فى منتصف العمر: لقد تبينت فجأة "وأنا الكاتب غزير الإنتاج الذى لم يفعل شيئاً على مدى أربعين عاماً سوى الكتابة" أن امتلاك الموهبة والتميز ليست من الحقوق التى تكتسب بالميلاد. إنهما "دعوة لخدمة" من هم أقل حظاً. لقد انصرف عن الروتين المنزلى "لصاحب الفكر" الذى يؤلف روايات ملحمية، وهجر متع الحياة، ووجد العزاء فى "البساطة الجديدة" للعمل الاجتماعى والأشغال اليدوية الشاقة. وقد افتتح مطعماً مفتوحاً للفقراء للمساعدة فى تخفيف المجاعة عن الفلاحين المرهقين بالعمل فى أراضى ضيعته فى ياسنايا بوليانا، خارج تولا، وبدأ جولات خيرية فى المجاورات البائسة للمدينة فى زمهرير الشتاء. وكانت أقوى انطلاقة فى كتابات تولستوى فى الثلاثين عاماً الأخيرة من حياته هو إصدار نشرات تعليمية عن فضائل الدين والتعليم، وعلم الاقتصاد المنحاز فى روسيا، وحتمية قيام الدولة بإصلاح ذاتها عن طريق الأعمال الطيبة من جانب مواطنيها الأوفر حظاً.

ولما كانت آدمز قد استردت صحتها إلى درجة معقولة، كما ورثت من أملاك أبيها ما وفر لها دخلاً يبلغ ثلاثة آلاف دولار سنوياً، فقد قررت أن تقوم برحلة عودة إلى أوروبا، بهدف ظاهرى هو جمع نسخ طبق الأصل من الأعمال الفنية لإهدائها إلى الكلية التى تخرجت منها والتى أصبحت مؤخراً تدعى كلية روكفورد. لقد كانت قد بلغت سنا تسمح لها بالسفر بدون إشراف. ووصلت آدمز بصحبة إيلين جيتس ستار ومدرسة من روكفورد هى سارة أندرسون (Sarah Anderson) إلى ساوث هامبتون، قبل عيد الميلاد لعام ١٨٧٧ مباشرة: وكتبت قائلة "فى كل مكان ذهبت إليه كنت أقابل باحترام شديد وبلقب 'سيدتى'، وشعرت براحة تامة وبكرامة طوال الوقت"[8].

وقد سلكت المجموعة المسافرة طريقها خلال الشتاء والربيع فى باريس، وشتوتجارت، وميونيخ، وفلورنسا، وروما. واشتملت جولة فى أسبانيا على توقف فى مدريد حيث شاهدت آدمز مصارعة ثيران مرعبة. وعاد الرفاق إلى باريس، وتفرقوا بعد ذلك. لقد أرادت آدمز أن تتوجه إلى لندن من أجل حضور المؤتمر العالمى المئوى للبعثات الأجنبية فى أوائل يونيه. وعادت ستار إلى إيطاليا لمزيد من التجول فى المتاحف، مصحوبة

بتلميذاتها فى مادة تاريخ الفن من مدرسة مس كـــيركلاند (Miss Kirkland) للبنـــات فـــى شيكاجو.

وقد قامت آدمز وبصحبتها أندرسون، وهما فى طريقهما إلى لندن، بزيـــارة كـــانتربرى وتجولا فى الكاتدرائية القوطية الفاخرة. وتقابلتا مع زوجة أسقف دوفر التى دعت الســـيدتين الأمريكيتين لتناول الشاى. وتقابلتا مع "المسيحى الليبرالى" الكاهن وليم فريمـــانتل (William Fremantle)، المدير السابق لكنيسة سانت مارى فى لندن. وقد حث آدمز وأندرســـون علـــى زيارة مستوطنة توينبى هول فى الشارع التجارى فى منطقة وايت شابل فى حى إيست إنـــد الفقير فى لندن. وكان المكان مزدهراً تحت الرعاية المشتركة القادرة للقس صمويل أوجستس بارنيت (Samuel Augustus Barnett)، راعى كنيســـة ســـانت جـــود، وزوجتـــه هنرييتـــا (Henrietta)، وكان هذا القس يحظى برعاية الكاهن[9].

كانت توينبى هول إرسالية علمانية أنشئت فى عام ١٨٨٤ بمعرفـــة أصدقـــاء المصلـــح الاجتماعى المثالى وعالم الاقتصاد السياسى أرنولد توينبى (Arnold Toynbee) كتذكار لحياتـــه وأعماله بعد عام من إصابته "بانهيار عصبى" ووفاته فى سن الثلاثين. كان توينبى قد ولد فـــى لندن وتلقى العلم فى كليات بمبروك وباليول، وأوكسفورد، ونشر كتابه العظيم *محاضرات عن الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا* بعد وفاته. وكتب قائلاً "قد يكون من المفيد عند دراسة الماضى أن استطعنا أن نتذكر دائماً مشاكل الحاضر". ولتحقيق ذلك نصح توينبـــى تلاميذه من الصفوة بأن الطريق الوحيد لاستخلاص مغزى قابل للتطبيق من مبـــادئ التعليـــم النظرى والذى لم يخضع للاختبار العملى، وإكساب حياتهم معنى، هو فى تخطى الحد العازل بين الطبقات الاجتماعية، والعودة إلى الناس، وأن يصبحوا مواطنين مفيدين فعلا "بالإقامة" فى المناطق المحرومة اقتصادياً. وقد أعلن توينبى فى آخر محاضرة له فى يناير ١٨٨٣ موجهـــة إلى فقراء المدن فى إنجلترا "نحن ـــ أعنى الطبقة المتوسطة وليس مجـــرد الأغنيـــاء ـــ قـــد أهملناكم. وبدلاً من العدل، قدمنا لكم الإحسان، وبدلاً من التعاطف قدمنا لكم نصـــائح صعبـــة وغير واقعية... نحن نعمل من أجلكم على أمل وثقة من أنكم إذا حققتم الحضـــارة الماديـــة، وحصلتم على حياة أفضل، فسوف تعيشون فعلا حياة أفضل"[10].

واصطحب القس بارنيت السيدتين فى جولة لقصر من الطـــراز التيـــودورى لمشـــاهدة المكتبة، وصالة الألعاب، وقاعة المحاضرات، وصالة الطعام. وتحدث عن التعليم بعبـــارات إنجيلية. قائلاً إن العلم يجب أن يتخطى الأوضاع الأكاديمية "وينمى الشخصية عـــن طريـــق

التلاحم مع الإنجازات البشرية الرفيعة المستوى". وكان منظمو الأعمال الخيرية الفيكتورية في توينبى هول ملتزمين بدينامية معينة تجعل التعليم الذى تقدمه المؤسسة يعمل بطريقة صحيحة: وأخبر بارنيت كلا من آدمز وأندرسون أن "أفضل نظام ... 'لبعث الحياة من القبور'، هو المواجهة بين مقدم المساعدة ومتلقيها". وكان خريجو أوكسفورد وكمبردج البالغ عددهم خمسة عشر والمقيمين فى توينبى هول يدفعون أجر إقامتهم وطعامهم ويشغلون وظائف فى لندن أثناء النهار، ويقومون بأعمال الإغاثة فى المساء وفى عطلة نهاية الأسبوع عندما يزورون الفقراء ويقدمون مساعدة قانونية مجانية، ويديرون نوادى أنشطة الطبقة العاملة، ويشرفون على رحلات فى "الهواء الطلق" فى الريف لأطفال المجاورة، ويلقون محاضرات لمقرر جامعى كامل لتشمل غير الملتحقين بالجامعة.

وقد تجاوبت آدمز مع تركيبة برنامج توينبى هول. وجاء فى ملاحظاتها فى خطاب متحمس لأختها أليس (Alice)، "إنه مجتمعاً من رجال الجامعة الذين يعيشون هنا، ولديهم وسائل الترفيه والنوادى وجمعية تعمل كلها مع فقراء الناس، ولكن بنفس الأسلوب الذى يفضلونه فى محيطهم". وقد لاحظت بعين الرضا أن موقف المقيمين كان "خالياً من شبهة 'احتراف عمل الخير'، ومخلص تماماً، ويسفر عن نتائج مفيدة فى فصوله ومكتباته بحيث يبدو مثالياً تماماً"؛ وقررت "أن الجانب الذى توجد به الإرسالية فى لندن هو أكثر الجوانب إثارة للاهتمام فيها". وقد وضعت فى المقدمة ما لا تتنازل عنه من أن الرجال فى توينبى هول قد اختاروا الحياة فيها بدافع أول هو أن يرتقوا بأنفسهم. وقد جنى "الجيران" ثمار عمل الخير بعد ذلك تلقائياً[11].

وعادت آدمز إلى سيدارفيل فى يونيه ١٨٨٨. وإذ تأثرت بشدة "بعنصر الاستدامة" فى أسلوب مستوطنة لندن، رأت لأول مرة بصيص الحل لأفكارها المضطربة. وقد كتبت فى نظرة إلى تلك اللحظة الحاسمة "إننى على ثقة من أنه رغم أن الحياة تحتوى على كثير من الصعاب، فإن فترة التلقى السلبى المجرد قد وصلت إلى نهايتها، وقد انتهيت أخيراً من 'الاستعدادات الدائمة للحياة'، برغم أنى قد أكون على غير استعداد". من المؤكد أن هناك نساء مثقفات مثلها يحتجن إلى "التعلم عن الحياة من الحياة نفسها". ولابد من وجود مبنى فى منطقة مهملة من شيكاجو يمكن أن يقوم بها نظير لمستوطنة توينبى هول فى لندن التى يسيطر عليها الذكور. وقد تبينت آدمز بالاستفادة من

ميراثها الكبير على أفضل وجه، أنها تستطيع أن تنفق مائة دولار شهرياً كمصاريف صيانة إضافية بعد تأثيث مثل هذا المكان، حيث تستطيع هى وزميلاتها التعامل مع القضايا الخاصة بالعشوائيات المزدحمة، "والمشاركة فى حياة المضطهدين، والارتواء من الينابيع العظيمة للخبرة الإنسانية"[12].

وقد اجتمعت جين آدمز وإيلين جيتس ستار مرة أخرى وتناقشتا فى خطة إنشاء المقر التى كانت تشغل تفكيرهما. وكانت ستار تعرف نفسية صديقتها العزيزة أفضل معرفة. وكانت آدمز تعود إلى منزلها مرهقة إثر سهرة اجتماعية مطولة "لرؤية الناس" والقيام "ببعض المهام". ولكن بعد أن تمضى الصباح مع الجيران المعوزين أو رعاية الأطفال، فإنها كانت تعود فى حالة طيبة. وقد لاحظت إيلين أن "الأشخاص العصبيين لا يسعون إلى الراحة، وإنما إلى نشاط من نوع معين".

لم تتمكن النساء من اتخاذ إجراء فورى بشأن "الخطة"، كما هو الحال عند اجتماعهن سراً لمناقشة الخطط الخاصة بالمقر. فقد كانت الأولوية للالتزامات المنزلية وضغوط "مطالب الأسرة". فقد انتقلت آدمز من باب القيام بالواجب لتعيش مع أختها الأكبر مارى لين (Mary Linn) لمدة ستة أشهر فى منطقة جينيسيو الريفية ــ شمال غرب مقاطعة هنرى وتبعد حوالى عشرين ميلا إلى الشرق من حدود أيوا ــ للمساعدة فى رعاية أصغر أبنائها المريض. وأخيراً، وفى بداية يناير ١٨٨٩، استقلت آدمز القطار إلى شيكاجو واستأجرت غرفة مع ستار فى بنسيون فى ٤ ميدان واشنطن بالقرب من بحيرة ميشيجن بحيث تستطيعان البحث عن تمويل إضافى وللعثور على العقار المناسب في الموقع المناسب[13].

وكانت اتصالات ستار مع العائلات البارزة فى مجتمع شيكاجو عن طريق عمتها إليزا إيلين ستار (Eliza Ellen Starr) وعن طريق مس كيركلاند، ناظرة المدرسة التى تدرس فيها، مصدر مساعدة منذ البداية. وكانت المقابلات مع نوادى شيكاجو القاصرة على النساء قد أدت إلى استقبالات متحمسة "فى المنزل" لمجموعات أصغر من "بعض سيدات من الشابات" تحت رعاية "فتيات ولزلى وخريجات سميث" ذوات النوايا الحسنة، اللاتى أغراهن احتمال الانضمام للجهود فى الشتاء القادم، كأنما كان نوعاً من الانطواء العلاجى. وقد كتبت ستار إلى أختها قائلة "لا يحدث أن يطلب منهن أحد أن يقمن بعمل ما، فأنا *أعرف* أن الفتيات يردن أن *يعملن*. فقد تحدثت مع العديد منهن، هؤلاء المساكين الصغار! فهن مستاءات من المجتمع لأنه ببساطة مجتمع 'ترفيه بالنسبة للرجال، ولكنه عمل بالنسبة للنساء'".

وقد بحثت آدمز عن القادة الدينيين ذوى النفوذ فى المدينة، وكان من بينهم دافيد سوينج (David Swing) رئيس كنيسة شيكاجو المركزية، وفرانك جونزاولوس (Frank Gunsaulus)، راعى كنيسة بليموث، وس.ف جوس (C.F. Goss)، كاهن كنيسة مودى، ومديرو منظمات الخدمة الاجتماعية مثل جمعية الثقافة الأخلاقية، وجمعية المنظمة الخيرية. لقد كان هؤلاء هم الرجال الذين يعرفون المجتمعات "سيئة السمعة" التى تزداد فيها احتياجات الناس[14].

وبقدوم الربيع، حصلت آدمز وستار على المبنى الذى سيصبح مقراً لهما، بمساعدة ونصيحة العمدة، وهو منزل مكون من طابقين فى مجموعة من مبانى ومعامل خشبية متهالكة بين حانة ومشرحة، "به دور علوى من الطوب... ونوافذ طويلة وباب واسع"، متراجع عن الشارع غير المرصوف الملئ بالقمامة، وتحيط به من ثلاثة جوانب ساحة فسيحة. وكان تشارلز ج. هال (Charles J. Hull) صاحب الأملاك قد بناه فى عام ١٨٥٦. وكان على ناحية التقاء شارعى بولك وهالستيد، وهو طريق طوله اثنان وثلاثون ميلاً من الشمال إلى الجنوب ويمر بالحى الرابع عشر من القسم التاسع عشر، على بعد مبانى قليلة غرب نهر شيكاجو. وقد كانت المنطقة ضاحية ريفية جميلة، ولكن هجرتها الطبقة الغنية تدريجياً متجهة إلى الجنوب والشرق نحو طريق ليك شور وتخلت عنها فى الأغلب لعائلات إيطالية وألمانية وأوروبية شرقية مهاجرة. وأصبحت المنطقة عشوائية متهالكة، "تموج بنماذج بشرية ... تظهر بعضاً من أكبر ظلالها كآبة".

وقد تفاوضت آدمز وستار مع مالكة المنزل، هيلين كولفر (Helen Culver)، ابنة عم ووريثة السيد هال، لاستئجار جزء من الدور الأول وكل الدور الثانى مقابل ستين دولاراً شهرياً. وقد أمضيتا الصيف فى إعادة تنظيم المنزل وتعبئة النساء "للحضور للإقامة فيه". وخلال عام تم اكتساب مس كولفر إلى جانب المشروع، وعرضت تأجير المبنى بدون مقابل على مدى الأربع سنوات التالية. وقد أطلقت جين وإيلين على المنزل ٣٣٥ بشارع ساوث هالستيد اسم "هال ــ هاوس" عرفانا بفضل مالكة العقار "كصرح دائم، تتدفق فيه موجات المواطنين حيث تتبدل أحوالهم ويتغيرون"[15].

وقد بدأت السيدتان بمساعدة مديرة للمنزل تدعى مارى كيزر، سلسلة من حفلات استقبال مجتمعية فى أيام السبت، بحيث تستطيع الزوجات والأمهات فى المجاورة الحضور والتعرف عليهن بطريقة تتسم بالصداقة. وكان يتم إرسال العربات لإحضار المسنات اللائى لا يستطعن السير طويلاً. واتساقاً مع رغبتهن فى اكتساب ثقة "الجوار" عن طريق النساء، كان أول

برنامج رسمى بدأ خلال شهر بعد افتتاح المستوطنة فى ١٨ سبتمبر ١٨٨٩، هو إنشاء "دار حضانة جادة تخفف من وطأته كومة من الرمال [على المدخل الخارجى] وبيت ضخم للدمى". وقد التحق بدار الحضانة فوراً "أربعة وعشرون طفلاً"، مع قائمة انتظار لخمسة وسبعين طفلاً آخرين. وكانت الدراسة تبدأ فى الساعة التاسعة كل صباح وتقوم بها جينى داو (Jennie Dow) البالغة من العمر اثنين وعشرين سنة، وهى "فتاة مجتمع" تبرعت بوقتها، وقدمت مصروف جيبها لشراء إمدادات وأجر عربة للانتقال إلى العمل ومنه، وكانت تغنى للأطفال بمصاحبة بيانو مهدى للدار تعزف عليه.

وكان النشاط الاجتماعى الثانى لهال ـــ هاوس يحظى بالشعبية، "حفلة قراءة" تعقد مرة فى الأسبوع بعد تناول العشاء، وبصفة خاصة للجارات من أصل إيطالى، اللاتى يتم دعوتهن إلى غرفة طعام مزينة بنسخ من أعمال فنية من عصر النهضة وصور، للاستماع إلى إيليس وهى تقرأ بصوت عال من رواية جورج إليوت (George Eliot)، *رومولا* (١٨٦٣؛ شيكاجو، ١٨٨٥). كانت رومولا ابنة العالم الكفيف الجميلة، الموهوبة، المتمسكة بالدين ، قد نذرت نفسها للعيش فى دوامة فلورنسا المزدحمة بالسكان بصورة كثيفة فى أواخر القرن الخامس عشر، كى تخدم الفقراء والمصابين بالطاعون. وقد تزوجت زواجاً غير سعيد من رجل يونانى وسيم وغير مخلص. وبازدياد ممارستها للحياة، عرفت أن الدافع الحقيقى لحب الآخرين لا يأتى إلا من مساعدتهم. فتهجر رومولا الكنيسة ومغريات "السياسة الأبوية" لتكتشف أن الإنجاز الروحى ـــ وإن كان موحشاً ـــ يكمن فى شدائد "الحياة المشتركة"، مصممة على "اختراق قلب المدينة، لأنه الطريق المباشر"[16].

فمن خلال فصل دراسى واحد "للصبية الصعاليك" وحلقة قراءة واحدة يومياً، تزايد نشاط هال ـــ هاوس بانتظام خلال العام الأول من حياته المؤسسية. وبعد إنشاء الحضانة، خصصت غرفة للرعاية بالرضع كانت الأمهات العاملات يتركن أطفالهن فيها "لرعايتهم"، أثناء النهار. وكان الرضيع مقابل رسم قدره خمس سنتات "يحصل على حمام، والنوم فى سرير أبيض صغير خاص به". وكانت جمعية المكتبة المنزلية التى تضم أربعمائة كتاب تسمح للأطفال باستعارة الكتب لليلة واحدة. وبدأت مجموعة من تلاميذ المدرسة الثانوية فى افتتاح فصل لإعطاء دروس عن شكسبير، تحول بعد ذلك إلى نادى. وبدأ فصل للرسم تحت إشراف مدرس من معهد الفنون فى شيكاجو. وكان يتم داخل المطبخ تعليم فن الطهى

ثلاث مرات فى الأسبوع. وكان هناك اجتماعات لتبادل الحديث بالألمانية ونـــادى للخياطـــة للنساء فى أيام الاثنين، ومناقشة فى "الفسيولوجيا والصحة العامة" فى مساء الخميس، ونـــادى للعلوم الاجتماعية للرجال أيام السبت. وقد تم بناء حمامين إضافيين بتمويل من مس كولفـــر، "وكان أطفال الحضانة يستحمون باستمرار مما كان يثير استياءهم". وفى يـــوم رأس الســـنة، كانت تتم دعوة كبار السن ــ الذين كانت آدمز تطلق عليهم اسم " الرواد" ــ لحضور جلســـة للذكريات، ليتحدثوا إلى بعضهم البعض، وإلى الأجيال التالية لـــهم الذيـــن كـــانوا يجلســـون ويستمعون لما يقال، عن الصعوبات التى صادفتهم عند وصولهم إلى أمريكا لأول مرة[17].

وخلال عامين، أصبح الجدول الأسبوعى "للمحاضرات، والنوادى، والحصص الدراســية وغير ذلك" يشمل نادياً للمناظرات، ودروساً فى التربية البدنية، والتعبير الإنجلــيزى، ونادـيــاً "لمناقشة الموضوعات المفترض أنها مثيرة لاهتمام شباب المواطنين"، ودروساً فـــى الغنـــاء، والتمرينات الرياضية للسيدات، والكهرباء ــ "مع إجـــراء تجـــارب"، وعمـــل نمـــاذج مـــن الصلصال، ونادى أفلاطون "يتكون من عدد صغير من الأعضاء الذين يجتمعون كل يوم سبت بعد الظهر لقراءة مقالات فلسفية"، و"نادى للصبية الممتازين". وكانت مجموعة القراءة التـــى تديرها "مس جين آدمز (بكالوريوس آداب، معهد روكفورد)" قد شرعت فى قـــراءة *فيلكـــس هولت: الراديكالى*، وهى رواية أخرى مفضلة لجورج إليوت. وكانت هناك مقـــررات لغـــير الملتحقين بالجامعة تقدم "متحدثين من كل الآراء والأحوال"، وقاعة للمطالعة، ومطبخ لتقديـــم المرق والوجبات الساخنة للمضطرين للبقاء فى المنزل، ومكتب توظيف للعمالـــة النســـائية، ومدرسة صيفية فى مدرسة روكفورد الثانوية للإناث[18].

وإلى جانب التوسع داخل المبنى الرئيسى على أثر خروج آخر مستأجر وإخلاء الدور الأول بأكمله، فقد أنشئت صالة عرض للفنون، ومقهى مكسو بالخشب" بـــه صفـــوف مـــن أكواب الصينى الزرقاء"، وصالة للتمرينات الرياضية "ضوضاؤها غير مزعجة مخصصـــة للفصول المسائية للفتيات"، على ملكية مجاورة. وسوف تمتد "روافد" أخرى علـــى طـــول شارع هالستيد صعوداً وهبوطاً باقتراب العقد من نهايته، وتشمل ملعباً عاماً به منطقة ظليلة وأرائك لجلوس الأمهات، ومبنى للأطفال، و "نادى جين"، وهـــو نـــزل تعـــاونى لفتيـــات المصانع، وصالة جديدة للتمرينات الرياضية، بعد ضم باقى المربع السكنى، وبعض المنازل عبر الشارع[19].

وبصرف النظر عن نمو هال ــ هاوس، فقد كان العديد من الناس فى المجاورة يعتبرونه

"المكان الذى تعيش فيه مس آدمز". فقد كان حضورها فيه دائماً. وعندما كانت النزيلات الخمس عشرة يجتمعن كل ليلة لتناول العشاء ومعرفة الأحداث، كانت تجلس على كرسى مغطى بالجلد عند رأس مائدة من خشب البلوط اللامع يبلغ طولها ستة عشر قدماً وتقوم بتنسيق "موضوع الاجتماع اليومى" وتحث على تبادل المناقشات الحرة بإيماءات خفيفة من رأسها، مع ابتسامات، وتعليقات رقيقة.

وكانت آدمز تقاوم لقب "الرئيسة" الذى خلعه عليها مجلس الأمناء عندما أصبحت هال هوس مسجلة رسمياً. وكانت تفضل أن تدعى ببساطة "جين آدمز من هال ــ هاوس"، ولم تتقاض أى مرتب طوال حياتها، وكانت أول من يذكر الزائرين أنها ليست وحدها فى هذا العمل المستمر. وقد كتبت إلى أختها خلال الأشهر الأولى "إننا نقوم بالطبع بأكثر مما يمكننا عمله، وهذا جزء من الفكرة". وقد اجتذب هال ــ هاوس العديد من النساء الأقوياء المستقلات فكرياً وتتوفر لديهن إمكانيات مالية. وكانت من بين أكثر هؤلاء النساء نشاطاً والتى ساعدت جين آدمز فى إقامة جماعة من الاخوات غير مسبوقة، مارى روزيت سميث (Mary Rozet Smith) ، التى انتزعت المكان الأول من إيلين جيتس ستار وحلت محلها فى حب آدمز وأصبحت موضع سرها، ورفيقتها فى السفر، وصديقتها المخلصة. كانت سميث ضعيفة صحياً، وطيبة القلب جداً، وجميلة جمالاً خلاباً. وكانت ابنة صانع الورق الثرى هذه كثيراً ما تتبرع بالمال بدون ذكر اسمها وتعطى كل وقتها واهتمامها لأطفال هال ــ هاوس الذين كانوا يحبونها حباً جمّاً. وهناك زميلة بارزة أخرى هى جوليا لاثروب (Julia Lathrop) ، خريجة فاسار، وسيدة أعمال، ونشيطة فى مجال حقوق الطفل، وعضوة فى المجلس الخيرى فى إلينوى. وكان من أعضاء دائرة النفوذ فلورنس كيلى (Florence Kelley) " أفضل المحاربين لكفالة حياة طيبة للآخرين وفى هذا تتراوح بين اللين والشدة"، وهى *مطلقة* اشتراكية لديها ثلاثة أطفال وانتقلت إلى شيكاجو بعد أن عملت فى مستوطنة الجامعة فى مدينة نيويورك. كما كانت هناك أيضاً مارى كينى أوسوليفان (Mary Kenny O'Sullivan) الواقعية من هانيبال فى ميزورى، وكانت مهنتها تجليد الكتب ومنسّقة لحركات العمال؛ وكذلك ألزينا ستيفنز (Alzina Stevens)، نصيرة للنساء العاملات والتى "سارعت للانضمام لصفوف منظمة الإضرابات"، وأصبحت من نشطاء جمعية حماية الناشئين[20].

وعندما أصبح هال ــ هاوس نقطة جذب للاهتمامات الخيرية، تلقت آدمز طلبات للتحدث فى شيكاجو وخارجها. وكانت هذه الأحاديث لجمع الأنصار تقدم صورة حية لطريقتها

المتعمدة فى وضع برنامج لشرح نظريتها الاجتماعية المبنية على الممارسة اليومية. وعند تقدمة آدمز فى يوم ٤ فبراير ١٨٩٢، فى اجتماع نادى غروب الشمس فى شيكاجو للحديث فى الموضوع المثير "كيف يمكن أن ترتقى بالجماهير؟" لبرزت رئيسة النادى، السيدة ويلارد (Miss Willard)، أنه "بينما يتحدث الآخرون عما يمكن عمله للجماهير، فإن لمرأة شجاعة بدأت فعلاً فى عمل شئ ما". وبدأت آدمز حديثها بأن حياة المدن الأمريكية الصناعية الكبرى قد أصبحت متسمة بالفوضى ومتشعبة. إن الفقراء من ـ "أهل بوهيميا فى تشيكوسلوفاكيا والإيطاليين والبولنديين والروس واليونانيين والعرب فى شيكاجو" ـ لا يمكنهم الوصول إلى المؤسسات الكبرى للفنون، والثقافة، والصحة. وأغلب أماكن تجمعهم هى الحانات. وفرص التواصل الاجتماعى المتاحة لهم "ضيقة" مثل أماكن إقامتهم. إن "الأشخاص المثقفين" الذين يمكنهم وحدهم أن يفتحوا أمام الفقراء منافذ الثراء بكافة أنواعه وليس الثراء المادى وحسب، يبتعدون عنهم: "إن المستوطنة احتجاج على هذا التقسيم... مركز وقوة دفع للاحتفاظ بحيوية النشاط الفكرى والاجتماعى". إن من واجب "الأعداد سريعة التزايد من الشباب الذين يطلق عليهم 'سعيدو الحظ'" فى الطبقة الوسطى أن "يضفوا الصفة الاجتماعية على الديمقراطية"[21].

وكانت هذه الخطبة المحلية تجربة لاستخدام نفس اللغة على نطاق أوسع. وقد حظيت دعوة آدمز "بالاهتمام على المستوى الوطنى" فى الصيف التالى عندما ألقت خطبتين فى يومين متتاليين خلال مؤتمر فى مدرسة الأخلاق التطبيقية فى بليموث، بماساشوسيتس. وكانت الخطبة الأولى وهى الأكثر تأثيراً بعنوان "نبض جديد لإنجيل قديم"، ونشرت فى عام ١٨٩٣ بعنوان "الضرورة الذاتية للمستوطنات الاجتماعية" فى مجموعة تسمى *عمل الخير والتقدم الاجتماعى*. وقدمت آدمز ثلاثة "مبررات لوجود" المستوطنات الاجتماعية. وفى أثناء تلك العملية حركت رؤيتها للتوسع الكامل فى مكونات الديمقراطية. والسبب الأول لإنشاء المستوطنات هو "لجعل الكيان الاجتماعى كله ديمقراطياً... وجعل التفاعل الاجتماعى معبراً عن الإحساس المتزايد بالوحدة الاقتصادية للمجتمع". والثانى هو الضغط للانتشار، وتوظيف "الدافع الأصلى للمشاركة فى الحياة البشرية... وتوصيل تراكم الحضارات لأجزاء الجنس البشرى التى لديها القليل منها." والثالث، التأكيد على فكرة تولستوى بأن هناك حاجة للتحرك إلى ما وراء قبول المسيحية على أنها "مجموعة الأفكار" فقط بممارسة الترابط "للتعبير عن روح المسيح... [عن طريق] التحرك تجاه عناصرها الإنسانية المبكرة"[22].

وعندما أصبح هال ــ هاوس بؤرة للتجمع، عملت فلورنس كيلى لجعل المستوطنة "نقطة انطلاق" لتقصى المشاكل الاجتماعية فى شيكاجو. وقد أرادت آدمز أن تستغل المنزلة الرفيعة لمؤسستها للعثور على أكبر عدد من الطرق الممكنة للإعلان عن المحنة التى يعانى منها المهاجرون الفقراء لحفز حكومة البلدية لتنفيذ إصلاحات إنسانية. وجاءت الفرصة فى أوائل ١٨٩٢ عندما كلف الكونجرس وزارة العمل بالقيام بمسح على مستوى الدولة، *بحث خاص لأحوال عشوائيات المدن الكبرى*. ولما كانت فلورنس كيلى تتمتع باتصالات سياسية باعتبارها ابنة عضو الكونجرس من بنسلفانيا، كما أنها تحمل درجة علمية فى القانون، فقد تم اختيارها لتوجيه الجهود فى شيكاجو. وخلال ذلك الربيع والصيف ودخولاً فى العام التالى، بينما كانت "المدينة البيضاء" ومعرضها العالمى الممتد والمبهرج والتى تبعد أميال قليلة، تعلن بصورة مجنونة عن وجه آخر لأمريكا، قامت كيلى وجوليا لاثروب، وألزينا ستيفنز بمسح شامل من مربع سكنى إلى آخر، ومن باب إلى آخر لكل شقة ومسكن فى حى هال ــ هاوس، "وهن مصممات"، كما قالت كيلى، "لتحويل الأضواء الكاشفة للبحث" إلى خمسين ألف شخص من ثمانى عشرة جنسية يعيشون فى ثلث ميل مربع فى نينتينث وارد. وتبدو كراهية كيلى لإظهار العواطف عند الحديث عن حياة الفقراء فى القصة التصويرية *خرائط وأوراق هال ــ هاوس*، التى نشرتها فى أول يناير ١٨٩٥ شركة توماس. ى. كرويل فى مدينة نيويورك. وكانت هذه أول بحوث تحليلية بلغ عددها ثلاثة وعشرين قام بها المقيمون فى هال ــ هاوس خلال الثمانية وثلاثين عاماً التالية[23].

وقد اعترفت آدمز فى "المذكرة التمهيدية" بأصل الدراسة التى تمثل نقطة تحول، مشيرة إلى مهمة الكاهن بارنيت فى لندن كسابقة طبيعية، إلى جانب إعجابها بعضو هام آخر فى دائرة توينبى هول، وهو الباحث الاجتماعى البريطانى تشارلز بوث (Charles Booth) (١٨٤٠-١٩١٦) وكتابه الضخم المكون من سبعة عشر جزءاً *حياة وعمل الناس فى لندن*. لقد كان بوث الثرى الفيكتورى من مواليد ليفربول لديه وعى اجتماعى وتعاطف جم مع الطبقة العاملة. وقد أثنت عليه بياتريس ويب (Beatrice Webb) المصلحة الاجتماعية وقريبة بوث عن طريق الزواج، على أنه رجل يمثل "روح العصر" لجيلها. وقد حقق بوث ثروة ضخمة من مشروعات الشحن بالسفن البخارية، وأظهر قدرة فائقة على استخدام الحقائق والأرقام، بحيث تمكن من معارضة عمدة لندن بشأن نتائج الإحصاء فى لندن بالنسبة لعدد الناس الذين يفترض أنهم يعيشون تحت "خط الفقر"، وهى عبارة اخترعها بوث. وقرر أن يمول فريقاً من

الباحثين تحت إشرافه شخصياً للقيام بمسح جديد لتقديم "وصف حقيقي للمشهد الاجتماعي". وكان منهجه يشمل الحياة لعدة أسابيع متوالية مع عائلات العمال. وقد تطابقت أهداف بوث مع أهداف الكاهن بارنيت، ومع سيدات هال ـ هاوس بالتبعية[24].

وكانت *خرائط وأوراق هال ـ هاوس* معدة على نمط دراسة تشارلز بوث من جهتين. فقد كانت تشمل خرائط تفصيلية لكل شارع في الحي، وملونة يدوياً بدقة لتمثيل ديمغرافية كل أسرة، بما في ذلك الدخل الذي يتراوح بين "٥ دولارات أسبوعياً لأكثر من ٢٠ دولاراً"؛ وكانت خرائط هال ـ هاوس، شأنها شأن *الحياة والعمل*، تدعمها سلسلة من مقالات قوية تسجل ملاحظات متعمقة رائعة "تسبر بالحاح أغوار" للحياة في المجاورة، بما في ذلك نقد كيلي القاسي للمصانع الصغيرة منخفضة الأجور وطويلة ساعات العمل وسيئة الرائحة المحشورة في غرف داخلية لا توجد بها نوافذ أو تهوية أو مياه جارية، إلى جانب تقييم ألزينا ستيفنز الثاقب للوباء المتفشي بين الأطفال المصابين بهزال شديد والمندرجين في قوة العمل، وتعليقات أجنس هولبروك (Agnes Holbrook) المثيرة للقلق على انتشار "صناديق القمامة" الخشبية المتقادمة المليئة حتى حافتها بالبقايا والمخلفات والتي تصطف في الشوارع الخلفية بعيداً عن الأنظار وراء المنازل والتي تمثل أخطاراً صحية مفرطة لأطفال الجوار، الذين يلعبون داخلها وحولها طوال ساعات الليل والنهار لعدم وجود مكان آخر يذهبون إليه. وقد أثارت الدعاية السلبية التي أحاطت بصناديق القمامة البائسة اهتماماً غاضباً بعد نشر *خرائط وأوراق هال ـ هاوس* لدرجة أنه تم تعيين آدمز مفتشة للقمامة لنينتينث وارد، وهي الوظيفة الوحيدة التي عملت بها مقابل أجر[25].

وكان من بين أوائل المؤسسات الاستيطانية، "أندوفر هاوس" في بوسطن، ورابطة الجوار ومستوطنة الجامعة في نيويورك، و "ولكوم هول" في بفالو، ودار مستوطنة ايتث وارد في فيلادلفيا. وكان "المستوطنون"، كما كانت عائلات الرواد في الحضر يسمون أنفسهم، قد وصلوا إلى كتلة حرجة كحركة متكاملة، وفي ١٨٩٣ عقد الأعضاء مؤتمرهم الافتتاحي المهني في شيكاجو خلال تفاقم الكساد الاقتصادي القومي. وبينما ظلت النساء تمثل دائماً القوة الغالبة، كانت هناك "أقلية قوية" من المستوطنين من الرجال. وبحلول عام ١٨٩٥ كان هناك أكثر من عشرين مستوطنة في أمريكا؛ وفي ١٩١٠ تم إنشاء أكثر من أربعمائة. وكان المؤتمر السنوي للمستوطنات الأمريكية الذي عقد في الفترة من ١٥-١٧ مايو ١٨٩٩ في هال ـ هاوس مزدحماً لدرجة أن جميع الجلسات التي عقدت في قاعة المحاضرات أتاحت مجالاً

للوقوف فقط. "وكانت الموضوعات الرئيسية للمؤتمر هى بحث النوليا واختبار الضمائر"، كما جاء فى مقال محرر فى إحدى المجلات. "ما هو عملنا؟ وما هو هدفنا؟ هل نقوم بأمانة بما ندعو للقيام به؟ هل أسلوب وتفاصيل منهجنا هو فعلاً فى خدمة المجاورات التى أتينا اليها"؟

وقد تناول المشاركون نطاقاً كبيراً من الموضوعات، مثل التأثير المتزايد للمستوطنات على السياسة المحلية، وفاعلية أسلوب العمل "التعاونى"، وأفضل الطرق لإتاحة الثقافة الفكرية للمجاورات، وكيفية تحقيق توازن بين هوية الجماعة والاحتياجات الشخصية لكل فرد من المقيمين. وفى حفل الختام الذى كان تحت رعاية اتحاد مستوطنات شيكاجو، عشية آخر أيام المؤتمر، تحدثت مضيفة المؤتمر جين آدمز بملاحظات مختصرة عن "البساطة، والنقاء، والدفء" الذى يجب أن يوجد دائماً فى العلاقات اليومية مع الزائرين، وعن ضرورة مراعاة الوضوح والدقة مع نشر المزيد من الدراسات الإحصائية التى تستند على المجتمع[26].

وكانت قدرة آدمز الفريدة على احترام "علاقات الألفة" فى الدعوة المجتمعية، إلى جانب إصرارها على "الموضوعية العلمية" فى تقصى الحقائق فى المجاورات، قد اجتذبت إليها الدوائر الجامعية من الأساتذة البارزين فى أول قسم لعلم الاجتماع فى البلاد، والذى تأسس فى ١٨٩٢ فى جامعة شيكاجو الجديدة. وكان أكبر المنحازين إلى آدمز فى ذلك القسم، أول رئيس له، ألبيون سمول (Albion Small)، والذى كان ابناً لأحد رجال الدين والتحق بمؤسسة نيوتن للاهوت فى مين قبل الحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز فى ١٨٨٩. وقد التحق بالعمل بالجامعة بطلب من رئيسها وليم رينى هاربر (William Rainey Harper)، زميله فى الطائفة المعمدانية. وقد كتب سمول قائلاً "إن علم الاجتماع هو أسمى المقدسات المتاحة للإنسان... لأنه أكمل مسار مهنى فى حياة الإنسان... ويقوم بنفس الدور الرسولى الذى خلعته النواميس على موسى فى قيادة شعبه". وقد أسس سمول *المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع* ونشر مقالاً لجين آدمز فى عدد الافتتاح فى مارس ١٨٩٦، إلى جانب أربع مقالات أخرى فى الأعداد التالية. وقد تم عرض خمسة من كتب آدمز فى *المجلة*. وكان سمول زائراً دائماً ومتحمساً لهال ـ هاوس، واستخدم *الخرائط والأوراق* كجزء متكامل مما يدرسه فى فصوله. وقد عرض سمول على آدمز منصباً فى هيئة تدريس قسمه الآخذ فى الازدهار مرتين على الأقل، بما فيها العمل نصف الوقت فى كلية الدراسات العليا. وقد اعتذرت عن كل ذلك كما رفضت التماس رئيس الجامعة هاربر بأن تلحق هال ـ هاوس بالجامعة، وصممت على الاحتفاظ باستقلالها بقدر الإمكان.

وقد وافقت آدمز على القيام بالتدريس فى الدراسات الحرة بالجامعة بناء على طلب من سمول. وفى صيف عام ١٨٩٩ ألقت اثنتى عشرة محاضرة تحت العنوان الرئيسى "الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية"، وتناولت كما قالت فى المقدمة، "تلك الأوضاع التى لم تعبر فيها المفاهيم الجديدة للحياة عن نفسها فى التغيرات الاجتماعية أو التشريع القانونى، ولكن عبرت عن نفسها فى موقف ذهنى يتصف بعدم التناسق وإحساس بالتباعد بين الضمير والسلوك". وقد قاربت المحاضرات لأول مرة بين التأثيرات الفكرية المتعددة التى اكتسبتها جين آدمز فى حياتها النشطة وكانت بمثابة معبر إلى "أول كتبها والذى كان مايزال حياً... ووضعت الخطوط العريضة للأفكار التى سوف تطورها على مدى الأربعين عاماً التالية"[27].

لقد

كان خط آدمز فى كتابتها المتعجلة مما يصعب حل طلاسمه. وعندما استخدمت الآلة الكاتبة لأول مرة، عملت فى إعداد المحاضرات على مدى عدة ساعات يومياً، وكانت تقطع الأوراق إلى قصاصات لتنظيم وإعادة تنظيم تسلسل أفكارها. وقد اعترفت آدمز لمارى روزيت سميث، التى كانت تمضى الصيف فى الخارج مع أمها نحو نهاية شهر يوليه، أنها ليست على ثقة من مدى قبول تقدمة الحديث "العام". ولكن سرعان ما بدأت "تحس بقوة الدفع". وقد ذكّرت آدمز تلميذاتها منذ البداية فى أول أيام التدريس أن جميع أفراد المجتمع يعتمد كل منهم على الآخرين. "إن مبادئنا الأخلاقية الاجتماعية تطالبنا بأن نكرس أنفسنا لما فيه الخير للجميع، [ولذا] لابد أن تتكون لدينا بعض الأفكار عن تجارب الجميع". فما الذى تعنيه فعلاً بعبارة الأخلاقيات الاجتماعية؟ "إننا لا نستطيع اكتشاف الحقيقة إلا بالاهتمام الرشيد والديمقراطى بالحياة"، كما جاء فى شرح آدمز البراجماتية، "وإعطاء الحقيقة التعبير الاجتماعى الشامل هو أساس الأخلاقيات الاجتماعية".

وكان موضوع حديثها مأخوذاً من *مقال عن واجبات الإنسان موجه للعمال* (١٨٩٨) وهو مقال تحذيرى كتبه جوزيبى ماتسينى (Giuseppe Mazzini)، الإيطالى داعى القومية والمحب لوطنه المنفى، ومؤسس "جمعية إيطاليا الفتاة"، ونصير العمال الفقراء المضطهدين. وقد كتب ماتسينى قائلاً "إن الوطن ليس مجرد منطقة من الأرض". "فالوطن الحقيقى هو الفكرة التى يلدها". وبعد ست سنوات، فى ٢٢ يونيه ١٩٠٥، بمناسبة العيد المئوى لميلاده، أهدى فرع جمعية إيطاليا الفتاة فى شيكاجو تمثالاً نصفياً لماتسينى لعرضه فى المدخل

الرئيسى لهال ــ هاوس. كما كانت صورته معلقة على الحائط فى مكتب آدمز فى هال ــ هاوس لتذكرها بأنها عندما كانت طفلة تعيش فى سيدارفيل، كان أبوها يقدس ماتسينى[28].

وكانت المحاضرة الثانية، بعنوان "سياسات المدينة"، قد توسعت فى حتمية المشاركة المجتمعية، مؤكدة أن "الرجال الفاسدين" فى الحكومة يشوهون "التقدم الأخلاقى" بتطويع المعايير الأخلاقية لتناسب احتياجاتهم. أما فى المحاضرة الثالثة، فقد اعتمدت آدمز على كتابات صديقتها مارى إلين ريتشموند (Mary Ellen Richmond)، الرائدة فى العمل الاجتماعى المهنى ومؤلفة الكتاب الجديد المؤثر، *زيارات ودودة بين الفقراء* (١٨٩٨). وقالت آدمز "لا توجد علاقة فى الحياة تغيرها الديمقراطية بصورة أسرع من علاقات الخير والإحسان". واستمرت قائلة إنه يجب، للتوافق مع الطبيعة الجوهرية للخير، أن نتخلص من جميع "الافتراضات التقليدية" عن امتياز الأغنياء على الفقراء[29].

وقد وضعت المحاضرة الرابعة، عن "طرق التعليم"، تأكيداً براجماتياً على "المتعلم، وهو الطفل نفسه، والقيمة الاجتماعية لخبرته اليومية". وقد ساندت آدمز الدور المؤسسى للمدرسة فى مساعدة الطفل على فهم مكانه فى العالم وقبول علاقته مع باقى المجتمع. وفى تأكيدها على أهمية الخبرات الشخصية التكوينية فى تشكيل طريقة مواجهة المشاكل وحلها، أشادت آدمز بواحد من أهم معلميها وهو جون ديوى (John Dewey)، رئيس قسم الفلسفة، وعلم النفس، والتربية فى جامعة شيكاجو. وعندما زار ديوى هال ــ هاوس لأول مرة فى عام ١٨٩٢، أصبح من المؤمنين به على الفور ووصف المستوطنة بعد عقد من الزمان بأنها المجتمع الديمقراطى المثالى. وقد انضم ديوى لمجلس إدارة هال ــ هاوس ودعى آدمز لإلقاء محاضرات على تلاميذه فى الجامعة. وقد كان معجباً بطريقتها الكاريزمية الهادئة، والطريقة الساحرة التى كان مجرد "وجودها" ينبئ عن "روح وأسلوب" المستوطنة. وكتب إليها قائلاً "إن كل يوم أمضيته هناك يزيد من اقتناعى بأنك سلكت الطريق الصحيح". وكان مقال ديوى المعنون "عقيدتى فى التربية" قد ظهر لأول مرة فى *مجلة المدرسة* (فى ١٦ يناير ١٨٩٧)، وكان المرجع الرئيسى لمحاضرة آدمز الرابعة[30].

وعند هذه المرحلة من المسار، أصبح تأثير الأستاذ وليم جيمس، من جامعة هارفرد، واضحاً. فقد استخدم جيمس، فى أغسطس السابق، فى محاضرة بعنوان "مفاهيم فلسفية ونتائج عملية"، ألقاها فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، مصطلح "البراجماتية" علناً لأول مرة. وألقى عبارة أثارت اهتمام آدمز جاء فيها: "إن العقائد باختصار هى فى الواقع قواعد للعمل...

والاختبار الحاسم لمعنى الحقيقة هو فى الواقع السلوك الذى تمليه أو تلهمه". وكانت براجماتية جيمس تقرر أنه لا يمكن تقييم الفكرة إلا باختبار نتائجها فى "مُختبر الحياة". وقد ظهرت هـذه الفكرة فى أحدث مقالات آدمز الذى نشر فى مايو ١٨٩٩ عن "وظيفة المستوطنة الاجتماعية". وقد ظل جيمس من جانبه من أكبر المعجبين بآدمز، وكتب تعليقاً على كتابها فى ١٩٠٩ *روح الشباب وشوارع المدينة*، "إننى لا أعرف لماذا تكونين دائماً على حق، ولكنك كذلك فعـلاً... والحقيقة يا سيدتى أنك لست مثل بقيتنا، نحن الذين *نبحث* عن الحقيقة ونحاول أن نعبر عنـها. إنك *تسكنين* الحقيقة"[31].

عادت آدمز، فى محاضرتها الخامسة بعنوان "العلاقات الصناعية"، إلى الأعمال المحببـة لديها عند آرنولد توينبى وجون راسكن وما تعلمته من هؤلاء الرجال حول "الصدام بين الفرد أو الإدارة الأرستقراطية، وبين إدارة الشركات والإدارة الديمقراطية". وتوسعت المحـاضرة السادسة فى عرض عواقب هذا الصدام. واستعانت آدمز بمناقشة "اتحادات التجارة" لتعزيـز الدفاع المتنامى عن زملائها فى هال ـــ هاوس لمصلحة "الأطفال الصغار... لحمايتـهم مـن العمل فى سن مبكرة عن طريق سن قوانين عمالة الأطفال"[32].

وقد أبدت آدمز فى محاضرتيها السابعة والثامنة، عن "علاقـات البنـوة" و "الخدمـة المنزلية"، تعاطفاً مع ورطة المرأة المعاصرة. وأظهرت مدى الإشكال الذى تصادفه الأسرة التقليدية عندما "تحاول الابنة البالغة أن تستجيب للمثال الديمقراطى الجديد" وتقرر تجـاوز "وضعها التاريخى باعتبارها من ممتلكات الأسرة". وقالت آدمز إن الأسرة يجب أن تقبـل تآلف ابنتها مع "المطالب الاجتماعية"، بالسماح لها بالانطلاق وإشباع "مفهومها الأكبر عـن الواجب". أما داخل الأسرة فإن التقليد غير اللائق للحط من قدر "العمل المـنزلى" للإنـاث يجب أن ينتهى. وفى ذلك، كانت آدمز، كعادتها دائماً، على دراية بالأدبيات الشعبية عـن هذه القضايا الآخذة فى الظهور، وتزكى النصوص الموالية للمرأة مثل *نصيب المرأة فـى الثقافة البدائية* (١٨٩٤) للمؤرخ الثقافى وعالم الأنثولوجيا أوتيس تافتون ماسون (Otis Tufton Mason) من مؤسسة سميثسونيان؛ و*المرأة وعلم الاقتصاد: دراسة فى العلاقة الاقتصادية بين الرجل والمرأة كعامل فى التطور الاجتماعى* (١٨٩٨)، لصديقة عمرها شـارلوت بيركـنز جيلمان (Charlotte Perkins Gilman) (ستيتسون)، التى أقامت فى هال ـــ هاوس لمـدة عـام وأثنت مجلة ناشين على كتابها على أنه "أفضل ما قيل فى هذا الشأن منذ كتب جون ستيوارت مل إخضاع المرأة"؛ وكتاب الخدمة المنزليـة (١٨٩٧) للوسـى ماينـارد سـالمون (Lucy

(Maynard Salmon)، الرائدة في مجال التصنيف الإحصائي وأول مدرسة تاريخ في كلية فاسار[33].

أما في المحاضرتين التاسعة والعاشرة، فقد أبحرت آدمز بطالباتها في عالم ليو تولستوي كمثال "للجهد الشخصي السامي ــ ويمكن أن نقول الجهد الشخصي المستعر ــ لتصحح أنشطته كي تلائم حشود العمال". وقد اختارت كتاب *ما هو الفن؟* وكذلك كتاب *ماذا يجب علينا أن نصنعه إذن؟* لبيان الفرق بين وجهات النظر المنادية بالمذهب الطبيعي ووجهات النظر التاريخية للحياة.

وقد أنهت آدمز مقررها بمحاضرتين مترابطتين. فقدمت في الحادية عشرة تاريخ جهود المستوطنة بدراسة *الحركات الاجتماعية الإنجليزية* (١٨٩١) وهي شهادة على أن أهل المهنة الأمريكيين مدينين لمثالية توينبي هول، والتي أدلى بها روبرت أ. وودز (Robert A.Woods)، رئيس ساوث إند ــ اندوفر هاوس في بوسطن؛ *وطرق الاستيطان والإرساليات* (١٨٩٧) للكاهن صمويل بارنيت؛ ومقالاتها الأصلية في مجموعة *الإنسانية والتقدم الاجتماعي* (١٨٩٣). وقالت آدمز، في المحاضرة الثانية عشرة، أن "الضوابط الاجتماعية"، المقدمة "بالضرورة هي مجرد إطار" لنتائج تأثير "الدولة الحديثة" على المناخ الأخلاقي للمستوطنة. واستخدمت كمرجع كتاب توماس كيركب (Thomas Kirkup) *تاريخ الاشتراكية*، وأول كتاب لبرتراند راسل (Bertrand Russel) *الديمقراطية الاجتماعية الألمانية* (١٨٩٦). وقامت فلورنس كيلي التي كانت تفخر بأنها "اشتراكية صريحة" بترجمة كتابات فريدرك إنجلز (Friedrich Engels) وانخرطت في مراسلات معه في أوائل التسعينيات من القرن التاسع عشر. ولكن آدمز كانت لا توافق على مبادئ كارل ماركس بسبب ما تراه من كراهيته للحلول الوسط والتزامه المبدئي الصارم بالتغيير "المزلزل" بدلاً من الحركة الاجتماعية المنظمة التي كانت تفضلها[34].

وقد نشرت جين آدمز، خلال ست سنوات من ١٨٩٣ إلى ١٨٩٩، خمسة وثلاثين مقالاً. وكان ثلثها تقريباً من خطب مختارة ومذكرات ومراجع لمقررها في قسم الدراسات الحرة في جامعة شيكاجو التي لخصتها في الأقسام السبعة التي تكوّن مخطوط أول كتبها، *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية*. وفي ٢٦ فبراير، ١٩٠٢، وقعت مع دار نشر ماكميلان لاصدراه في أبريل كجزء من سلسلة جديدة تسمى "مكتبة المواطن"،

ومحررها ريتشـــارد تيودور إيلى (Richard Theodore Ely)، المفكر التقدمــــى، ومــؤرخ الحركة العمالية الأمريكية، والمشارك فى تأسيس الجمعية الاقتصادية الأمريكيـــة، وأســتاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة ويسكونسن. وقد تعرف إيلى على آدمز لأول مرة عن طريــق فلورنس كيلى عندما حصل على *خرائط وأوراق هال ــ هاوس* التى وردت فـــى صـــدارة كتاب "الإنجيل الاجتماعى" لمكتبة كرويل للاقتصاد والسياسة. ورغم أنه كان يكبرها بســت سنوات فقط فإن آدمز كانت تسمى إيلى المبشر الإنجيلى "جدها فى علم الاجتماع". وكـــانت خطاباته، خلال ثمانية عشر شهراً السابقة لنشر كتابها، مليئة بعبارات الثناء، ومقوية لثقتــها فى نفسها، ومشجعة لها للاستمرار فى مسيرتها، وكان ينصحها بالتوقف عن القول بأنـــــها "خجلى" من الفترة الطويلة التى استغرقها إصدار الكتاب. وخلال فترة صعبة فـــى صيــف ١٩٠١، انتقل إيلى إلى هال ــ هاوس للعمل فى المخطوط مع آدمز يومياً على مدى ثلاثـــة أسابيع[35].

وقد نجح الكتاب فى الحصول على ثلاث طبعات ضخمة خـــلال أول خمســة أشــهر، وأخذت به دوائر القراءة ونوادى النساء فى جميع أنحاء البلاد. وقد ناشـــدها ناشــروها فـــى ماكميلان لتقديم كتاب ثان بأسرع ما يمكن. لقد أذهـــل كتابـــها *الديمقراطيـــة والأخلاقيـــات الاجتماعية* "بعض معاصريها بقدرتها على الرؤية... وقد أوضحت أن الطبقة العاملة لا تمثـل طبقة فقط ولكنها تمثل ثقافة". وفى تقديم الدروس المتعلقة بصلب مواضيعها فى الديمقراطيـــة الأمريكية، من أين جاءت وإلى أين تأمل آدمز أن تتوجه، أكد الكتاب على الحاجة إلى فـــهم هادف بين الناس من مختلف مستويات التركيبة الاجتماعية الأمريكية. وقالت إن الديمقراطيـــة بالمعنى التقدمى يجب أن تبنى على علاقة متبادلة وحقيقية بين الأفراد ــ لأن "صراع الفـــرد من أجل الحياة قد يمتد ليصبح صراعاً من أجل حياة الجميع".

وكان الكتاب أيضاً عن قوة الدفع الحتمية لوضع المرأة المتغير فى مجتمـــع ديمقراطـــى آخذ بالأساليب العصرية. وقد جاء فى الوقت الذى كان "مجال المرأة" فى الطبقـــة الوســطى يفترض أنه يقع فى المنزل أولاً، وكانت آدمز تؤمن بأن إمرأة وحيدة موهوبة تستطيع تمامـــاً أن تحتفظ بغريزة "الأمومة" أثناء "إحساسها بالمسئولية" عن طريق "التدبير المنزلى المدنـــــى"، وتجرؤ على الدخول فى ميدان عام يسيطر عليه الرجال ويعتبر قاصراً عليهم. وكانت آدمـــز وأصدقاؤها يجدون تشجيعاً فى احتمالات هذا المشروع الإصلاحى[36].

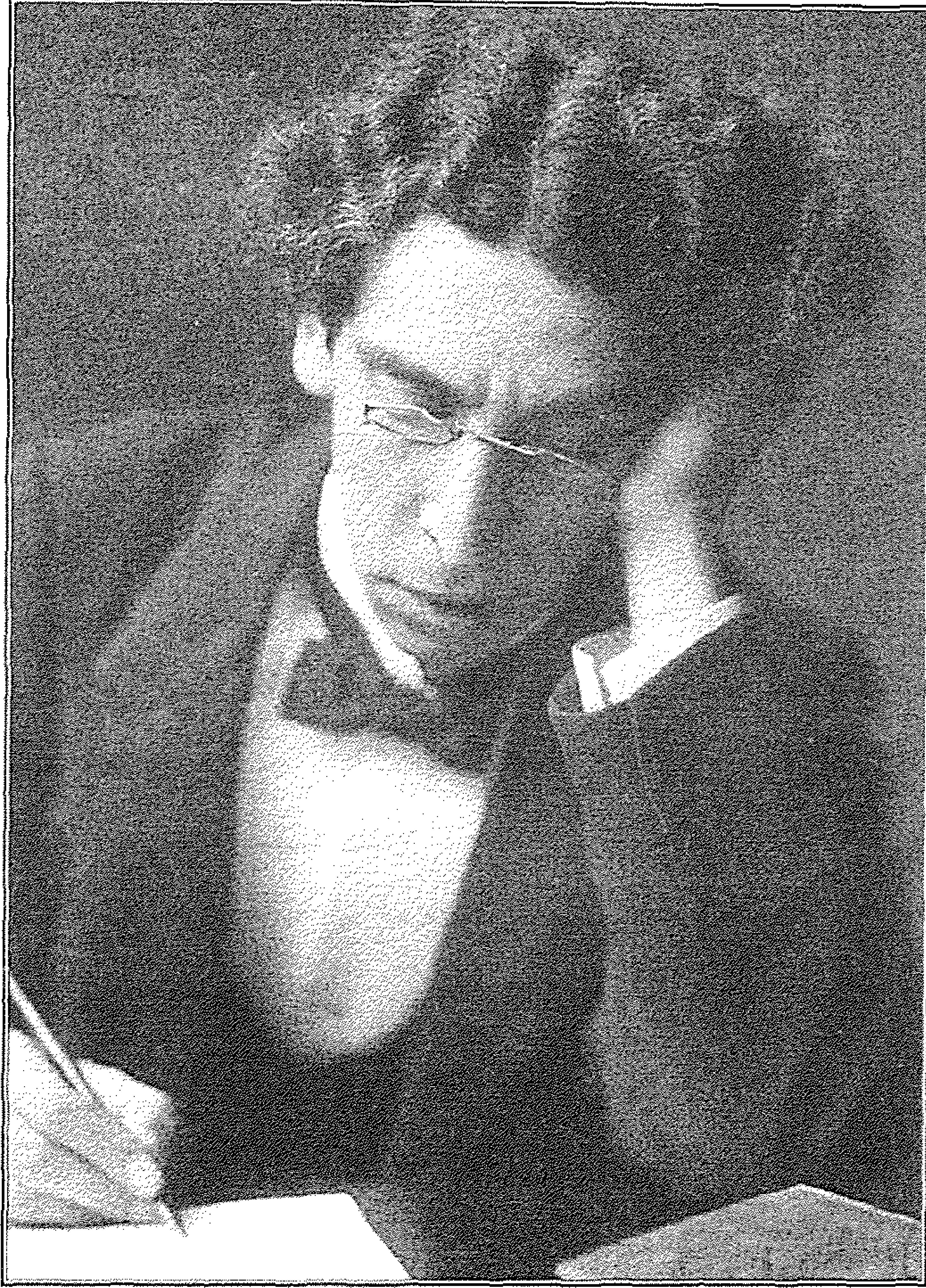
وقد استمرت آدمز بالتصعيد فى كتاب *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية* حتى وصلت

إلى آخر ست صفحات من الفصل الأخير. وأعلنت "أننا ننسى دائماً أن دائرة الأخلاق هي دائرة العمل، وأن التوقع بالنسبة للأخلاقيات ليس إلا ملاحظة ويجب أن يبقى في دائرة التعليق الفكري، وأن الوضع لا يصبح أخلاقياً فعلاً إلا عندما يواجهنا سؤال عما سوف نفعله في حالة معينة، ونكون مضطرين للعمل طبقاً لنظريتنا"[37].

إن أحد النتائج الخطيرة للرخاء الاقتصادي هو أنه يصرف الانتباه عن العمل الشاق للاحتفاظ بالتوازن الاجتماعي. وكانت جين آدمز تتخذ موقفاً بشأن نطاق الإصلاح الواسع يختلف عن موقف هنري جورج في مجال الإصلاح، والذي كان عضواً أصلياً في الطبقة العاملة، والذي نظّر أسلوبه في الكتابة لأعلى درجة عن طريق مقالات وكتب متزايدة الكثافة حتى ظن أنه وصل إلى دواء شاف شامل وانتهى به الأمر إلى أنه كان يلقى تقديراً بسبب مقصده أكثر من تطبيقاته. أما آدمز، التي جاءت من حِمىَ الطبقة الوسطى، فإنها شمرت عن ساعدها لممارسة فلسفتها في المساعدة داخل المجتمع المزدحم لمن هم أقل حظاً. وقد جاهد كلا المفكرين التقدميين لتحديد دور الحكومة في مواجهة الأزمة الملحة للفقراء بطرق لم تتغير منذ انتهاء القرن التاسع عشر. لقد أراد جورج أن يتراجع وجود الحكومة المعوّق والمتدخل من الحياة اليومية. وأرادت آدمز أن تصدر الحكومة تنظيمات للشركات تساعد الأفراد المحرومين ـ ولاسيما الأمهات، وعمالة الأطفال، وعمال المصانع والمذابح ـ بشكل فوري ومباشر. وقد استمرت جين آدمز بعد صدور كتابها *الديمقراطية والأخلاقيات الاجتماعية* في العمل كعضو في مجلس التعليم في شيكاجو، وساعدت في تأسيس الجمعية الوطنية لتقدم الملونين (NAACP)، وأصبحت نائباً لرئيس الجمعية الأمريكية لتحرير المرأة، ونظمت حزب السلام النسائي، وساعدت في إنشاء الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. وخلال سنوات الكساد قام الصحفي والناقد الأدبي إدموند ويلسون (Edmund Wilson) بتفقد المشهد الرمادي الكئيب لشيكاجو، "أكثر المدن الكبرى إظلاماً"، ووجد أن جين آدمز مازالت قوة مسيطرة، حتى وهي في السبعينيات متحدية أوامر الأطباء لعدم قضاء أكثر من أربع ساعات يومياً في هال ـ هاوس.

وفي ١٠ ديسمبر، ١٩٣١، في أوسلو، بالسويد، قرأ هافدان كوهت (Halvdan Koht) من لجنة نوبل أقوال جين آدمز المأثورة. لقد كانت أول امرأة تحصل على جائزة السلام. وأعلن كوهت في ثنائه عليها أن "أمريكا قد عززت بعض من أفضل المثل العليا في العالم"؛ إن

النزعة المثالية الاجتماعية الأمريكية تعبر عن نفسها كرغبة جامحة فى تكريس العمل والعمر لإقامة مجتمع أكثر عدالة". وكانت جين آدمز فى ذلك الوقت نزيلة مستشفى فـــى بـــالتيمور وتعانى من ضعف القلب ولم تكن قادرة على السفر لحضور الاحتفال. وقـــد تـــبرعت بكـــل جائزتها للاتحاد النسائى العالمى للسلام والحرية[38].



إسرائيل زانجويل

8

بوتقة الانصهار

إن الولايات المتحدة هى أعظم تجربة مثالية فى حكم الشعب جرّبها العالم. وإذا فشلت فسوف تكون آخر تجربة عظمى للبشرية. وبذلك فإن أمريكا تحمل مصير الجنس البشرى.

ـ إسرائيل زانجويل، ١٩٠٨

لقد حاولت فى مسرحيتى *بوتقة الانصهار* أن أبين لأمريكا رسالتها الواضحة فى قيادة مصير البشرية. وكتبت أن القرن العشرين سوف يكون القرن الحاسم لأمريكا. هل سوف تتطور على الخطوط الواضحة التى أرساها مؤسسوها العظماء؟... إن أمريكا إذا تخلت عن مثلها العليا، فسوف يعنى ذلك ضياع آخر فرصة للبشرية. ليت أمريكا تكون أقل إحساساً بعظمتها وأكثر وعياً بعظمة الفرصة المتاحة لها!

ـ إسرائيل زانجويل، ١٩٠٩ [1]

كان إسرائيل زانجويل نحيلاً مع انحناءة خفيفة وشخصية مألوفة فى لندن عند مطلع القرن العشرين، وكان يسير مندفعاً من غرفه فى التمبل عبر الستراند لحضور بروفة فى مسرح وست إند. وكان يرتدى معطفاً طويلاً أسود وبنطلوناً من الصوف يتدلى من هيكله الطويل، وكان كلامه غير المترابط مثل حركته سريعاً وناعماً. وكان شاحب اللون يضع نظارة ترتكز على طرف أنفه البارز مع رأس ضخمة تزينها لفات كثيفة من الشعر البنى تحت قبعة عديمة الشكل أو فيدورا. وكان "لا يعبأ بالمظلة فى أى نوع من الأجواء" ويتذكّر أحد كتّاب الأعمدة "بالأرنب الأبيض". وقد صادفت أول رواياته *أطفال الجيتو* نجاحاً

قبل أن يبلغ سن الثلاثين. وكان نقاد الأدب على جانبي الأطلنطي يحيون زانجويل على أنه "أبرز عبقري إنجليزي ـ يهودي منذ دزرائيلي (Disraeli)"، وأنه "ديكنز اليهودي.... من تلك الأرستقراطية التي ينتمي إليها أعظم الكتاب... وواحد من أقدر العقول في العصور الحديثة". وقد تمكن زانجويل، ابن المهاجرين الفقراء في إيست إند، من كتابة مسرحية تعبر بشكل عاطفي عن الحلم الذي ظل يحلم به طوال عمره عن أمريكا[2].

لقد ولد زانجويل في ٢١ يناير ١٨٦٤ وهو من أبناء حي إيست إند في لندن (كوكني) "على مسمع من أجراس كنيسة سانت ماري" في ميدان إيبينزير في حي وايت شابل، وكان ثاني خمسة أطفال لأم بولندية هي إيلين هانا ماركس (Ellen Hannah Marks) وأب من لاتفيا، هو موزيس زانجويل (Moses Zangwill)، البائع المتجول وتاجر الملابس القديمة الذي لم يكسب أكثر من جنيه واحد في الأسبوع. كانت الأسرة متدينة وفقيرة. وكان المنزل بارداً في أغلب الأوقات لعدم وجود فحم للوقود، وكان الأطفال يحصلون على "شريحة من الخبز لكل منهم مع جرعة من الشاي الخفيف المغلي ثلاث مرات كوجبة للصباح، ولم يكن هناك إحتمال تناول العشاء". كان إسرائيل شاباً جاداً قليل الاهتمام بالمباريات والألعاب. وقد أظهر نبوغاً أدبياً مبكراً في المدرسة اليهودية المجانية. وحصل على ثلاث درجات الشرف في الفرنسية والإنجليزية والعلوم الأخلاقية من جامعة لندن، وكان يدرس في المساء ويعلم في النهار. وقد استقال أو طُرد من وظيفة التدريس وبدأ يكسب عيشه بشق الأنفس من بيع الشعر، وأعمدة الرأي، والقصص القصيرة للدوريات اليهودية والمجلات الفكاهية، وكان ينشر تحت الاسم المستعار "روبين جودفيلو" (Robin Goodfellow). وقد حاول أيضاً كتابة الروايات البوليسية، وبعض المسرحيات القصيرة، وقصة خيالية تسمى *موتسو كلايس* ("كرات ماتزو")، والتي بيع منها أربعمائة نسخة مما أثار دهشته وسروره[3].

كل هذا الإنتاج الغزير دفع بزانجويل وسط "قوة فكرية" ـ "*ليست* من المشاهير" كما أوضح هو "بل رجال من أصحاب *العقول*" في اجتماع لمجموعة متآلفة في منزل عالم التلمود سولومون شختر (Solomon Schechter) المولود في رومانيا. وكانت المجموعة التي تضم لوشيان وولف (Lucien Wolf)، رئيس الكتاب الذي أصبح رئيساً لتحرير *جويش وورلد*؛ والمؤرخ جوزيف جاكوبز (Joseph Jacobs)؛ والفنان سولومون ج. سولومون (Solomon J. Solomon)؛ وأشير مايرز (Asher Myers) رئيس تحرير جريدة *جويش كرونيكل* ذات النفوذ القوي؛ وإسرائيل أبراهامز (Israel Abrahams) عالم العصور الوسطى ومؤسس جويش

كوارترلي ريفيو؛ ولويس (Louis) شقيق زانجويل وهو كاتب روائي مبتدىء؛ وغيرهم، تجتمع كل أسبوعين بعاطفة مشتركة لفهم الهوية المتغيرة للشخصية اليهودية في جمعيتهم المتحررة. وكانت المناقشات تركز على طرق التوفيق بين المطالب التقليدية للعقيدة وبين ضغوط الاستيعاب في بريطانيا الحديثة. وكانوا يطلقون على أنفسهم بصفة غير رسمية "الموسويين" أو "الرحّل"، وكان الرجال كثيراً ما يشردون عن المناقشة المحددة سلفا في المساء. وقد دخلت مسز ششتر ذات مرة إلى قاعة الاستقبال ولاحظت أنهم "يتيهون بعيداً عن الموضوع، كأنهم مجموعة من اليهود التائهين". وصاح زانجويل قائلاً "يا له من اسم ممتاز! لنطلق على أنفسنا هذا الاسم". وظهرت جماعة "التائهين من كيلبورن" في ١٨٩١ وأصبحت نادياً للصفوة يسمى "جماعة المكابيين القدماء"، مما أدى بدوره إلى تكوين "الجمعية التاريخية اليهودية"، التي وضعت أساس الثقافة الأنجلو ــ يهودية[4].

ورغم أن تذكر زانجويل لتعليق مسز ششتر قد يبدو تافهاً، إلا أن عبارة اليهودي التائه ــ نسبة لتيه الشعب اليهودي الذي حكم عليه بأن يجوب العالم غريباً حتى يوم الدينونة عقاباً له على "خطيئته التي لا تغتفر" الاستهزاء بالمسيح ــ كانت موضوعاً مشحوناً بالعاطفة وظهر بأشكال متعددة في أعماله. ففي مقال بعنوان "وضع اليهودية" الذي نشر في عدد أبريل ١٨٩٥ من *نورث أمريكان ريفيو* قبل أول زيارة له لنيويورك بثلاث سنوات، كتب زانجويل قائلاً: "إن سقوط الجيتو ترك إسرائيل مصاباً بدوار في مواجهة ضوء الشمس في العالم الخارجي الأوسع، وقد خلع رداءه من *الجبردين* جزئياً. فإذا خلعه كلية، فهل سيخلع تميزه ويضيع في غمار عوام الناس؟ وإذا احتفظ به فهل يستطيع أن يحتفظ بمكانته في الأخوة البشرية الجديدة؟" إن *الجبردين* كان عباءة طويلة خشنة أو "رداء حقير" كان اليهود يرتدونه تقليدياً خلال العصور الوسطى في وقت كانوا محرومين فيه من الأعمال الحرفية أو اليدوية. وكان اسمه مأخوذاً من كلمة فرنسية قديمة هي *جلفاردين galvardine* وهي تحريف التعبير الألماني *والفارت* Wallevart والذي يعني "الحج". إن الإعتاق ــ أي نهاية القيود المهنية، والانعزال في الجيتو وراء الأسوار العالية ــ من المفترض أن يحمل معه دمج اليهود داخل التيار الرئيسي "للمسيحية المدنية" الأوروبية ويتيح لحظة تاريخية لخلع ذلك الرداء. أما إذا اتجه اليهود نحو الاستيعاب، أو كما كان يسميها زانجويل "عملية التلاحم" في وطنه الأم، فهل سيستمر متمتعاً بالحماية أو يعرض نفسه بطريقة "كيشوتية" "للعصف اللاذع" من العداء للسامية؟ "لأن اليهودي ينتمي إلى جنس كما ينتمي إلى دين"، كما قال زانجويل "وقد يرغب في الاستمرار في أي

منهما، أو فى كليهما، أو خارجهما". لقد كان زانجويل من وقت عمله كمدرس متدرب فى مدرسة اليهود يحمل معه دائماً قطعة من الميزوزا (mezuzah). وكانت الوصية فى سفر التثنية ٦:٤-٩ تتطلب أن تحتوى الميزوزا على لفافة صغيرة من ورق الرق تضم كلمات صلاة شيما (Shema) مكتوبة بخط اليد "واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك". ولم يبين زانجويل مطلقاً، حتى لزوجته المحبوبة إديث (Edith)، السبب فى حمل الميزوزا معه. وربما كان يعنى ذلك تذكرة بأن اليهودى لا يستمتع قط "ببيت" دائم إلا داخل نفسه[5].

لقد كان صراع زانجويل مع مأزق اليهودى المحروم من مكان يأويه يجعله يحافظ على نظرة عاطفية متطلعة إلى أمريكا. وعندما تم تأسيس نادى المكابيين القديم كان زانجويل قد وصل إلى منزلة أدبية مرموقة. ومن منزلته هذه كان يحس بضرورة الكتابة والحديث عن "المشكلة اليهودية". وكثيراً ما كان يقوم بذلك باستخدام خلفية أمريكية ويذكر القراء فى مناسبات كثيرة بأن تعايش ذلك الشعب مع اليهود يرجع إلى حقبة التجار الذين مولوا رحلة كولمبوس (Columbus) واليهود الخمسة الذين رافقوا هذا المكتشف العظيم إلى الأرض الجديدة. وقد قال لجمهوره فى محاضرة مبكرة أنه "ربما يكون مما يستحق الذكر أن أول مكان فى أمريكا الشمالية [المتحضرة] أتى إليه اليهود كان نيويورك".

وكان زانجويل يسعد بإلقاء أبيات حزينة من قصيدة أمريكية مفضلة لهنرى وادزورث لونج فيللو (Henry Wadsworth Longfellow) بعنوان "المقبرة اليهودية فى نيوبورت"، والتى ألفها الشاعر فى ليلة ٩ يوليه ١٨٥٢، بعد أن أمضى النهار فى زيارة قام بها وحده إلى "زاوية ظليلة منعزلة على ناصية شارعين مأهولين تعلوهما الأتربة، ولها سور حديدى ومدخل من الجرانيت". وكانت مسيرة لونج فيللو بين "الأحجار الرخامية المنخفضة للقبور، التى عفى عليها الزمن وغير لونها" تثير ذكريات رحلة من زمن قديم "عبر البحار — تلك الصحراء المهجورة — لأمثال إسماعيل (Ishmael) وهاجر (Hagar) من الجنس البشرى"، على أمل أن يجدوا، فى مداخلة زانجويل، ملجأ مضيافاً فى "أورشليم جديدة... التى خلقت نيويورك المزدهرة الحالية". كما كان زانجويل يجد سعادة مماثلة فى أبيات شعر "الشاعرة الأمريكية البارزة، إيما لازاروس (Emma Lazarus)... وهى تستغيث به شخصياً." وقد أمتع زملاءه المكابيين فى حفلة عشاء، بإلقاء قصيدتها الرنانة لعيد انتصار الجانوكا"، "عيد النور"،

* عيد يهودى لمدة ٨ أيام فى ذكرى إعادة بناء معبد القدس بعد تهدمه — المترجم.

"اضربى يا *إسرائيل* بالآلات النحاسية، واعزفى على القيثارة، / وانفخى فى البوق النحاسى والنفير غليظ الصوت؛ / رددى أهازيج النصر بما يلهب القلوب"[6].

وفى أثناء زيارة القاضى ماير سالزبرجر (Mayer Sulzberger) من فيلادلفيا إلى لندن فى سبتمبر ١٨٩٠، طلب من لوشيان وولف أن يعد لزيارة مع إسرائيل زانجويل من أجل أن يقدم إليه اقتراحاً. وكان سالزبرجر جامع كتب ومخطوطات قديمة، وعالماً، ورئيس تحرير إحدى المجلات، وساعد فى ترجمة أعمال موسى ابن ميمون، وعمل كعضو فى مجلس إدارة جمعية الشباب اليهودى، ورئيساً للجنة النشر للجمعية الأمريكية اليهودية للنشر (JPS). وكانت الجمعية، التى أزعجها ندرة التصوير الواقعى لليهود فى القصص الأمريكية المعاصرة، مفتونة بأعمال زانجويل. وكان سالزبرجر على استعداد لمنح زانجويل مقدم تعاقد قدره مائتى جنيه لوضع "رواية محترمة ذات توجه يهودى" لنشرها فى أمريكا بمعرفة الجمعية الأمريكية اليهودية للنشر. وبعد بعض الخلافات الأولية حول حرية الفن، أكدت الجمعية لزانجويل أنها تمنحه تفويضاً على بياض (كارت بلانش) ليكتب ما يشاء تماماً[7].

وكانت النتيجة خلال عامين هى رواية *أطفال الجيتو*، وهى صورة بانورامية رائعة لأجيال متعاقبة من الحياة اليهودية فى لندن فى القرن التاسع عشر، تروى أخبار التجارة المرهقة "لبائع الملابس القديمة" وهو يعرض سلعته، ويمعن النظر فى حجرات العمل الضيقة "للكادحين"، الذين يراعون طقوس السبت، وآليات الإعداد للخطوبة فى أسرة مترابطة تحاول تحقيق حياة أفضل لابنتها، والتأملات المضحكة للحاخام فى المنزل، وفى حفلات سن البلوغ وحفلات الزفاف، وفى الكنيس (Shul). وفى لغة شعرية وحوار طبيعى كما لو كان يقرأ مصادفة، يوجه زانجويل القارئ غير الملمّ إلى التعاطف الدائم مع شخصياته، بينما يحاول الصغار والكبار أن يجدوا أرضاً مشتركة فى تراثهم، تنقلها إليهم مرآة صافية يحملها المؤلف أمام ماضيه فى حنين لا يشوبه حرج.

لقد كانت رواية *أطفال الجيتو* هى أول الكتب الأمريكية اليهودية الأكثر مبيعاً. وكان نجاح نشرها حافزاً لمكاتبات استمرت على مدى ثلاثة عقود بين ماير سالزبرجر وإسرائيل زانجويل، وتروى تاريخ صداقتهما المشوبة بالنزاع ــ وهى النوع الوحيد من الصداقة الذى يمكن أن يحافظ عليه الكاتب. وكان زانجويل يرى فى تعبيرات سالزبرجر "اللاذعة" أنها "مجرد نقد". وقد كتب إلى القاضى قائلاً: "إننى أكره أن أختلف معك، لأننى أعرف أننى ربما أكون مخطئاً. وعزائى الوحيد هو أنه إذا وافقتك فى كل شئ، فسيكون أحدنا زائداً عن حاجة

هذا العالم". وفى خريف عام ١٨٩٢، عندما زادت مبيعات هذه الرواية، لجأ سالزبرجر إلى زانجويل طلباً لمشورته فى التوصية بعالم يهودى فى لندن مؤهل لمنصب حاخام فى معبد روديف شالوم رفيع المستوى فى فيلادلفيا. وقد استغل القاضى مناقشة مزايا وعيوب إسرائيل أبراهامز زميل زانجويل ليلمح، فى ملاحظة ساخرة، إلى أن زانجويل نفسه قد يكون مؤهلاً للقيام بالعبور. وكان سالزبرجر يأمل أن "تصبح أمريكا فى وقت ما جذابة بحيث تغرى زفاقاً نابهين بالحضور إليها من إنجلترا ..." واعترف "إن لدينا فيضاً من البلاغة على هذا الجانب، ولكن ندرة فى المواهب، والمعرفة، وقوة الشخصية ..." وبعد أن أصبح سالزبرجر أول رئيس للجنة الأمريكية اليهودية فى عام ١٩٠٦، مد يده أكثر من مرة عبر البحار إلى صديقه قائلاً إنه "سيرحب بكل سرور بقدومك إلى هنا"[8].

فى ظهيرة يوم ٢١ نوفمبر ١٨٩٥ الملبد بالغيوم، تمكن تيودور هرتزل* (Theodore Herzl) القادم حديثاً من باريس وهو يحس ببرودة و"انخفاض معنوياته"، من الاستدلال على منزل إسرائيل زانجويل بعد جولة في شوارع كيلبورن الضيقة فى شمال غرب لندن. وطرق على باب مكتب زانجويل "كأنه شخص هبط من السماء" فوجد الكاتب جالساً أمام منضدة ضخمة للكتابة غير مرتبة وظهره يواجه ناراً موقدة. وكان هرتزل يحمل خطاب توصية من صديقهما المشترك ماكس نورداو (Max Nordau)، الكاتب والعالم النفسى المولود فى المجر، والذى اختار زانجويل كأفضل مدخل إلى المثقفين اليهود فى لندن. وقد

---

* تيودور هرتزل هو الداعية لإنشاء وطن قومى لليهود فى أرض الميعاد (الصهيونية). والأفكار التى قدمها إسرائيل زانجويل فى هذا المجال كان لها تأثير فى الفكر الأمريكى، ولكنه لم يوافق على إنشاء الوطن اليهودى فى فلسطين لعلمه بصعوبة تحقيق ذلك. وتم التفكير فى أماكن أخرى لإنشاء هذا الوطن، مثل كينيا وأوغندا فى أفريقيا، وإن كان يرى أن "واشنطن هى صهيون". ولم يوافق المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى بازل فى صيف عام ١٨٩٧ على ذلك وأصر على إنشاء الوطن اليهودى فى فلسطين، كما رفض اقتراحه مرة أخرى فى المؤتمر الصهيونى السابع الذى عقد فى ١٩٠٥، بأن أمريكا هى أفضل مكان للمهاجر اليهودى.

وقد بين الفصل الثامن من هذا الكتاب أن الطريقة التى انتشر بها الفكر اليهودى فى أمريكا والترابط بين اليهود فى أمريكا واليهود فى إنجلترا لنشر الأعمال الأدبية للكتّاب اليهود، سواء أكانت مسرحيات أو روايات أو أشعاراً والتى تسربت إلى الفكر الأمريكى، كانت فيها الثقافة الإنسانية الأمريكية مازالت فى فترة التكوين. وقد يختلف الكثيرون مع هذا الفكر العنصرى الذى يحاول أن يثبت أن الشخصية اليهودية تمتاز عن أى شخصية أخرى ولكن الذى لا خلاف عليه أن الطريقة السلمية لإدخال الأفكار اليهودية ومن بعدها الأفكار الصهيونية تقدم درساً لمقابلة الفكر بالفكر وعدم اللجوء إلى العنف لنشر الأفكار أو مقاومتها. (المترجم)

عبر هرتزل القنال الإنجليزى لسبب واحد فقط: تعريف وترويج رسالة الحركة الصهيونية الناشئة، واكتساب مؤيدين من صفوف "اليهود ذوى النفوس القوية والحرة" من أجل "الفكرة العالمية" لإعادة التوطين فى أرض الجدود الموعودة، "وضمان وطن للشعب اليهودى معترف به فى فلسطين وإنهاء الشتات"[9].

وقال ببساطة، لافتتاح المناقشة، "أنا تيودور هرتزل. ساعدنى على بناء دولة يهودية". وكان هرتزل، أثناء عمله كمراسل باريس *لنيو فرى برس* فى فيينا، قد شاهد العداء للسامية فى أوضح صوره أثناء تغطية المحاكمة العسكرية لألفريد دريفوس(Alfred Dreyfus)، الضابط اليهودى فى الجيش الفرنسى الذى اتهم بالتجسس لصالح ألمانيا. وقد شاهد هرتزل تجريد دريفوس من رتبه علنا ونزع شارته العسكرية من على كتفيه فى أرض العرض، واستمع إلى صيحات محمومة للجماهير تدعو إلى "الموت لليهود". وقد قرر منذ تلك اللحظة الفاصلة أن يقف ما بقى من عمره ــ مات هرتزل فى سن الرابعة والأربعين فى عام ١٩٠٤ ــ "للعثور على أرض خاصة بنا... ملجأ آمنا، فى ظل القانون العام"[10].

وبعد ثلاثة أيام من هذه المقابلة، قام زانجويل بتقديم هرتزل بشكل لائق وبفخار فى عشاء المكابيين، وأتاح له المنبر الذى يبحث عنه "ليقدم للعالم أول عرض لخطته بإنشاء الدولة اليهودية". وقد حصل أشير مايرز صديق زانجويل على تلك الخطبة المحورية ونشرها فى *جويش كرونيكل* فى ١٧ يناير، ثم أعيد نشرها مرة أخرى بعد شهر واحد على شكل كتيب بمعرفة شركة م. بريتنشتاين فى فيينا باسم "الدولة اليهودية"، والتى كانت بمثابة بيان استهلالى من هرتزل. وكتب قائلا "إن المسألة اليهودية هى مسألة وطن، ولحل هذه المسألة يجب أولا أن نجعلها مشكلة سياسية دولية لمناقشتها وتسويتها من جانب الشعوب المتحضرة فى العالم مجتمعة". وقد دعى هرتزل لعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل فى صيف عام ١٨٩٧ لتحقيق ذلك. واجتمع أكثر من مائتى مندوب وثلاثمائة من المدعوين ومراسلى الصحف فى قاعة الحفلات الموسيقية بالمدينة. وكان زانجويل من بين الحاضرين الجلوس على الكراسى المواجهة للمنصة المكسوة بغطاء أخضر، حريصا على الاستماع إلى "الحالم اليهودى... موسى العصر الحديث... وهو شخص طويل القامة، مثير للإعجاب وله لحية سوداء ورأس مثل ملك أشورى قديم"[11].

كان تيودور هرتزل قد جاء فى وقته تماما كعامل حفاز. فقد كان زانجويل يتوق إلى دور أكثر نشاطا ومشاركة فى العمل العام، ووسيلة بناءة "يتجاوز ــ بها طرف قلمه" يوجه

إليها طاقته الزائدة. وقد تأثر زانجويل بشخصية هرتزل التبشيرية، ووضع مسوح السياسة على كتفيه الضيقين. والأكثر من تأثير هرتزل كرجل دولة فى مقابل "للخطباء المتحمسين" فى المؤتمر الصهيونى ــ أدرك زانجويل أثناء استماعه إلى رئيس المؤتمر وهو ينهى كلمته فى ٢٩ أغسطس، ١٨٩٧، "وسط هدير التصفيق بالأيدى وطرق الأقدام والتلويح بالمناديل" ــ أن هرتزل "ذو كرامة لا تنحنى". وهنا تفهم زانجويل وهو يشعر براحة كبيرة أن هناك يهوديا يشبهه إلى حد بعيد، "لا يزحف ضعفا"[12].

أثناء حديثه فى ذلك اليوم عن "قضية أكبر كثيرا من طموح وإصرار شخص واحد" تمكن هرتزل من إقناع زانجويل بالحتمية الرومانسية للصهيونية. ولكن زانجويل العنيد، المولع بالمعارضة، لم يكن متأكدا من أن الطريق الوحيد إلى صهيون يؤدى بوضوح إلى فلسطين كمكان لتجميع اليهود. ولم تتوجه بوصلته تلقائيا نحو المشرق. وقد توصل زانجويل فى فترة مبكرة إلى تميز حاسم وواضح بالنسبة لهدف الصهيونية على أنه "ليس... لتجميع إسرائيل". وكان هذا التحفظ متوافقا مع الإعلان المؤكد من ريتشارد جيمس هورلشيو جوتبيل (Richard James Horatio Gottheil) الأستاذ بجامعة كولومبيا ومدير قسم المشرق فى مكتبة نيويورك العامة، والذى كان يعمل كأول رئيس للاتحاد الصهيونى الأمريكى. فأثناء حديثه فى افتتاح الاجتماع فى مدينة نيويورك فى يوليه ١٨٩٨، أكد جوتبيل أيضا أن الصهيونية "لا تعنى أن جميع اليهود يجب أن يعودوا إلى فلسطين".... وتساءل "ما الذى تقدمه الصهيونية لمن لم يتجمعوا؟" "... إنها ترغب فى أن تعيد لليهودى ثقته فى نفسه، وإيمانه بقدراته التى لا تتيحها إلا الحرية الكاملة"[13].

أمريكا، إنك أفضل كثيرا

من قارتنا القديمة.

لقد كان الوعد المتوهج لقصيدة "أمريكا" التى كتبها يوهان فولفجانج فون جوته فى عام ١٨٢٧ يحمل إغراءا عظيما لأول موجة من اليهود الألمان الذين توجهوا غربا خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، ونفس الإغراء أثر على يهود شرق أوروبا الذين أغرقوا تلك الشواطئ من أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر وما بعدها على مدى أربعة عقود.

وقد سعد إسرائيل زانجويل من رحلته الأولى إلى أمريكا سعادة كبيرة. وبعد عبور الأطلنطى لأول مرة فى صيف عام ١٨٩٨ "واجه قرنه وجها لوجه". وقد انتعش من رؤية *الحرية وهى تضئ العالم* عندما بدت للناظرين فى خليج نيويورك الأعلى. وقد سمح بإجراء العديد من المقابلات، مرحبا بالحديث عن موضوعات تتراوح ما بين انجذابه إلى تولستوى، الذى كان يحتفل بعيد ميلاده السبعين فى ٨ سبتمبر ــ "إن الأديب الحقيقى يجب أن يكون كاهنا من العامة"، إلى شعب الله المختار ــ "إن الإله الذى اختاره أبراهام هو إله العدل"، وفقا للصورة المنطبعة فى ذهن النساء الأمريكيات فى بالتيمور ــ "إنهن لسن ممن يلزم البيوت". وفى فيلادلفيا، مدينة الحب الأخوى، تبادل زانجويل الحديث مع القاضى سالزبرجر والذى كان يطلق عليه اسم "ناثان (Nathan) الحكيم لليهودية الأمريكية" ــ فى مكتبته الخاصة الفاخرة، كما زار متجر واناميكر (Wanamaker)، الذى لا يشبه أى متجر رآه من قبل. وقد قال كاتب الذكريات الشعبية هاملين جارلاند (Hamlin Garland)، الذى كان من مريدى وليم دين هاولز (William Dean Howells)، والذى استضاف زانجويل فى شيكاجو وزاره فى لندن فيما بعد، أنه "لم يستطع أى كاتب زارنا حديثا أن يحرك دوائرنا الأدبية بهذا القدر". وقال جارلاند متذكرا جولة زانجويل لإلقاء محاضرات فى أمريكا، إنها استولت على العناوين الرئيسية للصحف اليومية "وجعلت الحرب الأسبانية تبدو دراما تافهة فى ذلك الوقت"[14].

وقد كان أهم ظهور عام فى برنامج زيارة زانجويل هو مقابلة مع النادى اليهودى رفيع المستوى فى نيويورك فى يوم ٢٤ أكتوبر، ١٨٩٨، حيث كان مدعوا كضيف شرف. وقد بدأ زانجويل حديثه الذى قوبل بحرارة متحدثا عن "اليهودى الجديد" فى تنازل مرح. فقال "هناك من يعتقد أنه من الخطأ دائما أن يظهر الأديب بشخصه". "إن المظهر يكون عادة مخيبا للآمال. فعلى المؤلف أن يكون روحا بلا جسد". وكانت تلك هى اللحظة التى يعبر فيها زانجويل عن آماله فى "التقدم الأمريكى"، ولليهودى الأمريكى الجديد الذى يجب أن يكشف عن "الانتشار المنعزل" لعقيدته فى أرض "خام وجديدة، تتوق فيها الأرواح المثقفة لروابط تاريخية". إن اليهود الأمريكيين قد سنحت لهم فرصة ــ بل أكثر من ذلك، مسئولية ــ لإعادة المثل الأعلى لإسرائيل إلى موقعه الصحيح "فى وسط المسرح العالمى". فإذا قبلوا حقيقة أن هناك "عصر أسمى سوف يأتى"، فإن اليهود الأمريكيين يحتلون موقعا يؤهلهم لبدء "نهضة ثقافية... لوضع الجوهرة على جبين المستقبل". وخلال العام التالى تمادى إلهام زانجويل إلى

درجة الإقرار بقوة قاهرة للتجديد الديني، فقال "إن واشنطن هي صهيوننا"[15].

ومن بين الشعراء الأمريكيين الذي كان إسرائيل زانجويل يستمتع بقراءة شعرهم، كان هناك شاعر آخر أثير لديه طوال حياته هو والت ويتمان (Walt Whitman)، الذي كان مثل زانجويل "يعمل على نطاق واسع جدا" ولديه "مواهب متعددة". وقد ظهرت عبارة "هل أناقض نفسي؟ حسنا، إنني أناقض نفسي" المأخوذة من قصيدة "أغنية عن ذاتي"، وبها تعديل بسيط على أنها "هل أناقض نفسي حقا؟" على الورقة البيضاء المدرجة في صدارة آخر كتب زانجويل، الذي نشر في عام ١٩٢٥، قبل وفاته بعام. وقد نشر كتابه الشعري الوحيد في عام ١٩٠٣، *الأطفال المكفوفين*، وهو مجموعة متميزة من ذكريات الشباب، والترانيم الروحية، والقصائد العاطفية الرومانسية، وترجمات لصلوات تعبر عن حبه للتناقض. وقد وجد زانجويل في "تأرجح واندفاع الشعر" النوع الصحيح للتوافق مع حبه لجانبي المجادلة كلما زاد الغوص في شخصياته السياسية والفنية. وكتب في قصيدة بعنوان "إسرائيل" "استمعي يا إسرائيل، إن يهوه (Jehovah) الله ربنا واحد"، ومعترفا بالشروخ في موقفه من الصهيونية، "ولكننا، نحن شعب يهوه، مزدوجين ومن ثم فنحن هالكون". وفي قصيدة أخرى بعنوان فاتر هو "فلسفة عملية"، شجع نفسه بأصداء من شكسبير بأن "تنطق بالكلمة التي يبدو لروحك أنها الحق/ واسلك طريقك مسترشدا بنور شخصي"، وانتهى إلى "أنها الأشعة المتناقضة هي التي تعطي اللون الأبيض".

وكانت هناك أيضا قصائد عن الحب متناثرة في جميع أجزاء كتابه *الأطفال المكفوفين*، بعضها مراثي مفعمة بالحزن، ولكن الغالبية منها احتفالية، إلى جانب أسطر عن "إعادة مولد الحياة في الفجر المشرق"، أو "من أجلك، يا حبيبتي سوف أعد/ في ساحتي فراشا من ذهب". وكان مصدر الإلهام بهذه الأشعار هو خطيبة زانجويل على مدى ثلاث سنوات، إديث إيرتون (Edith Ayrton) – غير اليهودية – البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاما، ذات الشعر البني والعينين البنيتين، "الرقيقة، والرشيقة، والمحبوبة، ذات الجمال السماوي". وكانت ابنة الأستاذ و.أ. إيرتون (W.E. Ayrton)، المهندس الكهربائي وعالم الطبيعة، وماتيلدا شابلن (Matilda Chaplin)، الطبيبة التي ماتت عندما كانت إديث في الثامنة من عمرها، وقد كانت إديث كاتبة قصص موهوبة وخريجة كلية بدفورد. وكانت زوجة والدها الثانية فيبي (هيرثا) ماركس (Phoebe (Hertha) Marks) يهودية ومن كبار المعجبين بقصص زانجويل القصيرة. وقد

تزوجا فى احتفال مدنى فى مكتب توثيق فى لندن فى ٢٦ نوفمبر، ١٩٠٣. ولم تكن العروس ترتدى رداء أبيض، وفضلت رداء مشغولا بلون الترا ــ كوتا مع قبعة عريضة الحافة متمشية معه. وغاب أغلب زملاء زانجويل اليهود، المعترضين فى صمت على زواجه المختلط، عن حفل الاستقبال الذى أقامته أسرة إيرتون بعد قداس قصير[16].

وسرعان ما أصبحت إديث، بالاشتراك مع زوجة أبيها، مشغولة بأعمال الخير اليهودية، وبعد زواجها أصبحت نشيطة فى حركة معارضة العنف والحرب وشنت حملات محمومة من أجل منح حق الاقتراع للمرأة. وكانت لا تكل فى دعم المسيرة المهنية لزوجها، وتقلق من ميل إسرائيل للإسراف فى العمل إلى حد الإرهاق، وكانت تهتم دائما بصحته ومزاجه المتقلب. وكانت إديث تسجل بدقة إيصالات شباك التذاكر لمسرحياته وتفتح الباب عندما يحضر من يرغبون فى التمثيل والممثلين العاطلين إلى عتبة منزلهما الريفى فى فار إند، على شاطئ البحر فى ساسكس. وكانت أما شديدة الاهتمام والمحبة لأطفال زانجويل الثلاثة ــ إيرتون، ومارجريت، وأوليفر ــ تعين المربيات ثم تطردهم فورا عندما يبدى الصغار أدنى شكوى، وكانت تحتفظ بيوميات هزلية عن تعبيراتهم المحببة المتغيرة كلما تقدمت بهم السن[17].

وكان إسرائيل زانجويل يرفض الانتقادات الصريحة أو الضمنية التى يتلقاها بسبب زواجه من خارج العقيدة. إن الحاخامات "متشددون ومتعصبون بأكثر من اللازم. وعليهم أن يتوسعوا فى مبادئهم... إن زوجتى لديها نفس المثل العليا اليهودية التى تنسبونها إلى"، كما قال أثناء مقابلة صحفية فى سنوات متأخرة، مع ملاحظة لاذعة بأن "اليهودية روحية ويبدو أنكم تجعلونها عنصرية". وقد قالت إديث زانجويل لأحد أصدقاء العائلة بعد وفاة زوجها إن إسرائيل كان يؤكد لها دائما أن "نظرتى الدينية أقرب إلى نظرته من أى يهودية أخرى سبق أن قابلها... إننى يهودية بالإيمان الراسخ"[18].

لقد حدثت هجمات متهورة وعنيفة على اليهود فى روسيا، أطلق عليها اسم المذابح المنظمة، على أثر اغتيال القيصر ألكسندر الثانى (Czar Alexander II) فى أول مارس، ١٨٨١، وامتدت خلال ولاية ألكسندر الثالث وابنه، نيكولاس الثانى (Nicholas II)، اللذين تعهدا كلاهما بالاستمرار فى الحكم الاستبدادى. وقد شجع عملاء وزير الداخلية فلاتشيسلاف بليفى (Vlacheslav Plehve) عمليات الإثارة المعادية للسامية بين المسئولين فى

إدارة بيسارابيا* الإقليمية بقيادة بيوتر كروشيفان (Piotr Krushevan)، الذى كان يوزع جريدة مليئة بالقذف والتشهير والتى أدت إلى اغتيال تسعة وأربعين يهوديا فى عيد الفصح، ونهب مئات المنازل والأعمال فى كيشينيف فى الفترة من ٦-٧ أبريل ١٩٠٣. وقد انطلق الغوغاء فى الحى اليهودى، بتواطؤ من رئيس الشرطة فى المدينة، فلاديمير ليفيندال (Vladimir Levendal)، الذى اكتفى ضباطه بالوقوف وعدم التدخل. وقد تم تخليد هذه المذبحة المنظمة فى كيشينيف بقصيدة حاييم ناحمان بياليك (Hayyim Nahman Bialik) المؤلف من مدينة أوديسا "مدينة الذبح" وأصبحت رمزا لاضطهاد اليهود فى روسيا.

وبعد عامين حدثت، فى الفترة من ١٩-٢٠ أكتوبر، ١٩٠٥، عربدة أسوأ من العنف الملكى مرة أخرى فى كيشينيف وفى موجات فى باقى أنحاء روسيا القيصرية. وبنهاية العقد الأول من القرن العشرين، كان أكثر من ثلث يهود أوروبا الشرقية قد استؤصلوا من جذورهم نتيجة لهذا الاضطهاد المرعب المستمر. أما الثلثان الباقيان فقد تم تعميدهم أو تركهم يموتون جوعا. وبحلول ١٩٢٠ كان مليونان من التائهين من المستوطنات الروسية ومن النمسا، ورومانيا، وجاليسيا أيضا، والذين يشكلون نصف سكان العالم من اليهود، يتجمعون فى مدن *الأرض الذهبية*، أمريكا.

وقد قال زانجويل لماير سالزبرجر قبل توجهه إلى بازل لحضور المؤتمر الصهيونى السادس فى صيف عام ١٩٠٣، "إن كيشينيف سوف تجعل الجميع صهيونيين". لقد أضافت المذابح المنظمة إحساسا بالضرورة الملحة للشروع فى العمل. وكان السؤال الرئيسى حينذاك هو *إلى أين*؟ وتساءل زانجويل عن "المكان الذى سيضئ فيه اليهود منارتهم على جبل صهيون؟" ما الذى يمكن عمله للعثور على ملجأ يؤوى اليهود الروس المعرضين للخطر الدائم؟ وتقابل وزير المستعمرات الإنجليزى جوزيف تشمبرلين (Joseph Chamberlain) مع تيودور هرتزل وعرض عليه جزءا كبيرا من كينيا لتكون مستوطنة يهودية مؤقتة تتمتع بالحكم الذاتى. وتعاون زانجويل مع هرتزل لتقديم "خطة أوغندا" إلى المندوبين فى المؤتمر. وقال زانجويل "سوف أضع كل ثقلى مع هذه الدولة"، فقد كان يتصور أن الرؤية الأوسع لما وراء الصهيونية "الكلاسيكية" سوف تؤتى ثمارها. "إننى أسمح للدين بأن يكون له مكان كبير وليس مكانا يتحكم منه.... فما لم تكن دولة حديثة تعطى وزنا أكبر للفردية، فسيكون من العبث إعادة إنشاؤها". وبعد مجادلة عنيدة بأن ــ "أوغندا ليست فلسطين ولن تكون أبدا

---

* فى جنوب غرب روسيا ــ المترجم.

فلسطين" ــ تم تكليف لجنة لفحص المنطقة الأفريقية الشرقية شبه المدارية بمساحة خمسة آلاف ميل مربع تقرب من حجم ويلز، وتبعد ثلاثين ساعة بالقطار من ميناء ممباسا البحرى[19].

لقد مات هرتزل فجأة من شدة الإرهاق فى العام التالى فى فيينا. واعتبر زانجويل وفاة صديقه علامة لبدء "المرحلة الثانية" من الصهيونية. وكان مقتنعا بأنه لا الحكومة التركية، التى تتبعها فلسطين، ولا العرب، سوف يتنازلون عن موطنهم القديم أو أى منطقة فى ذلك الجوار من العالم. وقد التقط زانجويل العصا من رفيقه الذى سقط، وأخذ فى تجميع عزيمة قوية تدفعه إلى المؤتمر الصهيونى السابع فى ١٩٠٥، مقررا أن "الحصول على فلسطين فى خطوة واحدة يعتبر جهدا أكبر مما نستطيع القيام به. وأنا أميل للتوجه إلى مكان آخر.... فأى أرض تكون يهودية، وتحت علم يهودى، سوف تنقذ جسم وروح اليهود". وبرغم رجائه الملح، فقد رفض المندوبون فكرة أوغندا. فانفجر زانجويل مندفعا فى يوم حار عاصف فى شهر أغسطس، وأخبر المجتمعين بأنه أصبح لزاما عليه "أن ينشئ منظمة ثانية *مؤقتة*" لبحث بدائل غير فلسطينية للاستيطان اليهودى الكبير. وقال "إن منظمة أرض اليهود لا تتخذ موقفا من الصهيونية". "ولكن لن نستبعد أى أرض من عملياتنا". وترك الاجتماع وعاد إلى لندن. وكان أول بيان له كرئيس للمنظمة من مقرها إن "كل الآليات القائمة للتعامل مع النهر الدافق من الهجرة اليهودية متقادمة وغير كافية"[20].

وللحصول على تمويل للمنظمة الجديدة، دخل زانجويل فى مراسلات مطولة مع جاكوب هـ. شيف (Jacob H. Schiff)، المصرفى الأرستقراطى الألمانى اليهودى وصاحب الأعمال الخيرية. فقد كان شيف منذ ١٨٨٥ رئيسا لشركة استثمار كوهن (Kuhn) ، ليب (Loeb) وشركاه فى نيويورك، والتى كانت تأتى فى المرتبة الثانية بعد هاوس أوف مورجان عند نهاية القرن. كان الرجلان قد تقابلا فى النادى اليهودى خلال زيارة زانجويل لأمريكا، وبدأ حوارا يعتمد على الاحترام المتبادل، وإن انطوى على ضغائن أحيانا. وكان شيف يشارك زانجويل فى الشك فى مدى إمكان إقامة وطن قومى فى فلسطين إلى جانب قلقه من مصير زملائه فى العقيدة من اليهود *المضطهدين* فى روسيا، كما كان يرصد أزمة الهجرة فى أمريكا. فقد كان شيف يعلم، من مقابلات أجراها مؤخرا مع سلطات الهجرة، أن هناك تهديد وشيك بإصدار تشريعات تقضى بتحديد حصص للهجرة لأن الموانئ الشرقية أصبحت مزدحمة جدا. واقترح شيف على زانجويل فى خريف ١٩٠٦، أنه ربما يتعين تحويل اليهود

الروس بعيدا عن موانئ الأطلنطى الشمالية المكتظة وتوجيههم "نحو موانئ الخليج حيث يمكن توزيعهم منها بسهولة فى داخل البلاد... داخل البلاد الأمريكية... ولاشك أن تنفيذ هذا المشروع سوف يحقق الانفراج المطلوب حتما". وكان التحول يمثل "تعاطف شيف الفعال" ورغبته فى اندماج اليهودية فى أمريكا كلها، وبذلك تقترب "المشكلة اليهودية الكبرى من الحل". وأخبر زانجويل أنه على استعداد لتقديم نصف مليون دولار لتحقيق "خطة جالفستون" إذا أمكن جمع مبالغ مناظرة بمعرفة منظمة الأرض اليهودية فى إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا. وفى هذه الحالة سوف يعطى شيف، الذى طلب عدم ذكر اسمه، فى هذه المنحة السخية، للمنظمة "كل الفضل فى بدء هذه الهجرة فى أوروبا". وكان زانجويل يظن أنه إذا نجحت الخطة فى جالفستون، فيمكن تكرارها فى مجموعات ذات حكم ذاتى ـ "مستعمرات" فى الولايات الجنوبية، نيفادا، أو جنوبى كاليفورنيا.

لقد كان هذا حلما نبيلا، ولكنه فشل بسبب تضافر مقاومته داخل المجلس التنفيذى لمنظمة الأرض اليهودية، والتعقيدات اللوجستية فى نقل المهاجرين الروس وإقناعهم بالانفصال عن *مواطنيهم*، وعجز لجان الإغاثة الأوروبية المتناحرة، وعدم رغبة شركات السفن البخارية المتنافسة فى توجيه تدفق الجماعات بعيدا عن مدينة نيويورك، وحالات إعادة المهاجرين الفردية من قبل المفتشين الحكوميين غير المطلعين على التعليمات، إلى جانب كساد اقتصادى فى الولايات. ففيما بين ١٩٠٧ و١٩١٣، كان أقل من عشرة آلاف مهاجر يهودى قد جعلوا من جالفستون، فى تكساس، مقرا لهم، فى حين أن أيوا وميزورى لم تستوعبا إلا ألف يهودى تقريبا[21].

لقد زادت نظرة إسرائيل زانجويل المفعمة بالرجاء إلى أمريكا عمقا حتى عندما فشلت خطة جالفستون. ولم يعترف بأن الخطة لم تحقق وعدها. وكان فخورا بالعشرة آلاف يهودى الذين تم توطينهم، وقد تذكر زانجويل فى يناير ١٩١٤ فى نوبة من مراجعة التاريخ أن: "*بوتقة الانصهار* قد خرجت مباشرة من خبرة المؤلف الواقعية كرئيس لدائرة تنظيم الهجرة فى منظمة الأرض اليهودية... التى أنشئت بعد المذابح الكبرى لليهود فى روسيا بوقت قصير". والواقع أن بذور هذه المسرحية قد غرست قبل إنشاء منظمة الأرض اليهودية. فعندما تمكن ماير سالزبرجر من إغراء زميله من كيلبورن واندرر سولومون شختر فى أبريل ١٩٠٢ برئاسة الحلقة الدرامية اللاهوتية فى نيويورك، أرسله زانجويل مع دعوات

الوداع إلى أمريكا، "ذلك البلد الذى ـ يضم حلقة دراسية عن أورشليم ـ قد يكون مؤهلاً، عن طريق تلاحم اليهودية الغربية والروسية، لوضع معايير اليهودية للشتات الحديث". وعندما وصلت سرعة الهجرة إلى معدل تاريخى فى الارتفاع خلال أول ستة أشهر من عام ١٩٠٧، وهى فترة زاد فيها من عبروا بوابات أمريكا على من غادروها على ٦٠٠ ألف، تزايدت بلاغة زانجويل بالترادف مع ذلك "إن أمريكا هى أفضل الأراضى جميعاً للمهاجر اليهودى" الذى يجتذبه نور "مصباح يحتفى بالبشر جميعاً بتألق عالم أفضل"[22].

وفى أوائل ربيع ١٩٠٨، أخبر زانجويل منتجه الأمريكى، جورج كراوس تايلر (George Crouse Tyler)، المؤسس المشارك لتيودور ليبلر الابن فى إنشاء شركة ليبلر فى نيويورك، أنه يضع "الأساس" لفكرة مسرحية يسيطر عليها "بطل يهودى" سيكون لها "دوياً هائلاً". لقد كانت الشركة من كبار المعجبين بزانجويل، وكانت قد عرضت العديد من مسرحياته فى برودواى، بما فيها وضع *أطفال الجيتو* فى قالب مسرحى وعرضها فى مسرح هيرالد سكوير فى خريف عام ١٨٩٩، وتبعتها مسرحية ميريلى *مارى آن* فى جاردن (١٩٠٣) *والجنى* فى كرايتيريون (١٩٠٥)[23].

كتب زانجويل فى ١٨ أبريل خطاباً مثيراً إلى تايلر، الذى كان فى مرسيليا وعلى وشك الاتجاه شمالاً فى جولته الأوروبية السنوية لزيارة كتّاب المسرحيات وجمع مخطوطات جديدة واعدة لإحضارها معه عند عودته. قال زانجويل فى خطابه "أفكر فى أن أطلق على المسرحية 'أمريكا'، وجعلها ترمز إلى الدور الكبير الذى يجب على أمريكا أن تقوم به فى تاريخ البشرية، إذا كانت ستستمر صادقة مع مبادئها الأساسية للحرية، والمساواة والإخاء..." واستمر زانجويل قائلاً "'أمريكا' كما تراها جميع العيون المتطلعة للمضطهدين من جميع الأجناس... 'أمريكا'، باعتبارها أرض الميعاد التى ستجد فيها أفضل المثل الإنسانية العليا الحل فى النهاية". وعندما وصل تايلر إلى منزل زانجويل فى فار إند فى شهر يوليه، بعد ثلاثة أشهر، كان عنوان المسرحية قد تعدل إلى *البوتقة*، وعندئذ أخبر المنتج المتشكك كاتب المسرحية إن "[لديه] بعض الشك فيما إذا كان الجمهور سوف يفهم هذه الكلمة". وفى شهر أغسطس، بعد نصف ساعة من وصول السفينة إلى نيويورك، سلم تايلر "المخطوط الثمين" الجديد إلى صديقه، الممثل واكر هوايتسايد (Walker Whiteside)، الذى كان قد أسرع من منزله فى هاستنجز أون ـ هدسون وكان منتظراً على رصيف الميناء. وكان عنوان النص *بوتقة الانصهار* (The Melting – Pot)[24].

كان قد مضى عشرون عاماً على العاصفة التى أثارها فى برودواى الفتى البالغ من العمر تسعة عشر عاماً القادم من لوجان سبورت، فى إنديانا، بافتتاحية مثيرة "كظاهرة شابة.... الفتى هاملت". وقد عمل ولكر هوايتسايد منذ ذلك الوقت وسافر بانتظام كممثل، ومنتج، ومخرج، وأسس شركته الخاصة فى الوسط الغربى و "شق طريقاً ممتداً من بنسلفانيا الغربية إلى كانساس، وممتداً شمالاً من ميشيجن إلى ويسكونسن". ومن جذوره الرئيسية الممتدة من شكسبير، كان هوايتسايد يفضل دائماً الأدوار الكبيرة التى وجدها فى الأدب الكلاسيكى. وقد قرأ مسرحية *بوتقة الانصهار* خلال الليل، وأدهشته القوة العاطفية للشخصية الرئيسية، دافيد كيخانو (David Quixano)، وهو عازف كمان مهاجر يهودى شاب يعيش فى مسكن فى مدينة نيويورك محاولاً التخلص من ذكريات ماضيه المضطرب. وأصر هوايتساايد على مقابلة المؤلف بدون تأخير. وقد تكفل تايلر بمصاريف رحلة هوايتساايد على الباخرة وذهابه إلى إنجلترا. وقد حياه زانجويل قائلاً، "إنكم أيها الأمريكيون تستعجلون كل شئ بطريقة هائلة". ولمضى كاتب المسرحية والممثل أسبوعاً منكبين على النص، مع تعديل بعض النقاط الصغيرة فى الفصل الثالث، ثم قدما قراءة مرتجلة فى قاعة "حقيرة" مستأجرة فى ليتل هامبتون، وكان رسم الدخول شلن واحد. وكان الجمهور قليلاً ولكنه قدر قيمة العمل.

وسرعان ما تبع ذلك العرض فى نيويورك، وبدأت البروفات هناك فى أوائل سبتمبر تحت الإشراف الوثيق من زانجويل انتظاراً لحفلة العرض الأول الأمريكى التى لستضافها الرئيس تيودور روزفلت فى مساء ٥ أكتوبر فى مسرح كولومبيا فى واشنطن العاصمة[25].

تبدأ مسرحية *بوتقة الانصهار* فى غرفة المعيشة الرديئة فى بيت المهاجر كيخانو، وهو منزل صغير "فى ريتشموند أو الحى غير اليهودى فى نيويورك". وعلم الولايات المتحدة "بنجومه وأشرطته" معلق على الباب الخارجى، وتنوء أرفف الكتب بالنصوص "العبرية المتربة الكبيرة"، وكتب نيتشه بجوار الكتاب المقدس. ويدخل دافيد كيخانو فى عصر يوم شتوى وهو يغنى، "يا وطنى، هذا منك". وهو يعيش على تدريس الموسيقى فى بيت إيواء بالنهار، ويعود فى الليل لتأليف مقطوعته الفذة، سيمفونية "عالم جديد" تحية للأرض التى تبنته. ويأمل دافيد فى أن تؤديها أوركسترا كاملة تحت قيادة المايسترو الألمانى العم هر بابلمايستر (Herr Pappelmeister). ويقوم عم دافيد المحبوب مندل (Mendel) بإعطاء دروس فى البيانو فى المنزل ويحاول أن يحتفظ بما يشبه التوازن، فى حين تجلس الجدة كيخانو المتوحدة فى مقعد حقير إلى جانب المدفأة وتتذكر العالم القديم باللغة اليدية. أما الخادمة ذات

اللسان اللاذع، كاثلين (Kathleen)، فهى تتجول إعداداً لعطلة يوم السبت، وتقدم تسلية هزلية، بتعليقاتها باللكنة الأيرلندية، عن "اليهود الوثنيين"، وقواعد وتنظيمات "السيدة العجوز" الملتزمة بقواعد الديانة اليهودية.

وفى هذا الوضع المنعزل تدخل فيرا (Vera) الجميلة، وهى نوعية مختلفة من المهاجرين الروس. إنها مسيحية و ""دخيلة"، وتقوم بأعمال اجتماعية فى بيت الإيواء، حيث تقابلت مع دافيد وتعلقت به. ويصل والد فيرا وزوجة أبيها، البارون والبارونة ريفندال (Revendal)، فى زيارة مفاجئة من روسيا، يصحبهما كوينسى دافينبورت (Quincy Davenport) الدعىّ، وهو شخصية سطحية من رواد النوادى الريفية يطلب الزواج من فيرا. وفى مواجهة حامية مع دافيد بشأن مشاعر فيرا، يقوم البارون ــ بوقاحة بالمجادلة فى "المشكلة اليهودية" من خلال صخب قبيح، معاد للسامية ــ بالكشف عن سر رهيب. لقد كان رئيساً للشرطة فى كيشينيف، خلال مذبحة عيد الفصح المنظمة الدموية.

هل يستطيع دافيد أن يتغلب على الصدمة الفاجعة بأن والد فيرا كان مسئولاً عن المذابح الرهيبة لكل أفراد أسرته فى المقاطعة الروسية؟ هل يمكن أن تصل الرومانسية بين دافيد وفيرا إلى نهايتها فى ظل هذه الظروف المؤلمة؟ يتواعد الاثنان ذوى الحظ التعيس فى حديقة سطح بيت الإيواء عند الغروب أثناء أول عرض لسيمفونية دافيد فى الرابع من يوليه. وفى قمة الدراما، يتعانق دافيد وفيرا، اليهودى والمسيحية، بينما يلمع مصباح تمثال الحرية عن بعد مثل النجم الهادى على المياه المظلمة. ويتفقان على أنه يمكن "فى أمريكا فقط" أن تحل معضلة مثل ذلك الحب الذى يربط بينهما. وفى دورة كاملة ينزل الستار على أنغام "يا وطنى، ذلك منك"، بينما يصيح دافيد، "نعم، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، النخلة وشجرة الصنوبر، القطب وخط الاستواء، الهلال والصليب، كل ذلك يستطيع الكيميائى العظيم أن يذيبه ويصهره فى شعلته المطهرة! فهنا سوف يتحد الجميع لبناء جمهورية الإنسان ومملكة الله... السلام، السلام للملايين التى لم تولد بعد، وقدرها أن تملأ هذه القارة العملاقة"[26].

إن أحداث *بوتقة الانصهار* الميلودرامية التى تقترب من الأوبرالية، هى تمثيل واضح للقضايا التى كانت تدور فى مخيلة زانجويل لعقد أو أكثر من الزمان. وقد أكد زانجويل على المجاز الدافع فى المسرحية ــ "رمزيتها الملموسة" ــ مع استمرار إدخال تعديلات على النص فى نيويورك خلال الأسابيع السابقة للافتتاح فى واشنطن. وتحدث ثورة دافيد فى الفصل الأول عندما يتهم فيرا بأنها لا تفهم سبب إلهامه الفنى المتسامى: يقول فى

غضب، "أنت، التى تمثلين روح المأوى! ألا تفهمين أن أمريكا هى بوتقة الله، بوتقة الانصهار الكبرى حيث تذوب جميع أجناس أوروبا ثم يعاد تشكيلها! هذا هو مكان تواجدكم، أيها الناس الطيبين، هذا رأيى، كما سبق ورأيتهم فى جزيرة إليس، هذا هو مكان تواجدكم". وقد أدخل زانجويل فى النص بأحرف كبيرة كلمات "بوتقة الانصهار الكبرى" بالحبر الأسود، كما قوى ذكر كلمة "الانصهار" فى المرة الثانية، وجعلها "الاندماج" وكتبها بالحبر الأسود، ثم أعادها لأصلها أثناء مراجعة أصول الصفحات للصيغة المنشورة فى عام ١٩٠٩. لقد كان جمال الاستيعاب الأمريكى، بالنسبة لزانجويل، هو أن الناس من أصول مختلفة يشاركون فى نفس التعلق بقيم المجتمع الحر، بصرف النظر عن طبيعة تلك الأصول. فاليهود لم يتوقفوا عن كونهم يهوداً عندما أصبحوا "مواطنين فى هذه الجمهورية العلمانية... فأمريكا لا تحاول أن تدمج *بالقوة* الشعوب المختلفة التى تصل إلى شواطئها"، كما قال بعد عدة سنوات. لقد أكد ريب صموئيل الحكيم منذ زمن طويل فى كتاب *أطفال الجيتو* أن "اليهودى لا يستطيع أن يخلع يهوديته. فقد حملت روحه قبل أن تولد نير التوراة فى سيناء". ويحافظ "اليهودى الجديد" دافيد كيخانو على هذه العقيدة. فهو يستطيع أن يحترم السنن القديمة وهو يتطلع إلى مزيج المستقبل. كان زانجويل يعتقد أن المجتمع الأمريكى "تأسس على التقاليد الموسوية للآباء المهاجرين... وأن البيوريتان هم يهود فعلاً. كما أن الحياة الاجتماعية فى نيو إنجلند هى على النمط العبرى". وقال إن أمريكا الحديثة "متعددة بشكل لم يسبق فى التاريخ" إلى درجة أن "جميع الخلافات العرقية وعداوات الثأر [سوف] تنصهر". ويستطيع أى إنسان ــ وليس اليهودى فقط وإن كان اليهودى هو نقطة بداية زانجويل ــ أن يحتفظ بهويته فى أمريكا فى نفس الوقت الذى يتكامل فيه مع الثقافة فى مجموعها، دون أن يخجل من الحياة منفرداً ــ واحد بين كثيرين[27].

لقد امتلأت جميع المقاعد فى ليلة الافتتاح. وقد دعى الرئيس روزفلت وزوجته إديث زانجويل لمشاركتهما فى مقصورتهما مع سكرتير الرئيس ومستشاره المقرب وليم ليب (William Loeb) وأسرته. ومرّ الفصلان الأولان فى صمت يشوبه الاحترام. وعند نهاية الفصل الثالث، مع "الذروة القوية" الهائجة للجدال بين دافيد والبارون، قفز الجمهور كله واقفاً ومهللاً ــ مما تسبب فى سرور واكر هوايتسايد، لأنه كان قد انتصر على زانجويل أثناء القراءة والبروفات فى الصيف والخريف وفرض تجسيد ذكريات دافيد عن مأساة كيشينيف

المرعبة. وخلال الترحيب الحماسي، انحنى الرئيس وهمس في أذن إديث "من المؤكد أنني مفتون... 'إنني لست رجل برنارد شو ولا إبسن يا سيدة زانجويل. ولكن *هذا* هو ما يعجبني'". وتصاعدت صيحات "زانجويل! "حتى صعد المؤلف إلى المسرح أمام الستارة لآخر تحية مع الممثلين. وصاح روزفلت "إن هذه مسرحية *عظيمة* يا سيد زانجويل، مسرحية عظيمة!" وتساءل زانجويل عما إذا كان الرئيس يسمح بإهداء أول طبعة إليه، ووافق روزفلت. وجاء في صفحة الإهداء "إلى تيودور روزفلت، اعترافاً ممزوجاً بالاحترام بكفاحه المرير ضد القوى التي تهدد بإغراق سفينة الجمهورية العظيمة التي تحمل البشرية ومستقبلها"[28].

واستمر عرض مسرحية *بوتقة الانصهار* في مسرح كامل العدد لباقي الأسبوع ثم انتقلت إلى بالتيمور، حيث بيعت جميع تذاكر العرض في المسرح الأكاديمي. وتبع ذلك عرض غير محدد المدة في دار أوبرا شيكاجو الكبرى، حيث "كانت 'البوتقة' تغلي بصورة طيبة،" كما جاء في تقرير جورج تايلر إلى السيدة زانجويل "[بعائد] يبلغ ما بين ستة آلاف إلى أحد عشر ألف دولار في الأسبوع. "وقد جاب عرض *بوتقة الانصهار* طوال ربيع عام ١٩٠٩ الوسط الغربي قبل الافتتاح في مسرح كوميديا برودواي في ٦ سبتمبر، حيث عرضت ١٣٦ مرة وصولاً إلى الربيع التالي ــ ثم انتقلت إلى بروفدنس، وبوسطن، وبافالو، وأماكن أخرى حتى منتصف عام ١٩١١. وقد احتفظ واكر هوايتسايد بدور دافيد طوال الوقت. وبعد توقف دام ثلاث سنوات، افتتحت المسرحية في لندن، من تمثيل هوايتسايد أيضاً. وفي ٣٠ مايو، عام ١٩١٥، عرض الفيلم السينمائي في ميدان السباق في نيويورك، وكان أول فيلم صامت لشركة أفلام كورت، مثل فيه هوايتسايد أول دور له على الشاشة[29].

لقد كان نجاح المسرحية غير محدود من ناحية الإيراد، ولكن رد الفعل المباشر كان متضارباً. فقد كان القادة اليهود والنقاد غير مرتاحين إلى ما اعتبروه رسالة خطيرة من دعوة زانجويل "للاستيعاب". وألقى الدكتور جودا ماجنس (Judah Magnes)، الحاخام المساعد في معبد إيمانو ــ إيل في نيويورك، موعظة جاء فيها أن "سيمفونية أمريكا" تتطلب من الجنسيات المختلفة" أن تحتفظ بشخصيتها المميزة". وحذر لويس ليفين (Louis Levin)، الصحفي من بالتيمور والناشط الاجتماعي من أن "الطراز الجديد من البشر" كما يراهم زانجويل ليس عليهم أن "يتخلصوا من مخلفات" كل ما كان يمثله الماضي[30].

ولكن التيار الغالب في المؤسسة النقدية الأمريكية كان مبتهجاً. فقد كانت المسرحية، بالنسبة لناقد الدراما بيرنز مانتل (Burns Mantle) في جريدة *شيكاجو تريبيون*، "عمل من

الأعمال العظيمة". وقال بيرسى هاموند (Percy Hammond) فى *نيويورك تريبيون* إنها كانت "مخلصة، ومن القلب، وتفيض بالإقناع". وكتب أوجستس توماس (Augustus Thomas)، المؤلف المسرحى البارز والذى أصبح رئيساً للمعهد القومى للفنون والآداب، قائلاً إن "السيد زانجويل [يمتلك] تعاطفاً إنسانياً عريضاً مع الإحسان والحب". وأوضح هولبروك جاكسون (Holbrook Jackson) محرر مجلة *نيو آج*، أنه " لم يحدث منذ شاهدنا مسرحية والت ويتمان *أوراق العشب* أن حصلنا على صورة ملهمة بهذا القدر لأمريكا"[31].

وقد هاجم النقاد الإنجليز *بوتقة الانصهار* فى عام ١٩١٤ على أنها "تافهة... وعبارات رومانسية فارغة". ورد زانجويل على الهجوم ووصفهم بأنهم "كسالى شهوانيون" فى "خاتمة" طبعة لندن. وقد احتفظ بآخر عبارات الشكر للأبطال المستتيرين الذين رحبوا بمسرحيته على أنها "رؤية للتقاليد الأمريكية" فى واشنطن، ومدينة نيويورك، وتتجه شمالاً وغرباً "إلى جميع أنحاء الولايات"[32].

عندما كتبت مسرحية *بوتقة الانصهار* كانت أمريكا تجيش بدفق ضخم متعدد الثقافات. ولو كان زانجويل قد نشر المسرحية قبل ستة وثلاثين سنة، لاتفق بدون شك مع تقييم مراقب أجنبى آخر، هو جونار ميردال (Gunnar Myrdal) (١٨٩٨-١٩٨٧)، عالم الاجتماع والاقتصاد السويدى، وعضو البرلمان الذى بحث "العقيدة الأمريكية" فى دراسته، *المعضلة الأمريكية* (١٩٤٤). لقد كان ميردال يرى أن هذه الأمة مستودع لخمس قيم رئيسية: الحرية، والمساواة، والفردية، والشعبية، وحرية العمل ــ بلد يستطيع أن يرجع للوراء فى ثقافته الفردية إلى البروتستانت الإنجليز من القرن السابع عشر. وفى رأى ميردال أن الأمريكيين الجدد عبارة عن شعب يعيد تشكيل نفسه فى بلد "دائم البحث عن روحه"، ويسيطر عليه الوعى الذاتى بأنه يمكن أن يكونوا أفضل. وبصرف النظر عن اختلاف أصوله، فإن هذه القوة الدافعة فى رأيه صفة مشتركة بينه[33].

وعلى العكس من ذلك، كان ميردال سيتفق مع زانجويل فى أن "الاستيعاب" لا يتطلب تضحية كاملة بالنفس. فمع الانغماس فى الطريقة الأمريكية للحياة، من الممكن، بل من الأفضل، الاحتفاظ بأوجه من ثقافة المرء الأصلية. إن بوتقة الانصهار ترياق رمزى للوباء الخاص بالثقافة الأصلية الذى ربط بين القرنين التاسع عشر والعشرين، مبيناً أن التحول يسير فى اتجاهين. فعندما يختار المهاجر أمريكا ويعترف بأن الرحلة والتوافق لن يكونا بغير

صعوبات، فإنه يغير البلد إلى الأفضل؛ وباستيعابها للمهاجر، تستطيع أمريكا بدورها أن تغيره إلى الأفضل[34].

كانت شركة كارنيجي قد تعاقدت أصلاً مع ميردال لدراسة موضــوع *مشــكلة الزنــوج والديمقراطية الحديثة*. وكان هذا العنوان الفرعي لكتابه يكشف عن الجانب السلبي في الوجــه الأمريكي الديناميكي الباعث على الاستقطاب الذي لم يتحدث زانجويل عنه. ورغم أن العقيـدة الأمريكية وضعت المساواة على قمة النظام، ورغم أن كل مواطن مسموح له نظريــاً بنفــس نقطة البداية على الطريق، فإن السود كانوا، على مدى ٢٥٠ عاماً، من العبيد، وقد عاشوا في القرن التالي ورزحوا تحت عبء قوانين جيم كراو (Jim Crow) (التي تسمح بالتفرقــة علــى أساس اللون). لقد تبين ميردال أن العنصرية تسبب "انشقاقاً يضعــف الشــخصية الأخلاقيــة الأمريكية". سوف نتحول الآن إلى رجل مثالي قرر أن يحاول إصلاح هذا الخلل الكبير[35].



كارتر وودسون

٩

الزنوج فى تاريخنا

لقد عمل كارتر وودسون بمثابرة، عاماً بعد عام، على الدعوة لتاريخ أمريكى جديد ينبذ فكرة أن الزنجى ليس له تاريخ أو أنه يجب أن يعامل بطريقة خاصة. ولم يكن هناك نصير أقوى منه لفكرة ضرورة تكامل تاريخ الولايات المتحدة تماماً. كما لم يكن له مثيل فى العمل من أجل الدعوة لتاريخ أمريكى جديد ـــ تاريخ أمريكى ديمقراطى، يتسم بالمساواة ـــ بالنسبة للمجموعات العرقية والجنسية.

ـــ جون هوب فرانكلين، "التاريخ الأمريكى الجديد"،
نجرو دايجست (فبراير ١٩٦٧).

لقد ولد كارتر جودوين وودسون فى ريف نيوكانتون، فى مقاطعة باكنجهام، بفيرجينيا فى ١٩ فبراير، ١٨٧٥، بعد التوقيع على إعلان تحرير العبيد باثنى عشرة سنة. وكان السابع بين تسعة أطفال لعبيد سابقين. وعندما كانت أمه، آن إليزا ريدل (Anne Eliza Riddle)، فى الحادية عشرة من عمرها، شهدت بيع أمها وأخويها الأصغر منها. أما والد كارتر، جيمس هنرى وودسون (James Henry Woodson) ، فقد هرب من سيده فى مقاطعة فلوفانا، بفيرجينيا، والتى تبعد خمسة وستين ميلاً شمال ريتشموند، بعد أن تلقى ضرباً وحشياً، وخدم فى جيش الاتحاد تحت قيادة جورج أرمسترونج كاستر (George Armstrong Custer). وبعد انتهاء الحرب، عمل جيمس فى حفر القنوات، وصناعة الأثاث، وصنع شباك صيد للأسماك، وعمل فى السكك الحديدية، وأخيراً تمكن من تجميع ما يكفى من المال لشراء مزرعة تبلغ مساحتها عشرة أفدنة على شاطئ نهر جيمس.

ولما كان الاخوة وودسون يقومون بالمساعدة فى أعمال الحقل منذ صغرهم، فلم يكن لديهم الوقت للانتظام فى الدراسة التى تستمر خمسة أشهر فى مدرسة الحى ذات الغرفة

الواحدة والتى يقوم بتدريسها أخوالهما، جون مورتون (John Morton) وجيمس بوكانان ريدل (James Buchanan Riddle). وكانت دروس الجغرافيا، والهجاء، والحساب، والتاريخ الأمريكى الأساسية التى تلقاها كارتر متفرقة وقصيرة. وكانت خبرته المبكرة فى القراءة بتشجيع من أخواله المتعلمين. وكان يتعرف على حروف الهجاء من كتاب العائلة المقدس، ثم ينطق الكلمات. وكان والد الغلام يعطيه نسخاً من الجرائد القديمة، وكان كارتر يقرأ بصوت مرتفع فى المساء لأبويه الأميين. وكان أكبر من سنه، ويحب الخلاء، ويسعد بالمشى حافياً للإمساك بالحشرات وصيد الأسماك. وكانت الأسرة فقيرة وفى حاجة إلى طعام. وفى أواخر الشتاء وأوائل الربيع، كان الأطفال غالباً يغادرون المائدة وهم جائعين ويتجولون فى الأحراش لانتزاع ثمار البرسيمون من الأشجار والعشب المر من المروج. وكان كارتر يأوى إلى الفراش مبكراً فى ليالى السبت حتى تتمكن أمه من غسل وكى مجموعته الوحيدة من الملابس ليكون نظيفاً ومرتباً فى مدرسة الأحد[1].

وعندما بدأت سكك حديد C&O فى مد خط لها من ثيرموند إلى دنلوب كريك فى مقاطعة فاييت، بغرب ولاية وست فيرجينيا فى أوائل التسعينيات من القرن التاسع عشر، أقنعه أخوه الأكبر روبرت بأن يتبعه عبر حدود الولاية للحصول على عمل أكثر عائداً. وبعد وقت قصير من العمل فى صفّ القضبان، وجدا عملاً فى منجم الفحم المزدهر فى نوتالبرج. وكانت مقاطعة باكنجهام، فى فيرجينيا، لا توجد بها مدارس ثانوية للسود، وعلى ذلك انتقلت بقية أسرة وودسون إلى هنتنجتون، فى وست فيرجينيا، فى ١٨٩٣، حيث التحق أصغر طفلين، سوزى (Susie) وبيسى (Bessie)، بمدرسة فريدريك دوجلاس الثانوية الجديدة[2].

وأثناء الاستراحة من نوبات العمل تحت الأرض، استمر كارتر فى القراءة، ويدرس بشجاعة أعمال شيشرون وفيرجيل. وبعد انتهاء نوبة العمل اليومية كان يتوجه إلى اجتماعات غير رسمية فى كوخ زميله المولود فى ريتشموند عامل المناجم أوليفر جونز (Oliver Jones) الذى يؤدى وظيفة المفوَّض. وفى مقابل القراءة بصوت مرتفع لزملاء العمل المتحمسين، من جرائد الزنوج اليومية، مجلة *ماونتنير وبيونير*، إلى جانب مجلات من أماكن بعيدة، تشمل *بتسبرج تلغراف*، *وتوليدو بليد*، *وسنسناتى كومرشيال جازيت*، كان جونز يقدم لكارتر الآيس كريم، والفواكه الطازجة، والبطيخ ليتناوله. وسريعاً ما انتقل من قراءة الأخبار اليومية إلى مقتطفات من "كتب مثيرة للاهتمام... تقدم المنجزات الهامة للزنوج". وكان كتاب *بلاك فالانكس* الذى أصدره جوزيف ت. ويلسون (Josheph T.

(Wilson (١٨٨٨) "يلقى الضوء على أعمال الرجولة النبيلة" للجنود الزنوج فى حرب الثورة، وحرب عام ١٨١٢، والحرب الأهلية. كما كـان كتـاب ولـيم ج. سـيمونز (William J.Simons)، وهو ابن عبد آبق، عن *الرجال الأعلام: البارزين، والتقدميين، والصاعدين* (١٨٨٧)، معجماً لتاريخ حياة ويضم ١٧٧ مادة، حاول فيها المؤلف وهـو قـس معمدانـى ورئيس المعهد العـادى واللاهوتى فـى لويزفيل، فى كنتاكى، "أن يبيـن للشـباب الذكـى المتطلع فى كل مكان أن الجنس الزنجى مازال حياً، ويجب أن يكون لديه المزيد من الحيويـة الفكرية أكثر من أى فئة أخرى من العائلة البشرية". وكانت حلقة القراءة لعمال المناجم مـن الزنوج نقطة تحول لكارتر وودسون وهو فى سن المراهقة، ومكاناً مرحباً به "ينـاقش فيـه تاريخ الجنس الزنجى كثيراً"، وقد تذكر بعد خمسة عقود "وقد ازداد اهتمامى بـالغوص فـى تاريخ قومى عمقاً وكثافة"[3].

وعندما بلغ كارتر سن العشرين، ترك المناجم للالتحاق بمدرسـة فريدريـك دوجـلاس الثانوية واحتل فيها مراكز متقدمة. وقد أكمل العمل فى عام ونصف، ثم انتقل إلى كلية بيريـا متعددة الأجناس والمختلطة فى كنتاكى، حيث أمضى ما يزيد قليلاً عن فصلاً دراسياً واحـداً قبل أن ينتقل بمساعدة منحة دراسية إلى جامعة لنكولن فى بنسلفانيا. وكانت هـذه المدرسـة، التى أنشئت عام ١٨٥٤ تحت اسم معهد أشمون، مخصصة لتوفير التعليم "للشباب الواعد مـن أصول أفريقية". ومن ١٨٩٨ إلى ١٩٠٠، درّس كارتر فى المدرسة الثانوية فى وينونا فـى وست فيرجينيا، قبل عودته إلى بيته منتصراً فى هنتنجتون ليصبح رئيساً لمدرسـته الثانويـة التى تخرج منها، حيث عمل بكفاءة على مدى ثلاث سنوات حصل خلالها علـى مقـررات بالمراسلة من جامعة شيكاجو حتى يستطيع التقدم لدرجة البكالوريا فى الآداب من كلية بيريـا، والتى حصل عليها فى يونيه ١٩٠٣. وفيما بعد فى ذلك الصيف، قبل طلبه المقدم إلى مكتـب التعليم فى جزر الفلبين التى كانت تحتلها الولايات المتحدة لتعليم الإنجليزية بمرتـب سـنوى قدره ألف ومائتى دولار. وفى ٢٠ نوفمبر استقل الباخرة كوريا SS من سـان فرانسيسـكو. وبعد رحلة استمرت ستة وخمسين ساعة بالباخرة من هونج كونج، وصل كارتر وودسون إلى مانيلا فى عيد ميلاده الثامن والعشرين "بصحبة ستة وعشرين مبشراً ليعملوا علـى اقتحـام المشرق"[4].

لقد عهد إلى وودسون أن يقيم ويدرس للفصـول الابتدائية فى البلـدة النائيـة سـان إيزيدرو فى مقاطعة نوفا إيسيجا، والمكونة من بيوت سقوفها من القش تحيط بها حقول قطـن

وتبغ خصـبة. وبعد ترقيته للإشـراف على مدارس فى بلدتىّ أجنو ويـانى فـى المقاطعـة المجاورة بانجاسينان، عمل فى تلقين وتدريب مدرسين جدد. ومما أثار دهشته أنه نظراً لعـدم وجود مادة مناسبة للمقرر، فإن الأطفال كانوا يضطرون إلى استعمال كتاب مدرسى أمريكـى شائع، *بالدوين الابتدائى*. وكـان الكتاب يفتتح برسـومات لتفاح أحـمر ودببة قطبية تلعـب فى الجليد، وأبيات شعرية وطنية بسيطة عن جورج واشنطن. وكانت هذه المراجـع الثقافيـة الأجنبية بالنسبة لوودسون "مثالاً صارخاً عن كيفية... عدم تعليم الناس". لاشك أنه كان مـن الأفضل أن يغنى الأطفال "تعالى نهزّ شجرة اللومبوى" ـ وهى شجرة شائعة ذات رائحة طيبة ودائمة الخضرة ولها ثمرة كثيرة العصارة، مثل البرقوق ـ عن أن ينشدوا أغنية "تعالى نـهز شجرة التفاح". كما أنه من المؤكد أن الأفضل للأطفال أن يدرسوا حياة خوزيه ريـزال (Jose Rizal) ـ البطل الثورى الفلبينى الشهيد، والطـبيب، والشاعر، ورسول الوطنية، الذى أعـدم فى سن الخامسة والثلاثين أمام فرقة الإعدام فى باجومبايان فى ١٨٩٦ ـ من دراسة مؤسـس بلد بعيد، هو جورج واشـنطن. وقد قال وودسـون محذراً "تمسـكوا بالحقـائق الصحيحـة للتاريخ كما هى، ولكن أكملوا مثل هذه المعلومات بدراسة تاريخ أجناس وشعوب تم تجاهلـها عمداً"[5].

وقد اضطر وودسون إلى ترك الفلبين فى أوائل ١٩٠٧، بسبب مشاكل مزمنة بـالمعدة. وقضى نصف عام يتسكع وهو فى طريق العودة إلى دياره غرباً ـ لتحقيق هـدف معيـن ـ وهو التوقف فى سنغافوره مستعمرة التاج لمستوطنات المضايق (على شبه جزيـرة الملايـو وملاصقة لها) وفى قرى فى الهند لدراسة نظم المدارس المحلية، ثم إلى مصر، وفلسـطين، واليونان، وإيطاليا. وبقى فى باريس عدة أشهر للدراسة فـى السـوربون وأصبـح يتحـدث الفرنسية بطلاقة، بالإضافة إلى الأسبانية التى تعلمها بجهده الشخصى. وبعد الحصول علـى مؤهل جديد من جامعة شيكاجو، أثناء إقامته هناك، أكمـل درجـة البكـالوريوس ودرجـة الماجستير فى نهاية صيف عام ١٩٠٨. وفى سبتمبر التحق بجامعة هارفرد كواحد من سـتة وثلاثين طالباً فى برنامج التاريخ لنيل درجة الدكتوراه[6].

وكان معلم وودسون الرئيسى فى هارفرد هو الأستاذ ماكلين (McLean) أستاذ التـاريخ القديم والحديث، والشخصية الشامخة إدوارد تشاننج (Edward Channing)، ابـن قسيس الكنيسة الموحدة الليبرالى والداعى لإلغاء الرق وليم إيلرى تشـاننج (William Ellery

(Channing). وكان إدوارد تشاننج، الأستاذ البارز فى هارفرد من عام ١٨٨٣ حتى تقاعده فى عام ١٩٢٩، "مؤرخاً علمياً"، يدعو إلى ضرورة التنقيب فى مواد المصادر الأولية دعماً لفضيلة الموضوعية. وكانت تحفته الفذة، *تاريخ الولايات المتحدة* قد نشرت فى ستة أجزاء على مدى عشرين عاماً من ١٩٠٥ إلى ١٩٢٥. وقد حصل الجزء الأخير، عن الحرب الأهلية، على جائزة بولتزر فى عام ١٩٢٦. وكان تشاننج، الذى يحظى بالاحترام فى هارفرد، يعبر عن قصر نظر شائع فى الاتجاه السائد فى الأوساط الأكاديمية الأمريكية. وقد أشار تشاننج، خلال حلقة دراسية عن الثورة الأمريكية، بصورة فكهة إلى كريسباس أتوكس (Crispus Attucks) ـــ البحار المولّد "الذى أسال أول دم" للحرب فى مذبحة بوسطن ـــ ساخراً بأن "الزنجى لا تاريخ له". وفى عبارة بين قوسين، رفض بعض الأعمال الكبرى مثل كتاب وليم ويلز براون (William Wells Brown) *الرجل الأسود: أسلافه، وعبقريته، وإنجازاته* (١٨٦٣) والمجلد الكلاسيكى من جزئين لجورج واشنطن وليامز *تاريخ الجنس الزنجى فى أمريكا من ١٦١٩ إلى ١٨٨٠* (١٨٨٢)، الذى كتبه المؤلف "ليس كإطراء أعمى، ولا اعتذار منحاز، ولكن حباً فى 'حقائق التاريخ'." ويبدو أن الأستاذ تشاننج كان قد نسى أيضاً "حفظ الأجناس" وهى محاضرة ألقاها أول أسود يحصل على درجة الدكتوراه من هارفرد، وهو و.إ.ب ديبوا (W.E.B. Du Bois)، فى كنيسة لنكولن التذكارية فى واشنطن فى حفل افتتاح أكاديمية الزنوج الأمريكية فى صباح يوم الجمعة، ٥ مارس، ١٨٩٧ ـــ أى بعد ١٢٧ عاماً من إعدام أتوكس أمام مبنى الجمارك فى شارع كنج. وقد قال ديبوا "إن من يتجاهل أو يحاول أن يتجاوز فكرة الأجناس فى تاريخ البشرية، إنما يتجاهل ويتجاوز محور التفكير فى التاريخ كله"[7].

وقد سارع ودسون بالرد على الأستاذ تشاننج قائلاً *لا يوجد قوم ليس لهم تاريخ*". وكان ودسون يعتقد أن التقاليد التاريخية للزنوج تمتلك قيمة جوهرية، "ترسانة من الحقائق" التى تحتاج للكشف عنها باعتبارها أكثر من مجرد "عمل دفاعى ضد... تشويهات العلماء". وبعد أن أكمل ودسون سنة فى المقرر التعليمى المطلوب فى هارفرد، شرع فى العمل لإثبات هذه القضية. وقد حصل على وظيفة للتدريس فى مدرسة للزنوج فى واشنطن العاصمة، حتى يكون قريباً من مكتبة الكونجرس ويبدأ البحث فى رسالته، "تمزق فيرجينيا"[8].

لقد انتقل ودسون إلى المنزل رقم ١٩٢٤ الذى يتم فيه تأجير الغرف فى إليفنث ستريت شمال غرب واشنطن، وهو يرتدى "ملابس بسيطة" ولا يكاد يملك من" النقود ما يكفى لقص

شــعره". وكانت الغرفــة المجاورة يشغلها شاب طموح آخر، علم نفسه بنفسه، هو لويس ر. ميلنجر (Louis R. Mehlinger) البالغ من العمر سبعة وعشرين عامــاً، ومــن مواطنــى دونالدسون فيل، فى لويزيانا، عن طريق مقاطعــة بوليفار، فى مسيسيبى، حيث كــان أبــوه يمتلك مخزناً زراعياً. وكان ميلنجر يحضر دروساً لنصف الوقت بالمدرسة التجارية، ويعمــل كناسخ على الآلة الكاتبــة مقابل ٦٦٠ دولار فى السنة فى وزارة الخزانة. وفى المساء كــان ميلنجر يكتب ما يمليه عليه وودسون أثناء عمله فى إعداد بحثه. وأصبح الاثنان صديقين مدى الحياة[9].

وبعد أداء مهمة محددة فى مدرسة تاديوس ستيفنز، استقر وودسون على مدى حوالــى عقد من الزمان لتدريس اللغة الفرنسية ــ وكانت قصص بلزاك الاجتماعية الواقعية هــى المفضلة لديه ــ والأسبانية، والإنجليزية، والتاريخ فى مدرسة شارع M "للطبقة الوســطى السوداء فى واشنطن"، والتى سميت فيما بعد مدرسة بول لورنس دنبار الثانويــة. وكــان وودسون، خلال فترة تغيير الحصص الدراسية، يقف أمام باب الفصــل جــامد الشــعور للإشراف على الطلبة العابرين. إنه لم يكن طويل القامة ــ حوالى خمسة أقــدام ــ ولكنــه قوى ومعتدل القامة، مع صدر قوى من السنوات العديدة التى أمضاها فى الأعمال الشــاقة. وكانت تعبيرات وجهه صارمة، وتكاد تكون كالحة، وأسلوبه مرعباً. وكان وودسون يميــل فى الفصل الدراسى للحديث بجمل كاملة بدون الرجوع إلى مواد مكتوبة. وكان شديداً مــع الطلبة، ويتوقع منهم أن يقدموا أفضل ما عندهم. وعندما كان مسئولاً عن حجــرة الــدرس والمطالعة، كان يستغل وقته للعمل فى مشروعاته البحثية، جالساً فى صرامة إلى مكتبه فى مقدمة الغرفة. ولكن سلوكه الجاد فى المناقشات الخاصة مع الشباب الذين يحبهم ويشجعهم، كان يتحول إلى عطف واضح، وقفشات مع لمعة فى عينيه، وفى بعض الأحيان، ضحكــات صاخبة[10].

وفى عام ١٩١١ تمنى تشارلز فيكتور رومان (Charles Victor Roman)، الحاصل على درجة الدكتوراه فى الطب، وأول خريج أسود لمعهد هاملتون فى أونتاريو وأحــد مؤسسى الجمعية الطبية الوطنية، "لو كان هناك مؤلف زنجى لتسجيل حياة رجالنــا ونســاءنا العظماء! إننى لا أقيد مجالات التعلم ولا أسلب الأطفال البيض الفخر بأصولهم؛ ولكن أود أن أعلّم الأطفال الزنوج الأعمال المجيدة للرجال والنساء الزنوج *أولاً!*

لقد استمع كارتر وودسون إلى هذه الكلمات واستوعبها. وأضـــاف محـــاضرة الدكتـــور رومان إلى مجموعته عن *المتحدثين الزنوج وأحاديثهم* (١٩٢٥). وقد حصل وودسون فى عام ١٩١٢ على درجة الدكتـــوراه من هارفرد. وسار على خطوات دبيوا، ودُعى للانضمـــــــام إلى أكاديمية الزنوج الأمريكية فى عام ١٩١٤، وقدم بحثاً عن "تعليم الزنوج قبل عام ١٨٦٠" فى الاجتماع السنوى فى ديسمبر من ذلك العام. وكان البحث مقدمة لأول كتب وودســـــون، *تعليم الزنوج قبل عام ١٨٦١*، الذى نشر فى أبريل التالى بمعرفة ج.ب بوتنام (G.P.Putnam) وأولاده، وأعلن المؤلف فى التمهيد "آمل فى إثارة اهتمام بعض العقول العظيمة الشابة فى هذا العمل الكبير"[11].

لقد سافر وودسون إلى شيكاجو فى أوائل خريف ١٩١٥ للقيام بأبحاث فـــــى جامعتـــها. وحصل على غرفة فى جمعية الشبان المسيحيين الجديدة فى ثيرتى إينث ســـــتريت وطريـــق واباش فى الجانب الجنوبى من المدينة. وفى مساء ٩ سبتمبر تقابل فـــــى مكتـــب الســـكرتير التنفيذى للجمعية، ألكسندر ل. جاكسون (Alexander L. Jackson)، وهو صديـــق قديـــم مـــن واشنطن؛ مع الجراح جورج كليفلاند هال (George Cleveland Hall)، رئيس مجلـــــس إدارة الجمعية ورئيس العاملين بمستشفى بروفدنت فى شيكاجو؛ وجيمس إ. ســـــتامبس (James E. Stamps)، المدير التنفيذى للتأمين ومؤسس المجلس الوطنـــى للخريجيـــن التـــابع للصنـــدوق الجامعى المتحد للزنوج؛ وكذلك مع و.ب. هارتجروف (W.P. Hartgrove)، العالم والمـــدرس. وقد اجتمعت مجموعة الخمسة "بهدف التفكير فى خطط محددة لتنظيم جمعية مكرسة لدراســـة الزنوج... ولمعالجة موضوع الأجناس علمياً، ونشر النتائج على العالم". وولدت *جمعية دراسة حياة وتاريخ الزنوج (ASNLH)*. وقال كارتر وودسون لأصدقائه "مع مرور الوقت لن يقـــــوم الإلهام الوارد فى هذه المطبوعات والمنشورات، بدور هام فى تغيير صورة الزنوج فحســـب، بل سيقوم بإيقاظ شبابنا للدراسة لتحقيق إنجازات، إننا لا نرغب فى أن ننســـخ مـــواد مثـــيرة للجدل". وقد كتب وودسون مبكراً، بروح من الاعتدال، لـــلأب جيســـى إ. مورلانـــد (Jesse E.Moorland)، أول أمين صندوق للجمعية، "يجب أن نتعامل مع الوضع العنصرى بعيداً عن العواطف"[12].

لقد فوّض المجلس التنفيذى "الأعزب المدبر والمقتصد" وودسون لتـــأجير مكتـــب فـــى واشنطن مقابل ١٣,٥ دولار فى الشهر وتعيين الآنسة أ. هـــ. سميث (A.H. Smith)، لتعمـــل موظفة مكتب نصف الوقت بمرتب يبدأ من ١٠ دولارات فى الأسبوع. وبدأ وودســـون فـــى

تخصيص ٤٠٠ دولار من مدخراته من وظيفته فى التدريس فى مدرسة شارع M لتمويل نشر أول عدد من مجلة *تاريخ الزنوج* فى أول يناير ١٩١٦، وذلك بدون تشاور مع المجلس مما سبب ضيقاً للمجلس. وكان موضوع العدد الأول من المجلة هو "عقل الزنجى... وما الذى يفكر فيه... وموقف الزنجى الحر". وقد تأثر و.إ.ب. دبيوا بصورة إيجابية. فعند مثول *المجلة* للطبع كان دبيوا قد نشر عملين كبيرين، *روح الناس السود* (١٩٠٣)، وهى مجموعة من المقالات تعرّف "خط اللون" على أنه المشكلة الرئيسية فى القرن العشرين، وكتاب *الزنوج* (١٩١٥) وهو "دراسة اجتماعية للشتات الأفريقى". وكان قد ساهم فى إنشاء "حركة نياجارا" و"الجمعية الوطنية لتقدم الملونين"، كما كان يحرر *الأزمة* (The Crisis): *سجل للأجناس السوداء*، وهى مجلة الجمعية. ومن هذه الفرصة المواتية، أثنى دبيوا على الدورية الجديدة وتنبأ "بمضاعفة قائمة المشتركين عشر مرات على الأقل خلال اثنى عشر شهراً القادمة"[13].

وقد وافق زملاء وودسون، بعد بعض التذمر بشأن المسؤولية المالية، على قبول فكرة أن *المجلة* سوف تصبح منبراً لفلسفة المحرر العنيد و "الذئب المتوحد"، ولم يكن أمامهم خيار إلا منحه حرية العمل. وقد استغل وودسون مراجعة كتاب *الزنوج فى الأدب والفن* للمؤلف بنجامين براولى (Benjamin Brawley)، الشاعر، ورجل الدين، وعميد كلية مورهاوس فى أتلانتا، للتعليق على الأهمية "الكبرى" للاعتراف بعبقرية الزنوج... فهناك بين الزنوج ثقافة متنامية يجب الاعتراف بها فى تفكير هذا البلد" كما ذكّر وودسون قرائه فى العديد من المناسبات. وقد جاء القبول على مضض من أوساط غير متوقعة. فقد كان الأستاذ تشاننج من جامعة هارفرد قد فكر ملياً فى هذا الأمر فى الجزء الخامس من *تاريخه*، الذى يتناول أول حركة لإلغاء الرق حتى عام ١٨٥٠. فقد سأل تشاننج تلميذه السابق بكل احترام "إذا كان لديك أى اقتراحات بشأن الحقائق أو معالجتها، فسأكون شاكراً جداً"[14].

وبحلول عام ١٩١٠، أى بعد ما يقرب من نصف قرن من الحرب الأهلية، كان ٩٠ فى المائة من جميع السود فى أمريكا مازالوا يعيشون فى الجنوب. وبدءاً من منتصف العقد الثانى من القرن، أخذوا يفرون من فشل محصول مزارع القطن، وضعف عائد زراعة الأرض المستأجرة، وانتهاك الحريات المدنية، وقوانين جيم كرو العقابية حسب التفرقة فى اللون،

والعنف العنصرى فى الجنوب الزراعى، بحثاً عن وظائف فى الصناعة و (ربما) حياة أفضل. وكمثال للوضع فى العديد من مدن الشمال السريعة الازدهار، تضاعف عدد السكان السود فى شيكاجو بحلول عام ١٩٢٠. وقد استغل وودسون اللحظة التاريخية التى حانت عند نهاية الحرب العالمية الأولى "عندما كانت هجرة السود فى ذروتها" وأصدر كتابه الهام الثانى *قرن من هجرة الزنوج* (١٩١٨)، متتبعاً جذور هذه الظاهرة قبل سنوات من الهجرة بعد الحرب الأهلية الأمريكية "لإعادة التعمير". وقد تفكّر وودسون فى لب "مشكلة الزنوج" وكتب عن "الآمال فى الحرية التى فسدت" فى الجنوب ـــ والضرورة الدائمة للانتقال حتى من الريف إلى المدن فى الجنوب. وقال إنه برغم القلاقل فى المدن بسبب البحث عن الوظائف والمساكن، "فقد جاء من هذه [الهجرة الكبرى] بعض الزنوج *النافعين* جداً"، وهو مثال آخر على نية وودسون للخروج بدلائل إيجابية لمستقبل الزنوج مأخوذة من الدروس القاسية، والظالمة لماضيه[15].

وفى عام ١٩١٩ ترك وودسون مدرسة شارع M وحصل على وظيفة ناظر لمدرسة أرمسترونج للتدريب اليدوى. وكان ذلك المبنى الضخم على طراز عصر النهضة، ويقع على شارعى فيرست و P فى شمال غرب واشنطن، قد تم تخصيصه فى كلمة احتفالية من بوكر ت. واشنطن (Booker T.Washington) فى يوم الافتتاح، فى عام ١٩٠٢، كأول مدرسة ثانوية فى المدينة للسود. وفى الخريف التالى تم تعيين وودسون عميداً لمدرسة الفن الحر ورئيس هيئة التدريس فى جامعة هوارد. وقبل وصوله بعدة سنوات، كان الأساتذة الممتازون ألان لوك (Alain Locke) فى الفلسفة، وكيلى ميلر (Kelly Miller) فى علم الاجتماع، وتشارلز هـ. وزلى (Charles H.Wesley) فى التاريخ إلى جانب جيسى إ. مورلاند عضو مجلس أمناء هوارد وجمعية دراسة حياة وتاريخ الزنوج، يلحون فى وضع مقرر رسمى للدراسات الزنجية. وكان أول مقرر فى هذا الموضوع فى كلية هوارد للفنون والعلوم ينظمه مجلس الأمناء مقدم من كارتر وودسون عندما درّس مقرر ماجستير فى الآداب على مدى فترتين دراسيتين عن تاريخ الزنوج لخمسة من الطلبة استعداداً للعمل كمدرسين[16].

وقد وجه سؤالاً للطلبة فى أول يوم، بعد أن حذرهم من أن أى طالب لا يحصل على متوسط تقدير "جيد" سوف يترك الدراسة، "لماذا ندرس تاريخ الزنوج؟" وقد بدأ وودسون بتتبع تطور الكلمة الإغريقية، *historia*، وهى تعنى "البحث للوصول للحقيقة". وأخبر الطلبة أنهم بحاجة لتوسيع مفهومهم عن التاريخ إلى ما وراء السجلات السياسية والعسكرية ليشمل

"الظروف الاجتماعية للمرحلة قيد الدراسة"، للعثور على "الخيوط المستمرة التي تربط" الأحداث، والأماكن، والتواريخ، لأنه إن لم يكن هناك تاريخ مسجل لأحد الأجناس، فسوف يصبح هذا الجنس عاملاً لا يذكر في فكر العالم". وقد أظهر وودسون مدى اتساع معرفته و"رومانسيتها وطابعها الحريف" في محاضرة هامة في نهاية الفصل الأخير، بقراءة مقتطفات من عمل فريدريكا بريمر (Frederika Bremer)، الروائية السويدية والنشطة الاجتماعية التي سافرت في جميع أنحاء الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر. وقد سجلت زيارتها في كتاب بعنوان *مساكن العالم الجديد: انطباعات عن أمريكا* (١٨٥٣)، لاحظت فيه أن "رواية التاريخ الأمريكي هي مصير الزنوج"[17].

وقد انتهت السنة التي أمضاها وودسون في هوارد بصورة فظة بسبب خلاف مع رئيسها ج. ستانلي دوركي (J.Stanley Durkee). وانتقل مرة أخرى ليصبح عميداً لمعهد وست فيرجينيا لطلاب الكليات والواقعة خارج مدينة تشارلزتون. وقد نجح وودسون في إعادة تشكيل المقرر في المعهد مع الاستمرار في وضع برامج لجمعية حياة وتاريخ الزنوج. وقد أنشأ كياناً عملياً له علاقة بنشاطه يسمى "الناشرين المتحدين"، وهي شركة خاصة كان له ٩٠ في المائة من أسهمها. وقد أتاحت له هذه المؤسسة الفرصة لنشر مزيد من الكتب لعلماء من الزنوج إلى جانب "ما كان الآخرون يسمحون بنشره". وكان ذلك يشمل دراسته عن *تاريخ الكنيسة الزنجية*، ذلك الجهد "الرائد"، "النفسي والجغرافي" في مسعى "لتتبع ظهور وانتشار المسيحية المؤسسية بين الزنوج الأمريكيين". وأخبر وودسون الجمهور المتحمس في معهد هامبتون في فيرجينيا في ١٩٢١ "أننا سنعود إلى ذلك التاريخ الجميل الذي سوف يلهمنا العمل لتحقيق إنجازات أكبر. ولن يمضي وقت طويل قبل أن نستطيع أن نتغنى بالقصة للعالم الخارجي لإقناعه بقيمة تاريخنا".

وقد جاء الدعم الخيري لعمله الذي لا يهدأ في النهاية من المنح الكبيرة لسنوات متعددة من شركة كارنيجي والصندوق التذكاري للورا سبلمان روكفلر. وكانت المنح كافية للسماح لوودسون بالتقاعد من التدريس وهو في سن السابعة والأربعين والعودة إلى واشنطن. وقد كان وودسون في تقدير و.إ.ب. ديبوا الذي يدعو للاحترام على استعداد "لربط الحزام، والتخلي عن العديد من الأشياء التي يتطلع إليها رجل في مثل سنه... ليختار عمل حياته، ولا يتزحزح عنه مطلقاً"[18].

وفى سبتمبر ١٩٢٢ وجد وودسون مقراً دائماً لجمعية دراسة حياة وتاريخ الزنوج، وهو منزل من ثلاثة طوابق مبنى على الطراز الفكتورى لثمانينيات القرن ١٩ فى رقم ١٥٣٨ نينث ستريت فى وسط حى شو فى شمال غرب واشنطن. ودفع مقدم ١٠ دولارات من ثمن الشراء ويبلغ ٢٧٥٠ دولاراً. وفى ٢٤ نوفمبر، ٢٠٠٣، أقر مجلس الشيوخ الأمريكى قانون اعتبار منزل كارتر ج. وودسون كمقر تاريخى قومى (H.R. ١٠١٢)، والذى تبنته النائبة إليانور هولمز نورتون (Eleanor Holmes Norton)، وجعل المبنى، وثلاثة مبانى مجاورة، مكاناً تاريخياً قومياً فى العاصمة. وخططت إدارة المنتزهات الوطنية لتجديد المنزل، الذى كان مهدداً وفى حاجة ماسة للترميم والذى كان خالياً منذ السبعينيات من القرن العشرين وحولته إلى متحف تعليمى، ومركزاً للزائرين ومقراً إدارياً لجمعية دراسة حياة وتاريخ الأمريكيين الأفارقة[19].

وقد أقام وودسون فى الشقة المكونة من غرفتين فى الطابق الثالث وأخذ بأسلوب للحياة يتسم بالبساطة والاقتصاد والبعد عن الترف، وهذا الأسلوب لم يتغير إلا قليلاً خلال الثمانية والعشرين عاماً التالية من حياته. وكان يعتقد أن "خادم الناس [يجب] أن يعيش بينهم، ويعيش مثل حياتهم، ويفعل ما يفعلون... ويجب أن يكون أكثر تواضعاً من الذين يخدمهم". وعلى تلك البساطة، كان وودسون يستيقظ مبكراً، ويرتدى الحلة وربطة العنق، ويعد إفطاراً من عصير الفاكهة الطازج يشربه وهو جالس إلى منضدة مطلية بالمينا البيضاء فى المطبخ. وفى تمام الساعة التاسعة، ينزل فوراً إلى المكتب فى الطابق الثانى، متوقعاً أن يجد مساعده مستعداً ومنتظراً. وكان الشاعر لانجستون هيوز (Langston Hughes) عندما وصل إلى واشنطن فى سن الثالثة والعشرين "بعد عودته من أوروبا وهو مفعم بالنشاط ومفلس تماماً" ليعيش مع أمه العاطلة، يعانى من محاولات غير ناجحة للعمل فى مغسلة للتنظيف الجاف وحانة للمحار قبل أن يلتحق بالعمل لدى كارتر وودسون فى عام ١٩٢٥. وكان رئيسه صريحاً ولا يحب الكلام التافه. ولم يكن يحيى الشاب اللطيف بأكثر من "صباح الخير". وكان هيوز يكنس وينظف المكتب "البالى"، ويلف الكتب والمجلات قبل شحنها، ويقرأ تجارب صفحات *الجورنال*، و"فى المساء يطفئ الموقد" فى الدور السفلى، الذى كان يستخدم كمخزن لمنشورات الجمعية. وكان عمله الأساسى فى السكرتارية هو الترتيب الأبجدى لما يزيد على ثلاثين ألف اسم لتضمينها فى مشروع وودسون الضخم، تجميع *لرؤساء عائلات الزنوج الأحرار فى الولايات المتحدة فى عام* ١٨٣٠. وبعد عدة أشهر من إجهاد شديد فى عينيه، "وبرغم [أنه] كان يعرف

أهمية مساهمة دكتور وودسون للزنوج ولأمريكا"، التحق هيوز للعمل مساعداً للنادل في فندق واردمان بارك في طريق كونتيكيت. وفي مستهل عام ١٩٢٦، نشر أول كتاب شعر للانجستون هيوز، *الأغاني المُتعَبة* ــ "يتغنى بنغمة ناعسة، يتأرجح جيئة وذهاباً مع غناء لطيف، /استمعت إلى زنجي وهو يعزف" ــ بمعرفة ألفريد أ.نوبف (Alfred A. Knopf) في مدينة نيويورك[20].

وبعد قضاء الصباح في مكاتبات للحصول على موارد مالية مع إملاء بدون انقطاع وهو يسير جيئة وذهاباً حول المكتب، ويداه متشابكتان خلف ظهره، كان وودسون يتناول بضع حبات من العنب للغذاء، ثم يعود للعمل. وكان يمنح نفسه استراحة بعد الظهر، إذا كان الجو لطيفاً، ويجلس في الخارج في الشرفة في الشمس ويضحك مع أطفال الجيران الذين يتوقفون عنده في طريق عودتهم من المدرسة. وكان، بعد ذلك، يسير متمهلاً ليسلم طرود اليوم لمكتب البريد. وكان وودسون يتردد على أحد مكانين لتناول العشاء في واشنطن التي يمارس فيها التمييز العنصري: محطة قطار يونيون، حيث كان يسمح للزنوج بالدخول، أو، الأفضل، مقهى فيليس ويتلي للنساء، على ناصية نينث ستريت عند طريق رود أيلاند. وقد كان هذا المبنى الذي أقيم في عام ١٩٢٠، ونظمه أعضاء نادي محبي الكتب، وأخذ اسمه من أول شاعر أسود تنشر أشعاره في أمريكا، أول مقر لجمعية الشابات المسيحيات (YWCA). وبعد العشاء، كان وودسون السيد المهذب الكامل ــ الذي لا يشرب الخمر ولا يدخن التبغ ــ "يتخلف في البهو أثناء المساء، ويجلس ويتحدث مع صغار السيدات اللاتي يبقين هناك... [للاستمتاع] بمناقشاته الثرية والمسلية". ويعود إلى بيته في وقت مناسب لوجبة تعكس الحنين للوطن مكونة من عيش الذرة والقشدة ثم يأوي إلى الفراش[21].

ولما كان يملك طاقة غير عادية ويعيش الآن متفرغاً "للقضية"، كما كان يطلق عليها، فقد تمكن كارتر وودسون خلال العقد الأول من التفرغ الكامل للعمل بالجمعية، وإلى جانب كتاب *رؤساء عائلات الزنوج الأحرار*، وبالتعاون مع الناشرين المتحدين من إصدار: *ملاك العبيد من الزنوج الأحرار في الولايات المتحدة في ١٨٣٠: إلى جانب الملاك الغائبين للعبيد في الولايات المتحدة في ١٨٣٠؛ وخطباء الزنوج وخطبهم؛ عقلية الزنوج كما تعكسها خطابات كتبت خلال الأزمة (١٨٠٠-١٨٦٠)؛ وصانعي التاريخ من الزنوج؛ والأساطير الأفريقية: إلى جانب الأمثال؛ الزنوج كرجال أعمال* (مع جون هـ. هارمون الابن John H. Harmon Jr. وأرنت ج. لندساي Arnett G. Lindsay، تلميذه النابه في العام الدراسي ١٩١٩-١٩٢٠ في

هوارد)؛ *والزنوج الأجراء* (مع مريد آخر هو لورانزو جرين (Lorenzo Greene))، *والزنوج الريفيين*.

وفى عام ١٩٣٣ تظهر مجادلة وودسون التى حظيت بشعبية جارفة، *سوء تعليم الزنوج*. وكانت وجهة نظر الكتاب من بدايته إلى نهايته متسقة تماماً. وكان وودسون يجادل بأن جميع أشكال التعليم الأمريكية ــ من المدارس العادية إلى مدارس اللاهوت ومدارس إدارة الأعمال إلى مدارس الصحافة ومدارس التجارة ــ كان الزنجي يمطرونه فيها بوابل من الرسائل المتضاربة. فهو، من جهة، جزء من الأمة الأمريكية ولكنه من جهة أخرى أُمر بدوام تذكر "أن يلزم حدوده". وكان الزنجى المتعلم "تعليماً عالياً" موضع عطف، ومودة بنية حسنة، وأعمال التبشير. والواقع أنه لم يتعلم ولن يتعلم ــ إلا إذا، وفقط إلا إذا، استرد اتصاله بجماهير شعبه، وتفاخر بالتقاليد التاريخية التى يتقاسمونها، والأهم من ذلك أن يملك زمام اتجاه تفكيره. ومازال كتاب *سوء تعليم الزنوج* يطبع فى القرن الحادى والعشرين وباع ما يزيد على الأربعمائة ألف نسخة على مدى سبعين عاماً، ويحتل بصورة منتظمة قمة أكثر الكتب ورقية الغلاف مبيعاً فى قائمة *مجلة إيسنس*، أو قريباً من القمة[22].

ومن فيض كتبه الجوهرية، والشاملة (وفى بعض الأحيان، التى تشق طريقها بصعوبة) يمتاز كتاب *الزنوج فى تاريخنا* (١٩٢٢) بأنه يؤكد التزام وودسون بتصحيح "التشويه الثنائى المتوحش للرواية الأمريكية". ويمثل الكتاب محاولة وودسون المنتظمة، مستخدماً الطريقة العلمية القوية "لزنجى متدرب علمياً"، لمهاجمة الحط من قدر" الجنس الزنجي واستبعادهم إلى حد كبير من أعمال المؤرخين التقدميين من أمثال فريدريك جاكسون تيرنر (Frederick Jackson Turner)، وف.ل. بارنجتون (V.L. Parrington)، وتشارلز ومارى بيرد. ويصف جون هوب فرانكلين (John Hope Franklin)، أكبر رجل دولة من المؤرخين الأمريكيين السود ومؤلف كتاب *من الرق إلى الحرية*، وودسون بأنه "الشخصية الغالبة"، ويصف كتاب *الزنوج فى تاريخنا* بأنه حامل اللواء، وأهم مرجع "للجيل الثانى من المؤرخين الزنوج" ــ الذين يستحقون خلافة جورج واشنطن وليامز فى ١٨٨٢ وبوكر ت. واشنطن فى ١٩٠٩[23].

وكان مساعد وودسون فى البحث لكتاب *الزنوج فى تاريخنا*، هو ألروثيوس أمبوش تيلور (Alrutheus Ambush Taylor)، الحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد

مع خبرة واسعة بفترة التعمير. وكان عنوان وظيفته "باحث مساعد". وقد لاحظ تيلور أن منهج أستاذه يتجنب المواجهة. ولما كان وودسون مصمماً على تقديم رواية قوية كأساس لكتابه الدراسى الذى يقع فى ٥٢٥ صفحة ويباع بسعر ٣,١٥ دولار وموجه "للقارئ المتوسط فى الجامعة"، فإنه قال إن تحسين أحوال الجنس الزنجى لا يتم عن طريق "الدعاية أو الإثارة الداعية للشقاق". وفى مقال، "بعض الأشياء التى يجب على الزنوج أن يعملوها" ("... إذا أرادوا أن يستمتعوا بنعم الديمقراطية الحقيقية، إذا قدر لها أن تأتى") والذى نشر فى مجلة *العامل الجنوبى* قبل أقل من شهرين من نشر الطبعة الأولى من كتاب *الزنوج فى تاريخنا*، بيّن وودسون أنه برغم من أنه لم يعد يقف فى قاعات الدراسة كل يوم، فإنه مازال معلماً متخصصاً. وقال "يجب أن يكون لدينا استقلال تعليمى، لأن الرجل يتعلم عندما يستطيع أن يعمل بدون معلم، وعندما يستطيع أن يتعلم ويتطور وينمو بدون حفز من التعليم... فأنت ستقرأ تاريخ أفريقيا، تاريخ أجدادنا ــ قوم يجب أن تكون فخوراً بهم"، واستمر مخاطباً الجيل الجديد مباشرة ويوجه المسيرة إلى فصول الكتاب الافتتاحية.

وقد كتب مراجع مبكر متحمس فى مجلة *أمريكا* "إنها قصة رائعة، فمن الواجب عليك أن تعود إلى العالم القديم لتستعيد تأثير الملكة المصرية نفرتارى (Nefertari)، وعروشها المصنوعة من العاج، وجلود الفهد... أو الشاعر الزنجى نُصيب (Nossayeb) من دمشق... فجميع أنواع المغامرات تجدها هناك". وقد أثنت مجلة *المرجع التاريخى الأمريكى* وقالت إنه "قيم جداً" كما أقرت مجلة *مسيسيبى فالى هستوريكال ريفيو* على استخدام وودسون "لمبادئ البحث التاريخى التى تحافظ على الدقة، والتناسب، وإصدار الحكم السليم"[24].

ويستكشف الكتاب، بأسلوب وودسون المتأنى والمنتظم، "الأصل الأفريقى غير المعروف [حتى الآن]" للزنجى، مع وصف توضيحى للطقوس والطرق المركبة المميزة للحياة القبلية، كاشفاً تغلغل الثقافات الأخرى المتقنة داخل القارة الشاسعة وما وراءها. ويتم تصوير الزنجى منذ بداية الكتاب كجنس أصيل مبدع مؤثر، مقوضاً بذلك أساس التقليد المتعارف عليه فى أمريكا التى تتحدث عن خضوعه واستسلامه. وتوسع وودسون فى مناقشة شيوع الرق فى الأزمنة الاستعمارية، و"للممر الأوسط" للرحلة الطويلة التى أحضرت شحنات العبيد من غرب أفريقيا إلى أمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، والكاريبى. ورفض خرافة "الزنجى الجاهل"، مبيناً فى كل صفحة تقريباً صور لأعضاء بارزين من الجنس الزنجى الذى يقدمه كجنس

متساوى من جميع الأوجه مع الممتازين من "الرجال الممثلين" للتاريخ فى تعبير إيمرسون. إن نزع الآدمية عن الزنوج عن طريق "المؤسسة الغربية للرق" قد تم التخلص منها تماماً بالإصرار المتكرر على تأكيد ميزاته الثابتة. وقد قدم وودسون الرق على أنه المحك الأخلاقى الذى تسبب فى نهاية الأمر فى "النزاع المسلح الذى لا يمكن السيطرة عليه" للحرب الأهلية. وكتب قائلاً "لقد أصبح الجنس الزنجى، فى ظل هذا النظام الاستغلالى، عنصراً لا يتعامل معه البيض معاملة رجل لرجل". وكان مبعث السخرية فى "النظام الاجتماعى الجديد" المفترض فى فترة التعمير بعد الحرب الأهلية، كما أكد وودسون فى مرارة، هو أنه تسبب فى "اختصار عاصف" وكارثى "لحقوق الزنوج" فى الجنوب المقاوم للإصلاح الإجتماعى[25].

لقد نشرت الطبعة الأولى ذات الألف نسخة، فى مارس ١٩٢٢، وكانت تحمل رسماً ملفتاً للنظر للغلاف لجيمس ليزنس ويلز (James Lesense Wells). وكان التقييم النقدى من زميل وودسون المحترم، الفيلسوف ألان ليروى لوك (Alain LeRoy Locke)، وهو عالم للثقافة العالمية المتعددة الصور والجامع المتحمس للفن الأفريقى، بمثابة نبوءة. كان لوك يشارك وودسون فى إعجابه بأسلوب ويلز الحديث بمضائه القوى والأصلى والمهيب. كما وافق وودسون على أن تعليم الزنوج يجب أن يستهدف أهدافاً "إيجابية وتعويضية... [وإذ] ذاك يكون السجل قد توازن فى نهاية الأمر"، وقد أنهى لوك نظرته النقدية المنطقية لكتاب *الزنوج فى تاريخنا* قائلاً "إن دور هذا الكتاب، باعتباره ركيزة للحركة جميعها سوف يصبح واضحاً، وعندئذ سوف نعترف بأنه ينتمى إلى الطبقة المختارة من الكتب التى أحدثت ثورة فكرية".

وبحلول نهاية شهر يونيه لعام ١٩٢٣، كان كتاب *الزنوج فى تاريخنا* قد اعتمد ككتاب دراسى فى أكثر من عشرين مدرسة وكلية، كما تم وضع كتاب يوميات *التاريخ الزنجى* فى مئات الكليات والمكتبات العامة. وقد تبع ذلك، أحد عشرة طبعة، لما يزيد على خمسين ألف نسخة. وجرى توسيع الكتاب بعد عام ١٩٥٠، نتيجة لجهود اثنين من المؤرخين، تشارلز هاريس ويزلى (Charles Harris Wesley)، أول رئيس لجامعة ويلبرفورس فى أوهايو وصديق وودسون منذ عام ١٩١٦، ورايفورد ويتنجهام لوجان (Rayford Whittingham Logan)، مؤلف كتاب *الزنوج فى الحياة والفكر الأمريكى: النظير، ١٨٧٧-١٩٠١*، ومساعد وودسون فى الأبحاث فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين. وفى

طبعاته الأخيرة اقترب كتاب *الزنوج فى تاريخنا* من تسعمائة صفحة وأصبح يشمل مساهمات من لورين هانسبرى (Lorraine Hansberry)، وجيمس بالدوين (James Baldwin)، ولـيروى جونز (LeRoi Jones) (قبل أن يصبح اسمه أميرى بركه)، وتراث تشريعات الحقوق المدنية لليندون جونسون[26].

لقد شعر وودسون بالسعادة وهو يقرر أن السنوات التى تحققت فيها القدرة على الوفاء بالالتزامات المالية فى أوائل العشرينيات من القرن العشرين كانت "أزهى السنوات فى تاريخ الجمعية". ولتوضيح هذا البيان، نجد أن إجمالى ميزانية التشغيل السنوية للجمعية لدراسة حياة وتاريخ الزنوج منذ ٣٠ يونيه ١٩٢٤، كانت ٢٠٦٥٣,٤٩ دولار، شاملة مرتب المدير التنفيذى البالغ ١٨٣٣,٣٥ دولار. ولما كان وودسون مدعوا إلى "أن يشجع مدرسة أو نادياً للقيام بالمزيد لدراسة حياة وتاريخ الزنوج" فقد وجد صعوبة فى المحافظة على روتين حياته الصارم. وكان "عمله الميدانى" فى الجنوب والغرب يهدف "إلى زيادة دخل الجمعية" عن طريق تشجيع قاعدة مجموعات الأصدقاء العاديين للتبرع بأموال متواضعة.

وقد وصلت به واحدة من هذه الرحلات إلى مدرسة ستانتون، التى أنشأها مكتب فريدمن (Freedmen) فى جاكسون فيل، بفلوريدا، كأول مدرسة للأطفال السود فى الولاية. وكان وودسون كعادته حسن الهندام فى حلة من التويد "ويتجول مثل ملاكم ماهر، لا يتعجل، ولا يتعثر، متحركاً بمهارة، وموجهاً ضرباته بإتقان"، وعندما كان يتحدث فى المدرج أمام المجموعة لعدة دقائق، لاحظ أن أحد الأطفال كان نائماً. وأشار وودسون إلى الغلام، ثائراً، وارتفع صوته وهو يقول، "أيقظوه، أيقظوا هذا النائم!" ثم استدار، متحدثاً للمستمعين، وصاح "إن *هذا* هو ما كنا نفعله على مدى عقود: *النوم*، ننام عن حقوقنا!" وكان التأثير "شديداً" جداً على طفل فى الصف السادس؛ بحيث لم ينس ذلك اليوم على الإطلاق. لقد التحق لورنس دنبار ريديك بجامعة فيسك وجامعة شيكاجو. ولاحظ، فى مقال بعنوان "تفسير جديد لتاريخ الزنوج" (١٩٣٧)، ضرورة "إيقاظ وتعليم" جنسه. وفى عام ١٩٣٨، وهو فى سن الثامنة والعشرين، خلف ريديك المدير الأسطورى أرثر ألفونسو شومبرج (Arthur Alfonso Schomburg) كمدير لقسم آداب وتاريخ والمنشورات الخاصة بالزنوج، فى مكتبة نيويورك العامة فى وان هاندرد ثيرتى فيفث ستريت[27].

وكانت الدعوة للإيقاظ والعمل أحد المثل العليا المفضلة لدى وودسون، وكثيراً ما عبّر عنها بطرق مختلفة ـــ فالزنجي المهمش فى "دائرته المنعزلة" يحتاج إلى أن "يستيقظ" ليفهم موقفه ويبذل جهداً شاقاً لتصحيحه بأن "يعمل لذاته" من أجل "الارتقاء" بذاته. وأشار، فى *سوء تعليم الزنوج* وهو يلمح إلى اليقظة الفكرية، إلى أنه "إذا استيقظ الزنجي فسيكون قادراً على أن يعمل ما يسمى بالمستحيل". وكثيراً ما كان وودسون يقتبس عبارات مطولة من زعيم حركة إلغاء الرق العظيم والخطيب المفوه فى حقوق الإنسان، فريدريك دوجلاس. وقد كتب دوجلاس فى عام ١٨٥٢ "من العبث أن نتحدث عن أننا رجال، إذا لم نقم بعمل الرجال". "يجب أن تكون لنا قيمة بالنسبة للمجتمع فى أقسام أخرى للصناعة غير أعمال الخدمة التى نستبعد عنها بسرعة. يجب أن نبين أننا نستطيع أن نعمل مثلهم". وهناك مبالغة فى تقدير تاريخ الثقافة المنتمى إلى أوروبا فى أمريكا، بينما يتم بخس قيمة التاريخ الأفريقى. ولكن وودسون كان على يقين أنه، بوعى قوى وثرى بتاريخ الزنوج، "يجب أن يتغير الاتجاه إلى أعلى"[28].

لم يكن تخصيص "أسبوع تاريخ الزنوج" نتاجاً مباشراً لنجاح كتاب *الزنوج فى تاريخنا* ولا لجولات وودسون لإلقاء خطب فى جميع أنحاء البلاد. لقد كانت الفكرة تتجمع فى ذهنه على مدى عدة سنوات. وفى فبراير ١٩٢٠، ألقى وودسون محاضرة فى قسم ناشفيل من أخوّة أوميجا بساى فاى (Omega Psi Phi fraternity)، التى أنشئت فى ١٩١١ فى جامعة هوارد. وقد شجع إخوانه أن يكونوا أكثر نشاطاً فى رفع الوعى بتاريخ وثقافة الزنوج. وعلى مدى ست سنوات وحتى عام ١٩٢٦، كان "أسبوع تاريخ وآداب الزنوج" يتم كبرنامج لأوميجا بساى فاى إلى أن قرر وودسون قيام جمعية حياة وتاريخ الزنوج بتنظيم هذا الأسبوع. وقد اختار الأسبوع الثانى من شهر فبراير ليتوافق مع يوم مولد كلاً من أبراهام لنكولن وفريدريك دوجلاس. وبعد عشر سنوات، وفى الاجتماع السنوى لجمعية حياة وتاريخ الزنوج، أخبر وودسون جون هوب فرانكلين البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً أنه "يتطلع إلى وقت لا يكون فيه من الضرورى تخصيص 'أسبوع' للدعوة للانتباه إلى مساهمات الزنوج، وأن تاريخ الأمريكيين الأفارقة سيصبح قريباً جزءاً متكاملاً مع التاريخ الأمريكى... وأن أسبوع تاريخ الزنوج سيفقد أهميته.... فما نريده"، كما قال وودسون، "ليس تاريخ أجناس أو شعوب مختارة، ولكن تاريخ العالم، بدون تحيز وطنى وكراهية الجنس والانحياز الدينى".

وعند الإعداد لافتتاح أسبوع تاريخ الزنوج، أرسل وودسون بالبريد نشرة من أربع صفحات "بيان رسالة" القاعدة الشعبية إلى الكنائس، والكليات، والمدارس، والمراكز الاجتماعية، ومجالس التعليم، والمكتبات، واتحادات العمال، والجمعيات الأدبية، لتشجيع عرض الكتب، وإلقاء المحاضرات، والحلقات الدراسية و"الأمثلة الأخرى الحية لإنجازات الزنوج... والحفاظ على سجلات الزنوج مثل الجرائد القديمة... والوصايا وغير ذلك"، كما كتب وودسون فى النشرة الإعلانية مشجعاً لاحترام الماضى الموثق. "اجعلوا المواطنين الممتازين فى مجتمعكم يوافقون... على أن يصل الاحتفال لجميع المجموعات. شجعوا راعى إبرشيتكم على توجيه رسالة يوم الأحد الذى يبدأ فيه الاحتفال. وخصصوا يوماً لصندوق الكتاب والصورة... وحثوا مكتبتكم العامة على شراء هذه الأشياء... شجعوا الدراسة الفعلية للزنوج فى نادى أو مدرسة ... إرووا لأطفالكم بطريقة ذكية فى المدارس والكنائس قصصاً مثيرة للاهتمام عن الزنوج الممتازين الذين حققوا أشياء تستحق الذكر". وقد تم التوسع فى النشرة لتصبح "طقماً" لمواجهة الطلبات التى تتلقاها الجمعية وتقوم بتوزيعها. ثم تطور هذا الطقم بدوره إلى إنشاء قسم للدراسات المحلية والتى قدمت الجمعية عن طريقه مقررات بالمراسلة إلى المدرسين، والباحثين الاجتماعيين، ورجال الدين، ورجال الأعمال الراغبين فى إثراء معلوماتهم عن تاريخ الزنوج. ويستطيع هؤلاء المهنيون أن يسجلوا أسماءهم للحصول على مجموعة المقررات التى يدرسها العلماء المشهورون وتشمل "مشكلة الأجناس"، و"الأنثروبولوجيا العامة"، و"تاريخ الاقتصاد الزنجى"، و"الزنوج فى الآداب الحديثة"[29].

كتب و.أ.ب ديبوا بحماس، فى الفصل الرائع بعنوان "دعاية التاريخ" الذى لخص فيه كتاب *إعادة بناء السود فى أمريكا* (١٩٣٥)، بحماس عن القمع الفاسد لذاكرة التاريخ الأمريكية وعن أهمية إعادة تقييم تاريخ السود، ولاسيما الفترة المظلمة بين نهاية الحرب الأهلية وبداية الحرب العالمية الأولى. وقد عبر عن تقديره لكارتر وودسون كقائد "للمدرسة الجديدة من المؤرخين" وذكر كتابىّ *الزنوج فى تاريخنا* و*خطباء الزنوج وخطبهم* "كعملين معياريين" فى "ببليوجرافيا" محددة للنصوص المقبولة. وبعد خمس سنوات استطرد ديبوا فى كتابه *غسق الفجر: مقال نحو سيرة ذاتية لمفهوم الجنس*، قائلاً إن اختراع "أسبوع تاريخ الزنوج" هو "أكبر إنجاز مفرد للحركة الفنية بين الزنوج". وأشار ديبوا، بعد وفاة وودسون بوقت قصير، إلى أن أسبوع تاريخ الزنوج هو "الإنجاز الأسمى لكارتر وودسون.... ولا أعرف شخصاً واحداً استطاع خلال حياته، وبدون مساعدة

من أحد، إقامة مثل هذا الاحتفال القومى". وأثناء احتفال الشعب الأمريكى بمرور قرنين على الاستقلال، تم، بأمر من الرئيس جيمى كارتر (Jimmy Carter)، تمديد "الأسبوع" ليشمل شهر فبراير كله، ونشأ "شهر تاريخ الزنوج"[30].

ولم يكن من قبيل المصادفة أن أسبوع تاريخ الزنوج قد ظهر فى ذروة نهضة هارلم ـــ التى كانت حركة خلاقة مزدهرة فى أدب، وموسيقى، وفنون أمريكا السوداء. وقد كتب ألان لوك فى عرضه الشامل للحركة فى مقدمة كتابه *الزنجى الجديد* (١٩٢٥) عن حياة الزنجى "الذى وجد روحاً جديدة... هناك متجدد لروح جنس يبدو بكل فخر ووعى منفرداً". لقد كان يتحدث عن معالم المشهد الثقافى الذى شكلته "التحولات فى الحياة الداخلية... لعقل وروح الزنوج". ولتمجيد المنجزات الفنية للسود كتب ألان لوك بحثه للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد تحت إشراف جوشيا رويس (Josiah Royce) (١٨٥٥–١٩١٦)، الفيلسوف الأمريكى المثالى الأول فى زمانه. وقد كتب رويس "إن التزلمنا الأدبى هو للنظام الأخلاقى، ويتخذ شكل الولاء للمجتمع الكبير من قبل جميع الأفراد". وكانت مشاعر لوك تعكس منهج كارتر وودسون فى كتابه الجديد *عقل الزنوج كما ينعكس فى خطابات كتبت أثناء الأزمة، ١٨٠٠–١٨٦٠*، والذى أكد فيه على "سيكولوجية الزنجى، التى يجب أخذها فى الاعتبار كعامل هام فى دراسة التاريخ... وفهم التاريخ". وقد قدم وودسون كمؤرخ وثائقى بيانات من الزنوج، رجالاً ونساء، لإرشاد الطلبة الحاليين نحو منظور أكثر عدلاً، مذكراً قرائه "بما كان الزنجى الحر [فى القرن التاسع عشر] يفكر فيه ويشعر به"[31].

وفى مؤتمر الجمعية الوطنية لتقدم الملونين الذى عقد فى يونيه ١٩٢٦ فى شيكاجو، أهدى جون هينز هولمز (John Haynes Holmes)، المصلح الاجتماعى النشط والقس فى كنيسة الموحدين وأحد المؤسسين الأصليين للجمعية فى ١٩٠٩، إلى كارتر وودسون أعلى وسام للمنظمة، ميدالية سبنجارن الذهبية. وفى ملاحظاته التمهيدية، لاحظ القس هولمز أن "عشية الذكرى الخمسين بعد المائة لتوقيع إعلان الاستقلال" لحظة مناسبة لتكريم الدكتور وودسون كأحد المحركين الرئيسيين فى "التحرر الروحى للزنجى الحديث". وقد احتفى هولمز بوودسون المتلقى الثانى عشر للميدالية ـــ الذى اقتفى أثر الخطوات الممتازة لآخرين، من بينهم جورج واشنطن كارفر (George Washington Carver)، وو.أ.ب ديبوا، وجيمس ولدون جونسون (James Weldon Johnson) وأرشيبالد جريمكى (Archibald Grimké)، الرئيس الثالث لأكاديمية الزنوج الأمريكية ـــ لأنه "عالم يعمل عاماً بعد عام فى عزلة معمله الهادئة،

بدون بحث عن شعبية، وغير مهتم بإعجاب الرجال، وغير مبال بأى مكافأة بخلاف الاستحسان من قلبه شخصياً وفرحة الاكتشاف والمعرفة الجديدة"[32].

وقد قاوم وودسون انضمام جمعية دراسة حياة وتاريخ الزنوج لتبعية مؤسسة للتعليم العالى، رافضاً اقتراحات من جامعة أتلانتا، ومعهد تاسكيجى، وجامعة هوارد، وتمسك بعناد بطريق الاستقلال. ولما كان وودسون يخشى من "الخيوط المرتبطة" بالمساعدات الخيرية المؤسسية، فقد حث الأفراد المانحين على استمرار عمل الجمعية. وقد أبعد بعض داعميه الأصليين وكما قال بأسلوبه اللاذع "'منتهكى' الزنوج"، وبحلول أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، كان الكثير من الدعم التأسيسى للجمعية قد تبخر. وقد رفض ابن العبيد وعامل المناجم السابق الذى تعلم فى هارفرد، واحتفظ باستقلاله، أن ينضم إلى أى حزب سياسى وكان ينتابه الشك فى برامج الإصلاح الاجتماعى للسود فى الخطة الجديدة (New Deal). ولكنه وافق على العمل كمستشار لمشروع إدارة تقدم الأعمال الذى امتد لمدة عامين لتصوير ومقابلة عبيد سابقين فى الجنوب. وقد نظم مع الجهود الرامية للوصول للمجتمعات المحلية، رحلات بحثية صيفية إلى أوروبا، وإصدار سلسلة منظمة من المنشورات بما فيها *الرجل المهنى الزنجى* (١٩٣٤)، *وإعادة رواية قصة الزنوج* (١٩٣٥)، *والأبطال والبطلات الأفريقيين* (١٩٣٩)، وطبعة من أعمال أخى أرشيبالد جريمكى الأصغر، فرانسيس جريمكى(Francis Grimké)، راعى كنيسة فيفتينث ستريت المشيخية فى واشنطن العاصمة على مدى ستين عاماً.

وقد حصل وودسون على درجة دكتوراه فخرية فى القانون من كلية ولاية وست فيرجينيا فى عام ١٩٤١، وبدأ بعد الحرب العالمية الثانية فى الاعتدال فى نظراته المتشددة. وفى عقد الإنتاج الغزير قبل وفاته فى ٣ أبريل ١٩٥٠، وهو فى سن الرابعة والسبعين، كتب أكثر من خمسين مقالاً فى *مجلة تاريخ الزنوج*، وأكثر من مائتى عرض للكتب *لصحيفة تاريخ الزنوج* الأثيرة لديه[33].

إن المثل العليا لكارتر وودسون ومنازعاته مستمرة فى ثقافتنا. وكان مثله الأعلى كمثقف شعبى أن يوضح قصة الشعب الأسود فى أمريكا. وكان نزاعه هو عن كيفية وضع قصة المحرومين فى الإطار الغالب لأمريكا البيضاء. وفى أوقات الشدة والغضب كان يقدم القصة بعبارات مؤلمة ومخيفة، شاكياً من أن الخط الفاصل قد شوهته قرون من التحامل والتحيز. أما

فى أوقات النجاح فقد كانت أبحاث وخطب وودسون تحث السود ــ ولاسيما الشباب ــ على أن يعملوا عملاً أفضل، وأن يعيشوا حياة أفضل، والأهم من ذلك أن *يفكروا* بطريقة أفضل. وكان وودسون يعرف أن المسألة العنصرية هى آخر عار وطنى لبلده، ولكنه لم يستسلم له أبداً. فلم يكن يخشى من وضع عبء الإجابة على أكتاف البيض إلى جانب السود. وقد قال مارتن لوثر كنج الابن "غيِّر السلوك وسيتبع ذلك تغيُّر القلب". وبعد ثمانين عاماً من نشر *الزنوج فى تاريخنا*، مازال الجانبان يبحثان عن الحل[34].



جورج س. مارشال

١٠

خطة مارشال

إن التساؤل عما إذا كانت الولايات المتحدة ستحقق، على مدى نصف القرن القادم، توازناً أكثر استقراراً وفاعلية بين مصالحها الذاتية وبين المبادئ الأدبية والأخلاقية الشاملة التي اعتنقتها تقليدياً، سوف يعتمد في النهاية على طبيعة الشعب الأمريكي.... لقد أظهر القدرة على الإلمام بالحقائق الأساسية لقيادة العالم مع الاحتفاظ بالحماس الأدبي الذي ترعرع خلال فترة العزلة والبراءة. ليس هناك شعب تقدمت به السن بهذه السرعة. إن الأمة مازالت في مرحلة تحول.

ــ روبرت إنديكوت أوزجود، Robert Endicott Osgood

المبادئ العليا والمصلحة الذاتية في علاقات أمريكا الخارجية (١٩٥٣)

إن الأمن القومي الحقيقي لا يتحقق بالقوة العسكرية فقط ــ رغم ضرورتها وإن كان يؤسف لها ــ ولكن باتخاذ إجراءات تقلل من عدد أعدائنا المحتملين، وتضيف إلى عدد وقوة أصدقائنا.

ــ هنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge)، مقدمة،

خطة مارشال، ١٩٤٧-١٩٥١ لتيودور أ. ويلسون (Theodore A. Wilson) (١٩٧٧)

كان رئيس الجمهورية على ثقة من أن وزير الخارجية الجديد الذي يحظى باحترام وشعبية سوف يلقى الخطاب الصحيح بالنبرة الصحيحة، التي تبعث على الاطمئنان في وقت القلق الوطني. وكان الوزير قد أفصح علناً في الأشهر الأخيرة عن قلقه من أن

الولايات المتحدة قد "تنزلق إلى حالة من الضعف غير المبالى" وتفشل فى حمل مسئولياتها الاقتصادية فى عالم دمرته الحرب. وقد أشار المؤرخون العسكريون إلى أن وزير الخارجية الممتاز، وهو جنرال عسكرى يحمل العديد من الأوسمة تم استدعاؤه من التقاعد من قبل قائده الأعلى المعجب به، يمتلك موهبة "رؤية الزمن كنهر متدفق"، ويطبق خبرة المعارك الحربية على المتطلبات السياسية للوقت الحاضر[1].

بدأ وزير الخارجية بصوته الرقيق الذى لا تتغير نبرته حديثه لمدة ثمانى دقائق عن ملاحظات سياسية غير متوقعة مسبقاً أمام مجموعة صامتة فى عصر يوم رائع من أيام الربيع قائلاً "أيها السادة، لست فى حاجة لأن أخبركم أن وضع العالم خطير جداً، وهذا أمر لابد أن يكون واضحاً لجميع المتمتعين بالذكاء. وأظن أن أحد الصعوبات هى أن المشكلة معقدة جداً إلى حد أن حجم الحقائق التى تقدمها الصحافة للناس تجعل من الصعب على رجل الشارع أن يصل إلى تقييم واضح للوضع.... ومن المنطقى أن تقوم الولايات المتحدة بكل ما تستطيع القيام به للمساعدة فى عودة الإنعاش الاقتصادى الطبيعى للعالم، والذى يستحيل بدونه أن يتحقق الاستقرار السياسى ولا السلام المؤكد... ويجب ألا يكون للأهواء والتحيزات السياسية دور فى هذا الجهد. فبالترحيب من جانب أمتنا بمواجهة المسئوليات الجسيمة التى وضعها التاريخ بوضوح على بلدنا، يمكن التغلب على الصعوبات الكبرى المرتقبة، بل سوف يتم التغلب عليها"[2].

كان رئيس الجمهورية هو هارى س. ترومان (Harry S. Truman). وكان المؤرخان هما ريتشارد نيوستاد (Richard Neustadt) وإرنست ر. مـاى (Ernest R. May). أما وزير الخارجية البالغ من العمر سبعة وستين عاماً فهو جورج مارشال، وهو من المحاربين القدامى فى حربين عالميتين. وكان حديثه فى هارفرد فى عصر يوم ٥ يونيه، ١٩٤٧، انطلاقاً "لبرنامج إنعاش أوروبا". وبعد ست سنوات، وفى ١٠ ديسمبر، ١٩٥٣، أصبح رجل الدولة كبير السن الذى ينكر ذاته أول جندى محترف يحصل على جائزة نوبل للسلام. وقد قبل مارشال الجائزة فى أوسلو بتواضعه المعهود، ليس لذاته ولكن "كممثل للشعب الأمريكى، الذى ساهمت جهوده وأمواله فى نجاح البرنامج". وقد قال هنرى لويس ستيمسون (Henry Lewis Stimson)، وزير دفاع الرئيس فرانكلين د. روزفلت (Franklin D. Roosevelt)، إن مارشال كان "أفضل جندى قابلته فى حياتى.... وفى وجوده يطوى الطموح خيمته"[3].

إن قصة النهاية فى رحلتنا عبر ثلاثة قرون تعكس المنظور الجغرافى. فقد تتبعنا أولاً

رحلة التجدد التى قام بها جون وينثروب بالاتجاه غرباً إلى شواطئ أجنبية. أمـا الآن فنحـن نتحول لمواجهة أوروبا، المحطمة عشية حرب مدمـرة، وشـتاء مريـر، وصيـف جـاف، ومحصول هزيل. لقد امتدت يد المساعدة الأمريكية إلى "أصدقائنا المرهقين" بـأكبر تحويـل تطوعى للموارد الاقتصادية فى التاريخ، ليس مجرد مليارات الدولارات كقروض للتنمية إلـى جانب منح لا ترد، ولكن لآلات ومواد خام وغذاء ــ ولاسيما الحبوب والوقـود ــ والفحـم بصفة خاصة. وجهت المعونة الأجنبية للمساعدة فى إعادة تشكيل العالم القديم علـى غـرار العالم الجديد. وقد كانت خطة مارشال مزيجاً قوياً فى منتصف القرن، ووضعت بذور حلـف الناتو والاتحاد الأوروبى، وربطت وعود الرخاء الاقتصادى بهدف توسـيع دائـرة النفـوذ الأمريكى ووقف تقدم الشيوعية السوفيتية.

لقد ولد جورج كاتلت مارشال فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٠، وكان أصغر ثلاثة أطفال للـورا برادفورد (Laura Bradford) وجورج س. مارشال الأب، وكلاهما من أوجستا فـى كنتاكى. وكانت ولادة جورج مارشال الابن فى منزل من الطوب مكون من طابقين فى طريق يونيونتاون، بمقاطعة فاييت فى بنسلفانيا، على بعد أربعين ميلاً جنوب شرق بتسبرج. وكـانت والدته وهى سيدة اجتماعية هادئة الطبع تعزف على البيانو وتغنى فى كل مسـاء، متمسـكة بتعاليم الكنيسة الأبرشية البروتستانتية. وكان والده صاحب مصنع يعمـل بـالفحم نـاجح، ومغرماً بالتاريخ المحلى والأنساب، قد غرس فى الغلام، الذى كان يلقَّب "صاحب الومضات الخاطفة" (Flicker)، اهتماماً صاحبه طوال حياته بالقنص وصيد الأسماك والبستنة.

ولم يتمكن جورج، بعد تعليم مبكر غير رسمى، من الالتحاق بكلية ويست بوينت وعلـى ذلك التحق بمعهد فيرجينيا العسكرى فى لكسنجتون. وقد ازدهر فـى أوضـاع الانضبـاط، وتخرج فى عام ١٩٠١ كأول الطلبة العسكريين بدرجة فى الهندسة المدنية. وفى العام التـالى تزوج من إليزابيث كارتر كولز (Elizabeth Carter Coles)؛ وأمضيا شهر العسل فـى فنـدق ويلارد الجديد فى واشنطن. وبعد أن أدى الخدمة فى مندورو بالفلبين، وفى منطقة أوكلاهوما، وفى فورت كلارك على الحدود بين تكساس والمكسيك، تخرج مارشال بمرتبة الشرف مـن مدرسة الفرسان فى فورت ليفنورث فى كانساس، وتمت ترقيته إلى ملازم أول فـى ١٩٠٧. وقد أثبت امتيازه، خلال العقد التالى، فى مناصب مختلفة فى أماكن متعددة من البلد، وعاد إلى الفلبين لمدة ثلاث سنوات، ثم ساعد فى خطة التعبئة للحرب. وقد أبحر على ظهر *تينادوريس*

في ١٤ يونيه، ١٩١٧، كقبطان ومساعد رئيس الأركان لقوة الحملة الأمريكية التى نزلت فى سانت نازير مع أول كتائب تخدم فى فرنسا. ولم يحصل مارشال على منصب قتالى لأنه كان يحظى بتقدير لنبوغه الاستراتيجى وخبرته اللوجستية. وقد تم الاحتفاظ به فى الفرقة الأولى وهيئة التخطيط فى مقر القيادة العامة طوال فترة الحرب، ثم انطوى تحت جناح جنرال الجيوش جون ج. بيرشنج (John J. Pershing) (بلاك جاك). وقد بقى مع بيرشنج مدة خمس سنوات كواحد من ثلاثة ضباط معاونين، وترقى إلى رتبة كولونيل، ثم أبحر إلى تيانتسين فى الصين، حيث خدم حتى صيف عام ١٩٢٧ مع كتيبة المشاة الخامسة عشرة، لحراسة خطوط السكك الحديدية لتموين بكين. وقد توفيت زوجته المحبوبة إليزابيث ("ليلى") فى ذلك الخريف. وخلال السنوات الخمس التالية، كان مارشال مساعد قائد مدرسة المشاة فى فورت بيننج، بولاية جورجيا. وخلال توليه هذا المنصب "مرّ به مائتان من جنرالات المستقبل كمدربين أو طلبة" وتأثروا بتأكيده على فضائل "الإيجاز والبساطة" فى القيادة. وكان يقول للرجال "ركزوا التفكير فى الضروريات. "ويؤكد على "توضيح الصعوبات الحقيقية، وتجنب الهراء، والتعقيدات والأشياء المملة".

وفى خريف عام ١٩٣٠، تزوج مارشال مرة أخرى. وكانت زوجته الجديدة كاثرين بويس توبر براون (Katherine Boyce Tupper Brown) أرملة لديها ثلاثة أطفال صغار. وتوجه إلى شيكاجو لتحديث وإصلاح الحرس الوطنى لإلينوى. وفى عام ١٩٣٦ أصبح جنرالاً وقائداً للكتيبة الخامسة من الفرقة الثالثة فى واشنطن. وفى ربيع عام ١٩٣٩، بعد أن أمضى أقل من عام فى قسم الخطط الحربية فى وزارة الدفاع، اختاره الرئيس روزفلت ليصبح الرئيس التالى لأركان جيش الولايات المتحدة. وأقسم اليمين فى الأول من سبتمبر ١٩٣٩، بعد ساعات من وصول أخبار غزو ألمانيا لبولندا إلى واشنطن[4].

وفى مواجهة تقاعس أولى من الكونجرس وتحفظ رئيس الجمهورية، كان مارشال يرى دوره غير الحزبى خلال العامين التاليين، كداعية للاستعداد: "إذا اشتعلت أوروبا، فيجب أن نرتب بيتنا"، كما قال فى شهادة تكررت ثمان وأربعين مرة أمام لجان مختلفة فى مجلس الشيوخ والنواب، وكان يرتدى ملابس مدنية بدلاً من الزى العسكرى، ويتحدث بصوت هادئ ومنطقى عن ضرورة وجود قوى عسكرية تتصف "بالكفاءة"، مع حرصه على عدم الإكثار من "التلويح بأعلام الحرب". وقد سمح لنفسه بالتخلى عن هدوئه فى مقابلات خاصة مع روزفلت، الذى كان يفضل فى البداية تقوية القوات البحرية والجوية أكثر من القوات البرّية.

وقد تمكن مارشال في النهاية من الارتفاع بميزانية الجيش وزيادة مستوى الأفراد سبع مرات حتى أصبح أكبر قوة عسكرية في التاريخ الأمريكي. وكانت ضغوط مارشال المستمرة تسير بالتوازي مع هجمات جيش هتلر بقوة ضد بريطانيا ثم تحوله شرقا ضد روسيا. وفي خريف عام ١٩٤١ كانت التوترات العالمية قد وصلت إلى مستوى غير مسبوق، فاقم منه عدم الاستقرار في الشرق الأقصى. وبتسارع زيادة القوة الأمريكية في الفلبين، تدهورت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة واليابان. وقدم روزفلت معونات مادية لبريطانيا وروسيا لاعتقاده الحذر بأنه ربما لايزال من الممكن تفادي "الحرب الشاملة". ثم جاء الهجوم على بيرل هاربر في صباح ٧ ديسمبر، ١٩٤١، ودخلت الولايات المتحدة الحرب[5].

كان مارشال راسخ الإيمان على نحو يبعث الثقة في المؤتمرات الاستراتيجية الكبرى للحرب العالمية الثانية ــ أركاديا، والدار البيضاء، وواشنطن، وكويبك، والقاهرة، ويالتا، وبوتسدام. وبرغم مهام منصبه التي تتطلب دوام التنقل، فإن مارشال كان دائم الإعلان بأنه "ليس دبلوماسيا"، مفضلا تقديم نفسه كمفكر صريح ومخطط عملي. وكانت كوابح وتوازنات الذهن المتوقد تختفي خلف قناع السلطة الذي يضعه عمدا القائد المتجهم الذي يصل إلى مكتبه في السابعة والنصف صباحا ويتوقع من هيئة أركانه أن يحذوا حذوه. وحتى عندما يكون منشغلا بمجادلات مع روزفلت وتشرشل وبتتبع المتطلبات دائمة التغير لأرض معركة عالمية شاسعة مع جبهات في المحيط الباسيفيكي، والبحر المتوسط، وشمال أفريقيا، وأوروبا، وروسيا، لم يتخل مارشال عن أولوية التحالف الإنجليزي الأمريكي، ولم يحد عن منهج "ألمانيا أولا"، داعيا إلى عبور إجهاضي للقنال الإنجليزي في فترة مبكرة من النزاع، قبل أكثر من عامين على "العملية الكبرى". وعندما حان ذلك اليوم الفاصل في ربيع ١٩٤٤، كان مارشال قد أصبح ــ في عيون الرئيس ــ وسيطا لا غنى عنه يربط الجهد الحربي كله معا. بل إن روزفلت كان على استعداد لترشيح مارشال "كرجل العام" في مجلة *تايم*، بصفته القائد الأعلى لقوات الحلفاء إذا طلب مارشال ذلك. وبرغم أن تشرشل، وستالين، وكل مجلس وزراء روزفلت، وحتى الجمهور الأمريكي كانوا يفترضون أن مارشال سوف يتحمل المسئولية الميدانية في مسرح العمليات الأوروبي، فإن الجنرال لم يكن مرتاح الضمير للتعبير عن رغبته التي طالما شعر بها. إنه لم يكن يريد أن "يحرج الرئيس بطريقة أو بأخرى" بتقديم مشاعره المهنية على مصلحة الوطن. فالقائد العام يجب "أن يتعامل مع هذا الأمر بحرية مطلقة.... سوف أذهب إلى أي مكان يريدني أن أذهب إليه"، كما قال مارشال بعد انتهى

عشرة سنة بدون أى إحساس بالمرارة.

وقد اعترف له روزفلت "إننى أشعر بعدم القدرة على النوم براحتى إذا كنت أنت خارج واشنطن"، وعيّن شخصاً أثيراً لدى مارشال، الجنرال دوايت د. أيزنهاور (Dwight D. Eisenhower) لذلك المنصب. وفى نهاية صيف ١٩٤٤، كانت فرنسا قد تحررت وترنحت قوى المحور. وقد استسلمت ألمانيا بدون قيد أو شرط بعد وفاة فرانكلين د. روزفلت بعدة أسابيع فى الربيع التالى. وقد عهدت إليانور روزفلت (Eleanor Roosevelt) إلى مارشال، أول جنرال فى الجيش يحمل خمسة نجوم وأقرب مستشارى زوجها فى النهاية، ليكون مسئولاً عن ترتيبات الجنازة والدفن فى هايد بارك. وقد أبدى مارشال اهتماماً متزايداً لوضع سياسة الاحتلال بعد الحرب ولآمال كبيرة فى إقامة منظمة جديدة، وهى الأمم المتحدة. وفى صيف ١٩٤٥، بعد أن كان عضواً فى لجنة الإشراف المشتركة على الدراسات الذرية من علماء بريطانيين وأمريكيين، انضم مارشال إلى الرئيس ترومان فى الموافقة غير المشروطة على استخدام القنابل فى هيروشيما وناجازاكى لتقصير أمد الحرب وإحداث خفض كبير فى الخسائر الأمريكية: "لقد أنذرناهم بالقنبلة [بإنذار نهائى رسمى]"، كما قال مارشال صراحة. "لم يختاروا تصديق ذلك الأمر. لقد كانوا فقط فى حاجة إلى إجراء صادم، وقد حصلوا عليه"[6].

وقد قال رئيس الأركان مارشال فى خطاب وداع التقاعد فى البنتاجون فى ٢٦ نوفمبر، ١٩٤٥، "أغلبكم يعرف مدى إختلاف أمريكا وحسن حظها بالمقارنة بباقى العالم. إن العالم الذى يضم شعوباً تشعر بالمعاناة، ينظر إلينا للقيام بمثل هذه القيادة". وكانت كارثة الحرب التى انتهت أخيراً ــ إلى جانب الصراع العالمى من ١٩١٤-١٩١٨ الذى كان مازال ماثلاً فى الأذهان ــ قد أقنعت مارشال بأن وقت العمل المنفرد قد انتهى. ويجب وضع المنظور الأخلاقى الأمريكى على ساحة العالم. "وإلى جانب المشكلة الكبرى للحفاظ على السلام يجب علينا أن نحل مشكلة الحاجة إلى الغذاء، والكساء، والفحم، والمساكن.... إنها مرتبطة جميعاً مع بعضها البعض". وكان ذلك اعتراف متعاطف بالمسئولية الدولية جاء من الرجل الذى ترأس أكبر حشد عسكرى على مر الزمن. "لا يمكن حل أى من هذه المشاكل على حدة"، كما قال مارشال، مؤكداً على أن التحرير يجب أن يتخذ شكلاً ملموساً إذا أريد كسر حلقات الكساد الاقتصادى الأوروبى والإحباط السياسى الذى شاع فى العقود الثلاثة الأخيرة[7].

ورغم أن كاثرين مارشال كانت تتطلع لتفرغ زوجها لحياته العائلية، فإن تقاعده لم يحدث. ففى اليوم التالى لاحتفال البنتاجون، تلقى اتصالاً من رئيس الجمهورية، والذى كان أكثر إعجاباً

به من روزفلت. وقد كتب هارى ترومان قائلاً، إنه قبل أن يقابل الجنرال، "كان يتساءل عما إذا كان 'العصر الحديث' يستطيع أن يقدم رجلاً عظيماً كهذا... وكلما تكررت رؤيتي وحديثي معه، ازددت اقتناعاً بأنه عظيم هذا العصر". "ومن المؤكد أننى سعيد الحظ بفوزى بصداقته ومساندته". وقد طلب من مارشال أن يذهب إلى الصين كمبعوث من الرئاسة بدرجة سفير من أجل وقف الحرب الأهلية المتزايدة بين حكومة الكومنتانج الوطنية والشيوعيين[8].

وفى خضم تقديم مارشال شهادته أمام جلسات الاستماع فى الكونجرس التى كانت تستمر طوال اليوم بشأن الهجوم على بيرل هاربر، فإنه لم يكن لديه وقت للإعداد للسفر. ومع ذلك فقد أجاب بأنه "غير منزعج ومصمم"، بنشاطه المعهود وكلماته القليلة. وقد تم التوصل إلى وقف أولى لإطلاق النار فى الصين، ولكنه لم يستمر طويلاً. وقد تم تمديد مدة مهمة مارشال عدة مرات؛ ولكنه فى ديسمبر ١٩٤٦، تولد لديه إحساس واضح بالإحباط نتيجة لاحتمال نشوب نزاع شامل، واستدعاه ترومان، الذى رشحه فى ٧ يناير ١٩٤٧، ليصبح وزيراً للخارجية. وفى نهاية ذلك اليوم وافقت على ذلك لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ برئاسة أرثر فاندنبرج (Arthur Vandenberg)، عضو الشيوخ الجمهورى المقدام عن ميشيجين. وبعد أسبوعين أقسم مارشال اليمين[9].

توقف القطار القادم من شيكاجو على محطة يونيون فى واشنطن. وخرج منه الجنرال وزوجته. وكان مارشال وهو واقف فى البرد الشديد العاصف يرتدى معطفاً من وبر الجمل. وكان كتفاه منحنيان قليلاً، وطوله أقل قليلاً من ستة أقدام، ويبدو فى صحة جيدة بعد أجازة قصيرة فى هاواى. وكانت عيناه زرقاوتين، وشعره الأبيض مصففاً. وقبل أن يتوجه إلى حفل أداء اليمين فى البيت الأبيض، ألقى بياناً قصيراً لحشد صاخب من المراسلين، للقضاء نهائياً على إشاعة معينة ــ جورج مارشال مرشح للرئاسة؟ وقال فى صوت خفيض متقطع أجبر سامعيه على الميل تجاهه "أظن أن هذا وقت مناسب لوقف التوقعات السياسية بالنسبة لى، فأنا أفترض أن منصب وزير الخارجية، وفى ظل الظروف الراهنة على الأقل، منصب غير سياسى وسوف أتصرف طبقاً لذلك. ولن أشارك فى أى أمور سياسية ولذلك لا يمكن التفكير فى ترشيحى لأى منصب سياسى"[10].

وكان أول عمل قام به مارشال كوزير للخارجية هو المرور بدون إخطار مسبق على مكتب وكيل وزارة الخارجية دين جودرهام أتشيسون (Dean Gooderham Acheson) وطلب

منه أن يبقى كرئيس لهيئة العاملين فى علاقة اتصال مباشر معه، وكتب أتشيسون، "سأحضر إليه عندما أريد أى مساعدة، وكانت نظرته تدل على أنه من الأفضل ألا يحدث ذلك كثيراً". كان أتشيسون رشيقاً وأنيقاً على نحو يخلو من الخطأ وله شاربان كبيران، تخرج من جروتون، وييل ومدرسة القانون فى هارفرد، وعمل سكرتيراً للقاضى لويس برانديس (Louis Brandeis) فى المحكمة العليا ثم أصبح شريكاً فى الشركة المحترمة كوفنجتون وبيرلنج، فى واشنطن قبل أن يلتحق بوزارة الخارجية فى ١٩٤١. وكان الرجلان قد عملا معاً بالفعل عن قرب من قبل. فعندما كان مارشال فى الصين، عمل أتشيسون كمساعد له، وأصبح الشخص الوحيد فى المقر الرئيسى الذى يعتمد عليه. وقد قال مارشال عند بداية علاقتهم الجديدة "أتوقع منك الصراحة التامة، وبخاصة فيما يتعلق بى. إننى ليس لدى مشاعر إلا تلك التى احتفظ بها للسيدة مارشال". وكان دين أتشيسون فى رأى صديقه وزميله السير أوليفر فرانكس (Oliver Franks)، السفير البريطانى فى واشنطن "نوعاً أمريكياً خالصاً من فصيلة نادرة... نصل من الصلب". وكباحث فى الظروف البشرية، كان الوجه المغاير المثالى لجورج مارشال[11].

وكان أول تحدى للسياسة الخارجية يواجهه مارشال هو "المشكلة البريطانية" متعددة الأوجه التى تعتبر من أعراض مرض أوروبا الشائع. كانت الإمبراطورية البريطانية تتفكك، واقتصادها "يبقبق" فى فوضى، والبطالة تتزايد، والمواصلات متهرئة، وقروض ما بعد الحرب تستهلك بمعدل سريع جداً. وفى ٢١ فبراير أخبرت وزارة الخارجية البريطانية الخارجية الأمريكية أن المملكة المتحدة لم تعد تستطيع تمويل وجود قوات الاحتلال الموجودة فى اليونان منذ الانسحاب الألمانى فى أكتوبر ١٩٤٤. وأن بريطانيا ستقوم، بنهاية الشهر التالى، بالانسحاب من تلك الأراضى المضطربة، حيث كانت حرب العصابات مستعرة بين جيش التحرير الشعبى الوطنى للشيوعيين المتمردين وحكومة الملكيين الحاكمة فى أثينا. وتساءلت *مجلة تايم* "هل الولايات المتحدة على استعداد لشغل مكان بريطانيا؟"[12]

كان مارشال قد علم بقرار بريطانيا قبل أن يلقى أول كلمة له كوزير للخارجية فى احتفال برنسيتون بالمئوية الثانية للجامعة فى يوم عيد ميلاد جورج واشنطن، ٢٢ فبراير ١٩٤٧. وكانت مشاعره المنذرة بالسوء التى عبر عنها فى لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ فى الأسبوع السابق، ترداداً لكلمة الوداع التى ألقاها فى البنتاجون عند نهاية الحرب. وقال مارشال للطلبة "لقد كانت سنوات الحرب حاسمة، وكانت كذلك بشكل مخيف فى بعض الأوقات، ونحن نعيش اليوم فى فترة أشد صعوبة. إن المشاكل مختلفة [الآن] ولكنها

ليست أقل أهمية بالنسبة للأمن القومى من المشاكل التى واجهناها خلال الأعمال الحربية.... إن هناك ميلاً طبيعياً للاسترخاء والعودة للأعمال المعتادة، والسياسة المعتادة، والمتع المعتادة"، وهو الطريق الخطأ. وقال، بشكل أثر فى المستمعين الشباب، إنه من المحتم أكثر من أى وقت مضى أن "يستخلص طلبة جميع الجامعات، والكليات، والمدارس الثانوية فى الولايات المتحدة" من التاريخ وعياً بالتزامات وضع وطنهم الجديد فى العالم ــ جغرافياً، ومالياً، وعسكرياً، وعلمياً. وقال مارشال "أعتقد أنه يجب من أجل أن تساهموا مساهمة كاملة فى الحياة التى تنتظركم، أن تعيشوا الماضى من جديد بحيث تعودون إلى الحاضر بمعتقدات وفهم عميقين عن تصرف هذه البلاد التى ضحت أجيال كثيرة بأرواحها من أجلها"[13].

كان أهم بند فى جدول أعمال مؤتمر موسكو لوزراء الخارجية، المقرر عقده فى منتصف شهر مارس، هو مستقبل ألمانيا وشرق أوروبا، حيث كان الجيش الروسى مازال يقيم منذ انتهاء الحرب، وهو ما كان يسبب قلق القوات الغربية المتحالفة الأخرى. وقد سافر مارشال لحضور المؤتمر فى صباح يوم ٥ مارس.

وفى نفس اليوم، كان عضو آخر موثوق به من مجموعته المقربة متجهاً فى الاتجاه المعاكس، لينأى بنفسه عن الجو الضاغط فى واشنطن فى مزرعة بالقرب من تكسون بولاية أريزونا، بهدف "إتاحة الفرصة لذهنه لاستعراض المشاكل الكبرى" التى تواجه البلاد ــ من زاوية مختلفة عن توجه أتشيسون. كان وليم ل. (ويل) كلايتون (William L. "Will" Clayton) قد ولد فى مسيسيبى وتوقف عن الدراسة فى المدرسة الثانوية، وكان خبيراً فى مضاربات القطن ومليونيراً عصامياً يمثل فى نهاية الحرب العالمية الأولى الديمقراطى "المتواضع" أمام الجمهوريين من أصحاب الشركات. وكان أصدقاؤه المقربون يطلقون عليه لقب "الساحر المتواضع"، وقد استدعاه الرئيس روزفلت من هيوستون، بولاية تكساس، للدخول فى خدمة الحكومة كمستشار اقتصادى مقابل "دولار فى العام". وبعد تعيينه كمساعد لوزير الخارجية فى عام ١٩٤٤، تمت ترقيته فى عهد الرئيس ترومان إلى منصب وكيل وزارة الشئون الاقتصادية. وكان كلايتون يدعو، كرجل أعمال عملى، للأعمال الحرة وخفض قيود التجارة كأفضل إجراء لتصحيح "صورة العالم المضطربة.... إن الحفاظ على السلام العالمى يعتمد أولا على الحفاظ على سلامة أراضى واستقلال الأمم ذات السيادة"، كما كتب فى مذكرة قال عنها جريجورى فوسيدل (Gregory Fossedal) مؤرخ حياة كلايتون أنه سلمها على شكل

"نقاط للمناقشة" إلى أتشيسون مباشرة. ويجب ضمان تلك السيادة، ليس عن طريق المعونة العسكرية فقط، ولكن بضخ أموال ضخمة يحظى بإعلام جيد بدلاً من الملايين التى تقدم "منفردة" هنا وهناك منذ نهاية الحرب. والأمر يتطلب خمسة مليارات دولار على الأقل معونة أجنبية، "إلى جانب المساعدات التقنية والإدارية"[14].

وعندما هبط مارشال فى باريس قبل الذهاب إلى برلين، تلقى نص كلمة مثيرة، تستغرق ثمانى عشرة دقيقة يعتزم الرئيس قراءتها أمام جلسة مشتركة للكونجرس فى الأسبوع التالى. وقد لخص الرئيس فيما أصبح يعرف باسم "مبدأ ترومان" الوضع اليائس فى اليونان وفى تركيا، بالتبعية. وكان ترومان يخشى من توالى أحداث "الارتباك والفوضى" على مستوى العالم إذا سقطت تلك الحكومات ضحية "لأسلوب آخر للحياة" يعتمد "على الإرهاب والاضطهاد". ولم يذكر "القائمين بالتحدى غير المرحب بهم" بالاسم. وطلب الرئيس حزمة تبلغ قيمتها أربعمائة مليون دولار "للمساعدة فى تحرير الشعوب التى تقاوم محاولة إخضاعها بأقليات مسلحة أو ضغوط خارجية"[15].

وقد قرأ مارشال الخطاب ــ "مشجب عليه خطاطيف كثيرة يمكن أن يستوعب مجموعة مختلفة من السياسات العالمية" ــ ولم يسر بقراءته. فلم يذكر الاتحاد السوفيتى صراحة، ولكن كان يبدو لمارشال "أنه يوجد عداء مستعر بأكثر مما يجب للشيوعية". وكان مارشال فى هذا النقد قد استشار على نحو وثيق تشارلز "تشيب" بوهلن (Charles "Chip" Bohlen)، مساعده الخاص للشئون السوفيتية وصاحب الشخصية الكاريزمية الذى كان يصاحبه فى هذه المهمة. كان مارشال معجباً جداً بمهارة بوهلن المهنية وعمق معرفته باللغة والثقافة الروسية مما جعله يعمل على ترقيته إلى مستشار لوزارة الخارجية، وهو منصب يتطلب موافقة الكونجرس. وكان بوهلن، خريج هارفرد، يعمل بوزارة الخارجية منذ ١٩٣٠. وقد خدم مع جورج كينان (George Kennan) فى السفارة فى موسكو وفى قسم شرق أوروبا بوزارة الخارجية. وقد نقل إلى طوكيو فى ١٩٤٠، وكان هناك عندما حدث الهجوم على بيرل هاربر. ثم أصبح مساعداً لرئيس الإدارة الروسية فى وزارة الخارجية. وعمل بوهلن مترجماً لروزفلت فى يالتا، ولترومان فى بوتسدام. وقد وافق مارشال على أن "ترومان يسرف فى استخدام العبارات البلاغية". ولم يسعد مارشال بقرقعة الرئيس للسلاح فى هذه اللحظة غير المناسبة والقريبة جداً من وصوله إلى موسكو. وقد استمع مارشال إلى بوهلن بطريقته الحريصة المعتادة، وأرسل برقية إلى واشنطن عبر فيها عن قلقه الدبلوماسى، ومطالباً "بتخفيف" نبرة

الخطبة الهجومية. وكان الرد أنه "من رأى السلطة التنفيذية بما فيها الرئيس، أن مجلس الشيوخ لن يوافق على المبدأ بدون التأكيد على الخطر السوفيتي"[16].

وتبع ذلك ستة أسابيع محبطة من المشاورات في موسكو بين وزير الخارجية مارشال؛ وإرنست بيفن (Ernest Bevin) وزير الخارجية البريطانية؛ وجورج بيدو (Georges Bidault)، وزير خارجية فرنسا؛ والوزير السوفيتي ياشسلاف مولوتوف (Vyacheslav Molotov). وانقضى ما بقي من شهر مارس في محاولة "للأربعة الكبار" لصياغة اتفاقية سلام متوازنة مع ألمانيا والنمسا. وقد تعثرت المناقشات الخاصة بالتعويضات الاقتصادية، والتخلي عن أراضي تم الاستيلاء عليها في الحرب، والتركيبة المقترحة لحكومة مركزية ألمانية، بسبب الأمور التقنية و"المجادلات" بين القوى المحتلة. وجرت زيارة مجاملة استمرت تسعين دقيقة للقائد العام ستالين في العاشرة من مساء ١٨ أبريل وأشاعت جواً من الارتباك مع الأمل. وعندما حذر مارشال القائد السوفيتي من خطورة ترك ألمانيا في وضع غير مستقر، كان ستالين يعبث بقلم أحمر في وضع لامبالاة وانعزال مدروس. وقال لمارشال "لا تقلق....", وهو يضع يده على كتفه تعبيراً عن الصداقة، "قد نتفق في المرة التالية، وإذا لم يحدث ذلك ففي المرة التي تأتي بعدها". وكان يبدو أن ستالين يعتقد أنه إذا حدث انهيار اقتصادي في ألمانيا، فلا بأس من ذلك[17].

وقد انتهى مارشال على مضض إلى أن الاتحاد السوفيتي لا يتفاوض بنية خالصة وأنه سيكون من الصعب حثه للتعاون في تحقيق إنعاش أوروبي. "ولما كان قد انزعج من تبين خطورة المحنة الملحة في أوروبا الغربية"، فقد أعد مسودة خطاب وهو في الطائرة أثناء عودته إلى واشنطن، ليلقيه في الإذاعة الأمريكية. وقد أخبر الشعب الأمريكي "بصوت بطئ وجاد" أن "إنعاش أوروبي سيكون أبطأ بكثير من المتوقع... إن المريض يغرق بينما يتجادل الأطباء. لذلك فإنني أعتقد أنه لا يمكن انتظار الوصول إلى حل وسط عن طريق الاستنزاف"[18].

وفي صباح اليوم التالي، ٢٩ أبريل، استأنف مارشال خطته المحددة لإعادة تنظيم "الإدارات" المتناثرة في وزارة الخارجية إلى تقسيم متماسك للعمل. لقد أراد أن ينشئ هيئة محدودة موضع ثقة لتخطيط السياسات، مسئولة عن "النظر للمستقبل... متجاوزة دخان وأزمات المعركة الحالية" ـــ على حد تعبير أتشيسون. وقد عين مارشال على رأس هذه المجموعة الأساسية الدبلوماسي اللامع جورج فروست كينان، وخصص له مكتباً مجاوراً لمكتبه، بعد أن انتزعه من وظيفته الجديدة كأول نائب مدني لقائد الكلية الحربية الوطنية. وقد

انضم كينان إلى وزارة الخارجية بعد تخرجه من برنستون مباشرة فى عام ١٩٢٦، وعين فى أول سفارة للولايات المتحدة فى موسكو فيما بين عامى ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧ مع السفير وليم بوليت (William Bullitt) وكان فى برلين عندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا النازية. وقد عاد إلى موسكو فى عام ١٩٤٥ كقائم بالأعمال للسفير أفريل هاريمان (Averill Harriman). وفى فبراير ١٩٤٦، واستجابة لطلب من وزارة الخارجية للحصول على تحليل مبنى على معلومات لنوايا السوفيت، أرسل كينان "برقية طويلة" من ثمانية آلاف كلمة، تم صقلها فى العام التالى كمذكرة لوزير البحرية جيمس فورستال (James Forrestal)، وقد نشر فحواها فى عدد يوليه ١٩٤٧ من مجلة *فورين أفيرز* بعنوان "مصادر السلوك السوفيتى". وقد حذر كينان بكل جدية من أن نهج الحزب الشيوعى "كأيديولوجية للخلاص" هو رد فعل ضد التهديد المحسوس "للاحتواء الرأسمالى". وقال كينان إن أفضل طريقة *لاحتواء* التوسع السوفيتى هى التطبيق البارع واليقظ لقوى مضادة على سلسلة من نقاط سياسية وجغرافية دائمة التغير". ولإحداث توازن فى الصيغة المتشددة للمذكرة، انتهى كينان إلى أن مشكلة عداء السوفيت يجب تناولها "بهدوء وبنية طيبة... بشجاعة، وبدون انحياز وموضوعية، وتصميم". وللتخفيف من تأثيرها، قال كينان بعد نصف قرن أن "[المذكرة]، لسبب ما، قد قرعت هذا الجرس المتجاوب جداً فى واشنطن وتم توزيعها فى كل مكان".

وقد اختار مارشال كينان عضواً فى مجموعة خبراء التخطيط والاستراتيجية فى وزارة الخارجية قائلاً "إننى لا أريد تجميع أى أشخاص عاديين: وأفضل أن يكون لدى رجل واحد ممتاز عن وجود خمسة رجال عاديين". لقد كان الجنرال متعجلاً للحصول على بعض النتائج. وقال مارشال لكينان "وهو ينظر إليه نظرة فاحصة من فوق حافة نظارته" مع رفع حاجبيه "بطريقة تخيف رجلاً أفضل منه" كما قال كينان، "أنه يريد أن يعرف خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر... ما الذى يجب أن تفعله هذه الحكومة لأوروبا". وعند انتهاء المقابلة أضاف مارشال ـــ "تجنب التوافه"[19].

وخلال شهر حافل بالمناورات للسياسة الخارجية، ادعى دين أتشيسون أنه كان أول من "تخطى" بوابة بداية السباق. وبموافقة الرئيس، الذى كان قد التزم بالحضور ولكنه لم يتمكن من ذلك، ألقى أتشيسون خطاباً رئيسياً فى ٨ مايو أمام اجتماع لمزارعى القطن فى الجيمنازيوم شديد الحرارة لكلية المعلمين فى كليفلاند، بولاية مسيسيبى، وكان الخطاب قد كتبه أساساً جوزيف ماريون جونز (Joseph Marion Jones) من مكتب العلاقات العامة فى وزارة

الخارجية، والذى كان قد شارك فى الصيغ الأولية "لمبدأ" ترومان. وكان أتشيسون قد أخبر جونز بأنه يريد جميع "الحقائق الرهيبة" عن أوروبا. وكان جونز من جانبه يشعر بأن "الأسلوب السيكولوجى السليم" مطلوب. "إننا نكسب كثيراً إذا أقنعنا العالم أن لدينا أشياء إيجابية وجذابة يمكن أن نقدمها، وليس مجرد معاداة للشيوعية".

وقال أتشيسون "إن إنعاش أوروبا لا يمكن أن يكون كاملاً إلا أن تعمل الأجزاء المختلفة للاقتصاد الأوروبى معاً كمجموعة متناغمة"، مؤكداً الارتباط بين ازدهار أوروبا وسلامة أمريكا. "وهذا ضرورى إذا أردنا الحفاظ على حرياتنا ومؤسساتنا الديمقراطية". وكان الخطاب خطوة هامة نحو تجميع برنامج إنعاش أوروبا، لأنه كان أول إعلان عام يوافق عليه لدعم التماس ترومان المقدم إلى الكونجرس. وكان رد فعل *نيو ريببلك* إلى جانب منشورات أخرى مؤيداً: "لقد حدث تغير كبير فى مواضع التركيز فى استراتيجية وزارة الخارجية نحو روسيا". وتم الترحيب بكلمات أتشيسون فى الخارج بنفس القدر. فقد أشار ونستون تشرشل بعد أسبوع بضرورة الوصول إلى "حل أوروبى للمشاكل الأوروبية"[20].

وقد جاءت الموافقة التالية من ويل كلايتون، الذى كان الرئيس ترومان قد أرسله إلى جنيف لتمثيل الولايات المتحدة فى أول اجتماع لمجلس الاقتصاد الأوروبى التابع للأمم المتحدة و "للنظر إليها عن كثب". وبعد أن وجه كلايتون كلمة إلى المؤتمر فى ٢ مايو، بدأ جولة فى عواصم أوروبا الغربية سببت له "صدمة" وانزعاجا. وفى رحلته الجوية عائداً إلى واشنطن فى منتصف مايو، أعد تقريراً "كتبه بغضب" لمارشال وأتشيسون، وتم توزيعه ومناقشته على مستوى موسع فى وزارة الخارجية فيما بين ١٩ و ٢٧ مايو. وأخبر كلايتون زملاءه فى ألم "إننا نفهم التدمير المادى، ولكننا فشلنا فى التقدير الكامل لتأثيرات الخلل الاقتصادى على الإنتاج". وقد تقابل بول نيتزه (Paul Nitze)، نائب مدير مكتب سياسة التجارة الدولية فى وزارة الخارجية، مع كلايتون فى نادى متروبوليتان لتناول الغداء وتبادل المعلومات وقال كلايتون إنه وجد صديقه "منزعجاً حقاً من أن أوروبا على حافة كارثة.... ويجب عمل شئ للخروج من المأزق [فى أوروبا]، لجعل الصناعة والزراعة تعود للإنتاج.... وسوف يكون من الضرورى أن يقوم رئيس الجمهورية ووزير الخارجية بتوجيه نداء روحى قوى للشعب الأمريكى"[21].

وكان آخر عنصر مساهم لهذا الثلاثى هو إعداد مذكرة تخطيط السياسة التى وضعها جورج كينان وهيئة العاملين معه ــ جوزيف إ. جونسون (Joseph E. Johnson) وكولونيل تشارلز هاتويل بونستيل الثالث (Col. Charles Hatwell Bonesteel III) وجاك راينشتاين

(Jacques Reinstein)، وورير آدمز (Ware Adams) وكارلتون ســـــافيدج (Carleton Savage). ولما كان كينان قد تلقى من مارشال فى آخر أبريل أمراً "بتجنب التوافه"، فإنه قـدم فـى ٢٣ مايو ورقة صرح بأنها أعدت على عجل بعنوان "أوجه معينة من مشكلة إنعاش أوروبا مـــن وجهة نظر الولايات المتحدة". وقد جاءت توصيات كينان للمدى القريـــب والمـدى البعيـد. وبالنسبة للمدى القريب يتعين إجراء إصلاح سريع للوقود الصناعى للمساعدة فى رفع مستوى الإنتاج الأوروبى للفحم؛ وبالنسبة للمدى البعيد ــ ربما كان أكثر النقاط تأثيراً فى فكر كينـــان تتعلق بالتحليل النهائى لمارشال ــ أكدت مجموعة السياسات على ضرورة "التفرقة الواضحـة بين برنامج إحياء أوروبا اقتصادياً من جهة وبرنامج الدعم الأمريكى لهذا الإنعاش من جـانب آخر..." وكتبت مجموعة كينان "إن البرنامج المطلوب من هذا البلد دعمـه يجـب أن يكـون برنامجاً مشتركاً... وليس سلسلة من إجراءات منعزلة ومنفردة". وقالوا إن الفكرة هى تجنـب النزعة القومية الباعثة على الانقسام، والاتجاه نحو ما هو أفضل للقارة كلها. وعلى ضوء هذا الاتجاه والاعتراف بالتقدير الحالى للأمم المتحدة "ودورها الغالب فى شئون العـــالم"، اقـترح كينان أن تشارك اللجنة الاقتصادية لأوروبا فى إدارة المعونة الأمريكية. ولما كــــان كينـــان مقتنعاً بأن الروس يجب حتماً أن يساهموا فى الأمر، فقد اتخذ موقفاً أكثر اعتدالاً من موقفـــه فى "البرقية المطولة" مفضلاً الدعوة إلى منهج يعمل على *"خلق* قوة فى الغرب وليس *تدمـــير* قوة روسيا". وأضاف إلى ذلك أن الدعم الأمريكى يجب ألا يكون بلا حدود. فـــأى ميزانيـة توضع يجب أن تكون محددة المدة: "إن مبدأ ترومان ليس شيكاً على بياض"[22].

وفى صباح ٢٨ مايو، عقد مارشال اجتماعاً فى مكتبه حضره أتشيســـون، وكلايتـون، وكينان، وبوهلن، وبنجامين كوهين (Benjamin Cohen)، المستشار القانونى لوزارة الخارجية. وطرحت مذكرة كلايتون وتقرير كينان على مائدة الاجتماع. وطلب مارشال من الحــاضرين تقديم تعليقات عامة. واستمع بمجاملة وبدون تعبير، وشكر المجموعة، وأنهى الاجتماع. وفـى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، واستجابة لطلب كـــارل هاملســاين (Carl Hummelsine)، مدير السكرتارية التنفيذية، الحريص على تثبيت الجدول الزمنى لالتزامات مارشال الوشـيكة، أكد مارشال على قبوله مؤقتاً دعوة رئيس جامعة هارفرد جيمـــس ب. كونـــانت (James B. Conant) لإلقاء ملاحظات مختصرة فى اجتماع الخريجين فى عصـــر يـوم ٥ يونيـه فـى كمبردج، والذى يعقد بعد حفل التخرج الذى وافق مارشال على منحه فيه درجة فخرية، بعـد ممانعة مبدئية. وبعد يومين قرر أن تتخذ ملاحظاته فى هارفرد شكل خطاب رسمى. وطلـب

مارشال من مساعده الخاص الجنرال مارشال كـــارتر (Marshall Carter)، أن يبحـث عـن "شخص يفكر فى المقترحات المختلفة للخطب التى يمكن أن ألقيها ويعد مسودة لكلمة تستغرق أقل من عشر دقائق لإلقائها على الخريجين فى هارفرد...." وكتب قائلاً "من الـــهام جـداً أن يفهم شعبناً الوضع فى أوروبا، ومعاناة الناس هناك... وبصفة خاصة السمة الغالبة للعوامـــل الاقتصادية.... "وحذر مارشال من أن "الإثارة والعاطفـــة يجـب ألا يكـون لـها دور فـــى الموضوع". وكان كارتر قد صاحب مارشال وتشيب بوهلن فى رحلة وزراء الخارجية إلـــى موسكو، وكان يعرف أن الجنرال يفضل أسلوب بوهلن فى الكتابة. وأرسل إلى بوهلن أوراق كلايتون وكينان، وطلب من بوهلن، كمساعد خاص للشئون السوفيتية، أن يعد الخطاب نيابـــة عن مارشال مع أوامر مشددة سرية بألا تكون هناك دعاية مسبقة ولا يطلب إرشاداً مـــن أى شخص آخر. لقد كانت العجلات تدور بسرعة. وأعد بوهلن المسودة فى ٢ يونيه[23].

لقد كانت جميع عناصر المشكلة تدور فى ذهنه إلى أن أصبح قادراً على اتخاذ القرار. إن هذا هو لب وأسلوب ــ أو بالأصح فن ــ الحكم فى أعلى صوره". وقد أثنـــى دين أتشيسون على جورج س. مارشال لأنه "لا يمتلك فقط اتخاذ قرار عسكرى، ولكن اتخـــاذ قرارات فى الأمور الكبرى للدولة، والتى تتطلب الإلمام بمعلومات محددة وتقييم ما يصعـــب وزنه.... فعندما يتعمق شيئاً، يغوص فيه ــ ثم ينطلق". ووافق تشيب بوهلن على ذلك قـــائلاً، "إنه يستمع بدقة إلى جميع جوانب السؤال، ثم يتخذ قراره. وبمجرد اتخاذ القـــرار، لا يكـون هناك مجال للرجوع فيه"[24].

وكان رأى مارشال أن المسودة التى تلقاها من بوهلن "غير تامة على الإطلاق". وقـــام بتحرير النص منفرداً فى رحلته بالطائرة إلى بوسطن فى ٤ يونيه. وفكر فيها أيضاً فى مسـاء ذلك اليوم فى منزل جيمس كونانت. وكانت هناك نقطة هامة فيما كتبه بوهلن من أن "السياسة الأمريكية ليست موجهة ضد أى بلد أو مذهب، وليس ضد *الشيوعية* بصفة خاصة". وقد ألغى مارشال الإشارة التى تبدو دفاعاً عن "الشيوعية". وقرر أيضاً تقديم العون" لأوروبا *كلها*، بمـــا فيها الاتحاد السوفيتى والبلدان التى تدور فى فلكه"، وهو ما اعتبره بوهلن "مغامرة كـــبرى... فإذا دخل الروس... فلن يكون هناك أى أمل فى إجراء من قبل الكونجرس [أى، الموافقة على الميزانية]". ولكن مارشال كان "مصمماً". لقد أراد أن يضع احتمال تقديم المساعدة وإعطـــاء السوفيت فرصة أخرى للانضمام إلى المجتمع الدولى. كما أصر مارشال أيضاً على أن تقـوم

البلدان الأوروبية بأداء دورها "وتتقدم بخطة عملية للإنعاش مبنية على المتطلبات الحقيقية، وليس على ما يعتقدون أن الولايات المتحدة سوف تقدمه". وقد شعر ويل كلايتون بأن قدراً من المشاورة والنصيحة قد تكون مناسبة، ولكن مارشال كان "عسكرياً ومتعسفاً تقريباً" مصراً على الالتزام بهذا "الأمر". ولم يكن أحد من العاملين بوزارة الخارجية على علم بالكلمة في شكلها النهائى، كما لم يعد مختصر للصحف. ولم يتم التشاور مع القوى الأوروبية قبل إلقاء مارشال لكلمته. كما لم يكن السناتور فاندنبرج رئيس لجنة الشئون الخارجية محيطاً بالأمر، رغم أنه سوف يصبح حليفاً قيماً جداً.

وفى صباح ٥ يونيه حصل مارشال على الدكتوراه الفخرية فى القانون بحضور عالم الطبيعة الذرية ج. روبرت أوبنهايمر (J. Robert Oppenheimer)، والناقد الأدبى أ. ريتشاردز I.A. Richards ، والشاعر ت. س. إليوت (T.S. Eliot) وثمانية آخرون. وقبل أن يتقدم مارشال إلى المنصة فى الساعة الثانية مساء، أمام أكبر مجموعة اجتمعت من خريجى هارفرد، تبين مارشال مدى احتفاظه بسرية عمله أثناء إعداده فى الأيام العديدة السابقة: "لم أطلع ترومان عليها" أيضاً[25].

وبينما يلعب بنظارة القراءة ويحملق فى المخطوط، عالج مارشال باختصار سلسلة المواضيع الاقتصادية والسياسية التى ناقشها مع هيئة العاملين معه خلال خمسة أشهر منذ تولى منصبه كوزير للخارجية. وكانت لغة الكلمة تعكس جهود عدة أيدى متضافرة مع بعضها البعض وتصور صورة حية ومؤلمة لأوروبا فى معاناتها، والحاجة الملحة للتغيير، والاعتقاد بأن الولايات المتحدة يجب أن تواجه "الجوع، والفقر، واليأس، والفوضى" وتساعد فى تشكيل اقتصاد جديد لتجنب المشاكل التى أصابت الغرب بين الحربين العالميتين. وكان هناك إنذار مقنّع "لأى حكومة تناور لتعوق انتعاش دول أخرى". وكانت هناك حاجة واضحة "لمبادرات" أوروبية تسكت أى ادعاء بالأحادية الأمريكية. وبينت الكلمات المرتجلة البليغة التى كتبها مارشال بخط يده أن "عالم المستقبل كله معلق بالقرار المناسب. ومعلق، فى رأيى، إلى حد بعيد بإدراك الشعب الأمريكى"[26].

وقد أنهى حديثه بمهارة بسلسلة من الأسئلة الموجهة التى تهدف لدعوة تتجاوز المستمعين الحاضرين للتمسك بالمعايير الأخلاقية والوطنية للمجتمع الأمريكى. "ما هى ردود أفعال الناس؟ وما هى مبررات ردود الأفعال هذه؟ ما هى أوجه المعاناة؟ ما الذى نحتاج إليه؟ ما هو أفضل ما يمكن عمله؟ ما الذى يجب عمله؟" ودعى إلى تطبيق تلك المعايير عندما تشتد

الحاجة إليها ــ إلى اللحظة الحالية للتوتر الدولي. وفي ربطه لمصالح أمريكا بمصالح الدول الأخرى، والتواصل بين أمريكا والمجتمع الدولي، وإسناده الرخاء الأمريكي إلى الرخاء العالمي، أظهر وزير الخارجية مارشال ذاته كشخص مثالي ــ مثالي عملي ــ يفهم أنه لا يوجد برنامج خيري يمكن أن يستمر إذا بدى أنه مناقض للرأى العام." إن التغيرات الكبرى فى طريقة تفكير وعمل الأمة تأتى مثل مد البحر.... فلأول مرة منذ أصبحت الأمة قوة دولية"، كما كتب المؤرخ روبرت إنديكوت أوزجود (Robert Endicott Osgood) فى دراسته الرائدة فى عام ١٩٥٣، *المثل العليا والمصلحة الذاتية فى علاقات أمريكا الخارجية*، "فإن الأغلبية العظمى للشعب الأمريكى كانت تفهم أن حياتهم اليومية تتأثر بصورة خطيرة بما يحدث وراء البحار"[27].

وعندما انتهى مارشال من كلمته، كان التصفيق هائلاً، ولكن التغطية الصحفية للخطاب الذى لم يكن له عنوان كانت ضعيفة. ففى اليوم التالى كانت هناك قصة قصيرة فى جريدة *نيويورك تايمز* بعنوان "تلميحات السيد مارشال". ولم ينشر النص الكامل للخطاب إلا بعد عدة أيام. وكان صانعو القرار فى وزارة الخارجية فى ورطة مؤقتة ــ "'خطة' مارشال"، كما كتب كينان. "ليس لدينا خطة". وأضاف المساعد الاقتصادى بن مور (Ben Moore) "إن 'خطة مارشال' شبيهة بالأطباق الطائرة ــ لا يدرى أحد كيف يبدو شكلها، ومدى حجمها، وفى أى اتجاه تتحرك، أو ما إذا كانت توجد أصلاً". وقال كلارك كليفورد (Clark Clifford) مستشار رئيس الجمهورية إن "الخطة" يجب أن ينسب إليه، ولكن ترومان كان أكثر ذكاء من ذلك. وأجاب إجعل اسمها يتعلق "بأعظم أمريكى على قيد الحياة". حتى إن الجنرال أشار إلى كلمته فى هارفرد بقوله "ما يسمى بخطة مارشال"، لإحساسه بأنه من غير الملائم أن يدعى الفضل لنفسه لمشروع جماعي. وقد أصاب والتر ليبمان (Walter Lippmann) كبد الحقيقة فى تحديد أهداف الجنرال فى عموده فى جريدة *نيويورك هيرالد تريبيون* بعنوان "الوقت والمد" أثناء رده على مقال جورج كينان "عن الاحتواء" فى *الشئون الخارجية*. وقال ليبمان أن خطاب هارفرد قوة رافعة متقنة، مقصود منها إظهار أن أمريكا تقدر استقلال الحكومات الأوروبية، وأنها تفهم أيضاً اعتماد الحكومات على بعضها البعض، وأنها تختبر قدرات الأمم المختلفة فى التعاون معاً ووضع واستنباط طريقة شاملة لرسم خريطة إعادة التأهيل. وبصرف النظر عن عدم وجود عنوان ملائم، أو فروق الفهم الدقيقة، فإن التحدى على مدى اثنى عشر شهراً التالية كان واضحاً بالنسبة لمارشال ــ "الانتهاء من هذا الأمر"[28].

وقد أصدر إرنست بيفن وجورج بيدو، وزيرا خارجية بريطانيا وفرنسا، بلاغاً عاماً رداً على مارشال يتضمن دعوة شعوب أوروبا لإرسال مندوبين إلى جراند باليه في باريس لبدء العمل في تحديد خطة تحقيق الاستقرار تحت مظلة منظمة جديدة، لجنة التعاون الاقتصادى الأوروبى (CEEC). وكان رئيس اللجنة زميل دين أتشيسون، السير أوليفر فرانكس، قد قال أنه سوف تُطلب قروض أمريكية ومنح مناظرة للاستثمار، وإعادة التعمير، والتحديث، شاملة نقل التكنولوجيا. وسوف تقدم أمريكا "الشحم للآلة ــ وليس الوقود ــ بما يسمح لها بأن تدور بدلاً من أن تتعثر وتتوقف". وقد نظر تشيب بوهلن إلى دور أمريكا على أنه بيولوجى "إحيائى" أكثر منه ميكانيكى ــ "حقن قليل من الدم الاقتصادى فى نظام توقف عن العمل".

وقد وصل ياشسلاف مولوتوف إلى باريس فى ٢٦ يونيه بصحبة أكثر من مائة مندوب، مما أثار آمالا كاذبة بالتوسع فى موقف روسيا المؤيد للانفراج فى العلاقات الدولية. ولكن الاجتماعات اتخذت اتجاهاً سلبياً فور ذلك عندما تمسك مولوتوف المتجهم "الفظ" بما يتفق مع سمعته على أنه "السيد لا"، بموقف متشكك وغير متساهل. وقد رفض تقديم البيانات الاستثمارية والمالية السوفيتية السرية للولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا كمطلب ضرورى لتحديد خط الأساس للدعم المستقبلى؛ وعارض انضمام ألمانيا للخطة ما لم تتم دفع تعويضات لروسيا أولاً.

لقد ربط ويل كلايتون السلام بالتحرر الاقتصادى: "إن الأعداء فى السوق لا يمكن أن يكونوا أصدقاء على مائدة المفاوضات". وقد غادر مولوتوف الاجتماعات. وأعلنت وكالة الأنباء السوفيتية *تاس*، فى أوائل يوليه أن الدول التى تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى، وهى بولندا، ويوغوسلافيا، ورومانيا لن تحضر المؤتمر الموسع فى باريس. وتبعتهم بلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، وألبانيا، وفنلندا. وتم، فى الخريف، إنشاء "الكومنفورم"، مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية والعمالية فى بلغراد كمنظمة رسمية لتنسيق الأعمال فى ظل توجيه سوفيتى بين جميع الأحزاب الشيوعية المحلية. وفى موقف الكومنفورم المعارض "للإمبريالية الأمريكية"، نشر القول الفصل الذى وافق عليه ستالين وصاغه عضو المكتب السياسى وزعيم حزب لينينجراد أندريه زدانوف (Andrei Zhdanov)، أن مبدأ ترومان وخطة مارشال دليل على جهود أمريكا المخربة للبدء للسيطرة الاقتصادية بزعم أسلوب الحكم الخيرّ

لشئون الدول، ومكافأة قادة أوروبا الليبراليين وزعماء الوسط و"شق أوروبا إلى معسكرين"[29].

وفى ٢١ سبتمبر أرسلت لجنة التعاون الاقتصادى الأوروبى تقريراً مربوطاً بشريط أحمر إلى وزارة الخارجية الأمريكية. وكان يتضمن أهدافاً طموحة للزراعة، والتصنيع، والشحن، والتعدين، وتصنيع المعادن، وإنتاج الكهرباء بتكلفة تبلغ ١٩,٢ مليار دولار على مدى أربع سنوات. وبدأ مارشال وفريق عمله فى بذل جهود مضنية لنقل مفهوم "برنامج الإنعاش الأوروبى" للأمة وتشجيع المناقشة العامة على نطاق واسع. وكان "بيع برنامج الإنعاش الأوروبى للشعب الأمريكى بالنسبة للجنرال عملاً مرهقاً جداً". وقد اتخذت "الحملة" صفة عسكرية. وتذكر مارشال أنه "لا يوجد ما هو أعمق من منطق الأشياء". "أما تنفيذها فهو أمر آخر.... لقد سافرت بالطائرة آلاف الأميال كل أسبوع.... كأنما كنت مرشحاً لمنصب". وكان مارشال هو أعظم مكسب للبرنامج، والداعية الحى له. وكان اسمه وصورته التى توحى بإعادة الطمأنينة فيما يتعلق باستقامة الرأى قد هيمنت على الصفحات الأولى منذ عودته من موسكو فى الربيع السابق. وقد ساعد رجل البنوك الاستثمارية الجمهورى روبرت م. لوفيت (Robert M. Lovett)، الذى خلف دين أتشيسون بعد تقاعده كوكيل لوزارة الخارجية، وويل كلايتون، والنائب العام توم كلارك، ووزير الخزانة كلينتون أندرسون (Clinton Anderson)، وتشيب بوهلن، الذى عهد إليه بالعلاقات العامة، وأعضاء هيئة العاملين بوزارة الخارجية، ساعدوا جميعاً فى الدعوة للبرنامج فى أمريكا، وانتشروا لإلقاء خطب أمام ما يقرب من ألف من المستمعين المختلفين.

وقد أنشئت "لجنة المواطنين لخطة مارشال" ومقرها فى مدينة نيويورك وذلك بتشجيع من وزير الخارجية المتقاعد، هنرى ل. ستيمسون. وقد كتب رجل الدولة الكبير "يجب أن يفهم الأمريكيون الآن أن الولايات المتحدة قد أصبحت، سواء كان ذلك خيراً أم شراً، عضواً ملتزماً فى المجتمع العالمي". وأصدرت لجنة المواطنين المشكلة أساساً من مديرى الشركات وقادة المجتمع نشرات أخبار وأفلام وثائقية إعلامية، ووزعت ملايين من منشورات تحتوى على معلومات، وأصدرت إعلانات على صفحات كاملة فى الصحف الكبرى مؤكدة على البعد الإنسانى للبرنامج[30].

وعلى الجبهة التشريعية، بذل مارشال جهودا لا تهن ولا تكل لاستمالة صانعى القانون فى جلسات استماع فى كابيتول هيل، وقام بالرد على الأسئلة على مدى ساعات فى جلسات مفتوحة ومغلقة. وتقابل مارشال كثيرا وفى فترات مبكرة، بصحبة لوفيت، مع جوزيف مارتن

(Joseph Martin)، رئيس مجلس النواب وهيئة العاملين معه. وقد قام مارتن بدور نشيط، وأنشأ وفوداً لتقصى الحقائق للسفر للخارج، "والوقوف بين الحطام" والتحدث مع "الأمهات والأطفال شديدى الهزال". كما أنشأ المجلس لجنة مختارة للمعونة الأجنبية لإكساب جهوده فى تقييم البرنامج صفة مؤسسية. وكان العامل الحاسم لدعم الإنعاش الأوروبى، فى رأى مارشال وأتشيسون، يكمن فى "الشراكة الكاملة" و"الاعتقاد الأصيل" من جانب داعية الدولية وعدم الحزبية ومؤسس التوافق فى الرأى، عضو الشيوخ أرثر هـ. فاندنبرج: "ما كنا لنستطيع تحقيق الكثير ما لم نتعاون معاً،" كما قال مارشال. وقد تقابل الرجلان كثيراً فى بليرهاوس. "لقد كان من الرائع العمل معه ومن حسن الحظ أنه كان يبادلنى نفس الشعور.... لقد كان يدى اليمنى وكنت فى بعض الأحيان يده اليمنى.... لقد كان يقوم بالعرض الكامل عندما وصلنا إلى الحركة الفعلية [للبرنامج]"[31].

وقد تبين فاندنبرج، قبل وقت طويل من تقدم الرئيس ترومان بالطلب الرسمى لبرنامج الإنعاش الأوروبى فى ١٩ ديسمبر، ١٩٤٧، أن "صديقنا مارشال سيمر بأوقات عصيبة" فى مواجهته لكونجرس جمهورى حريص على خفض الضرائب والحد من مصروفات الحكومة. وقد عمل عضو الشيوخ بالتعاون مع هيئة العاملين بوزارة الخارجية للتأكد من أن البرنامج سوف يلقى استماعاً عادلاً. وقد أشار فاندنبرج إلى "ما يسمى 'خطة مارشال،'" فى خطاب إلى مالكولم و. بنجاى (Malcolm W. Bingay)، كاتب العمود فى *ديترويت فرى بريس* كتأكيد "لمفهومنا عن الرجال الأحرار، والحكومة الحرة، واقتصاد دولى يتمتع بحرية نسبية." وفى الفترة ما بين ٨ يناير إلى ٥ فبراير ١٩٤٨، استمعت لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ التى كان يرأسها فاندنبرج إلى أكثر من تسعين شاهداً وتلقت ستة وسبعين بياناً مكتوباً لصالح البرنامج. وخلال تلك الفترة حدث انقلاب شيوعى فى تشيكوسلوفاكيا، مما أضاف صفة العجلة للمناقشة، بحيث أنه عندما بدأ زملاء فاندنبرج فى الحديث عن خفض مخصصات الموازنة للإثنى عشر شهراً الأولى، حذرهم قائلاً، "عندما يتعرض رجل للغرق على بعد عشرين قدماً، فمن الخطأ أن تلقى إليه بحبل طوله خمسة عشر قدما.... إن السلام فى التحليل النهائى أقل تكلفة من الحرب". وقد وقف فى أول مارس أمام مجلس امتلأت قاعته بالأعضاء للدعوة إلى إقرار قانون التعاون الاقتصادى لعام ١٩٤٨. وكان فاندنبرج قد أعد كلمته على مدى أسابيع عديدة، "وقام بتحسينها بنسبة ألف فى المائة على آلته الكاتبة" ثم كتبها سبع مرات من أولها إلى آخرها بعد بعض المساعدة من روبرت لوفيت. وقال فاندنبرج "سيدى الرئيس، إن هذا القانون

قد يصبح سراجاً فى ليل العالم المظلم، ولكن إذا أريد إشعال السراج، فيجب إشعاله قبل فوات الأوان.... إن أعظم لمة فى العالم عليها أن تثبت أهليتها أو تتنازل عن قيادتها. علينا أن نختار".

وبعد منتصف ليل ١٤ مارس بخمس دقائق، وافق مجلس الشيوخ بأغلبية ٦٩ ضد ١٧. وبعد ذلك بقليل، وافق مجلس النواب على الأجزاء الكبرى من القانون بأغلبية ٣٢٩ ضد ٧١، وقد تم تسوية خلافات قليلة فى اجتماع مشترك، ووقع ترومان على القانون فى ٣ أبريل، الذى أنشأ إدارة التعاون الاقتصادى (ECA) تحت رئاسة بول ج. هوفمان (Paul G. Hoffman)، الرئيس السابق لشركة ستوديبيكر[32].

وخلال السنوات الأربع التالية تم صرف ١٣,٣ مليار دولار وهو ما يعادل ما بين واحد واثنين فى المائة من إجمالى الناتج القومى فى هذه الفترة وأكثر من ١٠٠ مليار دولار بأسعار اليوم، كمعونة لأكثر من ٢٧٠ مليون شخص فى ستة عشر بلداً فى أوروبا الغربية. وقد توجه الجزء الأكبر من القروض والمنح خلال الثلاث سنوات الأولى ــ وهو ما يزيد على ٧٠ فى المائة ــ لاستعادة التجارة عبر الأطلنطى ووقف التضخم. وكانت البضائع يتم شراؤها بمعرفة المديرين الأوروبيين من الموردين الأمريكيين، الذين كانوا يتلقون الثمن بالدولار خصماً من نسبة التمويل المخصصة لكل بلد. وبحلول العام الرابع، وكما قال مساعد مدير إدارة التعاون الاقتصادى وليم س. فوستر (William C. Foster) "خلعت الخطة رداء العمال وارتدت ملابس المعركة" استجابة لاندلاع الحرب الكورية، وتحولت المصاريف إلى الدفاع تحت شعار "قوة لعالم حر". وكتب الرئيس منتصراً؛ "على مدى تاريخ العالم، نحن أول أمة عظيمة تطعم وتدعم المهزومين"[33].

كانت رحلة الثمانية أيام على متن الباخرة *أندريا دوريا* المتجهة من نيويورك عن طريق المسار الجنوبى إلى نابلى فى نوفمبر ١٩٥٣ باردة ومتقلبة. وكان جورج س. مارشال الذى كان قد غادر مستشفى والتر ريد حيث كان يعالج من نزلة برد، ينوى أن يكتب ملاحظاته على جائزة نوبل وهو فى عرض البحر. وعندما وصل إلى باريس لم يكن قد كتب سطراً واحداً وكان مايزال يعانى من مضاعفات فى الجهاز التنفسى. وقد وصل مجهداً إلى مقر إقامة الجنرال ألفريد ب. جرونتر (Alfred B. Gruenther)، القائد الأعلى للحلفاء فى أوروبا، وذهب مباشرة إلى الفراش. وقد تم تعيين الكولونيل أندرو ج. جودباستر (Andrew J. Goodpaster)، المساعد فى هيئة الناتو لمساعدة مارشال فى تجميع أفكاره من سلسلة من

بطاقات المذكرات وساعة ونصف من الإملاء.

وفى الاحتفال فى أوسلو يوم ١٠ ديسمبر كان خطاب مارشال بقبول الجائزة مليئاً بالأمل.

يجب أن نقدم الديمقراطية كقوة تمسك فى داخلها ببذور التقدم غير المحدود للجنس البشرى. ويجب أن نوضح بأعمالنا أن الديمقراطية وسيلة إلى طريق أفضل للحياة، إلى جانب تفاهم أفضل بين الأمم. ويجب حتماً أن يتراجع الطغيان أمام القوة الأخلاقية الهائلة لإنجيل الحرية واحترام الذات لكل فرد.... إن لدينا فى أمريكا عقيدة جاءت إلينا من جذور الماضى العميقة. وهى تنبع من عقيدة الرجال والنساء الذين أسسوا هذه الأمة وجعلوها عظيمة.... أنا لا ألمح إلى أننا يجب أن نحاول إغراء الشعوب الأخرى باتخاذ شكل الحكومة الخاص بنا. وإننى أشير هنا بصفة خاصة إلى تلك القيم الأساسية التى تعتمد عليها حكومتنا، شأنها شأن العديد من الديمقراطيات الأخرى. إن هذه، فى اعتقادى، عقيدة سرمدية وتصلح لجميع البشر. وهذه فى اعتقادى ستشعل الخيال وتوقظ الروح[34].

إن كلمات مارشال لها أصداء مثيرة للمشاعر. فها هو رجل تدرج عبر عدة عقود فى مراتب الثقافة العسكرية الأمريكية، وأصبح مسئولاً عن السلطة العليا لجيشها المحارب، ووافق على استخدام السلاح الأصلى للدمار الشامل. ثم دعى إلى تحويل هذا الميراث الضخم إلى مجال مختلف تماما. وباستخدام درجة لا تخطر على البال لقوة الإدارة الأخلاقية، أصبح المحارب العالمى خلال أعظم حرب اشتعلت فى القرن الماضى، استراتيجياً عالمياً للإنسانية. فقد كان هدفه الأوحد كوزير للخارجية أن يبنى لا أن يهزم.

قد كان تحول مارشال مشروعاً، لأنه ربط استخدام القوة الأمريكية بالتزام الأمة المتزامن بالمسئولية الدولية. وكان آخر من يتصور نفسه أنه فيلسوف فى مجال منعزل من الفكر. لقد كان ناشطاً يرى أن رسالة وزارة الخارجية ــ من داخل هيكل الحكومة الأمريكية إلى خارجه ــ كأداة متعددة الجوانب يمكن عن طريقها تصدير الفوائد الكبرى للديمقراطية كهدية ملموسة، وليس كأيديولوجية دخيلة.

لقد قال أليستار كوك (Alistair Cooke) فى خطابه الأسبوعى فى هيئة الإذاعة البريطانية *خطاب من أمريكا* فى ٩ ديسمبر ٢٠٠٢، "لا أظن أنه يوجد تمثال للجنرال مارشال فى أوروبا، إن وجوده واجب للتذكير بالهدف الأمريكى لاستعادة نسيج الحياة الأوروبية"[35].

كلمة أخيرة: إحساس بالتاريخ

إن أصعب جزء فى عملى كمؤرخ، عندما تحيط بى حرفياً الحقائق والحكايات من كل جـانب عن الماضى ولا أستطيع رؤية أرضية غرفة مكتبى المغطاة بالكتب والأوراق، هـو عمليـة الاختيار لدعم قضيتى. وكلما اقتربت من معلومات ووسائل إعلام العصـر الحـاضر، زادت صعوبة هذه الخيارات. لقد توقف كتاب "القيم الأمريكية" عند الخمسينيات من القرن العشرين، لأننى أردت أن أترك فسحة من الوقت توضح العلاقة بيـن موضوعـى وتخيلـى. كـانت الخمسينيات تمثل لى فترة نائية بصورة مريحة وموضوعية. إنها تقع فى ذهنى عند النقطـة التى تنتهى فيها الصحافة ويبدأ التاريخ، وقت لازلت أستطيع فيه أن أتذكر مشـاهدة بعـض الشخصيات القائمة بالأدوار فى التليفزيون غير الملون، وسماع أصواتهم فى الراديو خـلال نشرة الأخبار المسائية، وقراءة أسماء أشخاص آخرين بعناوين كبيرة على الصفحات الأولـى من الجرائد.

علينا أن نتذكر أن هذه عشرة مثل عليا ــ وليست المثل العليا العشر ــ التـى شـكلت وطننا، تم اختيارها لتكوين صورة مجمعة لأمريكا كمكان للبدء من جديد، تجربة ديمقراطيـة مستنيرة، وساحة يجب أن يقوم فيها كل فرد باحترام المجموعة وخدمتها، أمة يدفعها للأمـام نشاط متوسع مع التزام بالحفاظ على الروابط التى تضمها معـاً، وأيضـاً مـع المجتمعـات الأخرى. لقد كان الهدف من هذا الكتاب إعداد صورة صادقة، ولذلك فهو كتاب لم تجر لـه عملية تجميل. وكلما تعمقت فى حياة الأشخاص العشرة الذين اخترت أن أكتب عنهم، أصبحت أكثر اقتناعاً باتساق آرائهم ــ ونقاء المقاصد الأصلية التى كانت تحركهم. لقد كانت حياة كـل فرد مقدمة درامية تؤدى إلى اللحظة التى ظهر فيها المثل الأعلى فى ثقافة عصره.

وقد كتب أرثر م. شليسنجر الابن مؤخراً فى مذكراته أن "التاريخ تسيطر عليـه دائمـاً أزمات ومشاغل العصر الذى يكتب فيه". إن الموضوعية التاريخية، بصرف النظر عن مـدى

الرغبة فى هذا المعيار، تخففها وتحورها بطرق بارعة مشاعر المؤرخ لأنه فى نهاية الأمـــر بشر. فهو يريد أن يربط أفكاره بجميع العصور، حتى وإن كان عليه أن يتقبل فى النهاية أنـــه مقيد بلحظة تاريخية. إن هذا الكتاب يظهر فى ظروف مضطربة بشكل استثنائى، ولكن عندما ننظر إلى الوراء، يبدو وكأنه كانت هناك دائماً أوقات غير عادية فى أمريكا.

ما هو المصير؟ لقد انشغلت على مدى عدة سنوات فى وضع سيرة مجمعة لحياة أمريكا الحديثة. وقد ذكرت فى كتب سابقة القصص الممتعة لأربع شخصيات مركّبة ومرموقة مـــن الذين ساهموا فى حياتنا المعاصرة. فقد كانت كتبى عن وليـــم كـــارلوس وليـــامز (William Carlos Williams)، ومان راى (Man Ray)، وتوماس إديسون (Thomas Edison)، وهـــنرى فورد (Henry Ford) عن أدب وفن، واختراعات ومشاريع تكنولوجية نمت محليـــاً. ومـــازلت أعتقد أننا يجب أن يكون لدينا قبضة محكمة على الماضى قبل أن نتحرك بسرعة إلى الأمام. إن الفهم الأكبر لقيمة التاريخ المشترك يمكننا من مواجهة المستقبل بذكاء.

إن شعورى الذى أختم به هو الأمل ـــ فى أن نهاية هذا الكتاب ليست نهاية القصة ولكن بداية الرؤى التى نحتاج الآن إليها لكى نعيد داخل أنفسنا بناء صورة نستعيد بـــها أمريكـــا ـــ أمريكا التى نستحقها.

شكر وتقدير

سوف أبدأ، كعادتى دائماً، بتوجيه الشكر إلى أمناء المكتبات والمحفوظات الذين يحملون مفاتيح مجالات عديدة ومختلفة وسمحوا لى بالوصول إلى مجموعاتهم بكرم وسماحة. ففى مكتبة نيويورك العامة، التى أمضيت بها أيام وساعات لا تحصى فى البحث على مدى الثلاث سنوات الماضية، أشكر بول لى كليرك (Paul LeClerc)، رئيس المكتبة؛ وبث ديفندورف (Beth Diefendorf)، رئيس قسم البحوث العامة؛ ومايكل تيرى (Michael Terry)، كبير أمناء مكتبة دوروت، وروبرتا سالتزمان (Roberta Saltzman)، بالقسم اليهودى؛ ووليم ستينجون (William Stingone)، مدير المخطوطات، وميلانى أ. يوليس (Melanie A. Yolles)، بقسم المخطوطات والمحفوظات؛ ووين فورمان (Wayne Furman)، بالمجموعات الخاصة؛ وهيئة المراجع لمركز أبحاث الفنون التطبيقية، ومجموعة شومبرج للبحث فى ثقافة السود، ومكتبات العلوم، والصناعة، والأعمال.

وأتوجه أيضاً بعظيم الشكر إلى لى أرنولد (Lee Arnold)، مدير مكتبة جمعية بنسلفانيا التاريخية؛ وإنديا أرتيس (India Artis)، بمجلة كرايزس بالجمعية الوطنية لتقدم الملونين؛ وجين هيلى (Jan Hilley) وبيكى أماتو (Becky Amato)، بقسم المخطوطات، وهيئة المكتبة فى جمعية نيويورك التاريخية؛ وهيلين بيكرت (Helen Beckert) فى مكتبة جلين ريدج العامة؛ ووندى إ. شميلووسكى (Wendy E. Chmielewski)، مدير مجموعة السلام فى كلية سوارثمور؛ وجون ى. كول (John Y. Cole) ، مدير مركز الكتاب فى مكتبة الكونجرس؛ وبريان لى دانجان (Brian Leigh Dunnigan) ، مدير الخرائط فى مكتبة وليم ل. كليمنتس (William L. Clements)، بجامعة ميشيجن فى آن أربر؛ ومارى هوث (Mary Huth)، بمكتبة راش ريز التذكارية، بجامعة روتشستر؛ وكورنيليا س. كنج (Cornelia S. King) وفيليب لابسانسكى (Philip Lapsansky)، بقسم المراجع بمكتبة شركة فيلادلفيا؛ وهيئة العاملين بمكتبة هارى أ. سبراج، بجامعة مونت كلير؛ وتيموثى د. موراى

(Timothy D. Murray) ، رئيس المجموعات الخاصة فى مكتبة جامعة ديلاوير؛ وأنجليك سبايت (Angelique Speight) ، من الجمعية الطبية الوطنية؛ وسوزى ووترز (Suzi Waters)، مدير الصحف فى مطبعة جامعة نورث كارولينا.

وأشكر ديبرا بارد (Debra Bard) للنصيحة والمشورة العملية، وللصداقة والتعاون فى أوجه أخرى أقدرها كل تقدير؛ ولارى أ. بلاند (Larry I. Bland)، مدير مؤسسة جورج س. مارشال؛ وفيكتوريا بيسل براون (Victoria Bissell Brown)؛ وو. بول كوتس (W. Paul Coates)، مدير مطبعة كلاسيكيات السود؛ وستيلا كونيل (Stella Connell)؛ وجيويا ديليبرتو (Gioia Diliberto)؛ وروب إيرب (Rob Earp)، بشركة كتب إنجرام؛ وجيسيكا هيجدورن (Jessica Hagedorn)، وولتر إيزاكسون (Walter Isaacson)، ودافيد ليفرنج لويس (David Levering Lewis)، وويل ليبينكوت (Will Lippincott)؛ وولتر موزلى (Walter Mosley)؛ وباربرا نوفاك (Barbara Novak)؛ وناثانييل فيلبريك (Nathaniel Philbrick)؛ وراندال روزنبرج (Randall Rothenberg)؛ وإيلين رايدر (Ellen Ryder) وماثيو فينسون (Mathew Venzon)؛ وكينيث سيلفرمان (Kenneth Silverman)؛ ودومنا س. ستانتون (Domna C. Stanton)؛ ورونالد ستيل (Ronald Steel)؛ وألبرتو أ. فيتال (Alberto A. Vitale)؛ ومايكل ر. ونستون (Michael R.Winston)، رئيس مؤسسة ألفريد هاركورت.

والشكر لمجموعة فريق إعلام تريدنت لتمثيلهم المهنى: روبرت جوتلييب (Robert Gottlieb) لحماسه ومثابرته الفريدة؛ وجون و. سيلبرساك (John W. Silbersack) وكيلى الجاد المخلص، والمشجع، والذى يستحق الثناء لعدم نفاد صبره. والشكر لمساعدة جون المثابرة، كيت شيرلر (Kate Scherler)؛ وأيضاً إلى كمبرلى أ. والين (Kimberly A.Whalen)، وميليسا فلاشمان (Melissa Flashman)، وألكس جلاس Alex Glass، وأدريان جوزويك (Adrienne Jozwick).

وقد استعانت محررتى فى مطبعة سانت مارتن، ديان ريفيراند (Diane Reverand)، بمعلوماتها الغزيرة لجعل هذا الكتاب فى صورة أفضل، منذ اللحظة الأولى التى بدأنا فيها أول مناقشاتنا أثناء الغداء، حتى ظهور آخر مراجعات إلى أن توصلت إلى أعلى مستوى من الرضاء عن العمل. والشكر أيضاً لمساعدة ديان، ريجينا سكاربا (Regina Scarpa) ، وللقائمة بالإعلام إليزابيث كوكس (Elizabeth Coxe).

ومازالت زوجتى، روبرتا (Roberta)، وهى القارئ الأول لجميع كتبى، هى أشد النقاد — وهى مهمة لا تلقى الشكر، ولكنى مع ذلك أتقبلها بسرور.

الملاحظات

1. CITY ON A HILL

1. Dunn, "Winthrop's Journal," 185–86, 211.
2. Dunn, "Winthrop's Journal," 192.
3. I have used today's place names to clarify the seventeenth-century geography of New England. "Winthrop's Journal" 13–31; Bremer, 169, 188; Morison, ix, 79; Baritz, 8; Morgan, *Visible Saints*, 119–20. In my discussion of the Puritan world view, I have depended upon the writings of Samuel Eliot Morison, Edmund S. Morgan, and Perry Miller.
4. muweb.Millersville.edu/Winthrop/index.html; Dr. Francis J. Bremer, editor of the Winthrop Papers project (1929ff) of the Massachusetts Historical Society, is the author of the passionate scholarly biography, *John Winthrop: America's Forgotten Founding Father* (2003), of great help in shaping this chapter. See also Moseley, 3, 156; Dunn, "Winthrop's Journal," 188; Morison, 60–61.
5. Morison 52; Morgan, *Dilemma*, 5; Bremer, 79, n. 407.
6. Dunn, "Winthrop's Journal," 189.
7. Schweninger, 16–18; Morison, 60; Dunn and Yaendle, ixff.; Miller, *American Puritans*, 84–85, 230.
8. Miller, *American Puritans*, 265; Dunn and Yaendle, ix; Gray, 703–5; Morgan, *Dilemma*, 12; Atkins, 4, citing John Cotton, *Christ the Fountaine of Life*. On the Puritan insistence upon "balance between religious tradition and civic order," see Michael Knox Beran, "Sacred Texts, Used and Abused," *Wall Street Journal*, August 18, 2003.
9. Weber, 105; Gray, 693, 700; Bremer, xviii.
10. Miller, *American Puritans*, 1; Weber, 83–84.
11. Rutman, 51; Morgan, *Visible Saints*, 11, 14, 23 citing the works of Henry Barrow (1590) and John Field (1588); Morgan, *Dilemma*, 71; Elwood Johnson, 6ff; Morison, 58.

12. Bremer, 103–21.
13. Bozeman, "Errand," 245–46.
14. Bremer, 138; Dunn and Yaendle, ix; Miller, *Puritans*, 36; Morgan, *Dilemma*, 40ff; Baritz, 7–8; Rutman, 23, 34, 41, 87; Morison, 65.
15. Rutman, 30, 32; Morgan, *Visible Saints*, 33, 63–64; Baritz, 39; Miller, *Puritans*, 3; Bremer, 199, and n. 437, citing Winthrop essay, "Reformation Without Separation."
16. Moseley, 34–35; Miller, *Errand*, 114; Rutman, 15, 41, 88.
17. Bremer, 155, 164; Miller, *Errand*, 4; Rutman, 43, 51, 52; Dean and Yeandle, x.
18. Miller, *Puritans*, 36.
19. Dunn, "Winthrop's Journal," 190; Bremer, 163–164.
20. Morgan, *Dilemma*, 40ff; Bremer, 169.
21. *An Early Puritan Commentary by John Cotton*, (Harvard Library 1584–1652), www.hds.Harvard.edu/library/exhibit.html; Miller, *Prose and Poetry*, 171; Dawson, 225, citing note in *Winthrop Papers*, 2:240; Schweninger, 41; Miller, *American Puritans*, 171; Cressy, "Vast and Furious Ocean," 516–17, 528–30.
22. Gray, 699; Bercovitch, 9; Johnson, 196; Bremer 175; Morison, 71–72.
23. Text of "The Humble Request" with accompanying editorial commentary by John Beardsley, www.winthropsociety.org/doc_humble.php; Bremer, 188; Dawson, 224, 227; Dunn and Yaendle, 15–16, citing "Winthrop's Journal"; Miller, *Errand*, 9.
24. Morgan, "Modell," 145, and note 10, 150–151; Dunn and Yaendle, ix; Dawson, 219; Miller, *American Puritans*, 78–79. The definitive dating of the composition and delivery of "A Model of Christian Charity" is Hugh Dawson (1991), 219ff.; see also Dunn and Yaendle, x; Miller, ibid.; Morgan, "'Modell'" (1987); Miller, *Responsibility of Mind*, 145; and Schweninger, 44. My explanation of the sermon refers to the authoritative text edited by Dunn and Yaendle (1996), 1–11.
25. Johnson, "Economic Ideas," 244.
26. Gray, "Political Thought of JW," *New England Quarterly*, 689–91; Bozeman, "Errand," 239.
27. Bremer, 176, 385; Schweninger, 42–46; Baritz, 25; Gray, 681, 685, 694; Morgan, "'Modell'" 145–50; Johnson, 37, 62; Johnson, "Economic Ideas," 247, 249.
28. Miller, *Errand*, 5; also, ibid., 137, with his reference to "my friend Richard Niebuhr," for which see Niebuhr's 1954 essay, "The Idea of Covenant and American Democracy," 129–30. The essay was originally read as a lecture before the American Studies section of the American Historical Association in Chicago on December 28, 1953; Dunn and Yaendle, op.cit., 3–9; Johnson, 37.
29. Johnson, 37–40; Morgan, *Dilemma*, 70, 82; Miller, *Errand*, 90; Niebuhr, 134–35.
30. www.mindprod.com/kjv/Matthew/5.html; bibletools.org/index.cfm; Dunn and Yaendle, op. cit., 9–11; Miller, *Errand*, 5, 11–12; Morgan, *Dilemma*, 12; Baritz, 17; Bercovitch, 39; Bozeman, "Errand," 233.
31. Baritz, 17; John Milton (1643) cited in Bercovitch, 39; Dunn and Yaendle, ibid., 10.
32. www.Antioch.com.sg/gi-bin/bible.pl; Bercovitch, 40; Weber, 112; Moseley, 44; Schweninger, 46; Baritz, 31; Miller, *Errand*, 113.

2. COMMON SENSE

1. Conway, 338–39, 347; Keane, 40, 98, 156, 371, 467; Williamson, 48.
2. For the biographical facts of Thomas Paine's life from birth through arrival in Lewes, I am indebted to the chronologies and accounts provided by Conway (1892, 1977), Kramnick, (1976), Foner, *Collected Writings* (1995), and Keane (1995).
3. *The Life of Thomas Paine*, by Francis Oldys (pseud. George Chalmers, 1791), cited in Hawke, *Paine*, 13, 231–232, and notes, 408, 439.
4. Contemporary account of Headstrong Club activities: Paine's friend and early nineteenth-century biographer, the poet Thomas "Clio" Rickman, cited in Conway, 10; and Williamson, 20, 40, quoting Rickman's interview with "a Mr. Lee, who was often present" at the White Hart. William Lee was publisher of the town's weekly newspaper, *Lewes Journal*, per Keane, 67; Gordon S. Wood, 27ff.
5. Dyck, 50; Ayer, 5; Williamson, 50; Keane, 73 and fn 550.
6. Kramnick, 26–27; Foner, 834–35; Conway, 13–15; Keane, 77; Williamson, 50–56.
7. Paine, Letter to the Hon. Henry Laurens, January 14, 1779; Williamson, 62. For the details here and through the rest of this chapter regarding the gradual build-up of tensions between England and America in the decade leading to the Declaration of Independence, I am grateful for the scholarship of Bernard Bailyn, Gordon S. Wood, and Edmund S. Morgan.
8. Franklin, note, 205.
9. Wood, 48–51.
10. Franklin correspondence referenced from the ten-volume *Writings VI*, ed. Albert Henry Smyth (1905–7), in Van Doren, 479–484, and notes, 785, 798–99; also, Morgan, Foreword (2003) to Franklin, *Autobiography*, 3, 5, 6.
11. Van Doren, notes, 810, 828; Conway, 16; Hawke, 25. The chronology of Franklin's difficult final year in London is derived from Franklin, *Autobiography*, 309ff.
12. Paine, *The American Crisis*, no. 7 (November 11, 1778), also "The Forester's Letter," III (April 22, 1776); Letter to Hon. Henry Laurens, January 14, 1779; Letter to Benjamin Franklin, March 4, 1775; Conway, 330.
13. Paine, *The American Crisis*, no. I, (December 19, 1776); Morgan, Foreword citing Franklin, *Autobiography*, 3; and *Chronology*, 308; Bailyn, 149.
14. Foner, 68–69; Bridenbaugh, 29; Bailyn, 1; Wood, 131; McCullough, *John Adams*, 81; Conway, 19; Keane, 92.
15. Bridenbaugh, 79, 126; Conway, 17; Hawke, 26.
16. Italics are Paine's. Text of essay: www.thomaspaine.org/archive/mag.html.
17. Keane, 23, 95; on increased magazine circulation, Hawke, 29–30 and note 410, letter from Thomas Paine to Benjamin Franklin, March 4, 1775; Kramnick, Editor's Introduction, 28.
18. Paine, *The American Crisis*, no. 2, (January 13, 1777); Szmyd, 218; Hawke, 403; Conway, 17; Williamson, 13, 52; Dyck, 3.
19. Dyck, 26; description of Washington in John Adams letter to Abigail Adams, June 17, 1775, cited in Hawke, 37.
20. Wilson, 13, 14; Wood, 52ff; Foner, 73–74.

21. Hawke, 41; Williamson, 78; Paine, *The American Crisis*, no. 3 (April 19, 1777); Letter from Paine to Laurens, op. cit., January 14, 1779; Aldridge, 35; Conway, 27, citing letter from Benjamin Rush to James Cheetham, ca. 1809.
22. Conway, 27–28, citing Robert Bell's laudatory description of himself in a "contemporary leaflet" Kramnick, 28; Keane, note 57, 555, led me to a summary of Thomas Reid's common sense school of philosophy, his reliance upon ordinary language, and the role of causation and free will in defining human nature: *The Stanford Encyclopedia of Philosophy*, www.plato.Stanford.edu/entries/reid. For the "inevitability" in *Common Sense*, see Joseph Ellis, *Founding Brothers*, 5.
23. Conway, 27, citing Paine, *Pennsylvania Journal*, April 10, 1776.
24. Williamson, 36, 40; Conway, 24.
25. Conway, 25; Paine to Laurens, January 14, 1779. My analysis below of *Common Sense* refers to the text in Kramnick, ed. (1976, 1986), 61–128; Paine's critical references to the king's speech: Appendix to *Common Sense*: Kramnick, 113.
26. Williamson, 284; Paine to Laurens, ibid.; Conway, 27; Hawke, 45.
27. Williamson, 9, 284; Kramnick, 122.
28. Wilson, 128; Kramnick, 63.
29. Parrington, Vol. I, 335–36; Bailyn, 285; Szmyd, 220; see also Paine, "The Forester's Letter," III (April 22, 1776).
30. Williamson, 40; Ayer, 187; Kramnick, 82–87, 92, 99, 120.
31. Ayer, 187; Kramnick, 122; Bailyn, 142–43; Parrington, Vol. I, 346; Foner, 75; see also Paine's draft of the "Rules for the Philadelphia Philosophical Society," February 1787, in Conway, 92, note 2.
32. For the tenor of the Second Continental Congress, see especially Bailyn, *Ideological Origins*, 142ff; Paine to Laurens, ibid; Kramnick, Introduction, 8, citing Franklin; Conway, 25, 26, 84, citing George Washington, Benjamin Rush, Edmund Randolph; Page Smith, *A New Age Now Begins*, 682, citing Washington; Foner, 86, citing Washington and Joseph Hawley.
33. Paine, "The Forester's Letter," II (April 10, 1776) and Paine to Henry Laurens, January 14, 1779; Wood, 55–56; Keane, 128, and Note 558 citing the *Papers of General Charles Lee* I, 312ff.
34. Italics are Paine's; Bailyn, 285; Wood, 56; Szmyd, 208.
35. Williamson, 45, 76; Wilson, 28. Citations from *The Forester's Letters* in Paine (1995), 60–90.
36. McCullough, citing Adams to Abigail, February 1776: 75, 97; Hawke, 48–49, and note 413, citing John Adams correspondence, April and May 1776.
37. Bailyn, 175, 288; Kramnick, 30; Conway 124, citing Adams's *Works* III, 189; Hawke, 7; McCullough, 102, citing Adams's debt to the philosopher James Harrington.
38. Wood, 56; Aldridge, 46; Hawke, 57.

3. E PLURIBUS UNUM

1. Bernstein, 44–45.
2. Deutsch, 387; Patterson and Dougall, 6; Morgan, Franklin *Chronology*, 314; Van Doren, 549.

3. Patterson and Dougall, 10, 13, citing Edmund C. Burnett, ed., *Letters of the Members of the Continental Congress* II (1963), 8; Sifton, 8, 11; Donaghy, iv.
4. Donaghy, 1–4; Orosz, "Pioneer" 8; Orosz, *Eagle* 51; Bridenbaugh, 95, 354; Peter Force Collection, Library of Congress, Memorandum Book, dated ca. 1784, *Sketch of the Plan of a Work intended to illustrate the Revolution in North America . . . from the first Settlement, down to the Declaration of Independence*; Du Simitière Letter Books, Library of Congress, Letter to Augustin Provost, Esq., May 28, 1784, ". . . [I have] prevail'd so far with [my landlord] to persuade him to wait some time longer for his payment . . . it is a melancholy truth that by a variety of unfortunate circumstances . . . [I am] reduced to distress. . . .
5. Du Simitière Memoranda Books, Peter Force Collection, Library of Congress; Library Company, *Descriptive Catalogue*, 161 ff.; Bridenbaugh, 90, 163; Donaghy, 6–7; Orosz, "Pioneer" 8–9; Alan Riding, "British Museum Takes an Enlightened Look Back," *New York Times*, March 31, 2004.
6. See for example Du Simitière Letter Books, Library of Congress, Letters from du Simitière to Robert Aitken, August 7, 1782, and ff., ". . . your personal regard for me, and the desire you have always shown to assist in enriching my collection of American national and artificial Curiosities. . . ."
7. Sifton, 8ff; Orosz, "Pioneer," 10; Potts, 356ff; *Pennsylvania Magazine*, bound Volumes I and II, collection of the Library Company of Pennsylvania, April 1776 issue, 184; see also, Coolie Verner, "The Aitken Map of Virginia," *Imago Mundi* XVI, Amsterdam (1962), 152–56.
8. Potts, 359; Huth, 325, citing letter from George Washington to the Reverend William Gordon, March 8, 1785.
9. Orosz, *Eagle*, 39, citing Adams Family Correspondence, Vol. II, June 1776–March 1778; Huth, 322, notes 23 and 24; see also http://www.historicalartmedals.com.
10. Donaghy, n.p.; Patterson and Dougall, 12–13, citing Boyd, ed., Jefferson *Papers* I, 482; Huth, 322–23; http://memory.loc.gov/cgi-bin/query: Image 656 of 1487, Thomas Jefferson Papers, Manuscript Division, Library of Congress, Series 1. General Correspondence, 1651–1827, Description and Sketch of Virginia Coat of Arms, P.E. Du Simitière, August 1776.
11. McCullough, *John Adams*, 146, 150; Charles Francis Adams, ed., *Familiar Letters of John Adams and His Wife Abigail Adams during the Revolution* (New York: Hurd & Houghton, 1876), 210ff.
12. Patterson and Dougall, 14, note 18, referencing Julian P. Boyd, "'Bradshaw's Epitaph': The Source of 'Rebellion to tyrants is obedience to God,'" in *The Thomas Jefferson papers*, I. Appendix, 677ff., 1950. See also http://etext.lib.virginia.edu/etcbin/foley, *The Jefferson Cyclopedia*.
13. Charles Francis Adams, 1876, ibid.; Patterson and Dougall, Franklin mss. note, n.d. [August 1776], 14, note 17, referencing Thomas Jefferson Papers, Manuscript Division, Library of Congress.
14. Adams, 1876, ibid.; see also *The Jefferson Cyclopedia*, ibid., Letters from Jefferson to J. Evelyn Dennison, 1825; and Stephen McNallen, *Hengist, Horsa and Thomas Jefferson*, http://www.runestone.org/jef.html. For "common law," see Thomas Jefferson, Letter to Thomas Cooper, February 10, 1814.

15. Adams, 1876, ibid.
16. See Adams, 1876, ibid.; and Patterson and Dougall, 15. Also Anthony Hicks's liner notes for Georg Frideric Handel's 1750 cantata, *The Choice of Hercules*, Hyperion Records, 2002.
17. Grateful acknowledgement to Gordon S. Wood, *The American Revolution*, 99, for the elegant concept of "neoclassical dreams"; the Hercules legend provenance is recounted in Hicks, ibid.
18. Adams, 1876, ibid.
19. Sketch and proposal in the Thomas Jefferson Papers, Manuscript Division, the Library of Congress, http://lcweb.loc.gov/exhibits/us.capitol/eleven.jpg; manuscript of Proposal for United States Coat of Arms, dated in header "September 20, 1776"; Patterson and Dougall, narrative transcription of Du Simitière text, 19, 20.
20. Du Simitière papers, Library Company of Philadelphia, *Descriptive Catalogue*. Two expert sources concur that Du Simitière "first introduced" the Eye of Providence into American iconography: Patterson and Dougall, 22; as well as Louis Jordan, *The Eye of Providence*, an essay published by the Numismatic Endowment of the University of Notre Dame, Department of Special Collections. On the Masonic connection, see also Robert Hieronimus, *America's Secret Destiny* (Rochester, Vermont: 1989), 48ff., and Issac Kramnick, ed., Introduction, *The Enlightenment Reader*, ix.
21. Deutsch, 391–92.
22. Patterson and Dougall, 23–24.
23. Thomas Keymer, Introduction, *The Gentleman's Magazine in the Age of Samuel Johnson, 1731–1745*, Sixteen Volumes (London: Pickering & Chatto, 1998).
24. Deutsch, 392. The first twenty volumes of the magazine have been digitized and placed online by the Bodleian Library, Oxford University: The *Gentleman's Magazine* 2 (December 1732), title page, http://bodley.ox.ac.uk/cgi-bin/ilej/image.
25. Sifton, 400, 485; Donaghy, 14.
26. Patterson and Dougall, 24–25.
27. Worthington Chauncy Ford, and Gaillard Hunt, eds., *Journals of the Continental Congress, 1774–1789* (Washington, D.C.: Library of Congress, 1904–37), in thirty-four volumes, Volume V, 689, 691.
28. Isaacson, *Benjamin Franklin*, 299–300; Wood, 141; McCullough, *John Adams*, 147.
29. Bailyn *Ideological Origins*, 323–24; Bernstein, 44–45, 53, *Resolution of Congress*, May 15, 1776, broadside.
30. Bernstein, ibid.; Wood, 70ff.
31. Patterson and Dougall, 27–44.
32. Patterson and Dougall, 44–71; Deutsch, 388.
33. Bridenbaugh, 26, 304; Hutson, 49; Patterson and Dougall, 71.
34. Tuveson, *Redeemer Nation*, 111–19; Patterson and Dougall, 74–88; http://www.techtours.washington.com/seal; and see also Linda Hales, "Out of Many Symbols, One Nation's Great Seal," *Washington Post*, Friday, July 4, 2003, C1. The classical explanations derive from Meyer Reinhold, *Classica Americana: Virgil in the American Experience*, chapter 9 (Wayne State University Press: 1984), and Forrest McDonald, *Novus Ordo Seclorum: The Intellectual Origins of the Constitution* (University Press of Kansas: 1986).

35. Harriet P. Culley, ed., *The Great Seal of the United States*, Bureau of Public Affairs pamphlet, United States Department of State. Washington, D.C. (July 1980), 3–9; Patterson and Dougall, chapter 7, "The Die of 1782," 111–28 and 514.
36. Potts (1889), 352; Orosz (1985), 15, citing the "exhaustive" research of Paul Sifton, op. cit.; Donaghy, 53, citing Du Simitière, Letter to the President of Congress, July 20, 1780.

4. SELF-RELIANCE

1. Miller, *Transcendentalists*, 416.
2. Emerson, *Journals and Miscellaneous Notebooks*, hereafter *JMN*, I, xxxvi and ff; Mattheissen 64–65; 627.
3. Details of Emerson *Chronology* from Joel Porte, ed., Ralph Waldo Emerson: *Essays and Lectures*, 1, 25–27; and Lawrence Buell, "The Infinitude of the Private Man," *Harvard Magazine* 105, no. 5 (May–June 2003).
4. Porte, ed., *Chronology*, 1,127; for insights into Emerson's religious conflict, Frank Schulman, "Ralph Waldo Emerson," *Dictionary of Unitarian and Universalist Biography*, Unitarian Universalist Historical Society, 2003; Whicher, ed., 11; Rusk, 170.
5. *JMN*, (September 1, 1833) in Whicher, ed., 13; Emerson letter to Mary Moody Emerson, December 10, 1829, in Nicholas Halmi et al, eds., *Coleridge's Poetry and Prose* (New York; W. W. Norton, 2004), 665; Mathiessen, 64ff.
6. Francis Jeffrey, ed. *Edinburgh Review*, to Carlyle, 1828; *JMN* III: 131, in Paul, 197; also, Paul, 211; Harris, 8.
7. Riley, 159; Harris, 42ff.
8. *JMN*, VI, 252–53, Emerson's list of "Thomas Carlyle's Writings."
9. Harris, 16–17, 30–31; Parrington, *Main Currents* II, "The Genesis of Transcendentalism," 376–77; Ameriks, ed., 8–9, and Charles Larmore in Ameriks, 153–154; see also Ralph Barton Perry's definitive "Introduction" to *Kant* (n.p.: Harvard Classics, 1909–1914).
10. Harris, 10–11, 17; 161; Bryan Hileman, "Emerson and Thomas Carlyle," on the American Transcendentalism Web: www.vcu.edu/engweb/transcendentalism/roots/rwe-tc; Whicher, 13; *JMN* VI, xx; see also the brilliant Introduction to *Basic Writings of Kant*. Edited by Allen W. Wood (New York: Modern Library, 2001): vii–xxv and 40–41.
11. Italics Coleridge's, and see *Biographia Literaria*, chapter 13.
12. Porte, ed., *Chronology*, 1,127–28; *JMN* VI, *Chronology*, xix–xx; Parrington, Volume II, op. cit., 378ff., places emphasis upon the transformative importance of Emerson's "momentous" European trip, as does Miller, *American Transcendentalists*, Foreword, and 171ff.
13. James Eliot Cabot, *A Memoir of Ralph Waldo Emerson* (Boston: Houghton Mifflin, 1888), 244; Orestes Brownson, in Miller, *Transcendentalists*, 208; John Updike, "Ralph Waldo Emerson Turns Two Hundred," *New Yorker* (August 4, 2003).
14. Matthiessen, 8; Emerson, *Essays and Lectures*, 7–8.
15. Whicher, ed., "First Fruits," 12–21.
16. Leslie Perrin, "New England Transcendentalism," *Concord Magazine* (November 1998); Emerson, *Essays and Lectures*, "Nature," 7, 43. Miller, *Transcendentalists*, 10,

115, 494, stresses the pivotal importance of "the year 1836" when *Nature* was published in understanding the development of American transcendentalism. For a caveat issued by the transcendentalists, eloquently insisting they were a non-"movement," see Margaret Fuller and Ralph Waldo Emerson, "The Editors to the Reader," *Dial*, no. 1 (July 1840): 1–4.

17. *JMN* V: xviii, 497; Allen, 309; Robert Sattelmeyer, review of Albert J. von Frank, chief editor, with an "Historical Introduction" by David M. Robinson, *The Complete Sermons of Ralph Waldo Emerson* (University of Missouri Press, 993), www.textual.org/text/reviews/sattelme.htm.
18. Rusk, 267; Van Leer, 72ff; Emerson, *Essays and Lectures*, 52ff.; Richard Higgins, "Remembering the Emerson Who Sought God," *Harvard Divinity Bulletin* (June 2003).
19. Parrington, Volume II, 380.
20. *JMN* V: xv, 457, 465; Rusk, 267; Van Leer, 73–76; Allen, 316; *JMN* V: xv, 465, 467; *JMN* VII, Journal "D," 34–35; David M. Robinson, in von Frank, op. cit., Volume I, 14.
21. *JMN* V: 357, 470, 479, 487; *JMN* VII, Journal "D": 112; on Emerson's growing resolution of will in the months before the Harvard "Address," see also Van Leer, op. cit., 76; Henry James, *American Writers*, 1883, 252–253.
22. *JMN* VII, Journal "D," entry for "10 July," 1838.
23. Rusk, 268; Allen, 316; Miller, *Responsibility of Mind*, 192.
24. Henry James, (1883) op. cit., 253; Complete text of "Divinity School Address": Emerson, *Essays and Lectures*, 75–92.
25. Emerson to Carlyle, *Correspondence*, 174; Dyck, *Legacy of Thomas Paine*, 141–42, and fn. 148, citing Ralph Rusk, ed., *Letters of Emerson* I, 148n; Emerson, *JMN* VII: 52–53.
26. Harris, op. cit., 24; Matthiessen, 61; *JMN*, VII: 118, 124.
27. *JMN* VII: xi, 63, n.174; for complete text of Norton article, see Miller, *Transcendentalists*, 193–96; also, Miller, 198; Emerson *Letters*, ed. Myerson, to Henry Ware Jr., July 28 and October 8, 1838, 186, 190, and to Mary Moody Emerson, September 1, 1838, 186–87.
28. Paul, 155; *JMN* V: xv–xvi, citing Emerson Journal entry of April 1840; *JMN*, VII, xii, 50, 60–70; 145, 181 n. 534; Allen, 341; Whicher, ed., "Society and Solitude," 122ff.
29. *Cambridge History of English and American Literature, 1907–1921* XVI, "Divines and Moralists, 1783–1860," brief essays on "Andrews Norton" and "Opposition to Transcendentalism"; Norton's text excerpted in Miller, *Transcendentalists*, 210–13.
30. Lopez, 23–24, is pertinent on the long tradition of "condescending to Emerson"; Paul, 79, 81, 190; *JMN*, "D," 1838, 64.
31. *JMN* V: 494. Emerson and Carlyle, *Correspondence*, May 21, 1841, 326–27; Lopez, ibid., 83, 113 observes that Emerson's mind, "more than any other American writer's, is characterized by its restless need foı an antagonism by which to define itself." See also Miller, *Responsibility of Mind*, 32.
32. Emerson, *Essays*, ed. Porte, *Chronology*, 1,129; *JMN*, VII (November 1839), 297: "Strike the hardest blow . . . labor;" Miller, ibid., biographical details on Fuller, 331–34; and 247–51, "The Editors to the Reader," *Dial* (July 1840): I, 1–4.
33. *JMN* VII, 376–77; Woodbridge Riley, *American Thought*, 169, "Emerson's temperament sweetened the strain of idealism handed down from Puritan days."

34. Rusk, 279; *JMN* VII, 393, 498, 521.
35. *Letters*, Emerson to Carlyle, February 28, 1841; Rusk, 278; Lemon, *Philosophy of History*, 174ff; Allen, 518, *JMN*, VII, 92; *Essays* 268.
36. Parrington, 382–83; Whicher, ed., 8, citing Emerson *Journal* entry of September 27, 1830; *Essays*, 271, 272; Matthiessen, 627.
37. Lopez, 145, 161; Cawelti, 86, 98; Paul, 172; *Essays*, 281–82.
38. Emerson, *Essays*, 237ff.

5. MANIFEST DESTINY

1. Hudson, 50, for magazine circulation figures; Pratt, 1927, 797, and 1933, 221–22; Graebner, 15ff, citing "The Great Nation of Futurity."
2. Webster's *Spelling Book*, 1845 edition (n.p.); "eloquently . . . schemer," Julian Hawthorne, cited in Pratt, 1933, 219.
3. Julian Hawthorne, cited in Pratt, 1933, 219; also Pratt, 1933, 216–17; Widmer, 31–33: Edward L. Widmer's *Young America: The Flowering of Democracy in New York City* (Oxford University Press, 1999) is an important new corrective to the scholarship on the American Renaissance; Sampson, 3–4: I am also indebted to Robert D. Sampson's fascinating *John L. O'Sullivan and His Times* (Kent State University Press, 2003), the first full-length scholarly treatment of O'Sullivan's life.
4. Pratt, 1933, 217, 228–34; Merk, 27; Julian Hawthorne, cited in Schlesinger, 371; Sampson, 5, 127.
5. Miller, 11.
6. Pratt, 1933, 218–20; Fresonke, 5, 91; Widmer, 34–35; Stephanson, 39; Sampson, 8; Schlesinger, 372.
7. "The Democratic Principle—The Importance of Its Assertion, and Application to Our Political System and Literature," *United States Magazine*, I. no. 1 (October 15, 1837). See also James Buchanan, "Party Competition and the Rise of the Whigs" (1840), Gilder Lehrman Collection, Document Number GLC 2919, The New-York Historical Society.
8. Emphasis O'Sullivan's.
9. Widmer, 81, 92; Julian Hawthorne, cited in Pratt, 1933, 218–19; Johannsen, 11; *United States Magazine* VI, no.23 (November 1839); Schlesinger, 369–74, 388; Miller, 110–11.
10. Merk, 39; Hudson, 46; Miller, 109, 127, quoting Charles Frederick Briggs and Cornelius Mathews; Parrington, Volume II, *Main Currents in American Thought: The Romantic Revolution in America*, 233, 238; Jonathan A. Glickstein, review of Edward Widmer's *Young America* in *Journal of American History*, 87 no. 1 (Summer 2000); and Widmer, 14, 57.
11. Kasson, in Scheiber and Elliott, eds., 187; Widmer, 59; Merk, 40, 53, citing the *Boston Times* December 11, 1844.
12. Miller, *Transcendentalists*, 188–89; Johannsen 12; Graebner 3; Emerson, *JMN* VIII, 521, referring to "Mr. OS;" and Ralph Rusk, ed. *Letters*, III, 146–47.
13. Emerson, *Essays and Lectures*, 213–30; Harris, *Carlyle and Emerson* 134; Sherman Paul, *Emerson's Angle of Vision*, 227; also, John Q. Anderson, "Emerson's 'Young American' as Democratic Nobleman," *American Transcendental Quarterly*, no. 9 (Winter 1971): 16–20.

14. *United States Magazine* XVI (June 1845): 589–602. Collection the New-York Historical Society.
15. Emerson, *Essays: Second Series*, 602–3. For an overview of Bishop Berkeley's life and work: *The Internet Encyclopedia of Philosophy*, www.utm.edu/research/iep/b/berkeley.html. Berkeley's poem is in the *Faber Book of America*, 397. For two illuminating discussions of Leutze's painting, see Jochen Wierich, "Struggling Through History: Emmanuel Leutze, Hegel, and Empire," *American Art* XV, no.2 (Summer 2001) and Roger Cushing Aikin, "Paintings of Manifest Destiny: Mapping the Nation," *American Art* XIV, no. 3 (Fall 2000); also, Boime, 43–45; Paul, 225; De Tocqueville cited in Turner, op. cit., 153.
16. O'Sullivan, Editorial, "Democracy," *United States Magazine* VII (March 184C): 215–29; see also "The Great Nation of Futurity," op. cit, (November 1839) and "The Democratic Principle," op. cit. (October 1837); Turner essay, "The Old West," *Proceedings of the State Historical Society of Wisconsin* (1908) reprinted in *The Frontier in American History*, 67–127.
17. Seigenthaler, *Polk* "Milestones," 168–72; Widmer, 264, Note 3; Graebner, xxvii; Pletcher, 139.
18. Pratt, 1933, 222; Schlesinger, 65, 431–36; Pletcher, 145–46; Seigenthaler, 65, 78–85; Graebner, xxxiv.
19. Graebner, xxiii; Sampson, 155; Seigenthaler, 99; Miller, 110; Polk, *Diary*, Quaife, ed. Volume I, 23; and Volume IV, 446 and 476ff., provide evidence of O'Sullivan's access to the president, who refers often throughout his term to unofficial, confidential "private . . . after noon" and "after night" meetings with O'Sullivan, beyond formal office hours.
20. Seigenthaler, 100; Graebner, xxxv; Merk, 28, citing *Congressional Globe*, January 27, 1845, 200; Pletcher, 577; O'Sullivan editorial, "The Popular Movement," *New York Morning News*, May 24, 1845, cited in Merk, 22–23; Pletcher, 577.
21. Pratt, 1927, 797, and 1933, 222; Merk, 45–62, 77; Pletcher, 269–272.
22. John L. O'Sullivan, "Annexation," *United States Magazine and Democratic Review*, (July 1845): 5–10, Collection The New-York Historical Society; Pratt, 1927, 798; Weinberg, 111; Adams, 93. See also Merk, 29, citing *Congressional Record* of January 10, 1846, when Indiana representative Andrew Kennedy echoed O'Sullivan's "population explosion" fear: "How long, under this process of multiplication, will it take to cover the continent with our posterity, from the Isthmus of Darien to Behring's [sic] Straits?"
23. De Voto, 9.
24. http://xroads.virginia.edu/MAO1/Lisle/dial/bancroft.html; Schlesinger, 374; Brock, 213; Jochen Wierich, op. cit.
25. Charles G. Sellars, *Polk*, Volume II, 1966, 213; Graebner, xlii.
26. Weinberg, 21–22, 53; 132; Graebner, 91, 102–9.
27. *New York Morning News*, editorial, October 13, 1845, cited in Weinberg, 25, note 3; Pletcher, 301–3.
28. Weinberg, 142; Seigenthaler, 126; Pratt, 1927, 798; and 1933, 223; Pletcher, 320–22.
29. *New York Morning News*, December 27, 1845. Collection, The New-York Historical Society; Pratt, 1927, 795, 798; and Pratt, 1933, 224, 225.

30. De Voto, 25–26, citing Polk, *Diary*, ed. Milo Quaife, Volume I, 155; *New York Morning News*, Monday, January 5, 1846, "A Splendid New Year's Compliment," by John L. O'Sullivan. Collection, The New-York Historical Society.
31. Tuveson, ix, 7–10 and 90ff; "When Did Destiny Become Manifest?" Sampson, 129; Weinberg, 3.
32. De Voto, 125ff; Thomas R. Hietala, in Johannsen, *et. al.*, 48–51; see also interviews with Professors Sam W. Haynes and Robert W. Johanssen, "Manifest Destiny" and "A Go-Ahead Nation," www.pbs.org/kera.
33. Graebner, "Introduction," li; Pletcher, 581; Scheiber and Elliott, eds. 282; Weinberg, 161–66; *United States Magazine* VI (November 1839): 426–30; *United States Magazine* XVII (October 1845); *Morning News*, January 5 and May 26, 1846; Tuveson, 131; Horsman, 221.
34. Johannsen, 9; Sampson, 207; Pratt, 1933, 225, citing F. L. Mott, *A History of American Magazines, 1741–1850*, 677–84; Brock, 100.
35. Matthiessen, *American Renaissance*, 635; Boime, 170–171.
36. Sampson, 208; Pratt, 1933, 226–34; Brock, 59; Miller, 349; Sampson, 237.

6. PROGRESS AND POVERTY

1. There are three biographies of Henry George. The first is worshipful, warm, and detailed, filled with excerpts from Henry George's journals and correspondence, *The Life of Henry George*, by his son and eldest child, Henry George Jr. (1900); followed a half-century later by *Henry George, Citizen of the World*, an affectionate memoir by his second daughter, Anna Angela George de Mille, edited by Don C. Shoemaker with an Introduction by George's granddaughter, choreographer Agnes de Mille (1950); and the most recent study (1955) is a lengthy and scholarly account, *Henry George*, by Charles Albro Barker, who was a professor of history at Stanford University and Johns Hopkins University. Background information herewith on Henry George's early years is selectively drawn from George Jr., 1–40; and Barker, 3–30; as well as from the introductory "Biographical Sketch" to the *Henry George Papers Finding Aid* in the Manuscripts and Archives Division of the New York Public Library, adapted for www.nypl.org by curator Melanie Yolles (1996).
2. George Jr., 2–3, 32–148; Barker, 31–62; poverty anecdotes and self-betterment resolutions, 63–66. Also Milton Rugoff biographical essay on Henry George, in *America's Gilded Age*, chapter 9, "Critics and Cassandras" (New York: Henry Holt, 1989).
3. George Jr., 149–77; Barker; 63–105.
4. "What the Railroad Will Bring Us," *Overland Monthly* 1. no. 4, (October, 1868); also on the Web at www.cooperativeindividualism.org/george_railroads.html; Kris Feder, *Progress and Poverty Today*, introduction to the new abridged version of *Progress and Poverty* (New York: Robert Schalkenbach Foundation, 1997); George's "paradox," in Andelson, ed., 31ff; "the new elite," Phillips, 43, makes pointed reference to *Progress and Poverty*.
5. "Big manufactories" and wire service observations, HG correspondence to Charles A. Sumner, managing editor, and John Nugent, publisher, *San Francisco Herald*, January and April 1869, cited in George Jr., 181–85; also, HG journals and pocket diaries, January–April, 1869, Manuscripts and Archives Collections (microfilm), The New

York Public Library; NYC impressions, Henry George, *Social Problems*, chapter 7, "Is It the Best of All Possible Worlds?" 58–69. Note: Henry George employed the phrase "how the other half live" (64) in a series of essays in *Frank Leslie's Illustrated Newspaper* (Spring and Summer 1883) seven years before the publication of Jacob Riis's classic, *How the Other Half Lives*. HG to the Reverend Dawson, in George Jr., 192–93, 367. See also George, *Science of Political Economy*, 201.

6. Allan Nevins entry, "Horace Greeley," in *Dictionary of American Biography* 7: 528–34.
7. Young, *Men and Memories*, 417–18; also Rose, 37
8. Rose, 37; George, Jr., 196–97; George, *Science of Political Economy*, Book II, chapter vii, 200–1; HG pocket diary entries, April 2 and 3, 1869.
9. *Principles* took eighteen months to write. J.S. Mill, ed., Riley, Introduction, vii, xviii–xix; Rose, 42; "Mill's Principles of Political Economy," *North American Review* 98, no 202 (January 1864), 270–73, praised it as "a work of immense practical importance [to] the progress of liberalism;" W.J. Ashley, 1909 "Introduction" to the 1870 Seventh Edition; Heilbroner 133.
10. Ashley, ibid.; Heilbroner, 134; Sowell, 117, 209.
11. Schumpeter, 543; Ashley ibid.
12. Sowell, 21, 257 n. 47; Rose, 42; F.Y. Edgeworth, "Mill, John Stuart," in Palgrave, *Dictionary of Political Economy*, 756–63.
13. *New-York Daily Tribune*, May 1, 1869, microfilm, Collection of the New-York Historical Society. F.Y. Edgeworth, ibid., 760, discusses Mill's "wages-fund theory" and his subsequent recantation. Mill to HG, October 23, 1869, in George Jr., 198–200. Note: In the same issue of the *Tribune*, Horace Greeley jumped upon the economics bandwagon, advocating stringent protection of homeland markets in the first article of a series "written for the common people." Greeley's collected *Essays Designed to Elucidate the Science of Political Economy* were published the following December 1 as a book through Fields, Osgood & Company of Boston.
14. Rose, 47; George Jr., 219–20; Wenzer, ed., ix, "Prefatory Note" by HG Jr., December 1900, and 235 n. 1; Heilbroner, 131.
15. Emerson, "The Young American," February 7, 1844, in Graebner, ed., 7; Sam Houston, *New York Herald*, January 30, 1848, in Weinberg, *Manifest Destiny*, 508 n. 134; George, "Land," in Wenzer, ed., 14; also see Parrington, Book 3, 128.
16. All italicized emphases are HG's. F.Y. Edgeworth, ibid., 758–59, is a clear analysis of Mill's *Principles* relating to the matter of "private property"; Adelson, ed., 236; HG, "Land," as quoted in George Jr., 233–34; Wenzer, ed., 1–93, provides the complete text of "Our Land and Land Policy," elucidated by excellent end notes, 236–42.
17. George Jr., 236–51; Barker, 168; HG manuscripts for *Progress and Poverty* and other works, microfilm, NYPL.
18. George Jr., 249; George, *Science of Political Economy*, 201.
19. Rose, 53; Andelson, ed., 15; Wenzer, ed., "Land," 95–108, Notes, 242–43.
20. Rose, 53; George Jr., 283; Wenzer, ed., "Land," 109–28, Notes, 243–48; and Wenzer, ed., *Anthology*, "Exhortative Works," 10–14, notes, 45. The text for "The American Republic" became Book X, chapter 5 of *Progress and Poverty*.
21. HG, *Progress and Poverty* manuscript and notebooks, February 1877–January 1879,

NYPL; Barker, 252–54; Kenneth M. Johnson, "Progress and Poverty—A Paradox," *California Historical Society Quarterly* (March 1963).

22. Heilbroner, 187; Andelson, ed., 30, 38; Parrington, Volume 3, 132–36; *P&P*, Book III, chapters 1–5, and Book IV, chapter 4; "knight-errant," Parrington, op. cit., 135; *P&P*, Preface to Fourth Edition, [xi]–xiii; Peter Barnes, "Reconsiderations: Progress and Poverty," *New Republic* (December 11, 1971).
23. John K. Whitaker, "Henry George and the Classical Growth Theory" (January 2001); Riley, ed., *Principles*, J.S. Mill, xi; Teilhac, *Pioneers*, chapter 3, 114ff; also, Samuel Belcher Clarke in defense of HG, "piercing the crust of usage and causing traditionary ideas to be scrutinized and tested," and acknowledging the Physiocrats as his forerunners, in "The Single Tax and the *Impot Unique*," *Quarterly Journal of Economics* (1891).
24. Schumpeter, *History*, (1954), 865; HG journal entries cite readings in Spencer and Buckle, for example, February 26 and March 29, 1877, NYPL; Francis Neilson, "Henry George, the Scholar," (1940); Lukacs, *End of an Age*, 151; J. B. Bury, *The Idea of Progress* (1930), especially the overview in chapter 19, "Progress in the Light of Evolution." On Henry George and Rousseau, see Teilhac, 149–56, 160, and Lemon, *Philosophy of History*, 179.
25. George, *The Condition of Labour*, 61; Marx to Sorge, June 30, 1881; White, *Metahistory*, esp. chapter 8, "Marx: The Philosophical Defense of History in the Metonymical Mode," 284–88, 292–93; Wheen, *Karl Marx*, esp. chapter 3, "The Grass-eating King," 70–74; Parrington, 34; www.geocities.com/marx_henrygeorge.html; see also Friedrich Engels, *The Condition of the Working Class in England* (ed. 1958) 355–56.
26. Young, op. cit., 418–19; George Jr., "Introduction" to P&P 25th Anniversary edition ix–x; George, *Science of Political Economy*, 201–3; Kenneth M. Johnson, op. cit; Hofstadter, 62–63.
27. Rose, 92; John Dewey, *Appreciation of* HG, October 1927; HG nomination speech, *New York Tribune*, October 6, 1886, in the New-York Historical Society.
28. HG, *The Single Tax* (1890); on Shearman's career, see C.B. Fillebrown at www.cooperativeindividualism.org.
29. George, *Science*, "Preface," vii–viii; George Jr., 593–611; Rose, 151–62.
30. See Parrington, 132, "that men might plot a fairer course for society;" Barker, 620–35; *Progress and Poverty*, cited in Hofstadter, et. al., *Great Issues*, 63; Young, op. cit., 426.

7. THE SPHERE OF ACTION

1. Addams, Jane, *Papers*. Microfilm edition, Reel 4, Collection, NYPL.
2. James, "Chronology," *Writings*, ed. Gerald E. Myers, 1161; also, Perry, *Thought and Character*, 247–63.
3. Biographical details of JA's early life: Tims, *Jane Addams*, 2, "The Father God," 17–25; Lasch, *The New Radicalism*, 1, "Jane Addams: The College Woman and the Family Claim," 5–10; and Fischer, *On Addams*, "Biography," 1–2; "... build her own fire," Addams, *Twenty Years*, 63.
4. On Addams and Ruskin, see Anne F. Scott, ed., xii, citing Jane Addams's letter to Ellen Gates Starr, November 22, 1879; Davis, *American Heroine*, 51; Brown, *Education*, 69; and Farrell, *Beloved Lady*, 38. Also, Ruskin, essays in *Political Economy*, 118ff, and 250ff.

5. Tims, 25.
6. Lasch, *New Radicalism*, 15–17; 23; Tims, "Shares and Delusions," 29–33; Addams, *Twenty Years*, cited in Brown, ed., Introduction, 8.
7. Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 74, and "Tolstoyism," 148ff; and Brown, *Education*, 164, note, 351, pinpointing JA's reading of Tolstoy as fall 1886, and note, 369, regarding the Hapgood version; Farrell, 141, citing Addams, "A Book That Changed My Life," October 13, 1927.
8. Brown, *Education*, 170–71; *Addams*, "Introduction," *What Then Must We Do?* cited in 1935 Aylmer Maude translation, xvi–xvii; Maude, Editor's Note, vii–viii; Tolstoy, *What Then*, 94–97, 315–23; Diliberto, *Useful Woman*, 120–22.
9. Chronology for JA and Sarah Anderson traveling to Toynbee Hall, from Brown, *Education*, 185–200.
10. Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 56; Himmelfarb, *Idea of Poverty*, 235, citing Toynbee, "Progress and Poverty," A *Criticism of Mr. Henry George*; and 275, citing Toynbee, *Industrial Revolution*; see also Carson, *Settlement Folk*, note 2. p. 201, pertaining to Himmelfarb's assessment of the doctrine in late Victorian England in *Idea of Poverty* that "consensus prevailed that poverty was a major social problem and . . . fundamentally a *moral* problem." Emphasis Carson's.
11. Himmelfarb, *Poverty*, 241–43; Farrell, *Beloved Lady*, 49; Carson, *Settlement Folk*, 197; Letter from JA to Alice Haldeman, June 14, 1888, cited in Crunden, *Ministers*, 25, and Davis, *Heroine*, 50; Letter from Ellen Gates Starr to her sister, Mary Starr Blaisdell, February 23 [1889], cited in Himmelfarb, Note, 241.
12. Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, "The Snare of Preparation," 78; McCree Bryan, "First Year," 101–3; Scott, ed., "Introduction" to Addams, *Democracy*, xlv.
13. Farrell, *Beloved*, 52–56, citing previous Letter from EGS to sister Mary Blaisdell, February 23 [1889]; Diliberto, *Useful Woman*, 136–43.
14. JA to Anna Haldeman Addams, May 9, 1889, and EGS to Mary Blaisdell, February 23 [1889], cited in Mary Lynn McCree Bryan, "First Year," 102–6; also, Farrell, 57.
15. Tims, *Jane Addams*, 43–45; McCree Bryan, 107–9; Dorothea Moore, "A Day at Hull-House," (1897), 629.
16. Moore, "A Day," (1897), 631; Letter from JA to Alice Haldeman, October 8, 1889, cited in McCree Bryan, "The First Year," 110; Diliberto, 159; Farrell, 60–61; Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 84, 87; Robert Kiely, ed.; *Romola*, "Introduction," xiii–xxii.
17. McCree Bryan, "The First Year of Hull-House," 110–14, citing letters from JA to Alice Haldeman, October 8, 1889, and December 22, 1889, to George Haldeman, November 24, 1889, and to Helen Culver, March 7, 1890, and Ellen Gates Starr to her parents, November 3, 1889.
18. Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, Related Documents, appendix 1, "Hull-House Weekly Program," March 1, 1892, 207–18.
19. Contemporary anecdotal and on-site descriptions of Hull-House daily activity drawn from Dorothea Moore, "A Day at Hull-House," (1897), 629–42.
20. Excerpt of Letter from JA to Alice Haldeman, October 8, 1889, and brief biographical summaries of Hull-House leadership derived from Davis, *Heroine*, "Early Years at Hull-House," 69–82; also, Farrell, 65, 68, note 42; and Deegan, *Chicago School*, note 29, citing Lionel Lane.

21. Addams, "How Would You Uplift the Masses?" (1892), 118–21.
22. Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, "Chronology," 254; Brown, *Education*, 213; and Addams, ed. Seigfried, *Democracy*, xxxv, note 12. Professor Seigfried emphasizes Addams's deliberate testing of theory in the arena of communal practice; Fischer, *Addams*, 15–17; and Addams, complete text of "The Subjective Necessity for Social Settlements," in Elshtain, ed. 14–28. The "subjective necessity" was building up within the mind of the author herself.
23. www.csiss.org, Center for Spatially-Integrated Social Systems, at University of California, Santa Barbara, "Florence Kelley, Slums of the Great Cities Survey Maps, 1893," by Nina Brown; Florence Kelley, "The Sweating System," *HHMP*, 12; Farrell, 66–67, discusses Kelley's "withering disdain" for bleeding-heart liberalism.
24. *HHMP*, "Prefatory Note," vii–viii; Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 110; Himmelfarb, 7, 79; www.cssis.org, "Charles Booth, Mapping London's Poverty, 1885–1903," by David Fearon. Booth's reference to the "poverty line," Fearon observes, was "tied to qualitative factors of food, clothing and shelter and relative deprivation."
25. *HHMP*, Contents, and 12ff; Scott, xxxviii; "Settlers in the City Wilderness," *Atlantic*, (January 1896), review of *Hull-House Maps and Papers*, 118–23.
26. Brown, ed., *Twenty Years*, 19; Carson 335–36, 122; "American Social Workers in Session at the Hull-House," *Commons Magazine* IV no. 2 (June 1899): 7, 9–13; Sharon Harr, "Location, Location, Location: Gender and the Archaeology of Urban Settlement," *Journal of Architectural Education* 55, no. 3 (1999): 154.
27. Crunden, *Ministers of Reform*, 80–83; Mary Jo Deegan's important essay, "The Feminist Pragmatism of Jane Addams," in Mary Ann Romano, ed., *Lost Sociologists*; also see Deegan's superb study, *Jane Addams and the Men of the Chicago School*, 7–13 and 323–26; Farrell, 67 and 68, note 40; Wendy E. Chmielewski, Curator, Swarthmore College Peace Collection, personal communication to the author, March 8, 2004; Victoria Bissell Brown, personal communication to the author March 20, 2004; Tims, 13; Addams, ed. Scott, xliii; Jane Addams, syllabus pamphlet, "Democracy and Social Ethics," JAPP Microfilm Edition, Collection NYPL, reel 30, filmed from the Anita McCormick Blaine Papers, State Historical Society of Wisconsin. Hereafter referred to as "DSE syllabus."
28. Diliberto, *Useful Woman*, 255, and note 288, citing Letter from JA to MRS, July 28, 1899; DSE syllabus, 5; Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 50; Addams, intro. Commager, *Twenty Years*, 169–70; Seigfried, Introduction, xl; Mazzini, *An Essay on the Duties of Man Addressed to Workingmen* (New York: Funk & Wagnalls, 1898), 62.
29. DSE syllabus, 6–7.
30. DSE syllabus, 7–8; Addams, ed. Scott, lvi; Addams, ed. Seigfried, xxv; on HH as "ideal community," see Dewey, *The School as Social Centre* (1902), cited in Seigfried, "Socializing Democracy," 213; Carson, 228, note 7, and Farrell, 68, note 41, describe John Dewey's enthusiastic reaction to JA.
31. Davis, *Heroine*, 141ff.; Addams, ed. Brown, *Twenty Years*, 161; Addams, ed. Lasch, *Social Thought*, 84, citing WJ to JA, December 13, 1909, and 183ff; James, "Chronology," *Writings*, 1159; see also Merle Curti, "Jane Addams," 245, on JA's "desire for action to fulfil social obligation."
32. DSE syllabus, 8–9.

33. DSE, Bibliography, 2, and syllabus, 9–10.
34. DSE syllabus, 11–12, 13–14; Sklar, *Hull House*, 671–72, and note 38; Elshtain, ed., 52, 60–61, note 2.
35. Elshtain, "Bibliography," 450–52; Brown, "Jane Addams," in *Women Building Chicago, 1790–1990*, 14–22; Link, *Progressivism*, 24; Rader, *Academic Mind*, 115–16; DSE manuscript ancillary correspondence, JAPP, Reel 4, Microfilm Collection, NYPL: Addams often complained that she was "swamped with work" and wrote "slowly and painfully." See Ely to Addams, "January 1901," Addams to Ely, May 18, 1901; Addams to Florence Kelley [July 1901]; Addams to Ely, November 11, 1901; Ely to Addams, January 28, 1902, Ely to Addams, October 31, 1902.
36. JAPP microfilm, NYPL, reel 4, Macmillan Company to Addams, May 24, 1902, and Ely to Addams, October 31, 1902; Lasch, *Social Thought* (1965), 62–63; Link, *Progressivism*, 72–74; Addams, cited in Deegan, *Chicago School*, 230–33 and 323–26. Also Kathryn Kish Sklar's excellent essay, "Hull-House in the 1890s", (1985), 658–77.
37. Addams, ed. Scott, 273–74.
38. www.nobel.se/peace/laureates/1931/press.html. Copyright 2002, The Nobel Foundation.

8. THE MELTING-POT

1. Joseph H. Udelson, *Dreamer of the Ghetto*, 196; Joseph Leftwich, *Israel Zangwill*, 148–49.
2. Michael Terry, Dorot Chief Librarian, the Jewish Division, NYPL, personal communication to the author, April 23, 2004; Udelson, 110; Leftwich, 108–111; Adams, 19.
3. Rochelson, 10ff; Wohlgelertner, 24ff; Leftwich, 21; Adams, "Chronology," xv.
4. For an introduction to the Wanderers of Kilburn, www.jewishmuseum.org.uk/exhibit; also, Leftwich, 53; and Udelson, 271, note 3.
5. Louise Mayo, 41, 46–47; Zangwill, "The Position of Judaism," *North American Review* (April 1895): 425–39 online at www.cdl.library.cornell.edu; Udelson, 193, cites a subsequent Zangwill essay, "Two Opposing Forces at Work on the Jew" (1903) employing the gaberdine metaphor; mezuza anecdote, see Leftwich, 177.
6. *The Poetical Works of Henry Wadsworth Longfellow, with Bibliographical and Critical Notes III* (Boston and New York: Houghton Mifflin, 1890), 33–36; Zangwill, ed. Maurice Simon, *Speeches*, 11–12, 29.
7. Isaac M. Fein, "Zangwill," 16ff.; Udelson, 81, 83; Simon, ed., 41; Adams, 52ff.
8. The authoritative essay on *Children of the Ghetto* is Meri-Jane Rochelson's Introduction to the 1998 Wayne State University Press reprint of the 1895 American edition. Isaac M. Fein's "Zangwill," is a fascinating survey with well-selected highlights of the voluminous 1892–1923 Sulzberger-Zangwill correspondence in the Central Zionist Archives, Jerusalem. The letters cited herewith are dated May 3, 1892; September 30, 1892; September 12, 1893; and July 6, 1900; also, Zangwill, "Tribute to Sulzberger," in Simon, ed., 143ff.
9. Wohlgelertner, 149–150, citing Herzl's diary entry for November 21, 1895; Leftwich, 181, citing *Theodore Herzl, a Biography* by Joseph Fraenkel (Second Edition, London, 1946); Hertzberg, on Nordau, 233–34; Mendes-Flohr and Reinharz, Introduction to

"Zionism" section, 529–31; Herzl, "A Solution to the Jewish Question," 1896, excerpted in Mendes-Flohr and Reinharz, 533–38.

10. Mendes-Flohr and Reinharz, ibid.; Wohlgelertner, 152; a cogent overview of the range of Zionist philosophies will be found at www.israel.org/mfa.
11. Regarding Zangwill's "propriety," see Leftwich, 181, "I was the first person that Dr. Herzl came to in London. . . . I worked for him loyally as a perfect slave for a great many years, so it is not true that I am an obstinate person and cannot work with anybody." Wohlgelertner, 152; Zangwill, "Zionism," (October 1899) in Simon, ed., 156ff.
12. Wohlgelertner, 152–54; Zangwill's moving eulogy for Herzl, July 1904, in Simon, ed., "Tribute to Herzl," 131ff.; Zangwill's (lightly fictionalized) eyewitness account of the first Zionist Congress, written later in 1897 and early 1898, provided the details here: *Dreamers of the Ghetto*, "Dreamers in Congress," 430–40.
13. Zangwill, in Simon, ed., "Zionism," 152; "Dreamers in Congress," 438; Gottheil, "The Aims of Zionism" (1898/1899), cited in Hertzberg, 84 and 495–500.
14. On Tolstoy, Zangwill lecture of September 8, 1898, cited in Wohlgelertner, 193–95; first impressions of America, Zangwill, in Simon, ed., "The New Jew"; Garland on Zangwill, in Adams, 19–20, 155, notes 6 and 7, citing Hamlin Garland, November 1899 and June 1930.
15. Zangwill, in Simon, ed., "Send-Off to Dr. [Solomon] Schechter," 64, 69; "The New Jew," October 1898, 54–63; and "Zionism," October 1899, 155.
16. Roth, *Now and Forever*, epigraph/frontispiece; Zangwill, *Blind Children*, 103, 130–31; Adams, textual survey of *Blind Children*, including Zangwill's translations, 133–42; Udelson, 148–52; Wohlgelertner, 25; Leftwich, 102.
17. Rochelson, "Introduction," *Children of the Ghetto*, 13; Wohlgelertner, 25; Udelson, 205; Edith and Israel Zangwill, correspondence, 1904–1914, Annie Russell (Yorke) Papers, box 3 (folders 5 and 6), Manuscripts and Archives/Special Collections, NYPL.
18. Udelson, 289, note 24, citing Zangwill in *Chicago Sentinel*, February 15, 1924; Leftwich, 102–3, reporting his conversation with Mrs. Zangwill and her response to a comment by Jacob de Haas, editor of the Boston *Jewish Advocate* and an early Zionist.
19. Zangwill to Sulzberger, June 23, 1903; and September 11, 1903, in Fein, 20–21; Zangwill, "A Manifesto," *Jewish Chronicle* (August 25, 1905), cited in Mendes-Flohr and Reinharz, 550–51; Zangwill, April, 1905, cited in *Speeches*, 204; Adams, 23; Hertzberg, 41, 202–3.
20. Zangwill to Sulzberger, July 8, 1904 (Herzl died on July 3), in Fein, 22; Mann, 105; Zangwill, "The East Africa Offer," in Simon, ed., 198–227; Zangwill, "A Manifesto," 551; Zangwill, "What is the ITO [Jewish Territorial Organization]?" (London: ITO Pamphlet, no. 1, 1905), Collection of the Jewish Division, NYPL; see also Cyrus Adler's letters to Zangwill, opposing his new organization, November 1 and December 31, 1905, in Ira Robinson, ed., 116–17, 124–26.
21. Naomi W. Cohen, "The American Solution: The Galveston Plan," in her definitive biography, *Jacob H. Schiff, A Study in American Jewish Leadership*, 159–68; Hertzberg, 41; Isaac Fein, ed.: Letters from Schiff to Zangwill, October 17 and November 21, 1905; Zangwill to Schiff, November 3, 1905; Zangwill to Daniel Guggenheim and Oscar Straus, April 24, 1906; Schiff to Zangwill, August 24 and September 21, 1906; Zangwill to Schiff, September 14, November 8, and November 9, and Oscar Straus,

"Zionism" section, 529–31; Herzl, "A Solution to the Jewish Question," 1896, excerpted in Mendes-Flohr and Reinharz, 533–38.

10. Mendes-Flohr and Reinharz, ibid.; Wohlgelertner, 152; a cogent overview of the range of Zionist philosophies will be found at www.israel.org/mfa.
11. Regarding Zangwill's "propriety," see Leftwich, 181, "I was the first person that Dr. Herzl came to in London. . . . I worked for him loyally as a perfect slave for a great many years, so it is not true that I am an obstinate person and cannot work with anybody." Wohlgelertner, 152; Zangwill, "Zionism," (October 1899) in Simon, ed., 156ff.
12. Wohlgelertner, 152–54; Zangwill's moving eulogy for Herzl, July 1904, in Simon, ed., "Tribute to Herzl," 131ff.; Zangwill's (lightly fictionalized) eyewitness account of the first Zionist Congress, written later in 1897 and early 1898, provided the details here: *Dreamers of the Ghetto*, "Dreamers in Congress," 430–40.
13. Zangwill, in Simon, ed., "Zionism," 152; "Dreamers in Congress," 438; Gottheil, "The Aims of Zionism" (1898/1899), cited in Hertzberg, 84 and 495–500.
14. On Tolstoy, Zangwill lecture of September 8, 1898, cited in Wohlgelertner, 193–95; first impressions of America, Zangwill, in Simon, ed., "The New Jew"; Garland on Zangwill, in Adams, 19–20, 155, notes 6 and 7, citing Hamlin Garland, November 1899 and June 1930.
15. Zangwill, in Simon, ed., "Send-Off to Dr. [Solomon] Schechter," 64, 69; "The New Jew," October 1898, 54–63; and "Zionism," October 1899, 155.
16. Roth, *Now and Forever*, epigraph/frontispiece; Zangwill, *Blind Children*, 103, 130–31; Adams, textual survey of *Blind Children*, including Zangwill's translations, 133–42; Udelson, 148–52; Wohlgelertner, 25; Leftwich, 102.
17. Rochelson, "Introduction," *Children of the Ghetto*, 13; Wohlgelertner, 25; Udelson, 205; Edith and Israel Zangwill, correspondence, 1904–1914, Annie Russell (Yorke) Papers, box 3 (folders 5 and 6), Manuscripts and Archives/Special Collections, NYPL.
18. Udelson, 289, note 24, citing Zangwill in *Chicago Sentinel*, February 15, 1924; Leftwich, 102–3, reporting his conversation with Mrs. Zangwill and her response to a comment by Jacob de Haas, editor of the Boston *Jewish Advocate* and an early Zionist.
19. Zangwill to Sulzberger, June 23, 1903; and September 11, 1903, in Fein, 20–21; Zangwill, "A Manifesto," *Jewish Chronicle* (August 25, 1905), cited in Mendes-Flohr and Reinharz, 550–51; Zangwill, April, 1905, cited in *Speeches*, 204; Adams, 23; Hertzberg, 41, 202–3.
20. Zangwill to Sulzberger, July 8, 1904 (Herzl died on July 3), in Fein, 22; Mann, 105; Zangwill, "The East Africa Offer," in Simon, ed., 198–227; Zangwill, "A Manifesto," 551; Zangwill, "What is the ITO [Jewish Territorial Organization]?" (London: ITO Pamphlet, no. 1, 1905), Collection of the Jewish Division, NYPL; see also Cyrus Adler's letters to Zangwill, opposing his new organization, November 1 and December 31, 1905, in Ira Robinson, ed., 116–17, 124–26.
21. Naomi W. Cohen, "The American Solution: The Galveston Plan," in her definitive biography, *Jacob H. Schiff, A Study in American Jewish Leadership*, 159–68; Hertzberg, 41; Isaac Fein, ed.: Letters from Schiff to Zangwill, October 17 and November 21, 1905; Zangwill to Schiff, November 3, 1905; Zangwill to Daniel Guggenheim and Oscar Straus, April 24, 1906; Schiff to Zangwill, August 24 and September 21, 1906; Zangwill to Schiff, September 14, November 8, and November 9, and Oscar Straus,

September 28, 1906; Schiff to Zangwill, October 25, 1906; Schiff to Cyrus Sulzberger, December 3, 1906; Zangwill to Schiff, April 5, 1907.

22. Zangwill, "Afterword," *The Melting-Pot*, edition of 1926, 199; Zangwill, "Send-off to Dr. Schechter," in Simon, ed., 64ff; Zangwill, "A Land of Refuge," December 8, 1907, in Simon, ed., 237; Zangwill, "The Third Birthday of the ITO," August, 1908, in Simon, ed., 285; Leftwich, 239. Note: April 7, 1907, remains the single most populous day in American immigration history.
23. Zangwill letter to George C. Tyler, April 18, 1908, cited in entirety by Walker Whiteside in "The Story of a Play, being a narrative of the steps in the production of *The Melting-Pot* from the time Israel Zangwill outlined the theme in a letter, to the winning of decisive success on the Chicago stage," *Chicago Record Herald*, January 24, 1909, in the NYPL, Billy Rose Theatre Collection, Robinson Locke Scrapbook Collection (microfilm), "Melting-Pot Programme, Chicago 1908–1909;" Biographical Note, Liebler and Company Records, 1890–1930, the Billy Rose Theatre Collection, NYPL.
24. Zangwill to Tyler, April 18, 1908; Zangwill to Mary Berenson, July 15, 1908, cited in Udelson, 288, note 9.
25. NYPL, Robinson Locke Scrapbook Collection (microfilm), "Walker Whiteside Wins a Real Triumph," the *New York Telegraph*, September 19, 1909; Whiteside, "The Story of a Play" narrative, columns 2 and 3.
26. Zangwill, *The Melting-Pot*, Schiff Collection, The Jewish Division, NYPL, 1–3, 11–12, 37, 59, 101ff, 184–85; Zangwill, quoted in Leftwich, 151: "I do not know exactly when America began to call herself 'God's own country,' but her national anthem, 'My Country,'Tis of Thee,' [i.e., "America," by Rev. Samuel Francis Smith] dating from 1832, fixes the date when America consciously felt herself as a Holy Land."
27. Zangwill interview, "America—'The Melting-Pot,'" in Chicago *Inter Ocean*, December 6, 1908; Zangwill, "The East Africa Offer," 223; and *The Melting-Pot*, p.v., 33, 208; see also David to Quincy, Act II, 86–87: "[I am] a Jew who knows that your Pilgrim Fathers came straight out of the Old Testament"; Zangwill, *The Melting-Pot*, Act I, 18, typewritten prompt book with ink notes handwritten by Zangwill, and pencil blocking notes by stage manager, in the Billy Rose Theater Collection, the Liebler Collection, the NYPL; Letter from Esther Zangwill to Annie Russell, January 21, 1909, NYPL: "We have been almost snowed up with proofs. Israel's Melting-Pot is to be published"; Leftwich, 253; Higham, *Send These to Me*, 124, 238–39, stresses the play's "permanent" influence in "dominating assimilationist thinking."
28. *The Melting-Pot* critique by Ryan Walker in the *New York Review*, n.d., NYPL; Walker Whiteside, "The Story of a Play," columns 2 and 3; *The Melting-Pot* prompt book, typescript inserted page "30(a)," Act III, rewritten and expanded David Quixano monologue, as per pages 155–57, p.v.; Mann, 100, quotes Roosevelt as writing to Zangwill that he was "stirred" by the play; Letter from Edith Zangwill to Annie Russell (Yorke), October 7, 1908, NYPL. Liverpool-born Annie Russell (1869–1936) was a stage actress from the age of fourteen. She and her husband, the actor Oswald Yorke, became close friends with the Zangwills after their critically acclaimed appear-

ances on Broadway in Zangwill's play *The Jinny* in the spring of 1905. The following year, George Bernard Shaw selected Annie to create the title role of *Major Barbara;* Mann, *The One and the Many*, 100.

29. Walker Whiteside, "The Story of a Play," column 3; review clippings sequence in Robinson Locke Scrapbook Collection (microfilm), NYPL, 1908–11; NYPL Manuscript Division, Letters from Edith Zangwill to Annie Russell, January 21, 1909; August 12, 1911; and February 4, 1914: "Walker Whiteside has come over . . ."; for the history of Walker Whiteside's Broadway and screen performances in *The Melting-Pot*, 1908–15 inclusive, see www.ibdb.com and www.afi.com.
30. Magnes, Emanu-El *Pulpit*, II, 1–10 and III, 10, "A Republic of Nationalities," February 1909, cited in Higham, 203, and in Goren, 4–5; Levin, cited in Sorin, 234; see also Howe, 411–13.
31. Arthur Mann, "The Melting-Pot—Protean Appeal," 109–15, provides a good overview of the critical reponse to the play's first several seasons in America.
32. Zangwill, *The Melting-Pot*, 215–16; and see Hans Kohn on "The Melting-Pot as a fundamental trait of American nationalism," cited in Gleason, "The Melting-Pot," op. cit., and Mann, op. cit., 47, 68.
33. Stephan Thernstrom, in Tamar Jacoby, ed., 48; Seymour Martin Lipset, "Equality and the American Creed," Progressive Policy Institute (Washington, D.C.) *Backgrounder* (June 1, 1991); Forrest Church, "The American Creed," *Nation* (September 16, 2002); Peter D. Salins, in Jacoby, ed., 100–101.
34. Dinesh D'Souza, *What's So Great About America*, 95–99; Herbert J. Gans, in Jacoby, ed., 33.
35. Myrdal, *American Dilemma*, esp. Chapter I, "American Ideals and the American Conscience."

9. THE NEGRO IN OUR HISTORY

1. Carter Woodson, cited in Alvin L. Williams, Dissertation, 2, 19; Woodson, "And the Negro Loses His Soul," *Chicago Defender*, June 25, 1912; Woodson, Letter to Jesse E. Moorland, May 22, 1920, cited in Winston, "Prophet," 460; Woodson, "My Recollections of Veterans of the Civil War," 104ff.
2. Jessica M. Fair, "Thurmond, The Rise and Fall of a Coal City," *West Virginia Historical Society Quarterly* XIV, no. 3 (June 2000): www.wvculture.org/history; Williams, Dissertation, 19, citing Charles R. Long, "Woodson, Educator and Prophet," (Washington, D.C.: Associated Publishers 1989), 1; Woodson, "My Recollections," 115–16; Rayford W. Logan, "Carter Godwin Woodson," (1950) 344; and Scally, *Bio-Bibliography*, 5.
3. Rayford W. Logan, "*Phylon* Profile VI" (1945) 319; Carter Woodson, "My Recollections," 115–16; see also the Academic Affairs Library at the University of North Carolina at Chapel Hill online bibliographic project, *Documenting the American South* (DAS), www.docsouth.unc.edu/dasmain.html.
4. Logan and Winston, eds., *Dictionary*, 665ff; Scally, *Bio-Bibliography*, "Chronology," xv; Scally, "The Philippine Challenge," 16; Jacqueline Goggin, *Carter G. Woodson: A Life in Black History*, 16–17, is the first book-length scholarly treatment of the life and mission of CW; Woodson, *Mis-Education*, 151.

5. Scally, *Bio-Bibliography*, 6–7; Scally, "The Philippine Challenge," 16–17; Woodson, *Mis-Education*, 151–55; also see Web site of Jose Rizal University in Mandaluyong City, www.rizalweb@jru.edu.
6. Scally, "The Philippine Challenge," 17–18; Logan, "Carter Godwin Woodson," (1950), 344; Goggin, *Carter G. Woodson*, 21, note 51.
7. Thomas C. Holt, "African American History," in Foner, ed., 311; Russell L. Adams, "Black History as a Weapon of Intellectual and Political Struggle," *The Black Collegian* (February, 2000); John Hope Franklin, "The New Negro History," 93; David Levering Lewis, *W.E.B. Du Bois* I, 168–74.
8. Williams, Dissertation, 32, note 80, citing Alfred Young, "The Educational Philosophies of Booker T. Washington and Carter G. Woodson," with reference to Lorenzo Greene (Unpub. Ph.D. dissertation, Syracuse University, 1977); Winston, "Carter Godwin Woodson," 462.
9. No byline, "Carter G. Woodson: Father of Black History," *Ebony* (February 2004); No byline, "Louis Mehlinger—Secretary-Treasurer of the Association for the Study of Negro Life and History," *Negro History Bulletin* (October 1951): 18–19.
10. Impressions and memories of Woodson as a high school teacher drawn from Goggin, *Carter G. Woodson*, 30; Logan, "Carter G. Woodson" (1945), 320, and "Carter G. Woodson," (1973), 8–9; Williams, Dissertation, 6–7, citing personal communication with Mary Dougherty, CGW former secretary, on January 30, 1992, and Willie M. Miles of the Associated Publishers, on April 27, 1992; and Montague Cobb, "Carter Godwin Woodson, PhD," (September 1970), 389.
11. Roman, cited in Logan, "Carter G. Woodson," (1973), 8; Logan, ibid., 13; Sister Mary Anthony Scally, "Woodson and the Genesis of the ASALH," 653.
12. James E. Stamps, "Fifty Years Later, A Founding Associate Reminisces," *Negro History Bulletin* (November 1965), 31; Scally, "Genesis," 654; Janken, *Rayford W. Logan*, 85; John Hope Franklin, "The Place of Carter G. Woodson," *Negro History Bulletin* (May 1950): 174–75; Charles H. Wesley, "Carter G. Woodson," *Journal of Negro History* (January 1951): 18–19.
13. W. E. B. Du Bois, Editorial, "Journal of Negro History," *The Crisis* (December 1916): 61; Scally, "Genesis," 655; Wesley, "Carter G. Woodson," 19; Kate Tuttle, entry in Appiah and Gates, eds., *Africana*, "W.E.B. Du Bois," 635–36; *The Journal of Negro History* I, no. 1 (January 1916). The *Journal*, published without interruption for nine decades, is now under the editorship of Dr. V. P. Franklin and known as *The Journal of African American History*.
14. Woodson, "The Negro in Literature and Art," *JNH* (July 1918): 329–30; Scally, "The Carter Woodson Letters in the Library of Congress," *Negro History Bulletin* (June–July 1975): 420, citing Letter from Edward Channing to Woodson, July 30, 1917. The letter is in the five-thousand-item Woodson repository, *Collection of Negro papers and related documents, 1803–1936*, LC Control Number MM 76046342. The Library of Congress also holds the *Papers of Carter G. Woodson and the Association for the Study of Negro Life and History, 1915–1960*, edited by Jacqueline Goggin with Randolph H. Boehm, LC Control Number 99016370. Woodson's personal library, more than sixty-five boxes of books, pamphlets, periodicals, and print ephemera, was

acquired from the Association for the Study of African American Life and History in the spring of 2004 by the Special Collections & Archives Division of Emory University library.

15. "The Great Migration" (unbylined) entry in Appiah and Gates, *Africana*, 869–72; Goggin, *Carter G. Woodson*, 202–204; Woodson, *A Century of Negro Migration*, 43ff, 95.
16. Caryle Murphy, "Charter Seeks to Buy Historic School Site/Armstrong Building Closed Since '96," *Washington Post*, March 25, 2004, DZ03; Meier and Rudwick, *Black History and the Historical Profession, 1915–1980*, 8.
17. Arnett G. Lindsay, "Dr. Woodson as a Teacher," *Negro History Bulletin* (May 1950): 183, 191; Lorenzo D. Turner, [Untitled brief memoir of Woodson at Howard], *Negro History Bulletin* (July 1965); see also Carter Woodson, "Negro Life and History in Our Schools," *JNH* (July 1919): 273–80.
18. Charles H. Wesley, "Carter G. Woodson" (1951), 20; F.J.C. Sumner, book review, "The History of the Negro Church," *JNH* (April 1922): 223–24; Hampton Institute speech cited in Meier and Rudwick, chapter 1, "Carter G. Woodson as Entrepreneur," 9; Rayford Logan, "Carter Godwin Woodson" (1950), 346; Janken, *Rayford Logan*, 88–89; W.E.B. Du Bois, "A Portrait of Carter G. Woodson," *Masses & Mainstream* (June 1950): 21–22.
19. Goggin, *Carter G. Woodson*, 66. See also Ronald Roach, "Keeping a Legacy from Crumbling," *Black Issues in Higher Education* (February 13, 2003); and Rudi Williams, "'Father of Black History' House Named National Historic Site," February 3, 2004, www.newsblackhistory.htm.
20. "Spartan-like existence" see Rayford Logan, *Carter G. Woodson* (1945), 320–21; "servant of the people": *Mis-Education of the Negro*, 131; Langton Hughes, "When I Worked for Dr. Woodson," *Negro History Bulletin* (May 1950): 188; Arnold Rampersad, *The Life of Langston Hughes* I, 100–101, 140; and Rampersad, "Langston Hughes in Washington, D.C.," National Portrait Gallery *Profile* (Winter 2001).
21. Woodson dictation style: Hank Chase, "Carter G. Woodson's Home," *American Visions* (February 2000), citing interview with former CGW secretary, Mary Pearl Dougherty; Williams Dissertation, 43–44, citing Alexander L. Jackson, "Greetings to the Association of the Study of African American Life and History on its Golden Anniversary," 1999, 14; (Tribute from the residence of the Phyllis Wheatley YWCA), "The Death of the Founder," *Negro History Bulletin*, Editorial (May 1950); 170 and 176; for background on the Phyllis Wheatley YWCA (originally the Colored Young Women's Christian Association) see Sandra Fitzpatrick and Maria R. Goodwin, *The Guide to Black Washington*, revised edition (New York: Hippocrene Books, 1999).
22. Citations drawn from Scally, *Bio-Bibliography*, 12; *Mis-education of the Negro*, 2–6, 54–56.
23. David Levering Lewis, *W.E.B. Du Bois* II, 356–57; Peter Novick, *That Noble Dream*, 76, 475–76; John Hope Franklin, "On the Evolution of Scholarship in Afro-American History," in Darlene Clark Hine, ed., *The State of Afro-American History: Past, Present, and Future* (1986), 13–15.
24. Goggin, *Carter G. Woodson*, 69; Williams, Dissertation, 110, note 265; Meier and

Rudwick, 10–12; Woodson, "Some Things Negroes Need to Do," in James L. Conyers, Jr., ed., *Historical Reader*, 133–36; Associated Publishers promotional brochure for *The Negro in Our History*, [iv].

25. *The Negro in Our History*, 1–474 passim.
26. Goggin, *Carter G. Woodson*, 69, note 8; Williams, Dissertation, 110; Alain Locke, "The Negro in Our History," *Journal of Negro History* (January 1927): 99–101; *The Negro in Our History*, 802–803.
27. Woodson, "Annual Report of the Director," 1922–23 and 1923–24, *JNH* (October 1923) and (October 1924); L. D. Reddick, "As I Remember Woodson," *The Crisis* (February 1953): 75–80; Charles Whitaker, "Schomburg Celebrates Its 75th Anniversary," *Ebony* (November 2000).
28. Woodson, *Mis-Education*, 187, 109–110. See also Woodson, introductions to each chapter of *Negro Orators and Their Orations* (1925); and Molefi Kete Asante's attribution of Woodson's direct influence in "The Afrocentric Idea in Education," *Journal of Negro Education* 60, no.2 (1991): 170–180.
29. Carter G. Woodson, "Negro History Week," *JNH* (April 1926): 238–42; John Hope Franklin et al., "Black History Month," *Journal of Blacks in Higher Education*, no. 18 (Winter, 1997–1998): 87–92; Meier and Rudwick, 10; Letitia W. Brown, "Why and How the Negro in History," *Journal of Negro Education* (Autumn, 1969): 447–52; Williams, Dissertation, 37–38, 102–5, citing Patricia W. Romero, "Carter G. Woodson: A Biography," (Unpub. Dissertation, Ohio State University, 1971), 148–50; and "Bulletin of General Information, Home Study Department of the Extension Division of the ASNLH Associated Publishers (n.d.); L. D. Reddick, "Twenty-Five Negro History Weeks," *Negro History Bulletin* (May 1950): 178–79, 188.
30. W. E. B. Du Bois, ed. David Levering Lewis, *Black Reconstruction*, 724, 735; Du Bois, *Dusk of Dawn* (1940), 702; David W. Blight, "W.E.B. Du Bois and the Struggle for American Historical Memory," in Genevieve Fabre and Robert O'Meally, eds., *History and Memory in African-American Culture* (1994), 45, 63; Du Bois, "A Portrait of Carter G. Woodson," *Masses & Mainstream* (June 1950): 23. See also John Hope Franklin's tribute to Woodson in "The New Negro History," *JNH* 42 no. 2 (April 1957): 89–97.
31. Alain Locke, ed., *The New Negro* (1925, 1992), with an Introduction by Arnold Rampersad, ix, xi, xxv–xxvii, 3–4. Grateful acknowledgment to Dr. Michael Winston for his advice in steering me to the important essay by Benjamin Quarles, "Black History's Diversified Clientele," in *Black Mosaic* (1988): 204–205, 212–13. Biographical essay and bibliography on Alain Locke, www.africawithin.com/bios/alain_locke.html; Carter G. Woodson, *The Mind of the Negro* 2, 159.
32. John Haynes Holmes, "On Presenting the Spingarn Medal," *The Crisis* (September 1926): 231–34.
33. Darlene Clark Hine, "Carter G. Woodson, White Philanthropy and Negro Historiography," *The History Teacher* XIX no. 3 (May 1986): 406, 409 412–13, 416; Janken, *Rayford Logan*, "Bad Negro with a Ph.D.," 89; "traducers," see Charles H. Wesley, "Carter G. Woodson—as a Scholar," 23; Scally, *Bio-Bibliography*, 14–19; Logan, "Carter Godwin Woodson" (1950): 347; on the 1936–38 WPA project, see George P. Rawick, ed., *The American Slave: A Composite Autobiography* (Westport, Connecticut:

Greenwood Press), 1972–1979; Jacqueline Goggin, *Carter G. Woodson*, Epilogue, "His Cause Was the Presentation of the Truth," 208.

34. Prof. Richard A. Goldsby, quoting Martin Luther King Jr. in a symposium sponsored by the *Journal of Blacks in Higher Education* (October 18, 2004), "Gunnar Myrdal's An *American Dilemma: Do Whites Still Wish That Blacks Would Simply Go Away?*"

10. THE MARSHALL PLAN

1. Neustadt and May, *Thinking in Time*, 247–48.
2. George C. Marshall Foundation brochure, *The Marshall Plan Speech*, n.d.
3. Stimson, cited in Alistair Cooke, "Letter from America"; Marshall, "Nobel Prize Acceptance Speech," www.nobel.se/peace/laureates/1953.
4. For details of George Marshall's life and military career ascendancy, I am grateful to two sources: Forrest C. Pogue, *George C. Marshall, Interviews and Reminiscences*; and Larry I. Bland's biographical narrative, "Early life and background, education, influences," George C. Marshall Foundation Web site, www.marshallfoundation.org/about_gcm/secy_of_state.html; for "worn out friends," see Kennan, *Memoirs 1925–1950*, 351.
5. Mark A. Stoler, *George C. Marshall*, provides a lucid treatment of the shifting military and political dynamics in the World War II years before and after America joined the conflict. See Stoler, 70ff., and his judicious citings from Bland, ed., *Marshall Papers* II.
6. Larry I. Bland, biographical narrative; Forrest C. Pogue, *Interviews and Reminiscences*, responses by GCM, November 15, 1956, 343–45, and February 11, 1957, 424–25; Stoler, *George C. Marshall*, 89, 109–12, and 212, note 35, citing Robert E. Sherwood, *Roosevelt and Hopkins, an Intimate History* (1949), 803; also, Pogue, *George C. Marshall: Statesman*, 21–23.
7. Drew Middleton, Foreword, in Pogue, *George C. Marshall: Statesman*, x; Tony Judt's insightful Introduction to Martin Schain, ed., *The Marshall Plan*, 2–3, 9: "In the light of the European continent's rather uncertain trajectory since 1989, one thing is clear," Judt writes. "Western Europe in 1947 had a stroke of extraordinary good fortune."
8. Katherine Marshall's bitter remarks, Pogue, *Marshall: Statesman*, 29–30; David McCullough, *Truman*, 141, 533–35.
9. Larry I. Bland, *Marshall Narrative*, 7ff.
10. McCullough, *Truman*, 533–34; Pogue, *Marshall: Statesman* 144–45.
11. Dean Acheson, *Sketches from Life*, 153–54; and *Present at the Creation*, 140–42; James Chace, "An Extraordinary Partnership," *Foreign Affairs* (June 1997).
12. Tony Judt, in Schain, 3–5; Imanuel Wexler, *The Marshall Plan Revisited*, 4–6; Scott Jackson, "Prologue to the Marshall Plan," *Journal of American History* (March 1979): 1047–49 and note 16.
13. Jackson, ibid.; text of February 22, 1947, Princeton speech, in Pogue, *Marshall: Statesman*, Appendix, 523–25.
14. Gregory Fossedal and Bill Mikhail, "A Modest Magician: Will Clayton and the Rebuilding of Europe," *Foreign Affairs* (May/June 1997); Gregory Fossedal, *Our Finest Hour: Will Clayton, the Marshall Plan, and the Triumph of Democracy*, 216–19.

15. Thomas G. Paterson, *Soviet-American Confrontation*, 3, 26–28; NATO "Update" Web site, www.nato.int/docu/update/45-49/1947e.htm; Ferald J. Bryan, 491–92.
16. For the enlightening "hanger with many hooks" metaphor, I am indebted to Thomas G. Paterson, ibid., 28; Walter Isaacson and Evan Thomas, *The Wise Men*, 96, 411–13; Charles Bohlen, "Marshall, an Outstanding Secretary," *Witness to History*, 258–61, 268, 271: "[Marshall] gave a sense of purpose and direction. He had a power of command that I have never seen equaled," wrote Bohlen. "It is he whom I remember with the greatest admiration."
17. Gregory Fossedal, *Our Finest Hour*, 220; Bohlen, *Witness to History*, 262–63; Acheson, *Sketches from Life*, 156; Joseph Marion Jones, "The Lessons of Moscow," *The Fifteen Weeks*, 214–23.
18. Roy E. Foulke, typescript memorandum of interview with General Marshall, October 30, 1952, item 1, www.trumanlibrary.org/whistlestop/study_collections/marshall/large/folder7/mpgl, in the digitized manuscript collections of the Truman Presidential Museum and Library; Pogue, *Marshall: Statesman*, xi; Kennan, *Memoirs 1925–1950*, 325; Jones, ibid., 223.
19. Foulke memorandum of Marshall comments, ibid., item 4: "I took only a few intimate advisors into my confidence during the preparation of the European Recovery Program plan"; Pogue, *Interviews and Reminiscences*, GCM comments, 561–63, November 20, 1956; Ferald J. Bryan, "GCM at Harvard," *Presidential Studies Quarterly* (Summer, 1991), 490–91; summary analysis of Kennan's February 1946 "Long Telegram" in Ronald Steel, *Walter Lippmann*, 433, 443–45; Kennan, *Memoirs 1925–1950*, 325–326, 347, 356; Kennan, "Mr. X Speaks," May 1999 interview with Bob Guldin, *Foreign Service Journal* (February 2004). 14, 18–20. "If I have any hero," the ninety-five-year-old Kennan said in the course of the conversation with Guldin, "it was George Marshall."
20. Acheson, *Present at the Creation*, 227; Paterson, *Soviet-American Confrontation*, 28; Jackson, "Prologue to the Marshall Plan," 1056–58; Joseph Marion Jones, "Design for Reconstruction," May 20, 1947, and "Memorandum," July 2, 1947, Collection of the Truman Library, op. cit.; Fossedal, *Our Finest Hour*, 221–22; Bonds, *Bipartisan Strategy*, 19.
21. Fossedal, *Our Finest Hour*, 223–28, citing Ross J. Pritchard, "William L. Clayton," Ph.D. thesis, Fletcher School of Law and Diplomacy, 1955, 296–98; Wexler, *Marshall Plan Revisited*, 4.
22. Kennan, *Memoirs*, *1925–1950*, 328–41, 352; "*create* . . . *destroy* . . . ," emphasis Kennan's, in the second (1950–1963) volume of his *Memoirs*, 90.
23. Bonds, *Bipartisan Strategy*, 20–21; Acheson, *Present at the Creation*, 231; Kennan, *Memoirs*, *1925–1950*, 342; Bohlen, *Witness to History*, 263–64; Jones, *The Fifteen Weeks*, 254; Roy E. Foulke, Truman Library Interview with GCM, op.cit.; Pogue, *Marshall: Statesman*, 209–10.
24. Acheson, *Present at the Creation*, 141, and *Sketches from Life*, 159; Bohlen, *Witness to History*, 268.
25. Bohlen, *Witness to History*, 265; Acheson, *Sketches from Life*, 157; regarding the intention of Marshall's advisory staff to "correct . . . the misimpressions that had been created in connection with the Truman Doctrine," see Kennan, *Memoirs*, *1925–1950*, 341; Ar-

mand Cleese and Archie Epps, eds., *The Fortieth Anniversary of the Marshall Plan*, 20; Foulke memorandum of interview with GCM, Truman Presidential Library Archives, October 30, 1952, op. cit.; Forrest C. Pogue, GCM *Interview*, November 20, 1956, 559–60: GCM said, "Will you stop the machine" [tape recorder]? Pogue: "Here he said turn it off and then said: 'I made the speech without telling the president. . . .' Of course he knew what we were doing and we were thinking along the same line . . ." See also John Bledsoe Bonds, *Bipartisan Strategy*, 21–24, citing Bohlen's "Oral History" in Truman Presidential Library; on Marshall neglecting to brief Truman beforehand and his subsequent apology to the president: National Archives document RG59, 711.00/6–1947, "Memorandum of Interview with the President" by GCM dated June 16, 1947.

26. Charles P. Kindleberger, "Memorandum for the files: origins of the Marshall Plan," July 1948, in *Marshall Plan Days*, 25–26; Walt W. Rostow, "Lessons of the [Marshall] Plan," *Foreign Affairs* (May/June, 1997): 205–6. Text of "The Marshall Plan Speech," published by the George C. Marshall Foundation, Lexington, Virginia, n.d.
27. Osgood, *Ideals and Self-Interest*, 429–39, 450. For a contemporary approach to the issues broached by Osgood, see Isaacson and Thomas, *The Wise Men*, 407; and on "pragmatic idealism," see Robert Kagan, *Of Paradise and Power*, 76–79, 95.
28. For audience response, see Laird Bell ('04), president of the Harvard Alumni Association, cited in John T. Bethell ('54), "The Ultimate Commencement Address," *Harvard Magazine* (May–June 1997); Fossedal, op. cit., "Summer 1947, From Marshall's Speech to a Plan"; Pogue, *Interviews and Reminiscences*, vii, and taped remarks of November 19, 1956, 527; Isaacson and Thomas, op. cit., 410; Larry I. Bland, Marshall biographical narrative at www.marshallfoundation.org; Walter Lippmann's fourteen-article series of "Cold War" columns ran in September and October 1947 and may be found at www.academic.brooklyn.cuny.edu/history/johnson/lippcoldwar.htm.
29. Introduction, "For European Recovery: The Fiftieth Anniversary of the Marshall Plan," Library of Congress Exhibition, 1997; "technology transfer," Charles S. Maier, "From Plan to Practice," *Harvard Magazine* (May–June 1997); "lubricant" also per Maier, cited in David Reynolds, "The European Response," *Foreign Affairs* (May–June 1997); Hadley Arkes, *Bureaucracy, The Marshall Plan, and the National Interest*, 42, 135; Bohlen, *Witness to History*, 266; on American "hegemony," see Harry B. Price, *Marshall Plan*, 5, and Maier, *In Search of Stability: Explorations in Historical Political Economy*, 148–49, and, citing Will Clayton, 122, note 3; Scott Parrish, "Soviet Reaction to the Marshall Plan: Opportunity or Threat?" in *Problems of Post-Communism* (September–October 1995); Bonds, "Europe Responds," *Bipartisan Strategy*, 37–42.
30. GCM to Forrest Pogue, *Interviews and Reminiscences*, November 19, 1956, 527; GCM in Foulke memorandum, October 30, 1952; Charles L. Mee Jr., *The Marshall Plan*, 236; Harry R. Price, *Marshall Plan and Its Meaning*, 327, 408; Bonds, *Bipartisan Strategy*, 26–30.
31. Isaacson and Thomas, op. cit., 399; Bohlen, op. cit., 267; Bonds, ibid., 32; Pogue, ibid., 527, and Foulke memorandum; Acheson, op. cit., 223.
32. Harry B. Price, *Marshall Plan and Its Meaning*, 61–63; Arthur H. Vandenberg Jr. with the collaboration of Joe Alex Morris, "The Marshall Plan," *The Private Papers of Senator Vandenberg*, 373–98.

33. Price, ibid., 223–25; William C. Foster, quoted in United States Economic Cooperation Administration booklet, *Three Years of the Marshall Plan*, 1–3; GNP statistics from Charles S. Maier, "Plan to Practice," 4; Otto Zausmer, *The Marshall Plan*, 4–6; McCullough, *Truman*, 583, and 1033 note citing *Off the Record, the Private Papers of Harry S. Truman*, 133.
34. Pogue, *Marshall: Statesman*, 505–6; Andrew J. Goodpaster, "George Marshall's World, and Ours," *New York Times* Op-Ed page, Thursday, December 11, 2003. General Goodpaster, chairman emeritus of the George C. Marshall Foundation, was supreme allied commander of NATO from 1969 to 1974; "George C. Marshall—Essentials to Peace," in Frederick W. Haberman, ed., *Nobel Peace Lectures, 1951–1970*, Amsterdam, 1972.
35. Alistair Cooke, *Letter from America*, Monday, December 9, 2002, "The Marshall Plan," www.news.bbc.co.uk/1/hi/world.

المراجع

Paying close attention to the most recent scholarship in the ten ideals and their proponents, I also took great pleasure in tracking down vintage works of history, Enlightenment, and Victorian antiques. Isaac Newton wrote in 1676 to the experimental biologist Robert Hooke: "If I have seen further than others it is because I have stood on the shoulders of giants." This is how I feel about the multitude of distinguished writers represented in this Bibliography, lengthy for a book of moderate size. It is offered as a launching platform for further exploration into the lessons of our past for the meanings of our present.

Acheson, Dean. *Present at the Creation: My Years in the State Department.* New York: W. W. Norton, 1969.

———. *Sketches from Life of Men I Have Known.* New York: Harper, 1961.

Adams, Elsie Bonita. *Israel Zangwill.* New York: Twayne English Authors Series, 1971.

Adams, Ephraim D. *The Power of Ideals in American History.* New Haven: Yale University Press, 1913.

Addams, Jane. "The College Woman and the Family Claim." *Commons*, no. 29 (September 1898).

———. "Comment on 'How Would You Uplift the Masses?'" Ladies Night, Forty-second meeting of the Sunset Club, Chicago, February 4, 1892. *Sunset Club Yearbook, 1891–1892.* Chicago: Privately printed, 1892.

———. *Democracy and Social Ethics.* Edited and with an introduction by Anne Firor Scott. Cambridge: A John Harvard Library Book, Belknap Press of Harvard University Press, 1964.

———. *Democracy and Social Ethics.* Edited and with an introduction by Charlene Haddock Seigfried. Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 2002.

———. *Democracy and Social Ethics: A Syllabus of a Course of Twelve Lectures.* Chicago: pamphlet, State Historical Society of Wisconsin, Anita McCormick Blaine Papers, 1899.

———. (Joint author with "Residents of Hull-House, a Social Settlement") *Hull-House Maps and Papers: A Presentation of Nationalities and Wages in a Congested District of Chicago, Together with Comments and Essays on Problems Growing Out of the Social Conditions*. New York: Thomas Y. Crowell, Library of Economics and Politics, 1895.

———. *The Long Road of Woman's Memory*. Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 2002.

———. *The Spirit of Youth and the City Streets*. Urbana: University of Illinois Press, 1972 edition of 1909.

———. *Twenty Years at Hull-House*. Edited with an introduction by Victoria Bissell Brown. Boston and New York: Bedford/St. Martin's, 1999.

———. *Twenty Years at Hull-House*. New York: Signet Books, 1961.

Adiv, Udi. "The Jewish Question and the Zionist Movement." Return Magazine, no. 5 (December 1990).

Adler, Cyrus. *Selected Letters, Volume One*. Edited by Ira Robinson. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1985.

Aldridge, Alfred Owen. *Man of Reason: The Life of Thomas Paine*. Philadelphia and New York: J.B. Lippincott, 1959.

Allen, Gay Wilson. *Waldo Emerson: A Biography*. New York: Viking Press, 1981.

Ameriks, Karl, ed. *The Cambridge Companion to German Idealism*. New York: Cambridge University Press, 2000.

Andelson, Robert V., ed. *Critics of Henry George: A Centenary Appraisal of Their Strictures on Progress and Poverty*. New Jersey: Associated University Presses, Cranbury, 1979.

Anderson, John Q. "Emerson's 'Young American' as Democratic Nobleman." *American Transcendental Quarterly*, no. 9 (Winter 1971).

Appiah, Kwame Anthony, and Henry Louis Gates Jr., eds. *Africana: The Encyclopedia of the African and African American Experience*. New York: Basic Civitas Books, 1999.

Arkes, Hadley. *Bureaucracy, The Marshall Plan, and the National Interest*. Princeton: Princeton University Press, 1972.

Ashley W. J. "Introduction to John Stuart Mill." *Principles of Political Economy*. 7th ed. Edgbaston, September 1909.

Atkins, Scott. *The Puritan Tradition and American Memory*. The Capitol Project, American Studies Group, University of Virginia. http://xroads.virginia.edu/Cap/Puritan.html.

Ayer, A. J. *Thomas Paine*. Chicago: University of Chicago Press, 1990.

Bailyn, Bernard. *The Ideological Origins of the American Revolution*. Cambridge: Harvard University Press, 1992.

———. *On the Teaching and Writing of History*. Hanover, New Hampshire: University Press of New England, 1994.

Baritz, Loren. *City on a Hill: A History of Ideas and Myths in America*. New York: John Wiley & Sons, 1964.

Barker, Charles Albro. *Henry George*. New York: Oxford University Press, 1955.

Barnes, Peter. "Reconsiderations: Progress and Poverty." *New Republic* (December 11, 1971).

Beard, Charles and Mary, and their son, William Beard. *New Basic History of the United States*. New York: Doubleday, 1944, 1960.

Bercovich, Sacvan. *The American Jeremiad*. Madison: University of Wisconsin Press, 1978.

Berger, Peter L. *Invitation to Sociology: A Humanistic Perspective*. New York: Anchor Books, 1963.

Bernstein Richard B., with Kym S. Rice. *Are We to be a Nation? The Making of the Constitution*. New York: Harvard University Press, Cambridge and London, in cooperation with The New York Public Library, 1987.

Bethell, John T. "The Ultimate Commencement Address: The Making of George C. Marshall's 'Routine' Speech." *Harvard Magazine* (May–June 1997).

Birnbaum, Jeffrey H. "A Mideast Marshall Plan?" *Fortune* magazine. (October 13, 2002).

Blaug, Mark. *Henry George, 1839–1897*. Aldershot, Hants., England: E. Elgar Publishers, 1992.

Bloom, Harold. *The American Religion*. New York: Simon & Schuster, 1992.

Bohlen, Charles E. *Witness to History: 1929–1969*. New York: W. W. Norton, 1973.

Boime, Albert. *The Magisterial Gaze: Manifest Destiny and American Landscape Painting, 1830–1865*. Washington: Smithsonian Institution Press, 1991.

Bonds, John Bledsoe. *Bipartisan Strategy: Selling the Marshall Plan*. Westport: Praeger, 2002.

Boorstin, Daniel I., ed. *An American Primer*. New York: Meridian Books, 1995.

Bozeman, Theodore Dwight. "The Puritans' 'Errand into the Wilderness' Reconsidered." *New England Quarterly* 59, no. 2 (June 1986): 231–51.

Bremer, Francis J. *John Winthrop: America's Forgotten Founding Father*. New York: Oxford University Press, 2003.

Bridenbaugh, Carl, and Jessica. *Rebels and Gentlemen: Philadelphia in the Age of Franklin*. New York: Oxford University Press, 1962.

Brock, William R. *Conflict and Transformation: The United States, 1844–1877*. New York: Penguin Books, 1973.

Brooks, Albert N. D. "Dr. Woodson the Inspiration." *Negro History Bulletin*, (December 1956).

Brown, Gordon. "The Marshall Plan for the Next 50 Years." *Washington Post*, December 17, 2001.

Brown, Letitia W. "Why and How the Negro in History." *Journal of Negro Education*, XXXVIII, no. 4. (Autumn 1969).

Brown, Victoria Bissell. *The Education of Jane Addams*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2004.

———. "Jane Addams" in Rima Lunin Schultz and Adele Hast, eds. *Women Building Chicago 1790–1990*. Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 2001.

Bryan, Ferald. "George C. Marshall at Harvard: A Study of the Origins and Construction of the 'Marshall Plan' Speech." *Presidential Studies Quarterly* XXI, no. 3 (Summer 1991).

Bryan, Mary Lynn McCree. "The First Year of Hull-House, 1889–1890, in Letters by Jane Addams and Ellen Gates Starr." *Chicago History Magazine*. I (Fall 1970).

———. et al. *The Jane Addams Papers: A Comprehensive Guide*. Bloomington: Indiana University Press, 1996.

———. *The Jane Addams Papers, 1860–1960*. Ann Arbor, Michigan: University Microfilms International, 1984. Collection of The New York Public Library.

"Building Countries, Feeling Generous." *Economist* 363, issue 8279 (June 29, 2002).

Burke, Edmund. Isaac Kramnick, ed. *The Portable Edmund Burke*. New York: Penguin Books, 1999.

Bury, J. B. *The Idea of Progress*. London: Macmillan, 1920.

Carlyle, Thomas and Ralph Waldo Emerson. *Correspondence, Volume I*. Boston: James R. Osgood and Company, 1883.

Carson, Mina. *Settlement Folk: Social Thought and the American Settlement Movement, 1885–1930*. Chicago and London: University of Chicago Press, 1990.

Cawelti, John G. *Apostles of the Self-Made Man: Changing Concepts of Success in America*. Chicago: University of Chicago Press, 1965.

Charles Booth (1840–1916), a Biography. London School of Economics Library, www.booth.lse.ac.uk/ststic/a/2.html.

Chase, Hank. "Carter G. Woodson's Home." *American Visions* (February 2000).

Clarke, Samuel Belcher. "The Single Tax and the Impôt Unique: Comment." *Quarterly Journal of Economics* 3 (April 1891): 57–59.

Clesse, Armand, and Archie C. Epps, eds. *Present at the Creation: The Fortieth Anniversary of the Marshall Plan*. New York: Harper & Row, 1990.

Cobb, Montague. "Carter Godwin Woodson, PhD, 1875–1950: The Father of Negro History." *Journal of the National Medical Association* 62 (September 1970).

Cobb, William Jelani. "Heavy Lifting as We Climb." www.africana.com/articles/daily/index. (February 1, 2001).

Cohen, Naomi W. *Jacob H. Schiff: A Study in American Jewish Leadership*. Hanover and London: Brandeis University Press/University Press of New England, 1999.

Conway, Moncure D. *The Life of Thomas Paine*. New York: Arno Press, 1977 edition of 1892.

Conyers Jr., James L., ed. *Carter G. Woodson: A Historical Reader*. New York and London: Garland Publishing, 2000.

———. "A Tribute to Carter G. Woodson." *Black Issues in Higher Education*. n.p., February 13, 2003.

Cooke, Alistair. "The Marshall Plan." *Letter from America*. BBC, December 9, 2002. news.bbc.co.uk/1/hi/world/letter_from_america.

Cressy, David. "The Vast and Furious Ocean: The Passage to Puritan New England." *New England Quarterly* 57, no. 4 (December 1984): 511–32.

Cristensen, John. "Black History Month Edges into the Mainstream: Carter G. Woodson's dream continues to grow." CNN Interactive. www.cnn.com/specials/1999/blackhistory/overview.

Crunden, Robert M. *Ministers of Reform: The Progressives' Achievement in American Civilization, 1889–1920*. Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 1984.

Curti, Merle. "Jane Addams on Human Nature." *Journal of the History of Ideas* (April–June 1961): 240–53.

Darlington, Sonja. "Who Was Jane Addams?" *Beloit College Magazine* (Spring 2003).

Davis, Allen F. *American Heroine: The Life and Legend of Jane Addams*. Chicago: Ivan R. Dee, 1973, 2000.

Dawson, Hugh J. "John Winthrop's Rite of Passage: The Origins of the 'Christian Charitie' Discourse." *Early American Literature* XXVI, no. 3 (1991): 219–31.

Day, Aidan. *Romanticism*. London and New York: Routledge, 1996.

Decker, Jeffrey Louis. *Made in America: Self-Styled Success from Horatio Alger to Oprah Winfrey*. University of Minnesota Press, Minneapolis: 1997.

Deegan, Mary Jo. "The Feminist Pragmatism of Jane Addams." Edited by Mary Ann Romano. *Lost Sociologists Rediscovered*. Lewiston, New York: Edwin Mellen Press, 2002.

———. *Jane Addams and the Men of the Chicago School, 1892–1918*. New Brunswick, New Jersey: Transaction Books, 1986.

Delbanco, Andrew. *The Real American Dream: A Meditation on Hope*. Cambridge and New York: Harvard University Press, 1999.

Descriptive Catalogue of the Du Simitière Papers in the Library Company of Philadelphia. Philadelphia: Historical Records Survey, Division of Professional and Service Projects, Works Projects Administration, April 1940.

Detwiler, Donald S. "The Definitive Biography of George C. Marshall." *Journal of Military History* 53 (July 1989).

Deutsch, Monroe E. "E Pluribus Unum." *Classical Journal* XVIII (April 1923): 387–407.

De Voto, Bernard. *The Year of Decision: 1846*. Boston: Little, Brown, 1943.

Dewey, John. *An Appreciation of Henry George, October 1927*. www.cooperativeindividualism.org/dewey_on_henry_george.html.

Diamond, Sigmund, ed. *The Nation Transformed: The Creation of an Industrial Society*. New York: George Braziller, 1963.

Diliberto, Gioia. *A Useful Woman: The Early Life of Jane Addams*. New York: A Lisa Drew Book/Scribner, 1999.

Donaghy, Elisabeth. *Pierre Eugène du Simitière, Unsuccessful Civil and Natural Historian in Revolutionary America*. Unpublished MA Dissertation, University of Delaware, Newark, 1970.

D'Souza, Dinesh. *What's So Great About America*. New York: Penguin Books, 2003.

Du Bois, W.E.B. *Black Reconstruction in America: 1860–1880*. Introduction by David Levering Lewis. New York: Free Press, 1992 edition of 1935.

———. *Dusk of Dawn: An Essay Toward a Biography of a Race Concept*. (New York: Harcourt, Brace, 1940). In *Writings*. Library of America, 1986.

———. "The Journal of Negro History." Editorial. *The Crisis* XIII (December 1916).

———. "A Portrait of Carter G. Woodson." *Masses & Mainstream* III, (June 1950).

Duignan, Peter, and Lewis H. Gann. "The Marshall Plan." Hoover Institution. *Hoover Digest*, no. 4 (1997).

Dulles, Allen W. Edited and with an introduction by Michael Walla. *The Marshall Plan*. Providence: Berg, 1993.

Dunn, Richard S. "John Winthrop Writes His Journal." *William and Mary Quarterly 3rd Series*. Vol. 41, no.2 (April 1984): 185–212.

Dunn, Richard S., and Laetitia Yeandle, eds. *The Journals of John Winthrop, 1630–1649*. Cambridge: Harvard University Press, 1996.

Dyck, Ian, ed. *Citizen of the World: Essays on Thomas Paine*. New York: St. Martin's Press, 1988.

Eagleton, Terry. *Ideology*. New York and London: Verso Books, 1991.

Economic Cooperation Administration. *Three Years of the Marshall Plan*. Washington, D.C., 1951.

Eliot, George. *Romola*. New York: Modern Library, 2003 edition of 1878.

Ellis, Joseph J. *Founding Brothers: The Revolutionary Generation*. New York: Alfred A. Knopf, 2000.

Ellwood, David. "You Too Can Be Like Us." *History Today* 48, Issue 10 (October 1998).

Elshtain, Jean Bethke, ed. *The Jane Addams Reader*. New York: Basic Books, 2002.

Emerson Ralph Waldo. *Essays and Lectures*. New York: Library of America, 1983.

———. *Journals and Miscellaneous Notebooks of Ralph Waldo Emerson, Volume V: 1835–1838*. Edited by Merton M. Sealts Jr. et al. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1965.

———. *Journals and Miscellaneous Notebooks of Ralph Waldo Emerson, Volume VI: 1824–1838*. Edited by Ralph H. Orth, et al. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1966.

———. *Journals and Miscellaneous Notebooks, Volume VII, 1838–1842*, edited by William H. Gilman, Alfred R. Ferguson, et al. Cambridge: Belknap Press of Harvard Univeristy Press, 1969.

———. *Journals and Miscellaneous Notebooks, Volume VIII, 1841–1843*, edited by William H. Gilman, J. E. Parsons, et al. Cambridge: Belknap Press of Harvard Univeristy Press, 1970.

The European Reconstruction, 1948–1961, a Bibliography on the Marshall Plan and OEEC. Organization for European Economic Cooperation, Paris, 1996.

Fabre, Genevieve, and Robert O'Meally, eds. *History and Memory in African-American Culture*. New York: Oxford University Press, 1994.

Farrell, John C. *Beloved Lady: A History of Jane Addams' Ideas on Reform and Peace*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1967.

Fein, Isaac M. "Israel Zangwill and American Jewry." *American Jewish Historical Quarterly*, LX, no. 1 (September 1970).

Fein, Leonard. "One Big Step for Diversity." *The Forward*. Op-Ed page. (February 7, 2002).

Fiennes, Lord Charles, and/or Lady Arbella Fiennes Johnson. The Humble Request. Signed April 7, 1630 at Yarmouth, England. http://www.winthropsociety.org/doc_humble.php.

Fischer, Marilyn. *On Addams*. Toronto: Wadsworth Philosophers Series, 2004.

FitzGerald, Frances. *America Revised: History Schoolbooks in the Twentieth Century*. New York: Vintage Books, 1980.

Foner, Eric. *Tom Paine and Revolutionary America*. New York: Oxford University Press, 1976.

———. *Who Owns History?* New York: Hill and Wang, 2002.

———, ed. *The New American History*. Philadelphia: Temple University Press, 1997.

Fonseca, Goncalo L., and Leanne J. Ussher, eds. New School History of Economic Thought Web Site: www.cepa.newschool.edu/het/.

Fontaine, William T. "'Social Determination' in the Writings of Negro Scholars." *American Journal of Sociology* (January 1944).

Fossedal, Gregory. *Our Finest Hour: Will Clayton, The Marshall Plan, and the Triumph of Democracy*. Stanford: Hoover Institution Press, 1993.

Foulke, Roy E. "Interview with General George C. Marshall, 30 October 1952." www.trumanlibrary.org/study_collections/marshall.

Franklin, Benjamin. *The Autobiography of Benjamin Franklin*. Edited by Leonard W. Labaree, Ralph L. Ketcham, et al. Foreword by Edmund S. Morgan. New Haven: Yale University Press, 2003.

Franklin, John Hope. "The New American History." *Negro Digest* (February 1967).

———. "The New Negro History." *Journal of Negro History* XLII, no. 2 (April 1957).

———. "On the Evolution of Scholarship in Afro-American History." In Hine et al., 1986.

———. "The Place of Carter G. Woodson in American Historiography." *Negro History Bulletin* (May 1950).

———, et al., "Black History Month: Serious Truth Telling or a Triumph in Tokenism?" *Journal of Blacks in Higher Education*, no. 18 (Winter 1997–8).

Franklin, Vincent P. "Changing Historical Perspectives on Afro-American Life and Education." In Franklin and James D. Anderson, eds. *New Perspectives on Black Educational History*. Boston: G. K. Hall, 1978.

Fresonke, Kris. *West of Emerson: The Design of Manifest Destiny*. Berkeley: University of California Press, 2003.

Gaddis, John Lewis. *The Landscape of History*. New York: Oxford University Press, 2002.

George, Henry. *The Condition of Labour*. New York: Robert Schalkenbach Foundation, 1935.

———. *Progress and Poverty: The Remedy*. New York: Doubleday, Page, 1879.

———. "What the Railroad Will Bring Us." *Overland Monthly*, I, no. 4 (October 1868).

———. "The Chinese in California." *New-York Daily Tribune*, May 1, 1869, 1–2.

———. *Moses and the Crime of Poverty*. New York: International Joseph Fels Commission, 1918.

———. *Our Land and Land Policy*. Edited by Kenneth Wenzer. Lansing: Michigan State University Press, 1999 edition of 1871.

———. *Science of Political Economy*. New York: Robert Schalkenbach Foundation, 1962 edition of 1897.

———. "The Single Tax: What It Is and Why We Urge It." *Christian Advocate* (1890).

———. *Social Problems*. New York: Doubleday, Page, 1883.

———. *Testimony Before the Senate Committee on the Relations Between Labor and Capital* Washington, D.C.: 1883: www.progress.org/archive/hginter1–4.htm.

———. *Throwing His Hat in the Ring: Henry George Runs for Mayor*. Acceptance speech for the United Labor Party, Cooper Union, New York City, October 5, 1886: www.historymatters.gmu.edu/d/5321.

George Jr., Henry. *The Life of Henry George*. Garden City, N.Y.: Doubleday, Page & Company, 1911.

Gide, Charles. "The Single Tax and the Impôt Unique." *Quarterly Journal of Economics* 4 (July 1891): 494–95.

Gimbel, John. *The Origins of the Marshall Plan*. Stanford: Stanford University Press, 1976.

Glazer, Nathan, and Daniel Patrick Moynihan. *Beyond the Melting-Pot: The Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City*. Cambridge, Massachusetts: MIT Press and Harvard University Press, 1963.

Gleason, Philip. "The Melting-Pot: Symbol of Fusion or Confusion?" *American Quarterly*, XVI, no. 1 (Spring 1964): 20–46.

Goggin, Jacqueline. *Carter G. Woodson: A Life in Black History*. Baton Rouge and London: Louisiana State University Press, 1993.

Goodpaster, Andrew J. "George Marshall's World, and Ours." *New York Times*, Op-Ed page, December 11, 2003.

Goren, Arthur A. *New York Jews and the Quest for Community: The Kehillah Experiment, 1908–1922*. New York and London: Columbia University Press, 1970.

Graebner, Norman, ed. *Manifest Destiny*. New York: Bobbs-Merrill, 1968.

Gray, Stanley. "The Political Thought of John Winthrop." *New England Quarterly* III (1930): 681–705.

Grose, Peter, ed. "Marshall Plan Commemorative Section: The Marshall Plan Reconsidered." *Foreign Affairs* (May/June 1977).

Guldin, Bob. "Mr. X Speaks: An Interview with George Kennan." *Foreign Service Journal* no.13 (February 2004).

Habegger, Alfred. *My Wars Are Laid Away in Books: The Life of Emily Dickinson*. New York: Modern Library, 2002.

Halmi, Nicholas et al., ed. *Coleridge's Poetry and Prose*. New York: W. W. Norton, 2004.

Harris, Kenneth Marc. *Carlyle and Emerson: Their Long Debate*. Cambridge: Harvard University Press, 1978.

Hawke, David Freeman. *Paine*. New York: W. W. Norton, 1974.

Haynes, Sam W. and Christopher Morris, eds. *Manifest Destiny and Empire: American Antebellum Expansion*. College Station: Texas A&M University Press, 1997.

Heilbroner, Robert L. *The Worldly Philosophers: The Lives, Times and Ideas of the Great Economic Thinkers*. Updated and Revised 7th ed. New York: Touchstone/Simon & Schuster, 1999.

Herberg, Will. *Protestant Catholic Jew: An Essay in American Religious Sociology*. Chicago: University of Chicago Press, 1955.

Hertzberg, Arthur, ed. *The Zionist Idea*. Philadelphia: Jewish Publication Society, 1997.

Higham, John. *From Boundlessness to Consolidation: The Transformation of American Culture, 1848–1860*. Ann Arbor: University of Michigan, William L. Clements Library, 1969.

———. *Send These to Me: Jews and Other Immigrants in Urban America*. New York: Atheneum, 1975.

———. *Strangers in the Land: Patterns of American Nativism, 1860–1925*. New Brunswick: Rutgers University Press, 1955.

Himmelfarb, Gertrude. *Poverty and Compassion: The Moral Imagination of the Late Victorians*. New York: Vintage Books, 1992.

Hine, Darlene Clark. "Carter G. Woodson, White Philanthropy and Negro Historiography." *History Teacher* XIX, no. 3 (May, 1986).

———, ed. Introduction by Thomas C. Holt. *The State of Afro-American History: Past, Present and Future*. Baton Rouge and London: Louisiana State University Press, 1986.

Hitchcock, William I. *The Struggle for Europe*. New York: Anchor Books, 2003.

Hofstadter, Richard. *The Age of Reform*. New York: Vintage Books, 1955.

———. *The American Political Tradition and the Men Who Made It*. New York: Random House, 1948, 1973.

———, Clarence L. Ver Steeg, and Beatrice K. Hofstadter, eds. *Great Issues in American History, 1584–1776*. New York: Vintage Books, 1958, 1982.

Hogan, Michael J. *The Marshall Plan: America, Britain, and the Reconstruction of Europe, 1947–1952*. Cambridge: Cambridge University Press, 1987.

Holmes, John Haynes. "On Presenting the Spingarn Medal." *The Crisis* XXXII, (September 1926).

Holt, Thomas C. "African American History." In Eric Foner, ed., *The New American History*. Philadelphia: Temple University Press, 1997.

Horsman, Reginald. *Race and Manifest Destiny: The Origins of American Racial Anglo-Saxonism*. Cambridge: Harvard University Press, 1981.

Howe, Irving. *World of Our Fathers: The Journey of the East European Jews to America and the Life They Found and Made*. New York and London: Harcourt Brace Jovanovich, 1976.

Hudson, Linda S. *Mistress of Manifest Destiny: A Biography of Jane Mc Manus Storm Cazneau, 1807–1878*. Austin: Texas State Historical Association, 2001.

Hughes, Langston. "When I Worked for Dr. Woodson." *Negro History Bulletin* (May 1950).

Huntington, Samuel P. "The Hispanic Challenge." *Foreign Policy*. Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace (March/April 2004).

Huth, Hans. "Pierre Eugène Du Simitière and the Beginnings of the American Historical Museum." *Pennsylvania Magazine of History and Biography*, LXIX (October 1945): 315–25.

Hutson, James H. *Religion and the Founding of the American Republic*. Washington, D.C.: University Press of New England/Library of Congress, 1998.

Isaacson, Walter. *Benjamin Franklin: An American Life*. New York: Simon & Schuster, 2003.

———, and Evan Thomas. *The Wise Men: Six Friends and the World They Made*. New York: Simon & Schuster, 1986.

Jackson, Alexander L. "Carter D. Woodson." *Negro History Bulletin* (July 1965).

Jackson, Scott. "Prologue to the Marshall Plan." *Journal of American History*, no. 65 (1979): 1043–68.

Jacoby, Tamar, ed. *Reinventing the Melting-Pot: The New Immigrants and What It Means to Be American*. New York: Basic Books, 2004.

James, Henry. "Ralph Waldo Emerson," in *Literary Criticism: American Writers*. New York: Library of America, 1984.

James, William. *Writings, 1878–1899*. New York: Library of America, 1992.

Janken, Kenneth R. "Rayford Logan: The Golden Years." *Negro History Bulletin* (July–December 1998).

———. *Rayford W. Logan and the Dilemma of the African-American Intellectual*. Amherst: University of Massachusetts Press, 1993.

Johannsen, Robert, W., et. al. *Manifest Destiny and Empire: American Antebellum Expansion*. Arlington: Texas A&M University Press, 1997.

Johnson, Edgar A. J. "Economic Ideas of John Winthrop." *New England Quarterly* 3, no. 2 (April 1930): 235–50.

Johnson, Elwood. *The Pursuit of Power: Studies in the Vocabulary of Puritanism*. New York: American University Studies Series VII, Peter Lang Publishing, 1995.

Johnson, Kenneth M. "Progress and Poverty: A Paradox." *California Historical Society Quarterly* (March 1963).

Jones, Joseph Marion. "'Design for Reconstruction,' Proposed Address for Secretary Marshall, June 1947, drafted May 20, 1947." Collection Truman Presidential Museum and Library. www.trumanlibrary.org/study_collections/marshall.

———. *The Fifteen Weeks: An Inside Account of the Genesis of the Marshall Plan.* New York: Harcourt Brace, 1955.

———. "Memorandum: Secretary of State's Harvard Speech of June 1947, filed July 2, 1947." www.trumanlibrary.org/study_collections/marshall.

Kagan, Robert. *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order.* New York: Alfred A. Knopf, 2003.

Kahn-Paycha, Daniele. *Popular Jewish Literature and Its Role in the Making of an Identity.* Lewiston, N.Y.: Edwin Mellen Press, 2000.

Kallen, Horace M. *Culture and Democracy in the United States.* New York: Boni and Liveright, 1924.

———. "The Issues of War and the Jewish Position." *The Nation* (November 29, 1917).

Kammen, Michael. *Mystic Chords of Memory: The Transformation of Tradition in American Culture.* New York: Random House, 1991.

Keane, John. *Tom Paine: A Political Life.* New York: Grove Press, 1995.

Kennan, George F. *Memoirs, 1950–1963.* London: Hutchinson, 1973.

———. *Memoirs, 1925–1950.* Boston: Little, Brown, 1967.

Kennedy, Lisa. "Persistence of Memory: Scholars Create an African-American Canon." *Village Voice Literary Supplement* (April 2001).

Kindleberger, Charles P. *Marshall Plan Days.* Boston: Allen & Unwin, 1987.

Kohn, Hans. *American Nationalism: An Interpretative Essay.* New York: Macmillan, 1957.

Kramnick, Isaac, ed. *The Portable Enlightenment Reader.* New York: Penguin Books, 1995.

Kurata, Phil. "Congressmen Propose Marshall Plan for Middle East." United States Department of State Communique, July 24, 2002.

Landes, David S. *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor.* New York: W. W. Norton, 1999.

Lasch, Christopher. *The New Radicalism in America, 1889–1963: The Intellectual as a Social Type.* New York: Alfred A. Knopf, 1965.

———, ed. *The Social Thought of Jane Addams.* New York: Bobbs-Merrill American Heritage Series, 1965.

Lears, T. J. Jackson. *No Place of Grace: Antimodernism and the Transformation of American Culture, 1880–1920.* New York: Pantheon Books, 1981.

Leftwich, Joseph. *Israel Zangwill.* New York and London: Thomas Yoseloff, 1957.

Lemon M. C. *Philosophy of History.* London and New York: Routledge, 2003.

Lengermann, Patricia Madoo, and Jill Niebrugge-Brantley, eds. *The Women Founders: Sociology and Social Theory.* Boston: McGraw-Hill, 1998.

Lewis, David Levering. *W. E. B. Du Bois: Biography of a Race, 1868–1919.* New York: Henry Holt, 1993.

———. *W. E. B. Du Bois: The Fight for Equality and the American Century, 1919–1963.* New York: Henry Holt, 2000.

Lewis, R. W. B. *The American Adam: Innocence, Tragedy and Tradition in the Nineteenth Century*. Chicago: University of Chicago Press, 1955.

Lindsay, Arnett G. "Dr. Woodson as a Teacher." *Negro History Bulletin* (May 1950).

Link, Arthur S., and Richard L. McCormick. *Progressivism*. Wheeling, Illinois: Harlan Davidson, 1983.

Lippmann, Walter. "The Cold War." Reprint of excerpts from "Today & Tomorrow" series of fourteen articles, September–October 1947, in *Foreign Affairs* 65, no. 4 (Spring 1987).

———. *Drift and Mastery*. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall, 1914, 1961.

Locke, Alain. Edited and with an introduction by Arnold Rampersad. *The New Negro*. New York: Simon & Schuster, 1992 edition of 1925.

———. Review of "The Negro in Our History." *Journal of Negro History* XII, no. 1, (January 1927).

Locke, Robinson. Scrapbooks 483 (microfilm), and ser. 2, vol. 311. The New York Public Library, Billy Rose Theatre Collection.

Logan, Rayford W. "Carter G. Woodson: Mirror and Molder of his Time, 1875–1950." *Journal of Negro History* LVIII, no. 1 (January 1973).

———. "Carter Godwin Woodson." *Journal of Negro History* XXXV, no. 3 (July 1950).

———. "The Death of the Founder." *Negro History Bulletin* (May 1950).

———. "*Phylon* Profile VI: Carter G. Woodson." *Phylon* VI, no. 4 (1940–56, Fourth Quarter, 1945).

———, ed., with Michael R. Winston. *Dictionary of American Negro Biography*. New York: W. W. Norton, 1982.

Lopez, Michael. *Emerson and Power: Creative Antagonism in the Nineteenth Century*. De Kalb: Northern Illinois University Press, 1996.

Lougee, Wendy et al., eds. "The Nineteenth Century in Print: The Making of America in Books and Periodicals." Consortium of Library of Congress, University of Michigan Library, and Cornell University Library. www.memory.loc.gov/ammem/ndlpcoop/moahtml/ncpabout.html.

Lowenberg, Bert James. *American History in American Thought: Christopher Columbus to Henry Adams*. New York: Simon & Schuster, 1972.

Lukacs, John. *At the End of an Age*. New Haven: Yale University Press, 2002.

———. *Historical Consciousness: The Remembered Past*. New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 1985.

Lyles, Dorothy E. "Carter Godwin Woodson: Father of Black History." A *Bio-Bibliography*. The Vivian G. Harsh Research Collection of Afro-American History and Literature, Chicago Public Library, Woodson Regional Library, February 2000.

Mac Einri, Piaras. "States of Becoming: Is there a 'here' here and a 'there' there?: Some reflections on home, away, displacement and identity." Irish Centre for Migration Studies, University College Cork (December 2002), www.migration.ucc./ie.

Maier, Charles S. *In Search of Stability: Explorations in Historical Political Economy*. New York: Cambridge University Press, 1987.

Mann, Arthur. *The One and the Many: Reflections on the American Identity*. Chicago and London: The University of Chicago Press, 1979.

Marr II, Warren. "Black History." *The Crisis* (April 1975).

Marshall, George C. *The Marshall Plan Speech, June 5, 1947*. Lexington, Virginia: George C. Marshall Foundation, n.d.

Matthiessen, F. O. *American Renaissance: Art and Expression in the Age of Emerson and Whitman*. New York: Oxford University Press, 1941.

Mayo, Louise A. *The Ambivalent Image: Nineteenth-Century America's Perception of the Jew*. Rutherford, New Jersey: Fairleigh Dickenson University Press, 1988.

Mays, Benjamin E. "I Knew Carter G. Woodson." *Negro History Bulletin* (January–March 1981).

McCullough, C. Behan. *The Truth of History*. London and New York: Routledge, 1998.

McCullough, David. *John Adams*. New York: Simon & Schuster, 2001.

———. *Truman*. New York: Simon & Schuster, 1992.

Mee, Jr., Charles L. *The Marshall Plan: The Launching of the Pax Americana*. New York: Simon & Schuster, 1984.

Meier, August, and Elliott Rudwick. *Black History and the Historical Profession, 1915–1980*. Urbana and Chicago: University of Illinois Press, 1986.

Mendes-Flohr, Paul, and Jehuda Reinharz, eds. *The Jew in the Modern World: A Documentary History*. New York and Oxford: Oxford University Press, 1995.

Merk, Frederick. *Manifest Destiny and Mission in American History*. Cambridge: Harvard University Press, 1963.

Mill, John Stuart. Edited by Jonathan Riley. *Principles of Political Economy*. New York: Oxford University Press, 1994.

———. *North American Review*. "On Liberty." [review] 97, no. 200 (July 1863).

———. *Principles of Political Economy*. [review] 98, no. 202 (January 1864).

Miller, Perry. *Errand into the Wilderness*. Cambridge: Harvard University Press, 1956, 1984.

———. *The Raven and the Whale: Poe, Melville, and the New York Literary Scene*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1997.

———. *The Responsibility of Mind in a Civilization of Machines*. Amherst: University of Massachusetts Press, 1979.

———. *The Transcendentalists: The Classic Anthology*. Cambridge: Harvard University Press, 1950.

———, ed. *American Thought, Civil War to World War I*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1954.

———. *The American Transcendentalists: Their Prose and Poetry*. New York: Doubleday Anchor Books, 1957.

———. *The American Puritans: Their Prose and Poetry*. New York: Doubleday Anchor Books, 1956.

Miscamble, Wilson D. "Generation 'X.'" *Wall Street Journal*, February 24, 2004.

Moore, Dorothea. "A Day at Hull-House." *American Journal of Sociology* II, no. 5 (March 1897).

Morgan, Edmund S. "John Winthrop's 'Modell of Christian Charity' in a Wider Context." *Huntington Library Quarterly* 50 (Spring 1987): 145–51.

———. *The Puritan Dilemma: The Story of John Winthrop*. 2nd ed. New York: Addison Wesley Longman, 1999.

———. *Visible Saints: The History of a Puritan Idea.* Ithaca: Cornell University Press, 1963.
Morison, Samuel Eliot. *Builders of the Bay Colony.* Boston: Northeastern University Press, 1981 edition of 1930.
Morris, Edmund. *The Rise of Theodore Roosevelt.* New York: Modern Library, 2001.
Moseley, James G. *John Winthrop's World: History as a Story, The Story as History.* Madison: University of Wisconsin Press, 1992.
Myerson, Joel, ed. *The Selected Letters of Ralph Waldo Emerson.* New York: Columbia University Press, 1997.
Myrdal, Gunnar. *An American Dilemma: The Negro Problem and Modern Democracy.* New Brunswick: Transaction Publishers, 1996 edition of 1944 original.
Neilson, Francis. "Henry George, The Scholar." Commencement Address Delivered at the Henry George School of Social Science, June 3, 1940. www.cooperativeindividualism.org/neilson_on_henry_george.html.
Neustadt, Richard E. and Ernest R. May. *Thinking In Time: The Uses of History for Decision-makers.* New York: Free Press, 1986.
Nevins, Allan. *Ordeal of the Union, Volume I: Fruits of Manifest Destiny, 1847–1852.* New York: Charles Scribner's Sons, 1947.
Niebuhr, Richard, "The Idea of Covenant and American Democracy." *Church History,* no. 23 (June 1954): 126–35.
Novak, Barbara. *Nature and Culture: American Landscape and Painting, 1825–1875.* Revised Edition. New York: Oxford University Press, 1995.
Novick, Peter. *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession.* New York: Cambridge University Press, 1988.
Orosz, Joel J. *The Eagle That Is Forgotten: Pierre Eugène du Simitière, Founding Father of American Numismatics.* Wolfeboro, New Hampshire: Bowers & Merena Galleries, 1988.
———. "Pierre Eugène du Simitière: Museum Pioneer in America." *Museum Studies Journal,* I no. I (Spring 1985): 11–21.
Oser, Jacob. *Henry George.* New York: Twayne Publishers, 1974.
Osgood, Robert Endicott. *Ideals and Self-Interest in America's Foreign Relations: The Great Transformation of the Twentieth Century.* Chicago: University of Chicago Press, 1953.
O'Sullivan, John L. *United States Magazine and Democratic Review.* "The Democratic Principle," (October: 1837); "The Great Nation of Futurity," (November, 1839); "Emerson's Essays" (June 1845); "Annexation" (July–August 1845).
———. *New York Morning News.* [editorial] "The True Title" (December 27, 1845); [Letter] (January 5, 1846).
Paine, Thomas. Collected Writings. New York: Library of America, 1995.
———. *Common Sense.* New York: Penguin Books, 1976.
———, ed. *The Pennsylvania Magazine, or, American Monthly Museum.* Bound volumes I and II January 24, 1775–July, 1776 [ceased publication].
Palgrave, R. H. I. ed. *Dictionary of Political Economy.* London: Macmillan and Company, 1894–99.
Parrington, V. L. *Main Currents in American Thought.* New York: Harcourt, Brace, 1930.
———. *The Colonial Mind, 1620–1800.* New York: Harvest Books, 1927, 1954.
Parrish, Scott. "Soviet Reaction to the Marshall Plan: Opportunity or Threat?" *Problems of Post-Communism* 42, Issue 5 (September–October 1995).

Paterson, Thomas G. *Soviet-American Confrontation: Postwar Reconstruction and the Origins of the Cold War*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973.

Patterson, Richard S. and Richardson Dougall. *The Eagle and the Shield: A History of the Great Seal of the United States*. American Revolution Bicentennial Administration, Washington, D.C. 1976.

Paul, Sherman. *Emerson's Angle of Vision: Man and Nature in American Experience*. Cambridge: Harvard University Press, 1952.

Perry, Ralph Barton. *The Thought and Character of William James*. New paperback edition with an introduction by Charlene Haddock Seigfried. London: Vanderbilt University Press, 1948, 1996.

Peter Force Collection, *Papers of Pierre Eugène Du Simitière*. Five volumes. Library of Congress, Special Collections, Manuscript Reading Room.

Phillips, Kevin. *Wealth and Democracy*. New York: Broadway Books, 2002.

Pierre-Eugène du Simitière: His American Museum 200 Years After. Library Company of Philadelphia Exhibition Catalogue, July–October 1985.

Pletcher, David M. *The Diplomacy of Annexation: Texas, Oregon and the Mexican War*. Columbia: University of Missouri Press, 1973.

Pogue, Forrest C. *George C. Marshall: Statesman, 1945–1959*. New York: George C. Marshall Foundation/Penguin Books, 1989.

———. *George C. Marshall Interviews and Reminiscences*. George C. Marshall Foundation, Lexington, Virginia, 1996.

Potts, William John. "Du Simitière, Artist, Antiquary, and Naturalist, Projector of the First American Museum, with Some Extracts from His Notebook." *Pennsylvania Magazine of History and Biography* XIII, (1889): 341–75.

Pratt, Julius W. "John L. O'Sullivan and Manifest Destiny." *New York History* XIV, no. 3 (July 1933) 213–34.

———. "The Origin of 'Manifest Destiny.'" *American Historical Review* XXXII (1927): 795–98.

Price, Harry B. *The Marshall Plan and Its Meaning*. Ithaca, Cornell University Press, 1955.

Quaife, Milo Milton, ed. *Diary of James K. Polk During His Presidency, 1845–1849, Volumes I–IV*. Chicago: A. C. McClurg, 1910.

Quarles, Benjamin. "Black History's Diversified Clientele." In *Black Mosaic: Essays in Afro-American History and Historiography*. Amherst: University of Massachusetts Press, 1988.

Rader, Benjamin G. *The Academic Mind and Reform: The Influence of Richard T. Ely in American Life*. Lexington: University of Kentucky Press, 1966.

Ramonet, Ignacio. "Time for a New Marshall Plan." *Le Monde Diplomatique*, June 1997.

Rampersad, Arnold. *The Life of Langston Hughes, Volume 1*, 1902–1941. New York: Oxford University Press, 1986.

Reade, Winwood. *The Martyrdom of Man*. New York: A.K. Butts, 1874.

Reddick, Lawrence D. "As I Remember Woodson." *The Crisis* (February 1953); reprinted in *Negro History Bulletin* (November 1953).

———. "Twenty-Five Negro History Weeks." *Negro History Bulletin* (May 1950).

Ricks, Christopher, and William L. Vance, eds. *The Faber Book of America*. London and Boston: Faber & Faber, 1992.

Riis, Jacob. *How the other Half Lives: Studies Among the Tenements of New York*. Edited by Luc Sante. New York: Penguin Books, 1997.

Riley, Woodbridge. *American Thought from Puritanism to Pragmatism*. New York: Henry Holt, 1915.

Roberts, Geoffrey. "Moscow and the Marshall Plan: Politics, Ideology and the Onset of the Cold War, 1947." *Europe-Asia Studies* 46, Issue 8 (1994).

Rochelson, Meri-Jane. "Israel Zangwill and Children of the Ghetto." *Judaism*, Winter 1999.

Rose, Edward J. *Henry George*. New York: Twayne United States Authors Series, 1968.

Rostow, Walt. "Lessons of the Plan." *Foreign Affairs* 76, no. 3 (May–June 1997).

Roth, Samuel, and Israel Zangwill. *Now and Forever: A Conversation on the Jew and the Future*. New York: Robert M. McBride, 1925.

Rousseau, Jean-Jacques. Translated by Maurice Cranston. *The Social Contract*. New York: Penguin Books, 1968.

Rusk, Ralph L. *The Life of Ralph Waldo Emerson*. New York: Charles Scribner's Sons, 1949.

Ruskin, John. *The Political Economy of Art; Unto this Last; Sesame and Lilies; The Crown of Wild Olive*. London: Macmillan, 1912.

Russell, Annie. Papers. Manuscripts and Archives Division. New York Public Library. Correspondence from Edith Ayrton Zangwill and Israel Zangwill to Annie Russell, 1904–1914.

Rutman, Darrett B. *John Winthrop's Decision for America: 1629*. Philadelphia: J. B. Lippincott Company, 1975.

Salter, Arthur. *The Meaning of the Marshal Plan, Now and in 1952*. London: E. Benn, 1948.

Sampson, Robert D. *John L. O'Sullivan and His Times*. Kent, Ohio: Kent State University Press, 2003.

Sawyer, Rollin Alger. *Henry George and the Single Tax: A catalogue of the collection in The New York Public Library*. New York: The New York Public Library, 1926.

Scally, Sister Mary Anthony. *Carter G. Woodson: A Bio-Bibliography*. Westport, Connecticut: Greenwood Press, 1985.

———. "The Carter Woodson Letters in the Library of Congress." *Negro History Bulletin* (June–July 1975).

———. "The Philippine Challenge." *Negro History Bulletin* (January–March, 1981).

———. "Woodson and the Genesis of ASALH." *Negro History Bulletin* (January–February 1977).

Schain, Martin, ed., Introduction by Tony Judt. *The Marshall Plan: Fifty Years After*. New York: Palgrave, 2001.

Scharf, J. Thomas, and Thompson Westcott. *History of Philadelphia 1609–1884*. Philadelphia: 1884.

Scheiber, Jane L., and Robert C. Elliott, eds. *In Search of the American Dream*. New York: New American Library, 1974.

Schlesinger Jr., Arthur M. *The Age of Jackson*. Boston: Little, Brown, 1945.

Schultz, Rima Lunin, ed. *Urban Experience in Chicago: Hull-House and Its Neighborhoods, 1889–1963*. Chicago: University of Illinois at Chicago and Jane Addams Hull-House Museum: www.uic.edu/jaddams/hull/urbanexp.

Schumpeter, Joseph A. Edited from manuscript by Elizabeth Boody Schumpeter. *History of Economic Analysis*. Boston: George Allen & Unwin, 1954.

Schweninger, Lee. *John Winthrop*. Boston: Twayne Publishers, 1990.
Sellars, Charles G. *James K. Polk*. 2 vols. Princeton: Princeton University Press, 1966.
"Settlers in the City Wilderness." Atlantic Monthly Review of Hull-House Maps and Papers (January 1896).
Shapiro, Aharon H. "Moses: Henry George's Inspiration." *American Journal of Economics and Sociology* (December 2001).
Siegenthaler, John. *James K. Polk*. New York: Times Books/Henry Holt, 2003.
Siegfried, Charlene Haddock. "Socializing Democracy: Jane Addams and John Dewey." *Philosophy of the Social Sciences* XXIX, no. 2, June 1999, 207–30.
Sifton, Paul G. *Pierre-Eugène du Simitière: Collector in Revolutionary America* (Unpub. Diss., University of Pennsylvania, Graduate School of Arts and Sciences, 1960).
Sklar, Kathryn Kish. "Hull House in the 1890s: A Community of Women Reformers." *Signs* X, no. 4 (1985): 658–77.
Smith, Adam. *Wealth of Nations*. Amherst, New York: Prometheus Books Great Minds Series, 1991.
Smith, Henry Nash. *Virgin Land: The American West as Symbol and Myth*. Cambridge: Harvard University Press, 1950.
Smith, Page. *A New Age Now Begins: A People's History of the American Revolution*. New York: McGraw-Hill, 1976.
Sorin, Gerald. *The Jewish People in America, A Time for Building: The Third Migration, 1880–1920*. Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1992.
Sowell, Thomas. *A Conflict of Visions*. New York: Basic Books, 2002.
Stamps, James, E. "Fifty Years Later." *Negro History Bulletin* (November 1965).
Steel, Ronald. "George Kennan at 100." *New York Review of Books*, April 29, 2004.
———. "Playing Loose with History," *New York Times*, May 26, 1997.
———. *Walter Lippmann and the American* Century. New York: Vintage Books, 1981.
Stember, Charles Herbert, ed. *Jews in the Mind of America*. New York: Basic Books, 1966.
Stephanson, Anders. *Manifest Destiny: American Expansion and the Empire of Right*. New York: Hill and Wang, 1995.
Stern, Susan. "The Marshall Plan 1947–1997, A German View." Germany Online. www.germany-info.org.
Stiglitz, Joseph. *Globalization and Its Discontents*. New York: W. W. Norton, 2002.
Stoler, Mark A. *George C. Marshall: Soldier-Statesman of the Twentieth Century*. New York: Twayne Publishers, 1989.
Szmyd, Jan. "War, Peace and Human Rights: On the Social-Legal and Philosophic Views of Thomas Paine." *Dialectics and Humanism*, no. 4 (1983): 207–23.
Teilhac, Ernest. Translated by E. A. J. Johnson. *Pioneers of American Economic Thought in the Nineteenth Century*. New York: Macmillan, 1936.
Tims, Margaret. Jane Addams of Hull House, 1860–1935: A Centenary Study. New York: Macmillan, 1961.
Tocqueville, Alexis de. Translated and edited by Harvey C. Mansfield and Delba Winthrop. *Democracy in America*. Chicago: University of Chicago Press, 2000.
Tolstoy, Leo. Translated by Aylmer Maude. *What Then Must We Do?* London: Oxford University Press, 1935.

Turner, Frederick Jackson. *The Frontier in American History*. New York: Dover Publications, 1996, reprint of Henry Holt and Company, 1920.

Tuveson, Ernest Lee. *Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role*. Chicago: University of Chicago Press, 1968.

Udelson, Joseph H. *Dreamers of the Ghetto: The Life and Works of Israel Zangwill*. Tuscaloosa and London: University of Alabama Press, 1990.

Updike, John. "O *Beautiful for Spacious Skies*." Review of the *American Sublime* Exhibition at the Pennsylvania Academy of Fine Arts, Philadelphia (June–August 2002), *New York Review of Books* (August 15, 2002).

Vandenberg Jr., Arthur H, and Joe Alex Morris. *The Private Papers of Senator Vandenberg*. Boston: Houghton Mifflin, 1952.

Van Doren, Carl. *Benjamin Franklin*. New York: Penguin Books, 1966.

Van Leer, David. *Emerson's Epistemology*. New York: Cambridge University Press, 1986.

von Ranke, Leopold. Roger Wines, ed. *The Secret of World History*. New York: Fordham University Press, 1981.

Weber, Max. *The Protestant Ethic and the 'Spirit' of Capitalism, and Other Writings*. Translated and edited by Peter Baehr and Gordon C. Wells. New York: Penguin Books, 2002.

Webster, William G., ed. *A Sequel to Webster's Elementary Spelling Book: or A Speller and Definer*. Philadelphia: J. B. Lippincott, July 1845.

Weinberg, Albert K. *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History*. Chicago: Quadrangle Books, 1963.

Wentholt, Wyger. *The Marshall Plan and Its Chance of Success*. Amsterdam, The Netherlands, 1947.

Wenzer, Kenneth C. *An Anthology of Henry George's Thought*. Rochester, N.Y.: University of Rochester Press, 1997.

Wesley, Charles H. "Carter G. Woodson—As a Scholar." *Journal of Negro History* XXXVI, no. 1 (January 1951).

Wexler, Imanuel. *The Marshall Plan Revisited: The European Recovery Program in Economic Perspective*. Westport: Greenwood Press, 1983.

Wheen, Francis. *Karl Marx: A Life*. New York: W. W. Norton, 2001.

Whicher, Stephen E., ed. *Selections from Ralph Waldo Emerson: An Organic Anthology*. Boston: Houghton Mifflin, 1960.

Whitaker, John K. "Henry George and Classical Growth Theory: A Significant Contribution to Modeling Scale Economies." *American Journal of Economics and Sociology* (January 2000).

White, Hayden. *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1975.

Whiteside, Walker. "The Story of a Play." *Chicago Record Herald*, January 24, 1909.

Whitman, Walt. *Leaves of Grass*. Edited and with an introduction by Malcolm Cowley. New York and London: Penguin Books, 1959.

Widmer, Edward L. *Young America: The Flowering of Democracy in New York City*. New York: Oxford University Press, 1999.

Williams, Alvin L. *Carter G. Woodson: Scientific Historian of African-American History and Education*. Unpublished Ph.D. Dissertation. Loyola University of Chicago, 1994.

Williamson, Audrey. *Thomas Paine: His Life, Work and Times*. London: George Allen & Unwin, 1973.

Wilson, Edmund. "Hull-House in 1932," in *The American Earthquake*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 1958.

Wilson, Jerome D., and William F. Ricketson. *Thomas Paine*. Boston: Twayne Publishers, 1989.

Wilson, Theodore A. *The Marshall Plan, 1947–1951*. New York: Foreign Policy Association, 1977.

Wilson, Woodrow. "The Ideals of America." *The Atlantic Monthly* XC (December 1902) 721–34.

Winston, Michael R. "Carter Godwin Woodson: Prophet of a Black Tradition." *Journal of Negro History*, LX no. 4 (October 1975).

Wistrich, Robert S. "Zionism and Myths of Assimilation." *Midstream* (August/September 1990).

Wohlgelerntner, Maurice. *Israel Zangwill*. New York: Columbia University Press, 1964.

Wolfe, Alan. *One Nation, After All*. New York: Penguin Books, 1998.

Wood, Allen W., editor and introduction. *Basic Writings of Kant*. New York: Modern Library, 2001.

Wood, Gordon S. *The American Revolution: A History*. New York: Modern Library, 2002.

Woodson, Carter G. "The Celebration of Negro History Week, 1927." *Journal of Negro History* XII, no. 2 (April 1927).

———. *A Century of Negro Migration*. ASNLH, 1918.

———. "Early Negro Education in West Virginia." *Journal of Negro History* VII, no. 1 (January 1922).

———. *The Education of the Negro Prior to 1861*. Washington, D.C.: Associated Publishers, 1919.

———. *The Mind of the Negro as Reflected in Letters Written During the Crisis*. ASNLH, 1926.

———. *The Mis-Education of the Negro*. Washington, D.C.: Associated Publishers, 1933; Trenton: Africa World Press, Tenth Printing, 1998.

———. "My Recollections of Veterans of the Civil War." *Negro History Bulletin* (February 1944).

———. "Negro History Week." *Journal of Negro History* XI, no. 2 (April 1926).

———. "The Negro in Literature and Art." *Journal of Negro History*, III, no. 3 (July 1918).

———. *The Negro in Our History*. Washington, D.C.: Associated Publishers, 1922. Eleventh edition, edited by Charles H. Wesley, 1966.

———. "Negro Life and History in Our Schools." *Journal of Negro History*, IV, no. 3 (July 1919).

———. *Negro Orators and Their Orations*. Washington, D.C.: Association for the Study of Negro Life and History, 1925.

———. "1924 Annual Report of the Director." *Journal of Negro History* IX, no. 4 (October 1924).

———. "1922–23 Annual Report of the Director of the Association for the Study of Negro Life and History." *Journal of Negro History* VIII, no. 4 (October 1923).

———. Review of the "The History of the Negro Church." *Journal of Negro History* VII, no. 2 (April 1922).

———. "Some Things Negroes Need to Do." *Southern Workman* 51 (January 1922).

Yolles, Melanie A. A *Guide to The Henry George Papers, 1840s–1950*. New York: Manuscripts and Archives Division, The New York Public Library, March 1996.

Young, John Russell. *Men and Memories: Personal Reminiscences*. Edited by his wife, May D. Russell Young. New York and London: F. T. Neeley, 1901.

Zangwill, Israel. *Blind Children: Poems*. New York: Funk & Wagnalls, 1903.

———. *Children of the Ghetto*. London: William Heinemann, 1892; London: White Lion Publishers, reprint 1972.

———. *Dreamers of the Ghetto*. New York and London: Harper & Brothers, 1899.

———. A *Land of Refuge*. London: Jewish Territorial Organization, 1907.

———. *Manifesto and Correspondence*. London: Jewish Territorial Organization, 1905.

———. *The Melting-Pot: Drama in Four Acts*. New York: Macmillan, editions of 1909, 1914, 1926.

———. *The Melting-Pot* (Typewritten prompt-book script with manuscript notes, 1908–9). The New York Public Library, Billy Rose Theatre Collection. Liebler & Co. Records Collection.

———. "The Position of Judaism." *North American Review*, 140:461 (April 1895), 425–39.

———. *Speeches, Articles and Letters of Israel Zangwill*. Selected and edited by Maurice Simon, with a Foreword by Edith Ayrton Zangwill. London: Soncino Press, 1937.

Zausmer, Otto. "The Marshall Plan: Goals and Gains." *Boston Daily Globe*, 1950.

شكر للإذن بنشر الصور

1. **Governor John Winthrop**. School of Van Dyke. Courtesy of the American Antiquarian Society.
2. **Thomas Paine**. By William Sharp, after George Romney, 1793. Courtesy of the National Portrait Gallery, London.
3. **Design for the Great Seal of the United States**. By Pierre Eugène Du Simitière. Courtesy of the Thomas Jefferson Papers, Manuscript Division, The Library of Congress.
4. **Ralph Waldo Emerson**. By J. J. Hawes. Courtesy of the Print Collection, Miriam and Ira D. Wallace Division of Art, Prints and Photographs, The New York Public Library, Astor, Lenox and Tilden Collections.
5. **John L. O'Sullivan**. *Harper's Weekly*, 1874. Collection of The New-York Historical Society, Negative #43507.
6. **Henry George**. Courtesy of the Henry George Papers, Manuscripts and Archives Division, The New York Public Library, Astor, Lenox and Tilden Foundations.
7. **Jane Addams**. Courtesy of the Swarthmore College Peace Collection.
8. **Israel Zangwill**. Courtesy of the Dorot Jewish Division, The New York Public Library, Astor, Lenox and Tilden Foundations.
9. **Carter G. Woodson**. Courtesy of the West Virginia State Archives, Ancella Bickley Collection.
10. **George C. Marshall**. Courtesy of the George C. Marshall Research Library, Lexington, Virginia. GCMRL #1094.

Contents

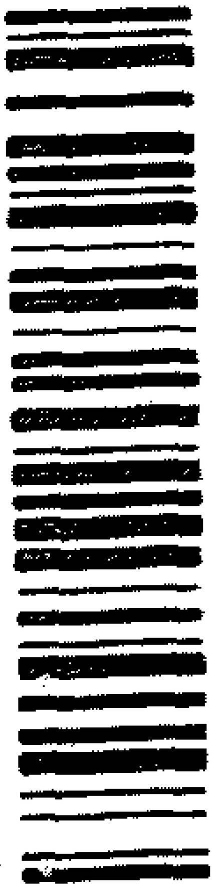
The American Revelation

by Neil Baldwin

هذا الكتاب

إن المثل العليا لا يمكن أن تتواجد بدون أشخاص مثاليين. وكتاب التجليات الأمريكية (القيم الأمريكية) يقدم التقدير والثناء للأشخاص الذين أقاموا عشرة مثل عليا أساسية فى تاريخنا ويلقى الضوء على الأزمنة التى شهدت التعبير عنها لأول مرة. وفى هذا القرن الحادى والعشرين، وأثناء كتابتى لهذه الكلمات، كثيراً ما يبدو نبض الأمة وكأنه ينبعث من دقات قلبين منفصلين. ونحن فى حاجة للعودة إلى معتقدات تثير الانتباه مما يتيح بؤرة موحدة لأفكارنا وحياتنا فى حوار ذهنى مستتير مع الماضى. إن المثل العليا العشرة التى يناقشها كتاب *القيم الأمريكية* هى الميراث الحقيقى لكل الأمريكيين.

إن كتاب *القيم الأمريكية* يلقى الضوء على الطبيعة الإنسانية لبلدنا. وعندما نقرأ كلمات هؤلاء الأبطال العشرة، قد نتساءل عما إذا كان التاريخ قد نال من مثاليتهم. ولكن اعتقادى أنه بغياب أحد المبادئ عن نظرنا فإن ذلك لا يعنى أنه لم يعد موجوداً. إن "البطولة" ليست فكرة مجردة أحادية الأبعاد، كما أن تعريف الشخصية القومية لا يأتى فقط من أعلى إلى أسفل. ويقتضى الأمر غرس معناها المشر كل مواطن على حدة ــ وكل قارئ على حدة.







الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

١٠٨١ كورنيش النيل جاردن سيتى ــ القاهرة